

فَهْءُ الْكَنِيسَةِ الْفِطِيَّةِ

وهي تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية

التي أسسها

مارموقس البشير

الكتاب الثالث

إبراهيم حبيب المصري

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الصاوي الجويني
الاسكندرية

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ٩٤٨ - ١٥١٨ م

الكتاب الثالث

طبعة ١٩٨٩

بقلم
إيريس حبيب المصرى

الإهداء

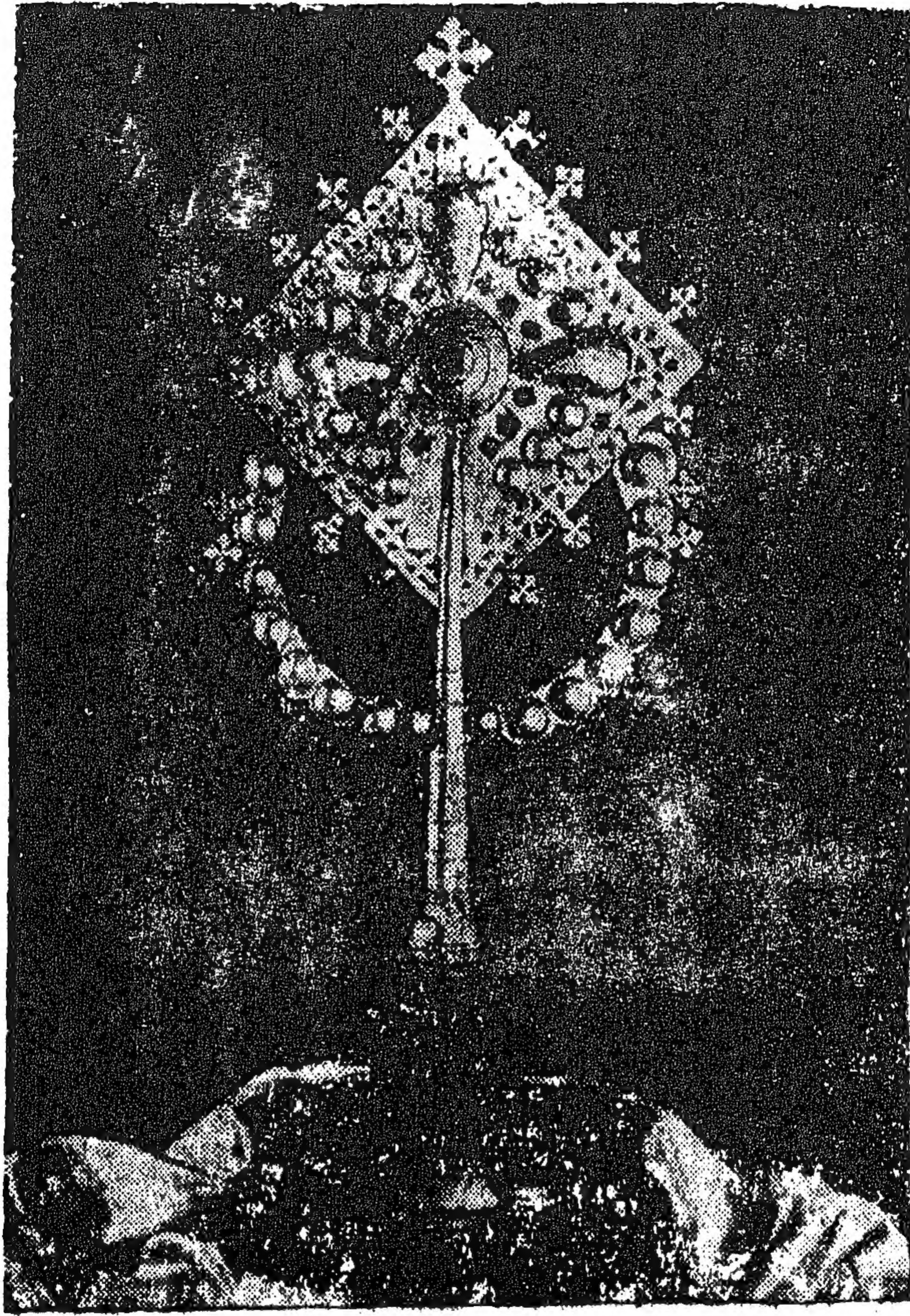
إلى أخى أمين

الذى كان يضيق صدره بالتقصير ولا ينبذ ولا يقاطع المقصر .
الذى كد ليحقق آمال غيره وأبنى نفسه ليخفف عنهم آلامهم فضحى
بآماله وتكتم آلامه
الذى أحب بدون استرسال فى الألفاظ وأبى أن يقبل فى يوم العرفان
والشكر .



المؤلفة إلى جانب أخيها الكبير الدكتور أمين حبيب المصرى

عند خرائب كنيسة مارمينا العجايبى بمربوط يوم ١٥ بؤونة سنة ١٦٧٥ ش
(٥٩/٦/٢٢) - وكان يوماً مشهوداً لأن الأنبا كيرلس السادس أقام فيه
صلوات القداس احتفاءً بذكرى الشهيد العظيم وسط جمع حاشد . كما أنه
كان اليوم المعتبر بدء عمل الترميم والتجديد الذى حققه
خليفة مارمرقس منذ السنة الأولى لارتقائه السدة البابوية .



صليب قبطى يتصدر قاعة الطعام للمدفعية الملكية الانجليزية
بمدينة نوريتش بشمال انجلترا .

الاعتراف بالفضل لذويه

كلما أنعم الله علىّ بالفرصة لاصدار جزء من قصة الكنيسة القبطية - الكنيسة التي سهرت عليها عنايته الأبوية العليا - أجدنى مغتبطة بشكره تعالى أولاً وآخرأ ؛ ثم بتقديم شكرى وعرفانى لجميع الذين مكثونى بمعاونتهم من السير فى سبيل استكمال قصة هذه الكنيسة الخالدة .

لهذا أتقدم بعظيم شكرى إلى حضرة أبينا المكرم القمص متى المسكين الذى يراجع كل ما أكتبه باهتمام بالغ ويوجهنى توجيهاته الأبوية الكريمة ويشجعنى على المضى فى الجهاد .

وأقدم كل الشكر إلى حضرة أبينا المكرم القمص بطرس سيفين لتفضله بأعارتى مجلدات « صوت الشهداء » لاستكمال بحثى .

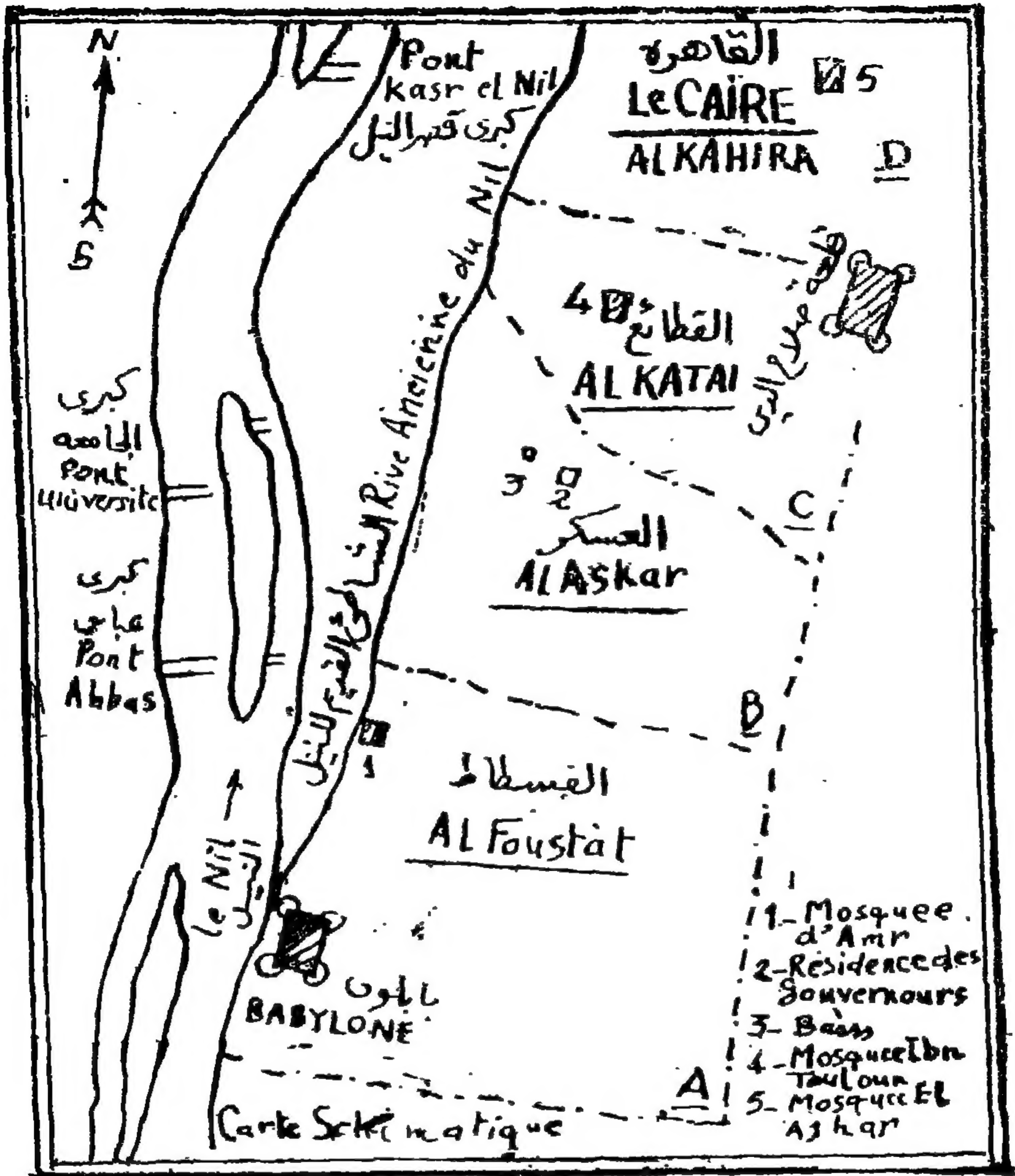
كما أبعث بشكرى إلى الدكتور فرج روفائيل لتفضله باعطائى عدد كبير من الصور .

ولا يفوتنى أن أبعث بالتحية اللاحقة إلى روح أستاذى يسى عبد المسيح فى عليائها لأن ما تركه لى من كتابات عاونتى فى الكثير من الموضوعات .

كذلك أرفع تشكراتى إلى جميع الذين شجعونى وآزرونى وعلى رأسهم حضرة أبينا المكرم القمص بيشوى كامل .

ثم أكرر شكرى لله على عنايته وفى أشخاص من عاونونى .

إيريس حبيب المصرى



خريطة تبين نمو مدينة القاهرة : فأقدم جزء فيها هو بابلون يليه
الفسطاط ، فالعسكر ، فالقطائع ، فالقاهرة التي ما زالت تمتد وتتسع

تمهيد

أن قصة الكنيسة القبطية أشبه بانسياب النيل : فكما ينساب النهر الخالد وسط وادينا الرحيب هكذا تنساب قصة الكنيسة عبر الأجيال ؛ فيمكننا أن نصفها بتلك الكلمات التي وردت في القداس الإلهي : « من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين آمين » . ولكونها شبيهة بالنهر فهي تؤلف وحدة واحدة رغم ظهورها في أجزاء - هي وحدة الروح القدس الحال فيها الموازر لها الذي يلهم مختلف أعضائها بالجهد في سبيلها . ونستطيع هنا أن نستعير كلمات بولس الرسول حين قال بأننا أعضاء في جسد ربنا يسوع المسيح فنقول بأن كل جزء من أجزاء قصة الكنيسة القبطية هو عضو في جسدها الممتد منذ نشأتها إلى مالا نهاية له .



طور جديد : ١ - الأنبا مينا الثانى

- ١- نشأة مينا ووسيلته للالتحاق بالدير .
- ٢- البحث عن موقف عروسه .
- ٣- ابوامينا يكتشفان انه راهب .
- ٤- استقرار الراى على انتخاب الراهب مينا للكرسى المرقسى .
- ٥- استعلان السر الذى بينه وبين عروسه .
- ٦- ولاية الاخشيدي .
- ٧- مزايا هذا الوالى .
- ٨- نقص الفيضان والمجاعة والحرب نقاب على المصريين .
- ٩- عدالة كافور تحبب فيه المصريين .
- ١٠- استقرار العدالة .
- ١١- موت الاخشيدي وشيوع الفوضى والمجاعة والابينة .
- ١٢- انتصار الفاطميين وتأسيس القاهرة
- ١٣- المعز لدين الله يستميل قلوب المصريين اليه .
- ١٤- استقرار العدالة .
- ١٥- دخول المعز مصر فى موكب حافل .
- ١٦- « امراة رييسة » .
- ١٧- عدالة المعز تسرى الى ولاته .
- ١٨- نياحة الانبا مينا الثانى .
- ١٩- العصر الفاطمى جمع بين الحرية الدينية والاضطهاد المريع .
- ٢٠- سماحة المعز وسخاؤه وتعلمه اللغات .
- ٢١- السيدة المرقسية تظل شاغرة سنتين .
- ٢٢- انتخاب ابرآم بن زرعة السريانى الاصل .
- ٢٣- الانبا ابرآم يستهل باباويته
- بتوزيع ماله .
- ٢٤- المناقشات الدينية فى حضرة المعز .
- ٢٥- الخليفة يطالب البابا الاسكندري بنقل جبل المقطم .
- ٢٦- نصيحة سمعان الخراز للانبا ابرآم .
- ٢٧- الجبل ينخفض ويرتفع مع السجود والوقوف .
- ٢٨- اختفاء سمعان الخراز .
- ٢٩- ازدياد تقدير المعز للانبا ابرآم .
- ٣٠- اعادة بناء كنيسة ابى السيفين .
- ٣١- تجديد الكنائس .
- ٣٢- ابو اليمن وزير قبطى للمعز .
- ٣٣- ابو اليمن يستودع ماله يدى الانبا ابرآم .
- ٣٤- اندلاع ثورة فى فلسطين .
- ٣٥- من حفر حفرة لاختيه وقع فيها .
- ٣٦- مقابلة البابا لابى اليمن ثم نياحته .
- ٣٧- سلام واستقرار .
- ٣٨- انتخاب البابا المرقسى .
- ٣٩- بنو المطيع .
- ٤٠- مدى تسامح العزيز بالله .
- ٤١- توسط ملك النوبة لمصالحة الاحباش .
- ٤٢- الشعراء يتغنون بما لا قوة من هناء فى الدير .
- ٤٣- عناية العزيز بالعلم وبرحاء الشعب .
- ٤٤- الانبا فيلوثينوس يستودع روحه فجأة أثناء القداس الالهى .
- ٤٥- جرجس المزاحم .

١ - كان الاخشيدون لا يزالون يحكمون مصر . وكان السلام مرفراً على البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فازدهرت الأديرة بالرهبان الزاهدين المثقفين . وكان بين هؤلاء الرهبان ناسك اسمه مينا من بلدة صندلا ، جعل الله منه شخصية ممتازة : فقد جمع في شخصه بين شجاعة الإيمان واستقامة الخلق وصدق العزيمة . ولما كان وحيد أبويه فقد اشتاق إلى تزويجه ليسعدا بتربية أولاده . وحين أطلعاه على رغبتهما لزم الصمت التام عملاً بوصية اكرام الوالدين . وقد فسر والداه هذا الصمت تفسيراً خاطئاً لأنهما توهما أن السكوت علامة الرضى . ومن ثم اتفقا مع أبوى كريمة من بنات أقاربهما وحددا يوم الإكليل . وظل مينا ملازماً للصمت خلال كل هذه الترتيبات ، بل استمر على صمته إلى أن تمت المراسيم الدينية . فلما انصرفت جموع المدعوين إلى حفلة العرس ، وانفرد مينا بعروسه ، أخذ يزين لها الحياة النسكية ويصف لها الرهبنة وصفاً بارعاً حتى استمالها إلى هذه الحياة القدسية العجيبة . وإذا أدرك أنها اقتنعت بأحاديثه أطلعها على ما كان يتوهم من الالتحاق بأحد الأديرة . فوافقته لساعتها على رغبته وأعلمته بأنها ستقتدى به في التبتل والتعب . فاتفق مينا إذ ذاك مع عروسه على أن يغادر بلدته في الليلة عينها إلى الصحراء ليلتحق بدير الأنبا مكاري الكبير وأن تبقى هي في البيت الذي اختاره لها دون أن تبوح لأحد بما تم بينهما .

٢ - وفي صباح اليوم التالي ذهب الأهل والأصدقاء إلى بيت مينا وعروسه ليقدما لهما التهاني والهدايا وليتمنوا لهما التوفيق من الله كما هي العادة المتبعة . وحين وصلوا إلى البيت ذهلوا إذ لم يجدوا مينا وسألوا عروسه عنه فأجابتهم بكلمة مبهمة قائلة « لقد خرج منذ بضع ساعات » فبقى البعض منهم مع العروس يواسونها على غياب عريسها الفجائي بينما خرج البعض الآخر يبحث عنه . ولما انقضت عدة أيام دون أن يعثروا له على أثر توهم أبواه وأقاربه بأنه قد انتقل من هذا العالم . فامتلاوا حزناً وأقاموا عليه مناحة عظيمة .

ولما انتهت مدة الحزن جاء أبوا العروس ليأخذاها إلى بيتها ويزوجاها من رجل ثان ، ولكنها رفضت أن تذهب معها وأصرت على عدم الزواج من أى رجل آخر قائلة « اننى راضية بنصيبى ،

وسأعيش فى البيت الذى هياؤه لى مينا الى أن نلتقى معاً أمام عرش
النعمة » .

٣ - وانتقضت ثلاث سنين سمع بعدها أبوا مينا أن ابنتهما حى يرزق وأنه
مقيم فى صومعة معروفة باسم دير نابا تابعة لدير الأنبا مكارى الكبير .
وما كاد هذا النبأ يبلغهما حتى خفا إلى الصحراء وقصدا إلى دير الأنبا
مكارى لساعتهما فاذا بهما وجهاً لوجه مع ابنتهما الذى ظناه ميتاً . فتهلل
قلباهما ومجدا الله الرحيم الذى أسبغ نعمة رؤيته بعد هذه السنين الثلاث .
كذلك تهللا لما سمعاه عن نسكه وقضائله ولما رأياه من عطف أبيه الروحى
عليه . وكانت فرحة أبوى مينا ببلقائه عميقة الى حد أنهما لم يعتفاه ولم
يطلبيا إليه العودة الى عروسه بل سلماه فى رضى وجور الى الآب السموى
الذى اجتلبه اليه لخدمته . فعاش مينا فى غبطة وسكينة مع أبيه الروحى
عدة سنوات . ثم أختار بعد ذلك أن يعيش سائحاً ^(١) .

٤ - وحدث عند انتقال الأنبا ثيوفانيوس الى دار الخلود أن اجتمع
الأساقفة والأراخنة للتشاور فى انتخاب خليفة له . وكانوا هذه المرة على
حذر للغاية . فبعثوا برسلهم الى الأديرة للتحدث الى الشيوخ المقيمين فيها
والاسترشاد بهم فى هذا الموضوع الحيوى . وبين الشيوخ الذين قابلوهم معلم
السائح مينا . فحدثوه فى تواضع وحرارة راجين منه أن يتقبل رعايتهم
ويرضى بانتخابهم إياه . فأجابهم هذا الشيخ الروحانى قائلاً : « أن رئاسة
الكهنوت مسئولية خطيرة وكرامة عظيمة لا يجوز أن ينالها الا من اكتملت
رجولته وتميز بالعلم والفضل . فأصغروا لنصحى واعلموا أن من يليق لأن
يعتلى هذه السدة الجليلة هو الراهب مينا » . وقبل رسل الأساقفة والأراخنة
هذه النصيحة وتركوا الناسك الشيخ والتجهوا نحو الصومعة التى يقيم فيها
مينا إذ ذاك ، وأخذوه قسراً الى الاسكندرية حيث أقيمت حفلة الرسامة فى
الكنيسة المرقسية على الفور فأصبح الراهب مينا البابا الاسكندرى الحادى
والستين باسم مينا الثانى سنة ٩٤٨ م .

٥ - وما أن تمت رسامة هذا البابا الزاهد حتى قام بزيارة راعوية فى
أنحاء القطر المصرى . فلما وصل الى صندلا - مسقط رأسه - فرح به

(١) السراح فى الكنيسة هم المتوحدون الذين لا يقيمون فى مكان واحد بل يتجولون
فى الصحارى .

أهلها فرحاً عظيماً والتمسوا فيه أن يقضى بعض الوقت بينهم فلبى دعوتهم . وكان فى تلبيته حقيقة أعلنها الشاعر بقوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وذلك أنه بينما كان منهما فى الحديث مع أهل بلدته المتزاحمين عليه والكل فرح مغتبط همس أحد الأشرار فى أذن أسقف من المصاحبين للبابا الاسكندرى : « ألا تقولون أنه لا يجوز للمتزوج أن يجلس على الكرسي المرقسى ؟ » وهز الأسقف رأسه بالايجاب . فعاد الدساس يقول : « كيف أذن وضعتم اليد على هذا وهو قد تزوج وزجته باقية عندنا الى الآن ؟ » وسرى هذا الحديث من أسقف الى أسقف . فلاحظ الأنبا مينا الثانى هذا التهامس وما بدا على الوجوه من وجوم . وأدرك أن هناك أمراً أقلق بالهم وأدى الى هذا الارتباك الظاهر . فالتفت الى أحد اخوته فى الخدمة الرسولية مستفسراً عن الباعث اليه فأجابه أكبرهم سناً : « لقد عرفنا من بعضهم أن غبظتكم قد ارتبطتم بهرباط الزواج ، وهذا يخالف القانون الكنسى القائل عن البابا الاسكندرى أنه يجب أن يكون بتولاً ، فهل هذا الذى سمعناه صحيح ؟ » فابتسم الأنبا مينا فى هدوء وأرسل لفوره فى طلب السيدة التى زفت اليه ، ولما جاءت التفت إليها وعرفها بنفسه ثم قال لها : « أرجوك أن تعلنى للأباء الأساقفة ولجميع الحاضرين معنا هنا ما جرى بيننا ليلة الزفاف » . فأطاعته وباحت للجميع بالسر الذى اتفقا عليه وكيف أنها - مع بقائها فى العالم - قد احتفظت ببتوليته تنفيذاً لعهدا معه . وقد شهد جميع أهالى صندلا بصدق حديثها وباستقامتها التامة . فتعجب الجميع ومجدوا الأب السماوى الذى يهب أبنائه وبناته نعمة تؤهلهم لأن يرتفعوا فوق الطبيعة البشرية ويقتربوا من الطبيعة المثلى : طبيعة الحياة الروحية .

٦ - ولم يكد أنبا مينا الثانى يستقر فى الأسكندرية بعد اتمام زيارته الراحوية حتى غادر الاخشيده مصر قاصداً الى دمشق ليقود الجيش فى حربه ضد خصوم العباسيين . على أن المنية وافته قبل الاشتباك فى المعركة . وكان له فى مصر ولدان : أكبرهما أبو القاسم وعمره إذ ذاك أربعة عشرة سنة ، وأبو الحسن وعمره ثمانى سنوات . وكان هذان الولدان تحت اشراف

خصى نوبى ^(١) اسمه كافور صاحب دهاء فكرى ومطامع واسعة . فأعلن نفسه وصياً على الولدين واتخذ لنفسه لقب الاخشيدى . ولكى يحفظ لنفسه خط الرجعة اتفق على أن يعطى كلا منهما أربعمائة ألف دينار ، ونصحهما بأن يستمتعا بشبابهما ويصرفا هذه الآلاف من الدنانير على لهما وملاذهما ، ويتركا سياسة الدولة له . ففرحا بهذا الاتفاق إذ لم يكن أحدهما ليدرك معنى الحكم وتبعاته . فقضى حياتهما مغمورين غارقين فى اللهو والعبث وانتهيا من هذه الدنيا وكأنهما لم يكونا . بينما قبض كافور الاخشيدى على زمام الحكم بحزم ويقظة .

٧ - ولم تكن الإرادة الماضية بالميزة الوحيدة لهذا النوبى القوى الشكيمة بل أنه كان قائداً مقداماً ، فخاض المعركة التى كان الاخشيد ينوى خوضها وانتصر على خصومه . فوسع بذلك حدود مصر حتى شملت حلب وطرسوس . كذلك كان كافور ميالاً إلى البذخ والترف ولوعاً بالشعر والموسيقى . وقد اجتذب كرمه أعظم شعراء عصره صيتاً فتزاحموا على قصره وبالقوا فى مديحه بشعرهم .

٨ - ومن سوء الطالع أن الفيضان جاء ناقصاً ثلاث سنوات متوالية . فكانت النتيجة الحتمية لهذا النقص قلة المحصول وغلاء الأسعار فعمت المجاعة وكان المجاعة لم تكن كافية فتضاعفت بكارثة الحرب التى شنها أهالى النوبة على كافور الاخشيدى رغم أنه من مواطنيهم ، وقد نجح النوبيون فى الفتك بأهالى الصعيد وبإشاعة الذعر بينهم .

٩ - على أنه بالرغم من حروب النوبيين ، فقد ظل المصريون على ولائهم لكافور لما امتاز به من عدل وانصاف جعله يسوى بين رعاياه جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ^(٢) . بل أن الوزير المقرب إليه كان قبطياً اسمه أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى الوزارة طيلة حكم كافور . وقد دام هذا الحكم اثنتين وعشرين سنة : حكم كافور فعلاً خلال تسع عشرة منها بينما كان حاكماً بالاسم فى السنوات الثلاث الأخيرة من أيامه .

(١) يقول البعض أنه كان حبشياً - أنظر « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لايڤن بول ص ٨٧ .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤن بول ص ٨٧-٨٨ .

ومن أعظم الأدلة على انصافه وتقديره للكفايات بغض النظر عن دين أصحابها أن عمال الترسانات والمراكب كانت غالبيتهم من القبط . وكان القداس الإلهي يقام رسمياً على المراكب إذا لم يكن بحارتها من القبط فحسب بل كان إلى جانبهم الصناع الحاذقون لمختلف المهارات كالحدادين والتجارين وصانعي الأثاث وغيرهم .

كذلك كانت الأحتفالات بالأعياد المسيحية تقام بصورة رائعة على شاطئ النيل كما كانت المراكب الخاصة بها تسير في الميادين العامة والشوارع الرئيسية^(١) .

١٠ - وكان الهدوء النفسى المنبعث من استقرار العدالة خير معوان للأنبا مينا الثانى فى جهاده . فأنصرف الى بناء الكتائس والمدارس الجديدة وترميم القديم منها وإلى حث الأولاد الصغار على الاقبال على ارتشاف العلم . فسارع الآباء والأمهات الى العمل بتوصيحاته وتعليم أبنائهم التعاليم الأرثوذكسية الصميمة .

١١ - وخلال هذه الفترة ظل الفاطميون يرقبون مصر بعينى الصقر . ولم يكن فشلهم فى الاستيلاء عليها مرتين كافياً لردعهم عن محاولة غزوها
ثالثة : فقد كانت لقمة سائغة تشبع كل من يأتيتها : لا تفرق بين لاهى وباطش . فلما انتقل كافور الاخشيدى الى وجمة مولاه ترك لهم المجال واسعاً . لأن الحاكم الذى خلقه فى الولاية على مصر كان صبياً فى الحادية عشر من عمره - هو أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد الذى تولى ابن عمه الحسين بن عبيد الله الوصاية عليه . وكان ابن الفرات ملتزم الخراج شحيح اليد طماعاً مفتعياً . بينما أقيم صموئيل الذى كان مديراً لبريد الحمام الزاجل مسئولاً عن العمليات الحربية . الا أن بطش الأول وتراخى الثانى أدبا الى تمرد رجال الجيش (وهم من الأتراك) . فقد أمعنوا فى قمردهم الى حد أنهم دخلوا بيت ابن الفرات ونهبوه علانية . فانتشرت الفوضى . ومن العجيب ان الطبيعة ضاعفت من آلام الشعب المصرى إذ جاء الفيضان ناقصاً

(١) تاريخ الأمة المصرية - المجلد الرابع : مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح التركى (بالفرنسية) لجاستون فبييت ص ١٧٥ - ١٧٧ .

عن منسوبه فحلت المجاعة بالبلاد . وأدت المجاعة إلى انتشار الأوبئة كالمعتاد . لأن الناس ضعفت أجسامهم فلم تعد قادرة على مقاومة الجراثيم . وقد أفتت المجاعة والأوبئة مئاة ألف شخص

١٢ - ولم تفت هذه الحالة الموجعة على المعز لدين الله الفاطمي فأدرك أن فرصته قد حانت وعهد إلى جوهر الصقلي - قائد جيشه بغزو مصر . فزحف هذا القائد المحنك على وادينا الحبيب ، وانتصر انتصاراً حاسماً استغله بأن دخل البلاد في موكب فخم رائع في الخامس من أغسطس سنة ٩٦٤ م ش^(١) . وفي الليلة عينها التي اقتحم فيها جوهر مدينة القسطا وضع الأساس لمدينة جديدة تكون عاصمة الفاطميين - أي للدولة الجديدة - وهي مدينة القاهرة - وحين بدأت معالم المدينة الجديدة تتضح أمامه رأى أن يزيدها رونقاً ببناء مسجد كبير قضى في بنائه سنتين . وقد اشتغل في تشييده وزخرفته مهرة الصناع والفنانين . وهكذا ضرب جوهر القائد عصفورين بحجر واحد لأنه أقام جامعاً منيفاً هو الجامع الأزهر ، وفي الوقت عينه فتح باب الرزق أمام العمال وأصحاب المراهب .

وقيام الدولة الفاطمية في مصر له أهمية فريدة في تاريخها الطويل . ذلك أنه لم يحدث قط أن تغير شكل الحكم بهذه السرعة وبهذه المسالة . كما أن ظفر الفاطميين بمصر قد حولها تدريجياً من دولة تابعة إلى دولة مستقلة وبالتالي أوصلها إلى مكانة ساطعة بين مختلف الدول^(٢) .

١٣ - ولما كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي فقد أدرك أن خير وسيلة لتمهيد الطريق أمامه هي أشباع البطون الجائعة وتغطية الظهور العارية ، وبخاصة لأن المجاعة والأوبئة كانت قد فتكت بالشعب المصري فتكاً ذريعاً . فجاء القائد جوهر ومعه مراكب مشحونة بالغلل لتوزيعها على الناس مجاناً . وقد نجحت خطة المعز إذ قد هدأت النفوس المتبرمة ولم يبق من بين المصريين من ثار على الفاتح غير البشموريين . وقد وجد هؤلاء الشوار فرصة لإعلان تمردهم بأن انضموا إلى أحد الاخشيديين الذي تزعمهم . على أن جوهر الصقلي قمع الثورة بسرعة

(١) أو سنة ٩٧٢ م غ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... المجلد الرابع : مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ١٩ .

عجيبة ويطش بالأخشيد بن بطشاً عنيماً كان فيه الكفاية لردع أى شخص آخر تسول له نفسه القيام بثورة . فاستتب السلام مرة أخرى فى وادينا الرحيب. ثم بعث جوهر الصقلى برسول الى جرجس ملك النوبة يذكره بالجزية التى كانت مفروضة على سلفاته ويعرض عليه أن شاء الاعفاء من الجزية أن يعتنق الاسلام . فرد عليه الملك النوبى بأن ارسل المبلغ المطلوب ^(١) .

١٤ - وكان المعز مثلاً يحتذى سار على منواله القائد جوهر اذ قد أتبع السياسة الحكيمة التى اختطها المعز فأحسن معاملة المصريين واتبع سبيل العدل والانصاف مع الجميع فلم يفرق بين قبطى ومسلم . وأنس الى أبى اليمن الذى كان وزيراً لكافور الأخشيدي . ولما وجده أميناً مخلصاً فى عمله ، خوله سلطة أوسع مما كان يتمتع بها فى عهد كافور . وكاد الفرخ أن يكون شاملاً لولا أن النيل جاء ناقصاً فى فيضانه . وفى الوقت عينه تواطأ حكام سوريا مع أمير العراق ضد الحكم الفاطمى . فجمعوا جنودهم وغزوا مصر . وقد أفلحوا فى الوصول الى مشارف مدينة القاهرة التى حاصروها شهرين كاملين . الا أن القائد جوهر استطاع - بعد هذه الفترة - أن يضرب هؤلاء الزاحفين ضربة قاصمة اضطرتهم الى الرجوع على أعقابهم بسرعة حتى أن قلوبهم تخاصمت ودب بينها دبيب الشقاق .

١٥ - وفى السنة التالية للغزو الفاطمى أحس جوهر الصقلى بأن السوريين يستجمعون قواهم ليعاودوا غزو مصر ، فبعث الى المعز يطلب اليه أن يحضر بنفسه الى القاهرة التى كان قد آتم بنائها ، وأن يتخذها له عاصمة بدلاً من تونس لكى يكون على مقربة من الأقطار السورية التى لا يطمع حكامها فى الانفصال عن مصر فحسب بل يراودهم الأمل فى أن يستولوا عليها أيضاً . فتكون اقامته فى العاصمة المصرية سبباً فى ادهاب السوريين وتوقيفهم عند حدهم . وقد رأى المعز الحكمة من هذا الطلب فعمل به وحضر الى مصر فى موكب حافل جمع بين وزرائه وقواد جيشه وجنوده . وقد سار بعض الجند خلفه وهم يحملون توابيت أسلافه الذين رأى أن تضمهم ارض مصر لاثبات سلالاته الملكية وأصوله الوراثية ^(٢) .

(١) تاريخ مصر فى القرون ... لستانلى لايڤ هول ص ١٠١ - ١٠٥ ، كنيسة الاسكندرية فى افريقيا لزاخر رياض ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر ... لستانلى لايڤ هول ص ١٠٨ - ومن الطريف ما قيل عن المعز أنه أخرج سيفه أمام رجال الدولة وقال لهم « هنا نسبى » ثم أخرج صرة من الذهب نثره وقال : « وهذا دليلى »

وحالما وصل المعز الى الاسكندرية ارسل فى طلب القاضى وغيره من كبار رجال الدولة ، وألقى فيهم كلمة حركت مشاعرهم الى حد جعل البعض منهم يذرف الدموع تأثراً . وبعد وصوله بشهر واحد جلس يتسامر مع بعض الرهبان فى دير لهم بالجيزة ، وكانت هذه الزيارة الأولى مقدمة لزيارات متوالية .

١٦ - وكان الأتبا مينا الثانى - خلال فترة المجاعة - ينتقل من بلد الى بلد ليتفقد شعبه . فلما وصل الى محلة دانيال خرجت اليه امرأة « رئيسة »^(١) من بلقونة لترحب به . وكانت غنية خائفة الرب . فألحت على البابا أن يمكث فى ضيافتها هو وحاشيته طيلة المجاعة . وكان الحاحها قوياً الى حد أنها اقنعتة بالبقاء فعلاً . فقضى فى تلك البلدة سنة كاملة استطاع خلالها ان يبنى كنيسة « لطيفة »^(٢) على اسم القديس مرقس كاروز ديارنا المصرية . وأقام فيها الشعائر الخاصة بتكريس الميرون بدلاً من اقامة هذه الشعائر فى دير الأتبا مكارى الكبير حسب العادة .

١٧ - أخيراً استقر السلام ، وحل الرخاء . محل القحط والجوع : فكثرت المعاصيل ورخصت أسعارها . فهدأت النفوس . ولم يكن الرخاء المادى وحده هو السبب فى تهدئة النفوس ولكن العدالة دعمت هذا الرخاء لأن المعز كان منصفاً حسن المعاملة . فاقتدى به جميع ولايته فى أنحاء القطر المصرى . وكان اهتمام هذا الخليفة بترسيخ قواعد العدل بالغاً الى حد أنه كثيراً ما ينتظر فى القضايا المعروضة بنفسه . كذلك أبدى اهتماماً بمنسوب النيل ومدى ارتفاعه وانخفاضه . فكان يذهب ليرقب مقياسه ويعلن بقمه مقدار ارتفاعه على الشعب . فأنس اليه المصريون والتفوا حوله^(٣) .

(١) هذا هو التعبير الحرفى الذى أورده الأتبا ساويرس فى كتابه تاريخ البطارقة ، أفلا يدل هذا التعبير على أن المرأة القبطية استمتعت بمكانة ممتازة حتى فى العصور الموصوفة بعصور الظلام ؟ ثم ألا يكون الأسقف الأشمونى متأثراً بالتعبير القبطى « أرخن » فترجمه إلى « رئيسة » ؟ أن مثل هذه الاصطلاحات جذيرة بالتأمل ولا يكفى أن تلقى عليها نظرة عابرة لأن فيها عمرة لكل مفكر .

(٢) هذه هى الكلمة الواردة فى كتاب الأتبا ساويرس لوصف الكنيسة وهى تعنى كنيسة صغيرة أو ضيقة .

(٣) تاريخ مصر . لستافلى لاين بول من ١٠٤ ، مختصر تاريخ .. لجاستون فييت ج ٢ المبحث الثانى من ١٨٠

ومن أقوى الأدلة على الاستقرار فى ذلك العهد ماتبقى عنه من آثار فنية . فلقد كان الفنانون والصناع القبط ذوى صيت حسن لمهارتهم ودقتهم وتفانيهم حتى أن الخليفة العباسى كان قد استعان بهم فى بناء مدينته التى اختطها فى شمال العراق والتى دعاها « سمارا » (اوسر من رأى) . ومازالت هناك قطع فنية تحمل فى ناحتها الصليب أو عبارة « باسم الآب والإبن والروح القدس » . بل ان الكتبة القبط كانوا يرسمون علامة الصليب خلف الأوراق الحكومية ذاتها ^(١) . كذلك استمرت المهارة الفنية تبدو فى النسيج خلال عصور متوالية . وكانت الدول الشرقية تستورد النسيج المصرى الذى كانت تطلق عليه كلمة « قباطى » (أو قبطى) - وفى هذه التسمية دليل على أن النسيج كانوا من القبط .

كذلك كانت هناك صلات تجارية - ولو أنها على نطاق محدود - بين مصر وفرنسا وإيطاليا . فقد كان هذان البلدان يستوردان المنسوجات وأوراق البردى من بلادنا ^(٢) .

١٨ - وتأمل الأنبا مينا الثانى تطور الأحداث فمجد الآب السماوى الذى أبدل الضيق بالفرج وحول العسر يسراً ، وأحس بأن ثقلًا من الهموم والمخاوف قد زال عن قلبه حينما رأى اهتمام الخليفة بأمر الشعب ووجد هذا الاهتمام شاملاً للجميع بلا تفرقة . وفى غمرة هذا الفرح النفسى وهذا التسجيد الروحى انتقل الى مساكن النور فى هدوء ورضى بعد أن تولى رعاية شعبه سبعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً ^(٣) .



(١) تاريخ الأمة ... المجلد الرابع : « مصر العربية ... » لجاستون فيبيت ص ١٧٣ - ١٧٤

(٢) شرحه ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوربال عطية وأوسولد هورمستر - طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ ، المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٢٤ - ١٣٥ .

ب - الأتيا ابرآم بن زرعة

١٩ - ان العصر الفاطمى الذى بدأ بخلافة المعز كان اعجب العصور التى اجتازتها مصر ذات التاريخ الملى بالأعاجيب . فقد عرف فيه المصريون معنى الحرية الدينية فى أوسع حدودها ، كما ذاقوا مر الإضطهاد فى سبيل العقيدة .

٢٠ - وكان المعز نفسه من اكثر الحكام تسامحاً وأوسعهم صدراً . وكان الى جانب سماحته سياسياً محتكاً ، ذا مقدرة على الأخذ بأسباب النجاح ، ودراية بحسن استغلال الفرص . كذلك كان واسع العلم ، له قوة عجيبة على استيعاب اللغات : فهو لم يبرع فى حفظ الشعر العربى فحسب وإنما كان يجيد اليونانية والسردانية ولغة شمال افريقيا كما كان يلم بالسلاقونية ليتحدث بها مع العبيد الذين اقتناهم من شرق اوروا . وكان خطيباً بارعاً الى حد أنه كان يستدرف الدموع من عيون سامعيه .. وفوق هذه المزايا فقد كان جواداً سخياً كما كان يحب العدالة والانصاف ^(١) .

ولأن المعز جمع فى شخصه كل هذه المزايا ، فقد تسابق الشعراء الى باهه لينعموا بجوده . وحدث ذات يوم ان شاعراً فقيراً حمل جرتة ، وقصد الى النيل ليستقى منه الماء ، فرأى نفرأ من الشعراء المعروفين متجهين نحو دار الخلافة وانضم اليهم لساعته . ولخوفه من ان يسبقوه فتفقت منه الفرصة ، دخل وهو حامل جرتة . فانكر عليه الخليفة وجوده بينهم وسأله عن السبب الذى أتى لأجله فأجابه :

لما رأيت القوم شدوا رحالهم الى بحرك الطامى اتيت بجرتى

فسر المعز بهذا الرد وامر رجاله بأن يملأوا له جرتة ذهباً . فعارضه البعض منهم قائلين انه رجل ساذج لا يعرف قدر المال ، وأنه لابد موزعه على غيره . فقال الخليفة : « المال ماله يعمل به ما يشاء ، ومثلنا يعطى ولا يرجع فى العطاء » فملئت الجرة ذهباً ، وخرج الشاعر الفقير جذلاً ، وبالفعل وزع ما فيها على اهله واصحابه . فوشى به الى الخليفة الذى استدعاه وسأله عما فعل بالمال ، فأجابه لساعته : « يجود علينا الخيرون

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ پول ص ٩٩

بمالهم ونحن بمال الخيرون لمجود » . وقد اعجب المعز بهذا الجواب لأنه يتضمن معنى العرفان بالجميل مقترناً بالصدق والعطف على الآخرين . فأمر رجاله بأن يملأوا له الجرة عشر مرات . فأخذ الشاعر الفقير المال وخرج وهو يقول : « الحسنه بعشرة امثالها » .

٢١ - وكان من نتائج هذا الكرم وهذا التسامح ان انتشرت الطمأنينة فى البلاد . ومن الغريب ان هذه الطمأنينة أدت الى تقاعس القبط عن انتخاب البابا الاسكندرى الثانى والستين ، فظل الكرسى شاغراً سنتين كاملتين ... وبعد هذا التراخى الطويل ، افاق بعض الأساقفة من غفوتهم فبعثوا الى الأراخنة للاجتماع بهم فى كنيسة أبى سرجه .

٢٢ - وكان يعيش فى مصر فى ذلك الوقت تاجر سريانى اسمه ابرآم بن زرعة ، اشتهر بالزهد والعفاف ، وكان يكثر من التصدق على الفقراء والمعوزين ومن اخنى عليهم الدهر .

وحدث انه بينما كان الأساقفة والأراخنة مجتمعين فى تلك الكنيسة ، ان دخلها ابرآم هذا للصلاة . وكان شيخاً وقوراً تسطع على وجهه النعمة الإلهية فما أن وقع عليه نظر احد الأراخنة حتى مال على من كان بجانبه من الأساقفة وقال له : « انظر يا أبى الى هذا الشيخ الوقور . الا يذكرك منظره بقول داود فى المزمور : مثل الطيب الكائن على الرأس الذى ينزل على اللحية - لحية هارون النازلة على جيب قميصه ؟ » ^(١) الا يكون هذا الشبه بينه وبين الصورة التى رسمها لنا المرنم عن هارون تعبيراً عن جذراته بالخلافة المرقسية ؟ » وتفرس الأسقف فى ابرآم ووافق الأرخن على رأيه ثم أعلنه جهاراً ، فصادف رضى من جميع الحاضرين ، وأمسكوا به ، وهتفوا بصوت واحد : « اكسيوس » (أى مستحق) . وسارعوا به الى الاسكندرية حيث اقيمت حفلة الرسامة فى الكنيسة المرقسية ، وبها اصبح ابرآم بن زرعة الخليفة المرقسى الثانى والستين سنة ٦٨٤ ش (سنة ٩٦٨ م) .

٢٣ - وأول خدمة أداها الأتبا ابرآم بعد رسامته هى توزيع نصف ما يملك من مال وعقار على الفقراء والمعوزين ، والنصف الآخر على الكنائس

(١) مزمور ١٣٢ فى الأجبية (١٣٣ فى الكتاب المقدس)

والأديرة ، عملاً بأمر القادى الحبيب « بع كل مالك واتبعنى » (١) .

٢٤ - وقد شاعت العناية الإلهية ان ينعم القبط وباباهم بالهدوء والطمأنينة ، لأن المعز - الى جانب عدالته وسماحته - كان ولوعاً بالعلوم الروحية ولشدة ولعه بهذه العلوم كان يدعو رجال الدين - من مسلمين وقبط ويهود - ليتناقشوا امامه بكل صراحة ، معلناً ان حرية الرأى لها حرمتها ، وان على المتناقشين ان يبادلوا الحججة بالحجة من غير غضب ولا خصام . بل ان ولعه بهذه العلوم جعله لا يكتفى بهذه المجادلات التى سمح بأن تجرى امامه وإنما دفعه ايضاً الى أن يجعل للأزهر هدفاً مزدوجاً : الأول كونه جامعاً يؤدي فيه المسلمون الصلاة والثانى جعله معهداً تدرس فيه العلوم الدينية . كذلك كان أول من جعل لطلاب العلم فيه اعانات مالية وعينية تشجيعاً لهم على الدرس والاجتهاد (٢) .

وكان فى ديوان المعز رجل يهودى اسمه ابن كلس (٣) استضاف واحداً من بنى قومه اسمه موسى واستصحبه عدة مرات الى دار الخلافة . فطلب ذات يوم من المعز أن يسمح له بمجادلة الأنبا ابرآم . وامتلات نفس الخليفة رغبة فى ان يسمع ما قد يدور من الحوار بين البابا المرقسى وبين هذا اليهودى ولكنه فى الوقت عينه لم يرد ان يخرج الأنبا ابرآم الذى كان يحبه ويجله فقال له : « ان شئت يوماً ان تحاجج اليهود بنفسك أو بواسطة من تختار من الأساقفة فتعال الى دارى وناقشهم امامى . » وأدرك البابا الاسكندرى الرغبة الخفية التى حاول الخليفة سترها خلف هذه الكلمات المليئة ذوقاً وأدباً فاتفق معه على الموعد المناسب ثم اصطحب معه الأنبا ساويرس اسقف الأشمونين (كاتب سير البطارقة) وقصد إلى دار الخلافة فى الساعة المتفق عليها . ولما دخل إلى حضرة المعز وجد الوزير ابن كلس ومعه موسى . وبعد تبادل التحية جلس الحبران القبطيان فى صمت . ومرت لحظات قال المعز بعدها : « تكلم ايها البابا الوقور أو امنح رفيقك الأذن فى الكلام » . فالتفت الأنبا ابرآم الأسقف الأشمونى وقال له : « تكلم يا بنى ، ولتمنحك النعمة الإلهية حكمة من لديها » . فقال الأنبا ساويرس :

(١) مرقس ١٠ : ٢١

(٢) القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٣) اعتنق الاسلام فيما بعد .

« ليس من اللائق ان اتحدث إلى يهودى فى حضرة الخليفة » . فاحتد موسى قائلاً : « انك تهينتنى على مسمع من أمير المؤمنين إذ تستنتج أنتى جاهل » . اجابه الأنبا ساويرس : « ان قدمت لك الدليل على جهلك فلا تغضب » . وهنا قال المعز : « لا داعى للغضب فى المناقشة لأن الحرية مكفولة لكل متكم ليعبر عن عقيدته بصراحة ولا حرج عليه » فقال الأسقف الأشمونى : « لست انا الذى يستنتج جهلكم بل أن نبياً عظيماً نال كرامة خاصة من الله هو الشاهد عليكم » فسأل موسى : « ومن يكون هذا النبى ؟ » اجابه : « انه اشعيا الذى قال عنكم : عرف الثور قانيه ، والحمار معلف صاحبه ، اما اسرائيل فلم يعرفنى » ^(١) فسأل المعز : « أهذه كلمات اشعيا النبى فعلاً ؟ » اجابه موسى : « نعم يا مولاي » . فاستطرد الأنبا ساويرس يقول : « ترى ان نبياً عظيماً من انبيائكم قد اعلن بأن الحيوانات اكثر فهماً منكم » . وسر المعز بهذه الدعابة ، ورأى ان يكتفى بها دون الخوض فى جدال أو مناقشة .

٢٥ - وقد استثار هذا الحادث حقد كل من ابن كلس وصديقه موسى على الأنبا ابرآم وشريكه فى الخدمة الرسولية الأنبا ساويرس فقررا الانتقام . وحدث ذات يوم ان عثر موسى على الآية المقدسة التى يقول فيها المسيح له المجد : « من كان له إيمان كحبة الخردل فانه يقول لهذا الجبل انتقل فيكون » ^(٢) . وفرح موسى لعثوره على هذه الآية إذ توهم انه يستطيع بواسطتها ان يقضى على القبط . ومن ثم بادر بالذهاب الى قصر المعز وقال له : « مكتوب فى انجيل النصارى أن من له إيماناً كحبة الخردل فقط فهو يستطيع ان ينقل الجبل . فحق لنا ان نطالبهم باثبات حقيقة إيمانهم . فان لم يستطيعوا وجب عقابهم بوصفهم شهود زور على الله تعالى . » ورأى المعز ان كلام موسى منطقى صحيح « فبعث فى طلب الأنبا ابرآم ، وحالما رآه ابتدئه بالسؤال : « احقاً ان لديكم آية فى الإنجيل تنص على ان من له إيماناً لا يزيد على حبة الخردل يستطيع بهذا الايمان ان يزحزح الجبال ؟ » فأجابه البابا الجليل : « نعم - لدينا هذه الآية » . قال المعز : « انه يوجد داخل حدود دولتى آلاف المسيحيين ومئات الآلاف .

(١) اشعيا ١ : ٣ .

(٢) مرقس ١١ : ٢٣

اقلا يوجد بينهم واحد يستطيع ان يزحزح جبل المقطم ؟ ثم انك انت رئيسهم ، فيجب ان تكون قادراً على عمل مثل هذه المعجزة . فان لم تستطع انت ولا غيرك ان تبينوا لنا حقيقة هذه الآية فعلاً فسأبيدكم بعد السيف » . وكان هذا الطلب عجيباً الى حد اذهل الأنبا ابرآم فلم يحر جواباً بل غاص فى تأملاته بضع ثوان ، انتبه بعدها والتفت الى المعز طالباً اليه ان يمهله ثلاثة ايام . فوافق المعز على امهاله المدة المطلوبة .

٢٦ - وما ان خرج البابا الاسكندرى من حضرة الخليفة حتى ذهب على الفور الى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) وارسل فى طلب الأساقفة الموجودين ببابلون اذ ذاك والأراخنة وعدد من الرهبان كانوا قد جاءوها من شيهيت لقضاء بعض لوازم الأديرة . وحالما اكتمل عقدهم اعلمهم بما طلبه اليه المعز ، وقال لهم : « علينا بالصوم والصلاة هذه الأيام الثلاثة التى استمهلتها اياها ليتراءف الله علينا بنعمته وبهيء لنا طريق النجاة » . ثم طلب الى الرهبان ان يبقوا فى الكنيسة ، اما الآخرون فمن شاء منهم البقاء بقى ، ومن شاء الذهاب الى بيته ذهب ماداموا جميعاً سيصلون ويصومون بنفس واحدة . وقد صام الجميع وصلوا بالفعل حتى اليوم الثالث . وفى فجر ذلك اليوم ، غفا الأنبا ابرآم غفوة قصيرة ، رأى خلالها السيدة العذراء وسمعها تقول له : « ماذا بك ؟ » اجابها : « انت تعلمين يا سيدة السمائيين والأرضيين » . قالت له : « لاتخف اياها الراعى الأمين : فلن انسى الدموع التى سكبتها هنا فى كنيستى ، ولا الأصوام والصلوات التى قدمتها انت وشعبك . فأخرج الآن من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، وعند خروجك منه ستجد امامك رجلاً بعين واحدة حاملاً جرة ماء ، فأمسك به لأنه الرجل الذى سستم المعجزة على يديه » . وما ان فاهت السيدة العذراء بهذه الكلمات حتى توارت عن عينى الأنبا ابرآم الذى صبحا من نومه وقام فى الحال فخرج من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، ورأى الرجل الذى اشارت اليه والدة الإله ماشياً امامه . وللوقت امسك به ، وادخله الباب الحديدى ، ثم اغلق الباب واطلعه على كل ما جرى بينه وبين المعز ثم ما اصدرته اليه السيدة العذراء من أمر وعندها قال الرجل : « اغفر لى يا ابنى فانى رجل خاطئ ، ولكن ما دامت ام النور هى التى حكمت على بأن اؤدى هذا الواجب العظيم فأنا اضع نفسى فى خدمتك » .

وهنا سألہ الاتبا ابرآم عن اسمه وعن السبب فى انه سائر فى السوق فى مثل هذه الساعة المبكرة بينما الناس لا يزالون نياماً . فاجابه الرجل : « ان اسمى سمعان الخراز . وانا اشتغل بدباغة الجلود ولكنى اقوم فى مثل هذه الساعة من كل صباح لاملأ قريتى ماء ، واوزع الماء على الكهول والمرضى الذين اقعدهم الشيخوخة او المرض عن المقدرة على استجلاب الماء لانفسهم . ولما انتهى من خدمتى هذه ، أعيد قريتى الى البيت وأذهب الى عملى عند صاحب مصنع الدباغة حيث أعمل حتى المساء . وعند غروب الشمس أخرج مع بقية الاجراء آكل القليل لأسد به رمقى ثم انصرف الى الصلاة . وقد رجل سمعان الخراز بعد ذلك من الاتبا ابرآم بأن يكتم حقيقة أمره طالما هو حى على هذه الارض .

٢٧ - ولما انتهى من حديثه قال للبابا الاسكندرى : « أصعد يا أبى المكرم الى الجبل الذى يشير عليك الخليفة به ، وخذ معك رجال الدين والشمامسة والأراخنة ، واجعلهم يحملون عالياً الإنجيل والصلبان والشموع الطويلة الموقدة والمجامر مملوءة بخوراً . واطلب الى الملك وحاشيته أن يصعدوا معكم . فتقفون أنتم على ناحية من الجبل ، بينما يقفون هم على الناحية المقابلة لكم . وسأقف أنا خلف غببتكم مباشرة وحين يستقر بكم المقام ، أقرأ ما تشاء من الانجيل ثم ردد « كيرىاليسون » ^(١) « انت وكهنتك احدى وأربعين مرة . وأصمت بعد ذلك مدى لحظات ، ثم اسجد أنت وكهنتك معاً أمام العلى ، وكرر هذا العمل ثلاث مرات ... وفى كل مرة تقف فيها بعد السجود أرسم الجبل بعلامة الصليب فسترى مجد الله » .

وأحس البابا الاسكندرى بأن ثقلأ قد انزاح من على صدره فعاد إلى الخليفة يبلغه استعداداه للصعود إلى الجبل لنقله . وصعد المعز مع جنوده وعدد من رجاله المختارين الى الجبل ، ووقف مقابل الاتبا ابرآم ورجاله الذين بدأوا صلواتهم حالما استقر بهم المقام . وعمل البابا الاسكندرى بنصيحة سمعان الخراز تماما . فحدث أنهم - حين سجدوا بعد الصلاة والاسترحام - انخفض الجبل ، فلما وقفوا أرتفع الجبل . وكرروا الصلوات والسجود ثلاثاً فكان الجبل ينخفض ويرتفع كلما سجدوا ووقفوا بعد سجودهم . وحين رأى

(١) كلمة يونانية قبطية معناها « يا رب ارحم » .

المعز الجبل يهتز ، ولم يكن يتوقع ذلك . هتف قائلاً « عظيم هو الله تعالى . وتبارك اسمه » ثم إلتفت الى الانبيا ابرآم وقال له : « لقد أثبتتم أن إيمانكم إيمان حى حقاً » .

٢٨ - وكان من الطبيعى أن تحدث هذه الآيّة شيئاً من الاضطراب فى صفوف من شاهدها جميعاً . فلما هدأت نفوسهم ، واستعادوا طمأنينتهم ، وبدأوا ينزلون من الجبل ليعودوا الى منازلهم ، تلفت غبطة البابا الاسكندرى يمنة ويسرة باحثاً عن سمعان الخراز ولكنه لم يجده . ولم يعثر أحد عليه بعد ذلك . ويروى التقليد أن ملاك الرب اختطفه الى السماء .

٢٩ - وفيما هم نازلون من الجبل ، التفت المعز الى الانبيا ابرآم وقال له : « والآن اطلب منى ما تشاء فأقضيه لك » . أجابه هذا البابا الحكيم : « لا طلب لى الا الدعاء الى الله أن يطيل حياتك ويمتلك النصر على جميع أعدائك » . لكن هذا الجواب لم يقنع المعز إذ ألح فى أن يعرف رغبات الانبيا ابرآم الذى قال : « ما دمت تلح علىّ فى أن أعلن لك رغبتى ، فأسمح لى بأن أقول اننى أتوق الى إعادة بناء كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ببابلون إذ قد هدمها بعض السوقه واستعملوا ما بقى منها كمخزن للقصب . كذلك أود ترميم جدران الكنيسة المعلقة إذ قد أصابها بعض التصدع » . فما كاذ البابا الاسكندرى يعرب عن رغبته هذه حتى أمر المعز أحد كتبة الديوان بأن يكتب مرسوماً بختم الدولة يخول للانبيا ابرآم الحق فى عمل كل ما طلبه . ثم أمر بأن تصرف النفقات اللازمة من خزانة الدولة . ولقد أخذ البابا المرقسى الخطاب الذى يخوله حق البناء ، ولكنه اعتذر عن أخذ المال . فازدادت منزلته قدراً عند الخليفة .

٣٠ - وحين قرئ المرسوم الذى أصدره المعز أمام باب كنيسة أبى سيفين ، تجمع الرعايا محتجين صاخبين معلنين أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يعيد بناء الكنيسة . وسمع الخليفة بما حدث فغضب غضبة مضرية دفعتة الى أن يمتطى صهوة جواده ، ويذهب على رأس جيشه الى بابلون ، إلى البقعة التى يبقى الانبيا ابرآم العمل فيها . وما أن وصل إليها حتى أمر البنائين بالعمل أمامه وتحت اشرافه وحين رأى الرعايا هذا الحزم من الخليفة المعز وقفوا صامتين ينظرون اليه وكأن على رؤوسهم الطير . الا أن شيخاً أعماه التعصب وحفره على استفزاز الشعب ضد القبط ، رمى بنفسه فى الحفرة

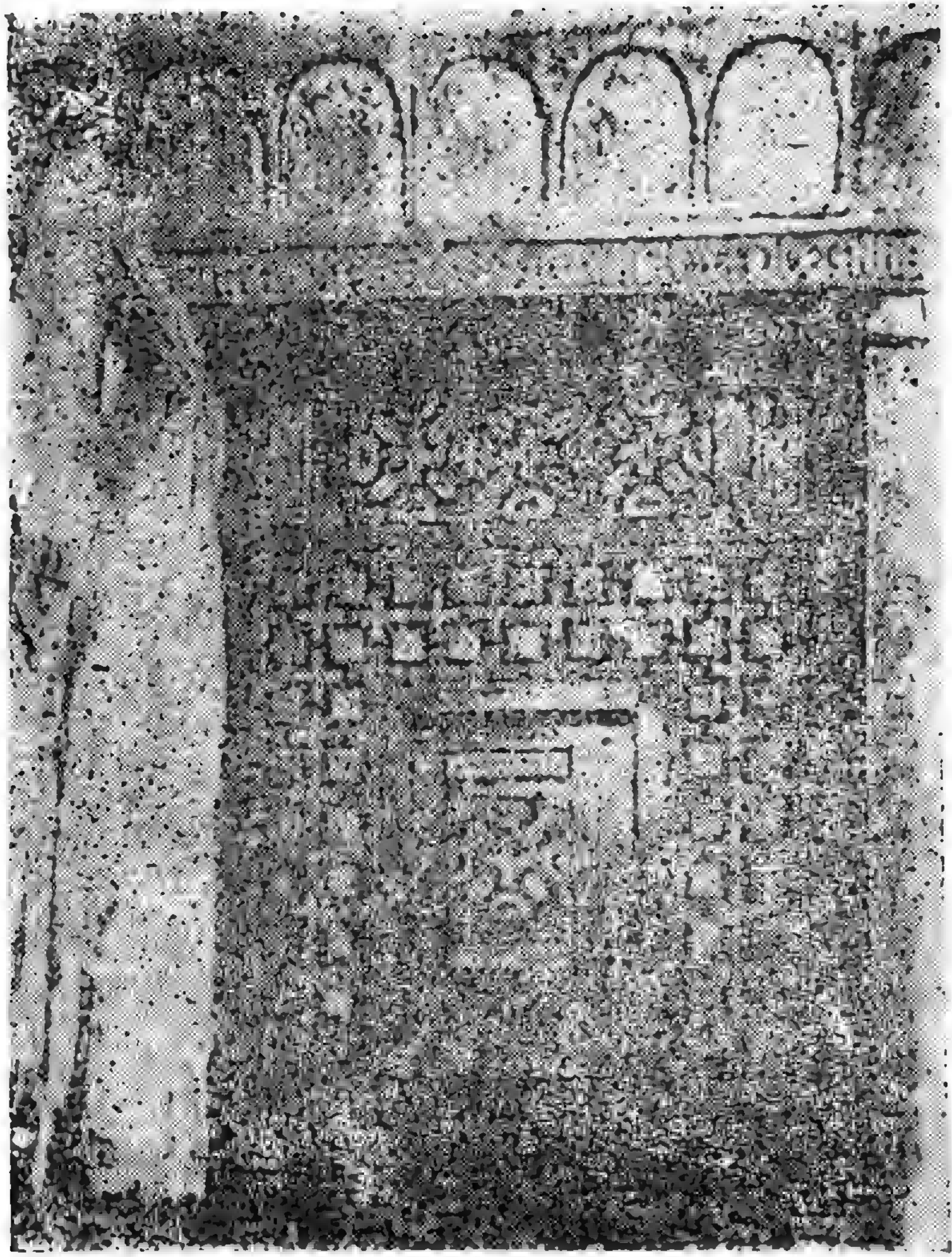
المهياة لوضع الأساس وهتف بأعلى صوته : « أنه لأهون على أن أموت اليوم من أن أرى الكنيسة وقد أعيد بناؤها » . وهنا قال المعز : « دعوه اذن فى الحفرة ، وأرموا فوقه الأساس لكى يموت ويريحنا » . ولكن الانبا ابرآم تشفع فيه ، ورجا من المعز أن يعفو عنه بحرارة واستعطاف مما جعل الخليفة يلين ، ويأمر عدداً من جنوده بأن يخرجوه من الحفرة التى كان قد رمى بنفسه فيها .

٣١ - وكان تجديد بناء كنيسة مرقوريوس (أبى سيفين) فائحة عهد من البناء والتجديد ، فتجدد عدد من الكنائس وبخاصة فى الاسكندرية ^(١) . وقد استنفذت كل هذه الأعمال ما لدى الانبا ابرآم من مال الى درجة أنه لم يتمكن من دفع الألف دينار التى كان من المتفق دفعها الى الاسكندريين . فتفاوض معهم ، واسترضاهم بأن دفع لهم خمسمائة دينار .

٣٢ - ولم يتجل تقدير المعز للقبط فى السماح لهم بترميم الكنائس وتجديدها فحسب ، وإنما بدأ أيضاً فى أنه عين قبطياً متولياً للخراج أولاً فى مصر ثم فى فلسطين . وكان هذا القبطى هو أبو اليمن الذى كان قد حظى بالتقدير العظيم من كافور الاخشيدى . وكان أبو اليمن جديراً بهذه الثقة لأنه كان عفيفاً محباً للفقراء والغرباء تقياً مستقيماً . على أن ابن كلس الوزير اليهودى الذى كان قد تواطأ مع صديقه موسى على الايقاع بالقبط حين طلب إليهم نقل جبل المقطم كان لا يزال مترهباً لهم . ولم يرتدع هذا الوزير اليهودى حين رأى المعجزة تتم بالفعل ، بل راح يبيحث عن وسيلة أخرى لمطاردة القبط . ولما لاحظ الثقة التى يتمتع بها أبو اليمن عند الخليفة قال له : « أن أبا اليمن مستقيماً الى درجة تستطيع معها انتدابه ليتولى عنك جمع الضريبة المقررة على الفلسطينيين » . وقد صادف هذا الكلام صدى فى نفس المعز فأمر بانتدابه فعلاً .

٣٣ - وكان أبو اليمن غنياً جداً يملك تسعين ألفاً من الدنانير . ولم تكن له عائلة إذ كان متبتلاً . فرأى عند انتدابه للذهاب الى فلسطين - أن يعهد بماله الى الانبا ابرآم نفسه ، فسلمه إليه قائلاً : « احتفظ بمالى هذا عندك . وان شاء الله أن أموت بعيداً عن وطنى الحبيب ، فأرجو منك

(١) السنكسار الأثيووى - ترجمة الى الانجليزية واليس بودج - طبع فى كامبردج سنة ١٩٢٨ ج ٢ ص ٣٢٦ .



حجاب الهيكل بكنيسة القديس مرقوريوس (أبي سيفين)
ببابلون (مصر عتيقة)

أن تتفضل بتوزيعه على الفقراء واليتامى والغرباء والمسجونين تكفيراً عن ذنوبى . ثم سافر مستريح البال .

٣٤ - وقد نشط أبو اليمن فى جباية الضرائب فنجح فى أن يجمع من الفلسطينيين مائتى ألف دينار . فعول على العودة الى مصر ليسلمها الى الخليفة المعز الذى ائتمنه على جمعها . غير أنه - قبل أن يغادر فلسطين - اندلعت نار الثورة فيها على المعز ، فقد هاجمه القرمطيون ^(١) فى سوريا وفلسطين . وخشى أبو اليمن أن ينتصر الثوار على جنود الخليفة ، فقصده إلى جبل طابور - خارج حيفا - وكان هناك دير يقع فى أعلى هذا الجبل . فدخل الدير وتفاهم مع رئيسه ثم أودعه المال الذى جمعه ، ورجا منه أن يحتفظ به حتى يصفو الجو فيتسنى له أن يسلم الأمانة الى المعز . وبعدها خرج أبو اليمن وأخذ يتنقل بين مختلف البلاد الفلسطينية ، ويعمل على تهدئة الحواطر ، فنجح بنعمة الله فى تهدئة النفوس الشائرة .

٣٥ - وفى تلك الآونة رأى ابن كلس الوزير اليهودى أن يعاود الدس للقبط ، فأتهم أبا اليمن لدى المعز بالانضمام الى القرمطيين . ومن عجب أن المعز صدق رواية هذا اليهودى ، فأمر باعتقال أقارب أبى اليمن جميعاً . غير أنه لما كان جبل الكذب قصيراً وحامله لا بد مشنوقاً به ، فإن ثورة الفلسطينيين لم تخمد نيرانها حتى عاد أبو اليمن إلى القاهرة حاملاً المائتى ألف دينار التى كان قد أودعها رئيس دير جبل طابور . فاحتلم غيظ المعز على خيانة ابن كلس المتكررة وأمر بالقائه فى غياهب السجون ، وأفرج عن أقارب أبى اليمن معتذراً لهم عن الظلم الذى وقع عليهم .

وقد اشتهر عدد من رجال عائلة أبى اليمن فى خلافة الفاطميين وأدوا خدمات جليلة لوطنهم ولكنيستهم ، ومن هؤلاء : الشيخ أبو المكارم بن حنا الذى اشتهر بتجديد قباب بيعة أبى نفر بالحمراء ^(٢) والشيخ صنيعة الملك

(١) القرمطيون يرجعون بأصلهم إلى عبد الله بن ميمون القلاح (من القدس) ويرجع بنسبه إلى على بن أبى طالب ، قام زعيمهم بثورة فى كل البلاد الخاضعة للعباسيين فى عهد المعتضد ثم عرج على فلسطين وسوريا - أطلق عليه لقب « قرمط » استخفاً بقصر قامته .

(٢) كان يحيى الحمراء (فى ظاهرة القاهرة) عدد من الكنائس هدمت كلها فى عهد السلطان برقوق المملوكى

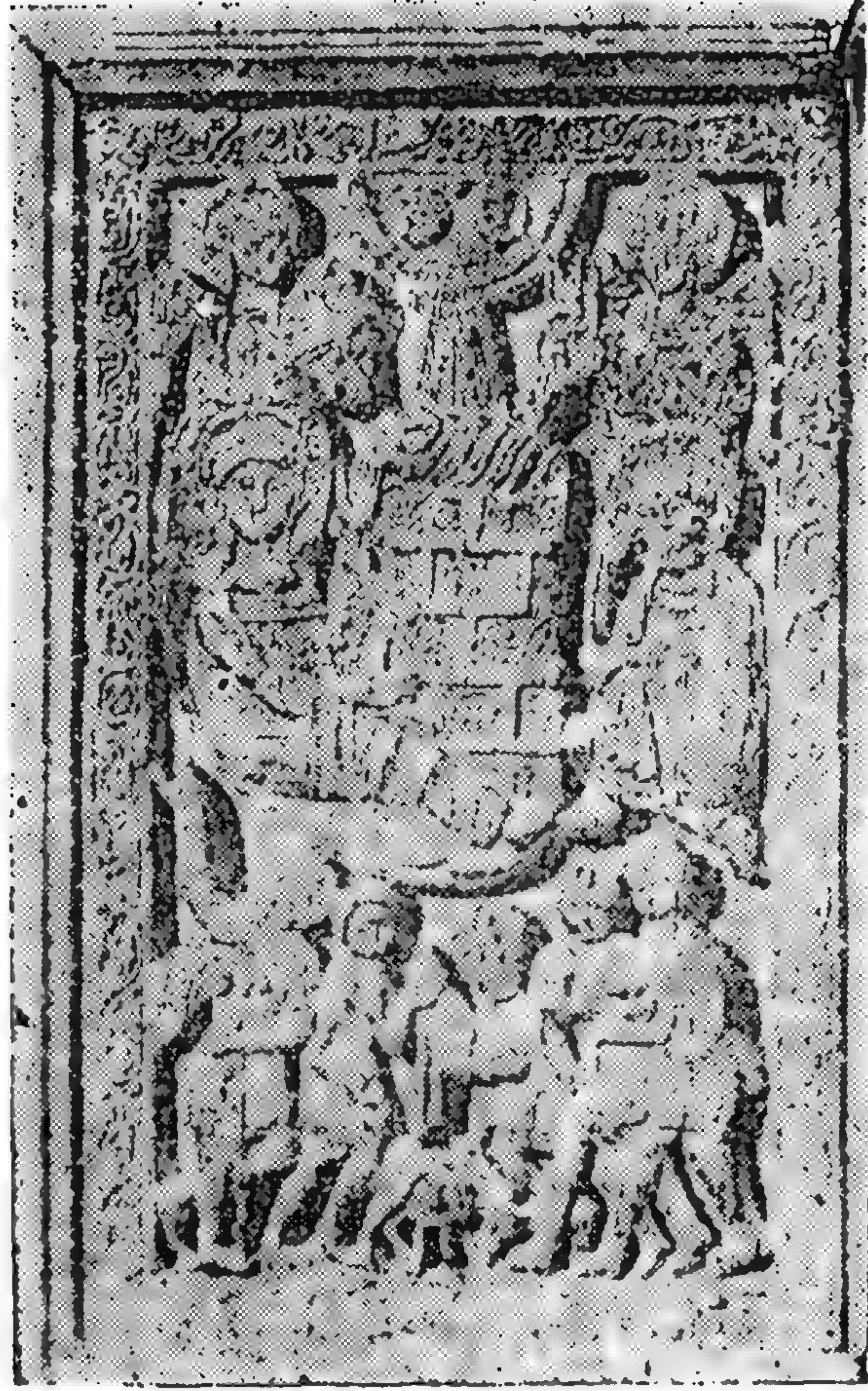
أبو الفرج : والشيخ علم السعداء أبو اليمن : والشيخ أبو الفرج بن أبي اليمن^(١) .

٣٦ - وفى خلال التوتر والمعارك التى دارت على الحدود المصرية - الفلسطينية انقطعت أخبار أبى اليمن ومواطنيه من بنى مصر عن أهلهم . وكانت القوات المصرية قد أحرزت نصراً ساحقاً على الثوار حتى أن زعيمهم سقط صريعاً فى ساحة القتال . وانتشرت الشائعات - كما يحدث عادة فى أيام الحروب - ومن بينها أن أبى اليمن راح ضحية الثوار . وانتظر الأنبا إبرآم لعل رسولاً يأتيه من البلاد المشتعلة بالحرب ليبلغه أخبار أبى اليمن - انتظر من دون جدوى . فتوهم أن الشائعات حقيقة ، وأن أبى اليمن قد لاقى ربه . وعلى ذلك نفذ وصيته بتوزيع ماله على الفقراء وذوى الحاجة وعلى الكنائس والأديرة . فلما عاد أبو اليمن إلى مصر قصد لفوره إلى المعز وقدم له المال الذى جياه باسمه . ثم توجه بعد ذلك إلى الدار البابوية لينال بركة الأنبا إبرآم ويسأله عن المال الذى استودعه إياه . ودهش البابا الاسكندري حين رأى أبى اليمن داخلاً عليه ، إذ خيل اليه أنه رأى رجلاً أتياً من عالم الأوراح ... واستفهم منه عن كل ما جرى له . ثم أعلمه بما سمعه من أن الثوار قتلوه ، وأنه - استناداً إلى هذه الأخبار - قد وزع ماله حسب الرغبة إلى كان قد أبدأها له قبل رحيله إلى فلسطين . فقال أبو اليمن : « أنى شكور لك يا أبى الجليل لاهتمامك بخلاص نفسى لأن مالى الذى تكرمتم بتوزيعه ترجماً علىّ سيكون مقدمة مقبولة أمام عرش النعمة » .

ثم حل السلام محل الثورة والحرب ، فامتلاً قلب الأنبا إبرآم طمأنينة على شعبه الأمين . وكانت أيامه على هذه الأرض قد بلغت منتهاها رغم أنه لم يكن قد قضى على السدة المرقسية غير ثلاث سنين ونصف . ولكن هذه المدة - على قصرها - كانت مليئة بالأحداث حتى وكأنها دهر^(٢) .

(١) راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٧٣ .

(٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الإنجليزية بسى عبد المسيح وعزيز سورمال عطية وأوسولد برمستر - المجلد الثانى - الجزء الثانى ص ١٢٥ - ١٥٠ ، كتاب تاريخ الأمة القبطية ص ١٠٩ - ١١٠ ليعقوب نخلة روفيلة .



نحت على الخشب صُور به الفنان ميلاد المسيح له المجد يزین
حجاب كنيسة أبی سرجة بباهلون (مصر عتيقة) ويرجع أنه
يرجع إلى القرن التاسع .

٣٧ - وكان لتعاقب الليل والنهار أثره إذ قد خلا الكرسي المرقسى . وقد خلا هذا الكرسي المجيد فى وقت خلا فيه عرش البلاد أيضاً . على أن العزيز بالله اعتلى عرش أبيه المعز بهدوء وانسجام . وكان حاكماً ممتازاً : فارساً ، بأسلاً ، وسيماً ، كما كان صياداً ماهراً وقائداً جسوراً . وفوق هذا كله فقد كان مرهف المشاعر ، ميالاً إلى السلام ، ذا طبيعة سلسة ، يمتد أراقة الدماء وينفر من التخاصم ^(١) . ومثل هذا الملك كان منحة إلهية للشعب المصرى المسكين الذى كان قد ذاق الأمرين تحت نير الولاة الظالمين ، والذي كان متلهفاً الى تلك الحرية اللازمة لكل إنتاج فنى أو علمى . فهياً العزيز للمصريين هذه الفرصة السعيدة وأتاح لهم أن يتنفسوا الصعداء .

٣٨ - وابتهج القبط بهذه الفرصة ، وسعدت نفوسهم بسلام داخلى شامل انعكس فى ما أنتجوه من روائع فنية لا تزال تشهد بذوقهم الرفيع . وربما كان الهدوء الذى سرى إلى قلوبهم سبباً فى أنهم ظلوا ستة شهور دون أن يجتمعوا للتشاور فى اختيار من يجلس على السدة المرقسية وبعد انقضاء هذه الفترة ، اجتمع الأساقفة والأراخنة فى القاهرة ليتداولوا معاً . وفيما هم يوازنون مزايا بعض الرهبان الصالحين ذكر بعضهم اسم يونس المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير ، ووافقت الأغلبية على انتخابه . ومن ثم انتدبوا وفداً منهم ليذهب إلى برية شيهيت ويأتى بهذا الراهب الفاضل . وتوجه الوفد إلى الدير حيث نجحوا فى استصحاب يونس هذا مع تلميذه فيلوثيريوس . ولما وصلوا به ، أمعن الأساقفة النظر فى يونس وابقنوا أنه كهل ، يصعب على من فى سنه تولى القيادة ، فأثروا أن ينتخبوا تلميذه فيلوثيريوس إذ توسموا فى هدوء ووقاره الكفاءة اللازمة لقيادة دفة الكنيسة . واتفقوا على رسامته دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن شخصيته . فبادروا بالسفر إلى الاسكندرية حيث رسموه الخليفة الثالث والستين للقديس مرقس سنة ٦٨٧ ش (سنة ٩٧١ م) .

٣٩ - وفى تلك الآونة كان فى ديوان الخليفة نفر من القبط يتمتعون بتنفيذ واسع . وكانوا جميعاً من عائلة واحدة هى عائلة بنى المطيع . على أن هؤلاء الرجال كانوا مستبدين . إستغلوا مركزهم لفرض سلطانهم حتى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ١١٩ .

على البابا الاسكندري . فاشترطوا عليه أن لا يرسم أسقفاً على أية ايبارشية من غير موافقتهم . ومع ما فى هذا الشرط من غرابة ومن خروج على القوانين الكنيسة ، فقد نزل الأنبا فيلوثيريوس على رغبتهم . فكان لرضاه هذا أروخ العواقب . ذلك لأن بنى المطيع لم يكن لهم من هدف غير تكديس المال . فكانوا لا يقيسون المرشح للأسقفية إلا بمقدار ما يستطيع تقديمه لهم من مال وهكذا أهانوا كرامة الكهنوت إذ جعلوا السيمونية ^(١) قاعدة التعامل . ومن المحزن أن خليفة مارمرقس ترك الجبل على الغارب لبنى مطيع فلم يحاول أن يردعهم ، ولم يتراجع عن تسليمه لشرطهم ، بل لم يذكرهم بأن تدخلهم فى الرسامة غير مشروع من أساسه .

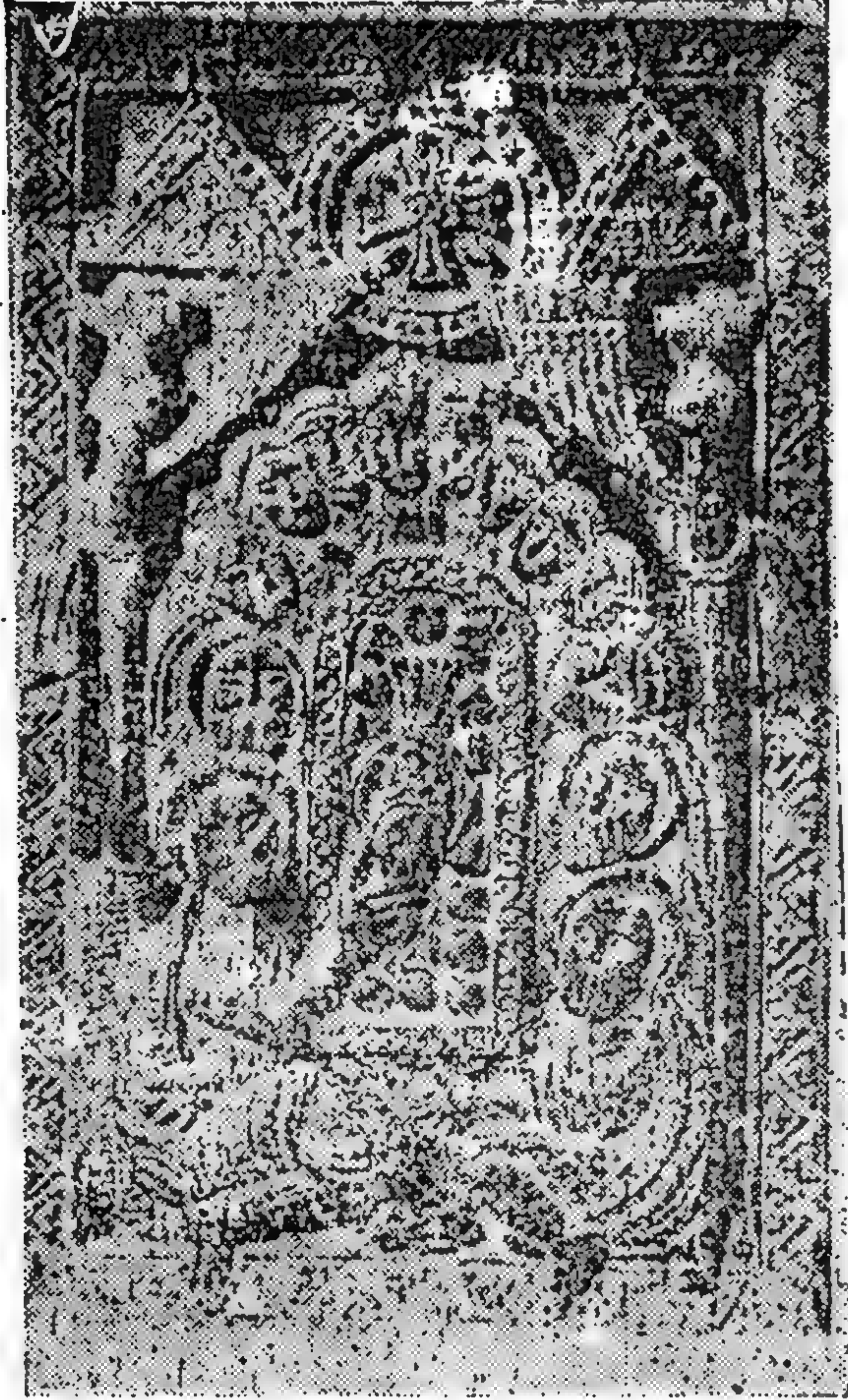
٤ - وقد ضاعف المأساة فى هذا الموقف المحزن أن القبط فى تلك الآونة كانوا يستمتعون بالحرية التامة ^(٢) . ومقابل تراخى البابا الاسكندري أبدى الخليفة العزيز همة عالية فى نشر روح التسامح والتفاهم فكان كثيراً ما يدعو الأنبا ساويرس (كاتب سير البطاركة) ليتناقش مع القاضى ابن النعمان . فكان كل منهما يستعرض أهم تعاليم دينه فى حضرة الخليفة ورجاله . فيستمتع الجميع لهذه المناقشات فى هدوء ورضى . ولم يقف تسامح الخليفة عند هذا الحد ، بل أنه كان يرفض أن يلحق الأذى بالمسلم الذى يعلن انضمامه لدين المسيح ^(٣) . كما أن أحد هؤلاء المنتصرين - واسمه الواضح بن الرجاء - أتاحت له الفرص لأن يتناقش ويلقى الخطب اللاهوتية علناً أمام المسلمين والقبط على السواء ^(٤) . وكان الواضح صديقاً حميماً للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين وكاتب سير البطاركة . فليس بمستغرب أن القبط انتجوا فى العصر الفاطمى - وبخاصة فى أيام خلافة العزيز - من روائع الفن ما يشهد لهم بأنهم كانوا جديرين بأجدادهم

(١) السيمونية نسبة إلى سيمون الساحر الذى أراد أن يبتاع المواهب الإلهية بالفضة - راجع أعمال الرسل ٨ : ١٨ - ٢٠ .

(٢) بل أن نفوذ الخليفة الفاطمى كان قد امتد إلى اليمن فخطب له على منابر اليمن فى صلوات الجمعة - راجع « مصر ورسالتها » لحسين مؤنس ص ١١٥ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزیز سورمال عطية ص ٨٩ .



نحت على الخشب صورَ به الفنان معجزة أشباع الآلاف بالخمسة
خيزات والسمكتين - وهو أيضاً يزين حجاب كنيسة أبى سرجة
بيابلون (مصر عتيقة)

ويجدر الانتباه إلى أن الفنان رتب الجالسين حول مائدة - مما يدل
على النظام الذى كان سائداً فى العصر الذى تمت فيه هذه الصورة .

الفراعنة . وقد ترعرعت فتون عديدة اذ ذاك كالنسيج ، والحفر على الخشب والعاج والمعادن المختلفة ، ونحت المرمر . كذلك شيدت الكنائس والأديرة فى مختلف البلاد المصرية ^(١) . فكان لهذا التسامح الملكى الكريم أثره فى حفظ توازن الأمور القبطية - إذ أن الأنبا فيلوثيريوس الذى بدأ بالرضى على أعمال بنى مطيع انتهى إلى مشاركتهم طمعهم ومكاسبهم وقمع باقتناء الكماليات المريحة لجسمه دون أن يعبا بما يعانيه بعض أبنائه من فقر وحاجة أو ما قد يواجهونه من مشاكل . ومثل هذا الانزلاق أمر طبيعى : لأن من اعتاد أن يهادن الرذيلة انتهى به الأمر إلى استحسانها ، ومن دأب على السعى وراء الفضيلة إزداد تعلقاً بها وسعياً وراءها - ولا عجب فقد قال المسيح له المجد : « من له يعطى ويزاد » ^(٢) .

٤١ - على أن الآب السماوى الذى وعد أن يكون مع كنيسة إلى الانقضاء قد تداركها بوسع رحمته فهياً السبيل لإعادة الصلات بين الكنيستين القبطية والحبشية . وقد تم التصالح بين الكنيستين نتيجة لشفاعته ملك النوبة فقد بعث ملك الحبشة بخطاب إلى جرجس ملك النوبة يصف له فيه بالتفصيل الثورة التى قادتها ملكة الحاموية ضده ، وانتصارها عليه ، والخراب الذى أحدثته فى بلاده . وبعد هذه التفصيلات رجا ملك الحبشة من أخيه ملك النوبة أن يشفع فيه وفى قومه عند البابا الاسكندرى ، معترفاً له بأنه هو وشعبه مقتنعون بأن كل هذه الويلات قد أصابتهم عقاباً لهم على مسلك آباءهم مع أسقفهم الذى كان قد رسمه لهم الأنبا قزما الثالث - خليفة مارمرقس الثامن والخمسون ^(٣) . واختتم ملك الحبشة خطابه هذا بقوله : « لهذا كله أتوسل اليك أن تشاركنا آلامنا حباً فى الله ، واکراماً للإيمان الواحد الذى ندين به - اكتب إلى الأب البطريك ، وأرجو منه يحلنا ويحل شعبنا من رباطات خطايانا ، وأن يصلى لأجلنا ليبدد الله تعالى كل هذه البلايا التى حافت بنا . كذلك استعطف لنا الآب

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسيه) الجزء الثانى المبحث لجاستون فيبيت ص ١٨١ وما تجدر الإشارة اليه هنا أنه تخلفت عن هذا العصر خريطة مصنوعة من الحرير ومرسومة بالذهب والألوان - راجع أيضاً تاريخ مصر فى العصور ... ص ١١

(٢) مت ٢٥ : ٢٩ .

(٣) راجع سيرته فى الجزء الثانى لهذا الكتاب .

البطريك ليرسم لنا أسقفاً راقية بنا حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ،
إذ لنا الآن ما يربو على ستين سنة هائمين بلا راع . فقد رفض خمسة من
البهاوات الاسكندريين المتعاقبين على السدة المرقسية أن يرسموا لنا أسقفاً .
وأدى حرماننا هذا إلى نقص متزايد فى عدد الكهنة لأنه لم يوجد بيتنا من
يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أى كاهن . فكانت النتيجة وبالأ
علينا وتدهورت حياتنا الروحية ^(١) .

وما أن اطلع جرجس ملك النوبة على خطاب العاهل الحبشى حتى بادر
بارسال خطاب على جناح السرعة إلى الاتبا فيلوثيرتوس ، وصف له فيه ما
يعانيه الأحباش عن آلام مريرة ، وأضاف اليه توسلاته لإتقاذهم برسامة
أسقف لهم وقد كملت مراحم الله لأن هذا البها الاسكندرى صحا إلى
مستوليته هذه المرة ورأى أن يتتقى راهباً صالحاً ليرعى الشعب الحبشى
المتروجع ، وانتهج المنهج الصحيح المنصوص عليه فى القوانين الكنسية بدلاً
من اتباع القاعدة التى كان سائراً عليها منذ اتفاده مع بنى المطيع . فانتخب
راهباً ورعاً اسمه دانيال مترهباً بدير الأنبا مكارى الكبير ، ورسمه وأرسله
لفوره إلى بلاد الحبشة . وحالما وصل الأسقف الجليل إلى مقر كرسيه سعى
جهده إلى تهدئة الخواطر وكانت للصلوات الحارة التى رفعها إلى عرش
النعمة استشفاعاً فى شعبه أثراً كبيراً ، فاستطاع الملك أن يقهر الثوار
ويعيد السلام إلى بلاده . وهكذا تجمع شمل الإخوة المتفرقين ، وعادت
السكنة إلى الكرازة المرقسية بتآزر أبنائها وتآلفهم فى القطرين المصرى
والأثيوبى .

٤٢ - وكان للحياة الوداعة التى ثبت العزير أركانها أثرها فى
النفوس ، فزادتها نشاطاً وبهجة . وانصرف المصريون الى تجاراتهم وزراعتهم
وصناعاتهم فى أمان ، وبالتالى ازداد دخلهم فعم الرخاء ودفع الجميع
الضريبة بسهولة ورضى . وهنى الأغنياء قصوراً فخمة ، وشجعوا الفنون
الجميلة ، واستمتعوا بما فى الحياة من جمال . ولما كان القبط ذوى نزعة
روحانية فقد هيات لهم هذه الفرصة أن يرضوا نزعتهم هذه ببناء الكنائس
العديدة وتجميلها ، وتجديد الأديرة وزخرفتها ، ثم هوقف العقارات عليها

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

عن سعة . وأحاطوا هذه الكنائس وهذه الأديرة بالحدائق فكان الخلفاء يستمتعون بجمال هذه الحدائق إذ كانوا يقضون فيها أيام الراحة والاستجمام . وقد تغنى الشعراء والمسلمون بالأيام الهنيئة بين الطبيعة الرائعة فى تلك الحدائق . وأبرز هؤلاء الشعراء الشايشتى أمين المكتبة الملكية التى انشأها الخليفة العزيز ، أبو بكر محمد الخالدى ، أبو عثمان سعد الخالدى ، أبو الفرج الاصفهانى ، ابراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق الذى قال يتشوق إلى مصر :

هل الريح أن سارت مشرقة تسرى	تؤدى تحياتى إلى ساكنى مصر
فما خطرت إلا بكيت صباية	وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى
لأنى إذا هبت قبولا بنشرهم	شممت نسيم المسك من ذلك النشر
فكم لى بالأهرام أو دير نهية	مصيد غزلان المطايد والقر
وفى بئر دوس مستراد وملعب	إلى دير مارحنا إلى ساحل البحر ^(١)

وأعظم الأيام التى قضاها هؤلاء الشعراء فى الأديرة كانت تلك التى يحتفل فيها الناس بأعياد ذكرى الشهداء والقديسين^(٢) . يتقاطر فيها الجماهير إلى الكنائس أو الأديرة فيمضون نهارهم بين الصلاة ثم الاستراحة تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ويصفون فى المساء الى سيرة الشهيد أو القديس يرتلها الكهنة والرهبان . وكانت هذه السيرة تنتهى عادة بمواكب غاية فى الروعة^(٣) .

ولقد كان الانسجام بين العزيز بالله وأمرائه وبين القبط بالغاً الى حد أن الوزير اليهودى بن كلس عبر عن حقه فى أبيات شعرية ساخرة قال فيها بأن من يبتغى الربح عليه أن يعتنق المسيحية فهى دين الحق ودين

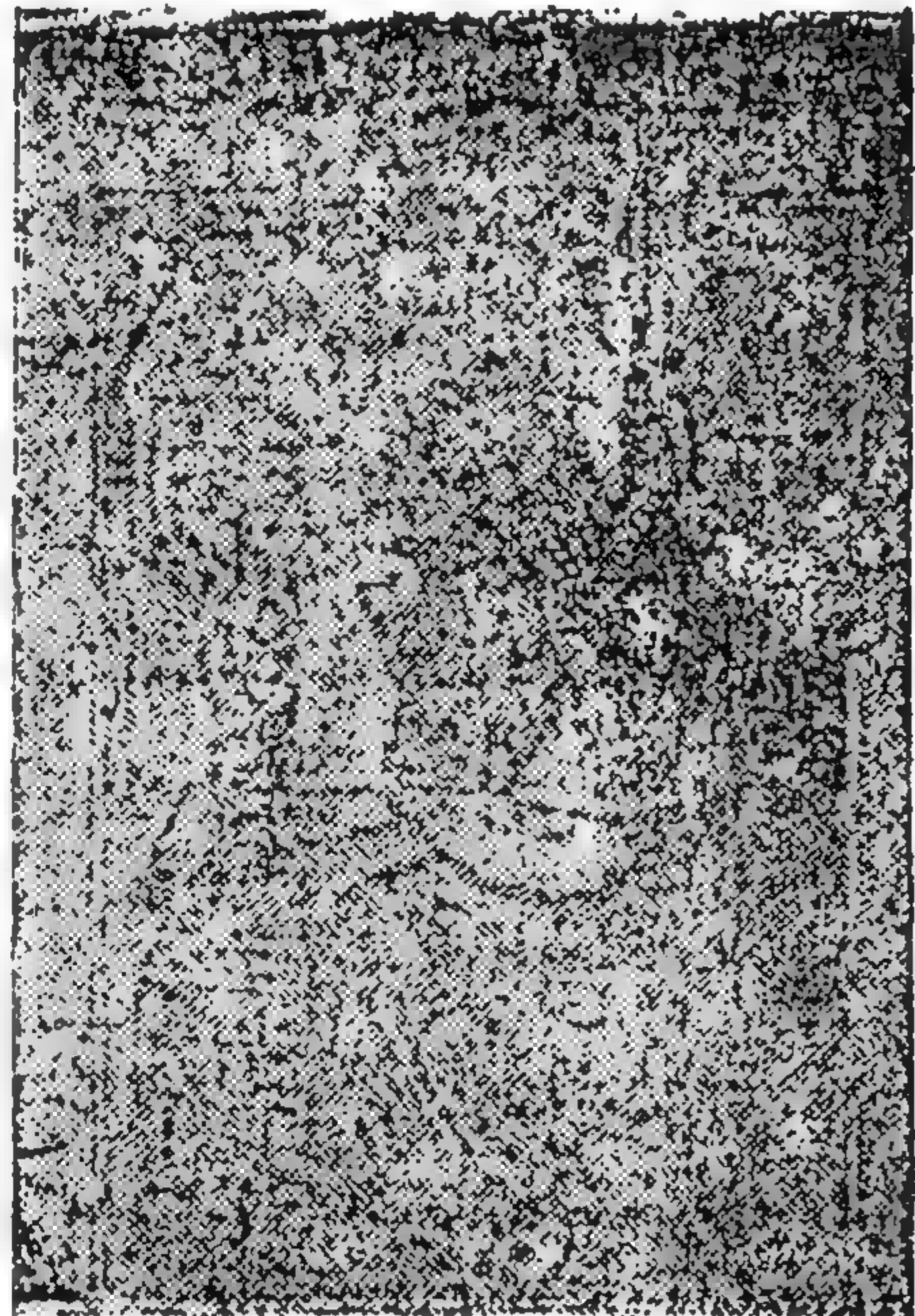
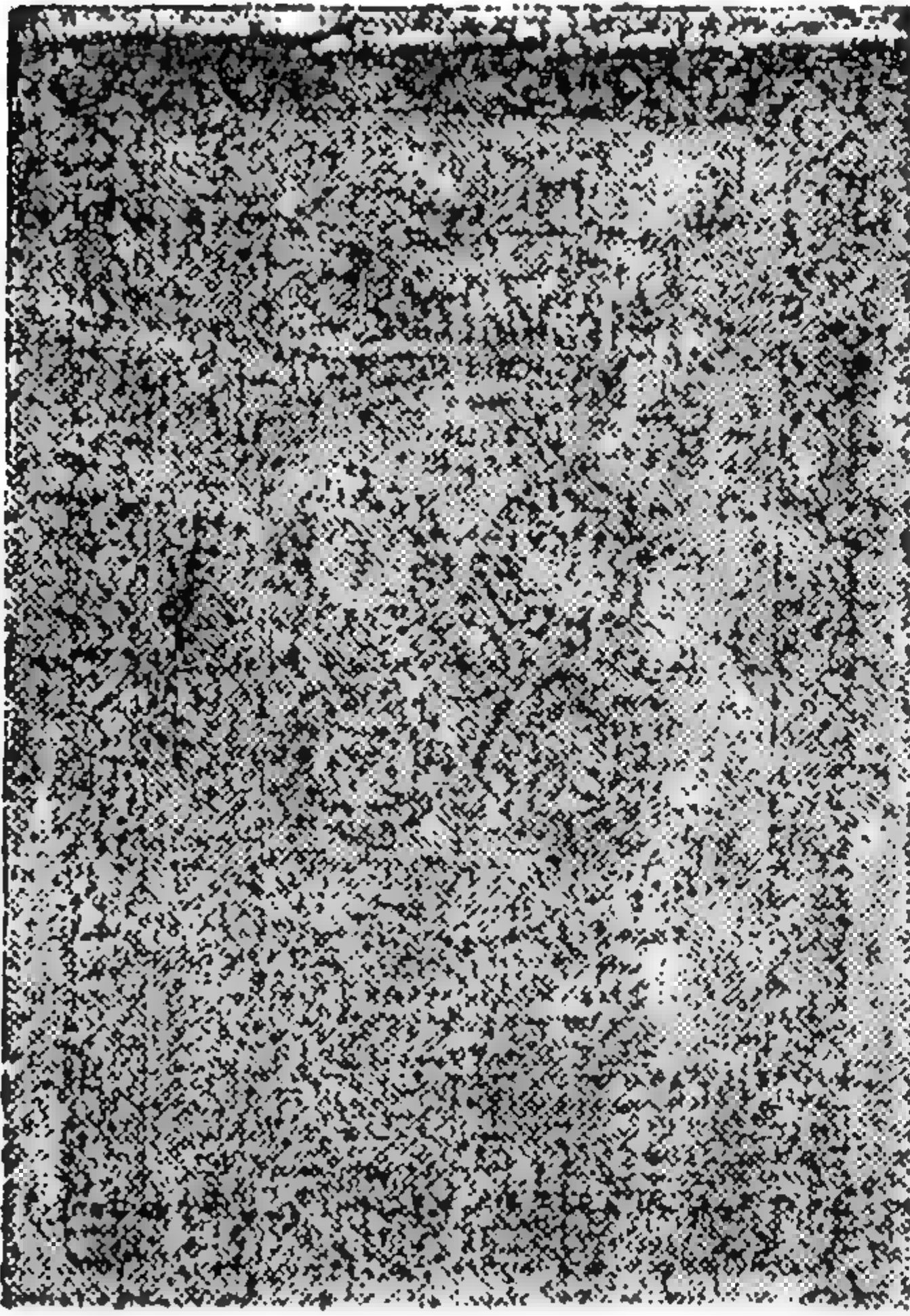
(١) المخطوط للمقرزى ج ١ ص ٣٧ .

(٢) راجع مقال الدكتور عزيز سوريال عطية نشره بالانجليزية فى مجلة جمعية الآثار القبطية عام ١٩٣٩ ص ١ - ٢٨ وعنوانه : « بعض الأديرة المصرية نقلاً عن مخطوط الشايشتى لم ينشر بعد وهو (كتاب الديارات) » .

(٣) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ولا تزال هذه العادة سائدة الآن إذ تتقاطر الجموع على الكنائس والأديرة فى أيام الذكرى الخاصة بالقديسين والقديسات ولا يعرف روعة هذه الزيارات المباركة إلا من أسعدته العناية الإلهية بتأديتها بنفسه .

المغانم معاً ١ على أن مثل هذه السخرية لم تؤثر إطلاقاً في نفس العزيز بالله بل أن كلس هذا جاءه ذات يوم يشتكى بأن شخصاً ما كتب بعض الأبيات فيها تعريض بهما . أجابه العزيز : « ان نصف الإهانة خاص بنا فاشترك معنا في نصف المسامحة »^(١) .

ومن بين الذين نالوا منزلة سامية في عيني هذا الخليفة طبيب قبطي اسمه ابر الفتاح بن مقشر . فقد بلغ التعاطف بينهما حداً بعيداً حتى أن الطبيب حين تمائل للشفاء من مرض كاد يفتك به بعث اليه الخليفة برسالة غاية في الرقة . وقد أمتد العمر بهن مقشر فاستمر يمارس مهنته بوصفه طبيباً للخليفة في أيام الحاكم بأمر الله أيضاً^(٢) .



صور فريدة على رقع بالألوان الزاهية
محفوظة على إحدى صفحات مخطوطات
المتحف القبطي وترجع إلى القرن العاشر
الميلادي غالباً وتمثل القديس يوحنا
الرسول يحمل الإنجيله
منظر يمثل صفحة من مخطوط قبطي قديم
وقد زين بزخارف نباتية وهندسية بالألوان
والتذهيب بدقة رائعة ، وقد استعملت
تلك الزخارف في تزيين كثير من صفحات
المصاحف الإسلامية القيمة الهامة .

(١) تاريخ الأمة المصرية ... ص ١٨٨ ، ١٩٤ .

(٢) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي لعبد الرحمن زكي ص ٢٢ .

وفى العصر القبطى انتقلت شعلة الفكر والتأليف واقتناء المؤلفات الى الديورة والكنائس القبطية القديمة وتبوات مكانة الهياكل المصرية فى العناية بجمع نفائس المخطوطات والمصنفات الدينية وقلما يخلو دير أو كنيسة من مكتبة زاخرة بكثير من الكتب الخطية على اختلاف انواعها - وكان يوجد فى كل دير عادة فئة خاصة من الرهبان كانت مهمتها القيام بالنسخ وتجليد المخطوطات . وقد فطن علماء الغرب منذ أزمان بعيدة الى أهمية تلك المخطوطات القبطية فتهاافتوا الى اقتناء أكبر مجموعة منها ونشطوا فى حركة جمعها بكافة الطرق والوسائل وبذلك تسرب الكثير من كنوز تلك المخطوطات إلى أمهات مكتبات العواصم الأوروبية والأمريكية وكلها تعتبر تحفاً فنية نادرة وخصوصاً فيما تحويه من سمو الموضوعات وعلى الأخص الدينية واللاهوتية منها كما أن الكثير من صفحاتها تزدان برسوم رائعة بالألوان الجميلة الزاهية المزينة بالليقة بدقة وإتقان يأخذ بالآلحباب .

ومن مميزات العصر القبطى التى تسجل بالفخر والتقدير الكبير أنه العهد الذى بدأت تظهر فيه صناعة الكتب لأول مرة فى تاريخ العلم . إذ فيه بدأت فكرة تكوين المخطوط من صفحات بأرقام متسلسلة وقبلاً كانت تستعمل اللقائف البردية أو المدارج والأسفار أو الشقاقة أو العظام أو قطع الأحجار أو اللوحات الخشبية . وكان من نتيجة انتشار الكتب والمخطوطات أنها مهدت لنشر العلوم على اختلافها وبدأت فكرة الثقافة والمعرفة تسرى فى جميع أنحاء العالم وانتشرت المكتبات كثيراً على أثرها ^(١) .



٤٣ - وكان العزيز - إلى جانب تسامحه وكرمه - ولوعاً بالعلم يرغب رغبة أكيدة فى أن يرفع الشعب بتعليمه وثقافته . وقد وجد أن خير وسيلة للوصول الى هدفه فى إنشاء جامعة داخل الأزهر الذى كان قد تم بناؤه قبيل دخول المعز مدينة القاهرة . وهكذا أسس أقدم جامعة لا تزال

(١) عن مقال للدكتور رؤوف حبيب مدير المتحف القبطى السابق نشره فى جريدة وطنى يوم الأحد ٢٦ أكتوبر ١٩٦٩ بعنوان « المصريون أول من أبدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة الاسكندرية » .

تحمل مشعل العلم حتى الآن . ثم أنه كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الاسلامى ^(١) .

كذلك أقر العزيز الرخاء بتشجيعه الصناعات . ومن أبرز الأدلة على عنايته بهذا النوع من الإنتاج النسيج المعروف بالديبقي (نسبة الى ديبق من قرى دمياط) . والديبقي نسيج من الحرير الملون فيه رقعات منسوجة من الذهب الخالص حتى لقد كان الذهب فى القطعة الواحدة يبلغ ثمنه خمسمائة دينار عدا الحرير والغزل ^(٢)

ولقد حكم العزيز واحداً وعشرين عاماً ، ولو أنه حكم ضعف هذه السنين لتضاعف فرح المصريين قاطبة لأنه دفع بهم إلى طريق الرخاء دفعة صادقة نادرة المثال . ولقد روى لنا المؤرخون كلمة جاءت على لسان هذا الخليفة الكريم تبين لنا مدى اهتمامه بالشعب وهى : « انتى أرغب فى أن أرى الرخاء فى كل بيت ، وانه ليسعدنى أن أرى اليوم الذى أستطيع فيه أن أعطى كل شعبى نصيبه من الفضة والذهب والحجارة الكريمة والبيوت والحقول ^(٣) .

واستنشق القبط نسيم الحرية فى غبطة وطمأنينة رغم ما كان يملأ أفئدتهم من الألم لضعف باباهم . فاستلهموا من ماضيهم الأمل لمستقبلهم ، وذكروا أنفسهم بالأمثلة التى لا تحصى فى تاريخهم عن العناية الإلهية الشاملة . فظلت ثقتهم فى مصير كنيستهم راسخة تدعما ثقتهم فى الله تعالى .

على أن الأنبا فيلوثيريوس رغم تراخيه قد بنى فى الجهة الشمالية من سطح كنيسة القديس شنودة ببابلون كنيسة باسم القديس فلثاؤوس تشغل ثلث مساحة الكنيسة الأصلية . كذلك شيد مقصورة على اسم السيدة العذراء ملاصقة للخورس القبلى بتلك الكنيسة ^(٤) .

٤٤ - وحدث فى يوم من أيام الأحاد أن كان الأنبا فيلوثيريوس يسودى

(١) القاهرة : تاريخها وأثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٢) المخطط للمقرئى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣) مختصر للمقرئى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٤) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفرد بطلر ج ١ ص ١٤٨ .

شعائر القداس الإلهي في كنيسة مارمرقس بالاسكندرية . وبينما هو يرفع
القربان المقدس إذ به يصمت فجأة . وكان أسقفان يحضران الصلاة معه ،
فظنا أن موجة من النسيان طغت عليه فأسكتته ، ورددا على مسمع منه
الكلمات التي كان قد وصل إليها في الصلاة ، لكنه ظل صامتا رغم هذا .
فكررا الكلمات ثانية ووجداه على صمته . وعندنا تقدم الأنبا مرقس أسقف
البهنسا - وأكمل القداس عرضاً عنه . وفي الوقت عينه حمل الشمامسة
البابا الاسكندري إلى غرفته إذ وضع للجميع أنه مريض .

ولما انتهت الشعائر الدينية صعد الأساقفة والكهنة وأراخنة الشعب إلى
الدار البابوية للاستفسار عن صحة الأنبا فيلوثيروس . فوصف لهم
بالتفصيل الرؤيا التي رآها والتي أسكتته مما زاد في مرضه . إذ لم يتفوه
بكلمة واحدة بعد ذلك . وبعد أيام قليلة انتقل إلى دار الخلود بعد أن قاد
دفة الكنيسة مدى أربع وعشرين سنة وثمانى شهور ^(١) .

أما الأنبا مرقس أسقف البهنسا الذي أكمل القداس الإلهي حيث تركه
البابا فيلقب بالكاتب . ويقول عنه القمص ميصائيل بحر أنه كان حاضراً مع
بابانا عند كتابة الرسالة المبعوث رداً على استفسار البطريرك أثناسيوس
الانطاكي . ويمكننا الاستنتاج من تلقيب الأنبا مرقس بالكاتب ومن وجوده
ساعة كتابة الرسالة أنه هو الذي كتبها ولو أن أحداً لم يذكر هذا . وسواء
أكان الأنبا فيلوثيروس البابا هو الذي كتبها أو كتبها الأنبا مرقس الكاتب
فهى تدل صراحة على أن الآباء كانوا محافظين على العقيدة الأرثوذكسية
التي تسلموها عاملين على توضيحها لمن يسألهم عن الإيمان الذي فيهم .
فقد جاء في هذه الرسالة : « ... أعلم أن الله الابن الكلمة بتجسده خلق
له جسداً في بطن العذراء واتحد به وكان ذا نفس ناطقة عاقلة وهو البشر
التام الذي اتخذه من غير نقص واتحد به الكلمة بوحداًية اقنومية لا تنحل
... والقول بأن الله تألم ومات وإنما بجسده وإرادته من أجلنا قول صحيح
ومستقيم ... لذا فإن الآلام والموت الحاصلة للجسد قد حسبت لهذا الواحد ،
لهذا الإله المتأنس ... وإنما موت المسيح تعالى كان بمفارقة نفسه لجسده

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعي البرموسي عن النسخة
المحفوظة بديره ج ١ ص ٣١٢ - ٣٢٤ .

فقط بحيث أن لاهوته لم يفارق أحدهما طرفة عين ولمح البصر فكان اللاهوت ملازماً للجسد على الصليب وفي القبر كما أنه كان ملازماً النفس حال نزولها إلى عالم الأرواح البررة . قال أثناسيوس الرسولى : « أن الرب نزل إلى الجحيم لا بجسده بل بروحه وضبط كل الأرض لئلا تهلك قبل وقتها وأراق دمه عليها ليحفظها ويحفظ ما فيها وترك جسده معلقاً فى الهواء من أجل حفظ العناصر ونزلت روحه القدوسة إلى الجحيم ويشرت من كان فيه بالنجاة ، نهب الجحيم وضبط الكل بجسده ، حملت روحه الأنفس التى كانت فى الجحيم حين كان جسده معلقاً على الصليب . وفى ذلك الوقت انفتحت القبور . ولما أبصره بواهب الجحيم جزعوا وهربوا . ومن ثم سحق أبواب النحاس وكسر متاريس الحديد . ولما حملت روحه الأنفس سكان الجحيم صعد بهم إلى أبيه ... » (١١) .



(١) عن مقال للقمص ميصاتيل بخر خاص باقليم المنيا فى العصر القبطى فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة العددين الثالث والرابع (مارس وأبريل سنة ١٩٦٢) ص ٣٣ - ٣٤ .

ج - جرجس المزاحم

٤٥ - بينما كان المصريون جميعاً يتنسمون عبير الحرية والاستقرار فى عهد العزيز بالله سرت بين بعض الرعاى من المسلمين موجة من الحق حين رأوا القبط يصلون إلى منصب الوزير ويحوزون رضى الخليفة وثقته . فكانت الأزجال والأقاويل الساخرة تتردد من فم لقم إلى حد أن بعض الشعراء كانوا يزجون بكتاباتهم فى يده وهو سائر فى الطريق . ومع أن العزيز ظل على تسامحه رغم كل هذه الأقاويل إلا أنه حاول تهدئة الخواطر بالمسألة أولاً ولكنه اضطر فى نهاية الأمر إلى استعمال الحزم لإقرار السكينة (١) .

وفى فترة الحق والتوتر حدث بعض الشغب فى عدد من الأقاليم . ومن أقوى هذه الحوادث ما جرى فى منطقة طلخا . وكان السبب فى ذلك رجل اسمه جرجس المزاحم . ذلك أن جرجس هذا كان ابن امرأة مسيحية من أب مسلم . وكان اسمه « مزاحم » فى صباه . وقد قضى الإثنى عشرة سنة الأولى من عمره على دين أبيه . على أنه فى هذه السن لاحظ أن أمه تذهب إلى الكنيسة فى يوم الأحد فأحس برغبة ملحة فى أن يتبعها ويرى ماذا تفعل داخل الكنيسة . ثم رجا منها عند عودتها أن تعطيه جزء من القربانة التى معها فلما ذاقها استلذ طعمها . وبعد ذلك استمر فى تتبع أمه . واستقر رأيه فيما بينه وبين نفسه أن يصير مسيحياً . ومن ثم اعتاد أن يتردد على الكنيسة . وفى عيد السيدة العذراء قصد أنها زخاروس أسقف دمياط ونال المعمودية على يدى أحد كهنته واتخذ اسم جرجس . ولهذا أصبح معروفاً باسم جرجس المزاحم . وبعد ذلك تزوج من سيولا ابنة القمص أبانوب راعى كنيسة بساط النصارى .

ولما علم أهله بحقيقة أمره أرادوا أن يقهضوا عليه بقصد إرجاعه إلى دين أبيه . فخافت عليه زوجته وهرته . وعندها ضربوها ضرباً مبرحاً . ثم اشتغل فى معصرة للزيت فترة من الزمن . ولكن المتربصين به عزفوا مكانه فبدأ بينهم وبينه صراع بلا هوادة : فتارة يلقونه فى السجن وأخرى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ پول ص ١٢ .
« تاريخ الكنائس الشرقية » (بالانجليزية) لعزيز سورمال عطية ص ٨٨ .

يضربونه ، ومرة يعذبونه وأخرى يحاولون اغراء بالمقتنيات العالمية . على أن والى المنطقة حاول اقصاصهم عنه وعرفهم بأنه كتب للسلطان يستفهم منه عما يجب عمله بمثل هذا الرجل . وبالفعل تركوه أسبوعاً فى السجن من غير أن يتعرضوا له إطلاقاً . وكان هو خلال هذه الأيام يصلى بلا انقطاع ويستشفع برئيس الملائكة ميخائيل . قرأه فى نصف الليل داخلاً زانزانتة وهو يحمل رداء أبيض كالثلج وقال له : « افرح يا جرجس يا عبد يسوع المسيح . ان لى اليوم أسبوعاً أسال الرب عنك ، فأرسلنى الليلة اليك بهذا الرداء لتكون لك به قوة . فتقدم الى لأعطيك به » . وأطاع جرجس الأمر . وحين نشر الملاك الرداء عليه صار واحداً مع جسده . ورسم عليه علامة الصليب ، توارى عن عينيه .

وفى اليوم التالى بدأ جهاده . فكان الحائقون عليه يعذبونه الى أن بداخلهم الشك فى أنه مات فيتركونه ملقى فى السجن ويذهبون لحال سبيلهم ويعودون اليه فى اليوم التالى فيجدونه ما زال على قيد الحياة فيعاودون تعذيبه . واستمروا على هذا الحال من الحادى عشر الى الثامن عشر من بؤونة ٦٩٥ ش (سنة ٩٧٩ م) . ثم جاءهم رسول السلطان الى الوالى يحمل خطاباً فيه الأمر بترك جرجس وشأنه . وقد قال الرسول السلطانى شفاهياً بأن اثنين من سكان القاهرة قد اعتنقا المسيحية وأن السلطان تركهما وشأنهما (عدا الواضح بن الرجاء) . ولكن حدة الغضب التى كانت قد استولت على القلوب جعلتهم يتجاهلون أمر السلطان . وفى صبيحة يوم الخميس ١٩ بؤونة ذهبوا الى السجن وقالوا لجرجس بأن عليه أن يختار بين الموت وبين انكار المسيح . ولكن تهديدهم ضاع هباء منثوراً إذ أعلن لهم استعدادده لتقبل العذاب لا الموت فقط . وعندها اخرجوه خارج البلدة وساروا به الى شاطئ البحر وهناك ضربه على رأسه الى ان تحطمت ثم قطعوا جسده ورموا بالأجزاء فى البحر .

وحدث فى اليوم عينه ان شماساً كان ماشياً عند الشاطئ فسمع صوتاً يقول له : « يا أيها المؤمن المار على هذا الشاطئ - باسم المسيح انتظر الى أن تقلف الأمواج اليك بجزء من جسد الشهيد جرجس المزاحم . فخذ وأعطه لزوجه المباركة سيولا » . وانتظر الشماس حسب الأمر . وأخذ الجزء الذى قذفت به الأمواج الى بيته . وأعطاه لأمه وأبلغها الرسالة التى

سمعها . فأخذت أمه الرفات ولفته بقماش أبيض وأوصلته الى السيدة البارة سيولا ، التي وضعتة بدورها فى بيت أبيها فترة من الزمن ثم فى الكنيسة بعد ذلك . وقد جرت منه آيات وعجائب عديدة ^(١) .



(١) عن المخطوط المحفوظ بكنيسة القديس الشهيد جرجس المزاحم - كتبه الراهب مينا الذى ضمن هذا القديس أمام الوالى حينما كان الوالى متردداً فى أمره . وقد عثر على هذا المخطوط إلى جانب الأنهوية التى تحترق على رفات القديس الشهيد فى هيكل الكنيسة المسماة باسمه . وهذه الكنيسة تقع الآن تحت كنيسة السيدة العلراء القائمة فى بساط النصرى ، الستكسار الأثينى....ترجمة واليس بودج ج٢ ص ١٠١٣-١٠١٥ .

السحب تتكاثر

- ٤٦ - وصاية برجوان على ولي عهد العزيز بالله .
 ٤٧ - سكرتير قبلى لبرجوان .
 ٤٨ - تلاعب التاجر ابراهيم بن بشر .
 ٤٩ - ارادة الله تعالى تتجلى بصورة عجيبة .
 ٥٠ - الاتباز كريا يعطى خاطر ابراهيم بن بشر .
 ٥١ - شيع سنين رخاء .
 ٥٢ - النعيم يقلب رؤسا .
 ٥٣ - الاحكام الشاذة تقع على قوم دون غيرهم .
 ٥٤ - رمى الاتباز كريا للاسود .
 ٥٥ - حرق كنيسة القيامة بالقدس الشريف .
 ٥٦ - صوت من الجراة والبسالة .
 ٥٧ - جهود بغيرة فى خدمة المجتمع ورعاية ابن القسطل للشعب .
 ٥٨ - الابن الضال يرجع الى نفسه^(١) .
 ٥٩ - الراهب يمين .
 ٦٠ - الخصب بعد الجذب .
 ٦١ - ولع الحاكم باحاطة نفسه بالخفاء .
 ٦٢ - الغموض المحيط باختفاء الحاكم .
 ٦٣ - نياحة الاتباز كريا .
 ٦٤ - مدى حنان هذا البابا الاسكندري .
 ٦٥ - يولس بن الرجاء .

٤٦ - وأنتهت الواحد والعشرون سنة المرسومة لحكم العزيز بالله ، ففاجأته المنية وهو فى حمامه فى بلبيس سنة ٩٩٦ م وكان له ابن دعاه الحاكم بأمر الله . وكأنه استشعر فى أعماق نفسه أنه قد يموت قبل أن يبلغ وحيدته سن الرشد ، فرتب عناية منه بالشعب - أنه فى حالة انتقاله الى الدار الباقية وابنه قاصر يقوم بالوصاية عليه وزيره برجوان . وحدث أن توفى العزيز وابنه فى الحادية عشرة من عمره ، فتولى برجوان الوصاية عليه تنفيذاً لوصية العزيز وكان برجوان عبداً سلاقونياً^(٢) تربى فى قصر الخلافة وأبدى من المهارة ما أكسبه ثقة الخليفة فرقاء درجة حتى أقامه وزيراً ، ثم أوصى باقامته وصياً على ابنه القاصر . فلما وجد برجوان نفسه صاحب نفوذ واسع وثروة طائلة امتلأ غروراً زهواً ، فلم يكن بعيد النظر ولم يتبصر فى عواقب الأمور، بل زعم أنه فى امكانه بسط نفوذه أكثر فأكثر .

(١) لوقا ١٥ : ١١-٣١ .

(٢) السلاقونيون هم القبائل التى انحدر منها الروس والبلغار وسكان رومانيا وهولانده وابلجيريا وسيليزيا . ويوهيميا ويوميرانيا .

وقد نجح بالفعل فى استمالة الجيش الى مناصرته . وعندها تجاوز حدود سلطته فتغافل عن رغبات الحاكم - وهو ولى العهد . ثم تمادى فى غروره فتسلى باطلاق اسم « وزغة » ^(١) على الحاكم بأمر الله . وربما كان مثل هذا الغرور وهذا التعدى لحدود سلطته ميزة لبرجوان لو أنه كان يعامل شخصاً مستكيناً ، ولم يفتن الى أن تبجحه هذا يستثير غضب الأمير الموكل اليه أمره الى أبعد الحدود . على أن الحاكم - رغم ثورته النفسية ضد الوصى عليه - استطاع أن يتمالك نفسه أربع سنين كاملة . ولما بلغ الخامسة عشرة لم يستطع أن يكبح جماح غضبه ، فأرسل فى طلب برجوان (الذى كان أستاذه أيضاً) قائلاً : « ان الوزغة الصغيرة قد أصبحت تتيئاً كبيراً وهى تأمرك بالحضور » . وارتاع الوصى لهذه اللهجة ولكنه لم يستطع الا أن يلبى الأمر . وأدرك أن الزمام قد أفلت من يده ولكن بعد فوات الأوان . وما أن أدخل الى حضرة الحاكم بأمر الله حتى أصدر الأمر بقطع رقبتة على الفور .

٤٧ - وكان لبرجوان سكرتير قبطى اسمه فهد بن ابراهيم معروفاً للحاكم لأنه كان يحمل رسائل رئيسه يومياً الى قصر الخلافة ويتلقى من المسئولين فيه أوامره بخصوصها . بل لقد كانت له خطوة كبيرة اذ قد قال عنه المقرئى فى كتابه « الخطط » « انه فى غطاس سنة ٢٨٨ هـ ضربت المضارب والأسرة فى عدة مواضع على شاطئ النيل . ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان . وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون . وجلس مع أهله الى أن كان وقت الغطاس فغطس وأنصرف » .

وحينما رأى فهد رأس برجوان تسقط على الأرض امتلأت نفسه فزعاً وأصفر وجهه اضطراباً . على أن الحاكم هدأ من روعه وأمنه على حياته ، بل لقد أطلق عليه لقب « الرئيس أبى العلاء » . فسعى فهد جهده لاكتساب رضا الحاكم وصار يترقى فى المناصب المختلفة إلى أن أصبح وزيراً . واستمر فى هذه الرتبة خمس سنين وتسعة أشهر إنتهى معها رضى الحاكم بأمر الله فقتله ^(٢) .

(١) الوزغة هى السحلية الصغيرة .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى لستانلى لاين پول (بالانجليزية) ص ١٢٨ ، « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١١٤ ، ١١٦ .

٤٨ - وكانت سنة ٩٩٦ م من السنوات الحاسمة فى تاريخ مصر الطويل إذ لم تنتقل الخلافة فيها من يدى العزيز بالله إلى يدى ولى عهده فحسب بل لقد أعتلى خلالها بابا جديد للسدة المرقسية التى لم تبق شاغرة غير ستة شهور بعد نياحة الأنبا فيلوثيريوس .

وكان فى الاسكندرية تاجر غنى اسمه ابراهيم بن بشر طمع فى اعتلاء الكرسى المرقسى وبخاصة لأنه كان صديقاً لجميع الولاة فى القطر المصرى . وكان يستعين بثروته لقضاء حاجاته عندهم . فزعم - استناداً الى هذه الثروة عينها - أنه يستطيع الوصول الى الخلافة المرقسية . وبالفعل وجد استجابة من الولاة جميعاً .

٤٩ - وما أن سمع الأساقفة بما فعله ابراهيم بن بشر حتى عارضوه كل المعارضة فاجتمعوا فى كنيسة القديس مرقس الشهيرة باسم (القمح) للتداول معاً . وكان فى الاسكندرية إذ ذاك كان متبتل اسمه زكريا ، وقد جمع الى رعاية كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل - الاشراف على كافة الكنائس فى تلك المدينة ، وكان الأساقفة ضيوفه فى كنيسته مدة اقامتهم بالاسكندرية . فكرس نفسه لخدمتهم بأمانة تامة . ولتواضعه المتناهى كان يقضى حوائجهم وحوائج الكهنة والشعب بنفسه . فلم يخطر ببال أحدهم ترشيحه . إلا أن الله تعالى ، العجيب بالمجد ، الذى اختار داود مع كونه أصغر اخوته ، اختار هذا الكاهن المتواضع ليكون راعياً لشعبه . وقد تجلّى الاختيار الإلهى بصورة عجيبة تتلخص فى أن زكريا صعد إلى السطح ليستحضر من المخزن جرة خل للطباخ . وفيما هو نازل انزلت قدماه فسقط وتدحرج على عدد من الدرجات . وعلى الرغم من ذلك فقد قام وكأن شيئاً لم يحدث ، فلم يصبه أى أذى ولا انكسرت الجرة . وحين علم الأساقفة بذلك قالوا : « حقاً أن هذا الرجل بار ، إذ لولا بره ما حفظه الله من هذه السقطة » . وعندئذ بدأوا يستفهمون عنه من الكهنة والشعب . فأجمع الكل على أنه خادم أمين ، وراع ساهر ، ممتلئ نعمة ومحبة ، مستعد لخدمة الصغير قبل الكبير . فاستقر الرأى بالاجماع على رسامته فى اليوم التالى إذ تصادف أنه يوم الأحد . وبالفعل ألفوا موكباً فخماً وساروا به الى الكنيسة المرقسية حيث احتفلوا باقامته الخليفة الرابع والستين للقديس مرقس البشير .

هـ - وفى تلك الآونة كان ابراهيم بن بشر فى القاهرة منشغلاً بمقابلة
الوالى ليتفق معه على أن يعاونه لكى يصل الى بغيته . وفعلاً حصل
على مرسوم سلطانى يخوله الحق فى اعتلاء الكرسى المرقسى . فزعم أنه
فاز حقاً بأمله . وأخذ المرسوم السلطانى وسافر لغوره الى الاسكندرية لعله
يصلها والأساقفة لا يزالون فيها لكى يضعوا اليد عليه . على أنه وصلها
بعد فوات الأوان . لأن الأساقفة كانوا قد وضعوا اليد على المختار من اللد
للبابوية قبل وصوله بساعات معدودات .

وما أن بلغ ابراهيم بن بشر مشارف الاسكندرية حتى سارع اليه أحد
أصدقائه وأبلغه أن زكريا راعى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل قد نال
الكرامة العظمى على أيدي الأساقفة . فلما سمع هذا الخبر أصيب برعدة
هزته من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فهرع الى بيته وقد امتلأت نفسه
خيبة . وعندها رأى الأنبا زكريا وأساقفته أن يطيبوا خاطره فاتفقوا على
رسمته أسقفاً على أول ايبارشية تخلو . ومن ثم زاره بعضهم وقالوا له :
« أن البابوية دعوة من الله تعالى . فطب نفساً ولا تضطرب . وعند خلو
أول ايبارشية سترسمك أسقفاً . ولكى يثبتوا له عزمهم على تحقيق وعدهم
استصحبوه الى الكنيسة حيث رسموه قساً وألبسوه الملابس السوداء ^(١) .
فهدأت نفس ابراهيم بن بشر ، و زالت عنه الرعدة التى كانت قد اعترته .
ولما خلت ايبارشية منوف ، حقق له الأساقفة وعدهم له اذ قد رسمه الأنبا
زكريا أسقفاً عليها .

٥١ - وكانت السنوات السبع الأولى لمخلافة الحاكم بأمر الله سنوات سلام
واستقرار ، فكانت أشبه بالسبع سنوات التى سادها الشيع والتى سبقت
السبع سنين العجاف ^(٢) . وخلال هذه السنوات أهدى الحاكم عناية فائقة
بالشعب المصرى الى حد أنه أمر بتعليق الفرائيس المضادة فوق أبواب المنازل
وواجهات المحال التجارية بعد الغروب ليتمكن الناس من البيع والشراء ومن
السير فى الطرقات فى أمن وسلام حتى فى الليل . فالتسعت التجارة
وازدادت ثروة البلاد . ولم يكتف الحاكم بذلك ، بل كان يخرج بنفسه ليلاً

(١) يلاحظ أن هذه أول مرة توصف فيها الملابس الكهنوتية بالسواد .

(٢) تكوين ٤١ : ١٧ - ٣١

ويتمشى فى الشوارع ويختلط بالشعب ، فيسمح للعابرين أن يقتربوا منه ويتفرسوا فيه ويكلموه . ولشدة فرح الناس بهذه المعاملة كانوا يرفعون أكفهم بالضراعة الى الله تعالى ليبارك خليفتهم الشاب .

ولم تقتصر عناية الحاكم بأمر الله على التجارة والصناعة ، بل شملت الثقافة أيضاً . فأنشأ مكتبة ضخمة أسماها « دار العلوم ودار الحكمة » ، وكانت جدران هذه المكتبة مزخرفة زخرفة فنية آية فى الإبداع . وتجمعت الكتب فى هذه المكتبة من أركان العالم الأربعة . ولقد أباح الحاكم لسائر الناس دخولها : فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر ^(١) . وكان الطلاب يتعلمون الى جانب الفقه علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم . كذلك كان يسر الحاكم أن يدعو الأطباء والفقهاء وغيرهم ليتناظروا كل فى موضوع تخصصه ثم يمنح المتناظرين جوائز قيمة ^(٢) . كذلك كانت هناك سلسلة من الدراسات والمحاضرات فى الفلك والنحو والصرف والبيان والقانون ^(٣) .

٥٢ - على أن هذه الهتامة لم تدم غير ستين سبع تبدل التعميم بعدها بؤساً وظلاماً . ذلك أن الحاكم كان ذا نزعة عنيفة للخفاء . وكان التعلق بالخفاء من شيم الفاطميين جميعاً منذ عهد المعز لأنهم ادعوا معرفة الغيب ^(٤) . وأحاطوا أنفسهم بالكثير من الغموض ليكتسبوا نوعاً من القدسية والمهابة ، حتى لقد بلغ الأمر أنه اذا رأى أحد المغاربة سحابة عابرة ترجل وانحنى لها بحجة أن الخليفة الفاطمى مستتر خلفها ^(٥) . ولقد ظهرت هذه النزعة على أشدها فى الحاكم بأمر الله . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان فى وصف الحاكم : « كانت شخصية الحاكم لغزاً مدهشاً ، وكانت خلاله مزيجاً من الأهواء والنزعات المدهشة المتناقضة فى

(١) مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٢٢٠

(٢) تاريخ الأمة القبطية - ليعقوب نخلة رويلة ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ١٢٠ .

(٤) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٤٥٨ .

(٥) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين للدكتور عطية مصطفى مشرفة - الطبعة الثانية ص ٣٦ .

معظم الأحوال ... وقد رأينا أن هذا الذهن الهائم ، كما أنه يهبط في تصرفاته أحياناً الى ضروب مثيرة من التطرف والتناقض والهوس ، فإنه يرتفع كذلك الى ضروب من الحكمة والسمو تحمل على التقدير والتأمل . ولعل التاريخ الإسلامى لم يعرف شخصية يحيط بها الخفاء كتلك الشخصية العجيبة التى تشير من حولها الدهشة والروع فى كل تصرفاتها الخاصة والعامة ، والتى يلازمها الخفاء لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الحياة الأخرى أيضاً ، حيث تغادر هذا العالم فى ظروف كالأساطير . وتبقى هذه الظروف لغزاً على التاريخ حتى يومنا هذا ^(١) . وتحقيقاً لهذه لهذه النزعة كان كثيراً ما يدعو وزراءه للاجتماع به فى الليل . وكثيراً ما كان يركب حملاً رمادى اللون ويتسلق به جبل المقطم فى جنح الظلام يدعو أنه سيرقب النجوم ويسير غور أسرارها . وهذا الغموض والتخفى الذى التحف بهما غيراً من معاملته لشعبه . فبدلاً من رعايتهم والسهر على راحتهم ، تحول الى التضيق عليهم والبطش بهم دون سبب ظاهر . وكانت أوامره أشبه بهذيان المحموم : فمثلاً أصدر أمراً بمنع بيع البيرة والخمر ، فأمر بترك الكروم حتى تجف ، كما أمر بصب العسل فى النيل ، ثم أمر بقتل جميع الكلاب ، وبعدم ذبح الماشية الا فى عيد الأضحى . وحدث أنه رأى أن يمنع السيدات من الخروج بتاتاً ، ولكن يضمن تنفيذ مثل هذا المنع الغريب أمر بمصادرة أحذيتهم ، وبعدم صنع أحذية جديدة لهن . ولم يكتف بذلك ، بل حرم على النسوة التطلع من النوافذ أو الجلوس على أسطح المنازل . وكانت هذه الأوامر مشددة الى حد أن من تجاسر على عصيانها كان جزاؤه الجلد وأحياناً الاعدام ^(٢) .

٥٣ - ولم يكن شلوذ الحاكم منصباً على فئة معينة بل ذاق الشعب كله الهول منه ، فعاش ثلاث سنين فى ذعر لما قد يصيبه ، اذا لم يعرف أحدهم من منهم سيكون الفريسة التالية ولا ما الأمر الشاذ الذى سيصدره الحاكم

(١) راجع مقاله « عصر الخلفاء فى مصر الإسلامية » الذى نشر فى مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ١٢٥ - ١٢٦ . مصر : من مينا الى لقواد الأول بالفرنسية لهول دى هتو ص ٢٣٤ . تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة ، دويلة ص ١١٥ - ١١٦ .

اليهم . وبعد أن انتقضت هذه السنوات الثلاث رأى الحاكم أن يختص قوماً دون قوم بأحكامه المقلقة ، فصبوب سهامه الى تحوير القبط وذلك بأن حكم عليهم بأن يعلق كل منهم صليباً من الخشب حول عنقه ، وأن يلبسوا جميعاً الملابس السوداء ، ولا يتنعموا بلبس الألوان الزاهية والأقمشة الناعمة . وحرم على القبطى تشغيل خادم مسلم فى بيته ، واستخدام مراكبى مسلم أن شاء أن يعبر النيل ، ولكى يقطع على القبط سبيل الشفاعة قطع رأس قهد بن ابراهيم القبطى الذى كان وزيره مدى خمس سنين وتسعة أشهر . ثم استتبع هذه الأحكام بأمر يقضى بهدم الكنائس ومصادرة الأملاك الموقوفة عليها . وزاد على ذلك بأن استولى على الأملاك الخاصة . وبعد أن نشر الحاكم الفرع بهذه الأحكام المجائزة ، أصدر منشوراً أعلن فيه بأن من أعتنق الاسلام أصبح فى مأمن منها كلها . فكان لمثل هذا المنشور أثره فى ضعف الايمان .

غير أن هذا كله لم يشبع شهوة الفتك التى استولت على الحاكم آنذاك ، فاستدعى كبيراً من كهراء القبط اسمه غبريال بن نجاح ، وعرض عليه أن يقيمه وزيراً إن هو اعتنق الاسلام . فرجا منه غبريال هذا أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة . فلما قبل الحاكم امهاله ، عاد الى بيته ، وجمع عائلته وأهله وأصدقائه ، وأبلغهم العرض الذى عرضه عليه الخليفة ، وأعلن لهم استعدادهم لأن يموت على دين المسيح ، ثم أعطاهم وصيته الأخيرة . وبالطبع كان من بين قومه من حاول أن يثنيه عن عزمه ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وذهب غبريال بن نجاح فى اليوم التالى الى الحاكم ورجا منه أن يقيمه وزيراً دون أن يشترط عليه الاسلام لأنه لا يبنى عن دينه بديلاً . فثارت ثائرة الخليفة وأمر جنده بأن يجلدوه ألف جلدة . ولكنهم ما كادوا يصلون الى نصف العدد المقرر حتى كان ابن نجاح قد استودع روحه يدى الأب السماوى .

واستمر الحاكم خطته التى اتبعها مع غبريال بن نجاح ورأى أن يجربها مع غيره ، فاستدعى عشرة من كبار القبط وأهدى لهم رغبتهم فى أن ينضموا إلى الاسلام ، فرفضوا بالاجماع . وعندها نادى على جنده وأمرهم بجلد هؤلاء العصاة ، فانهالوا عليهم بالجلد فوراً . ولم يلبث ستة منهم أن أسلموا الروح ، بينما أعلن الأربعة الآخرون رضوخهم لحكمه ، فكف الجند

عن جلدھم . وفى الليلة عينھا مات واحد من هؤلاء الأربعة متأثراً بجراحه ويوخز ضميره . أما الثلاثة الباقون فانزوا بعيداً عن الأنظار الى أن مات الحاكم ، فظهروا مرة أخرى وأعلنوا توبتهم جهاراً فقبلتهم الكنيسة بفرح .

٥٤ - ويبدو أن الحاكم بأمر الله كان فى تلك الآونة شبيهاً بالوحش الذى تتضاعف فيه شهوة الفتك اذا ما اشتتم رائحة الدم ، فلم يكفه ما فعله بالأراخنة والشعب بل زاد عليه القاء الأتبا زكريا فى السجن مدى ثلاثة شهور . ثم أخرجه بعد ذلك من السجن ورماء للأسود . على أن الله تعالى الذى سد أفواه الأسود أمام دانيال النبى ^(١) قد سد أفواه الأسود عن صفيه البابا السكندرى ، فلم تقترب منه ولم تمسه بسوء . حينما رأى الحاكم هذا ظن أن الحراس أطعموا الأسود ، فأمر بوضعها تحت حراسة خاصة ويمنع الأكل عنها ثلاثة أيام . ثم أمر بذبح شاة وتلطيف ملبس الأتبا زكريا بدمائها قبل طرحه للأسود مرة ثانية . ورغم كل هذه الاحتياطات وقفت الأسود تنظر الى البابا الاسكندرى دون أن تقترب منه . فكان لموقفها بأزاء رجل الله أثر بعيد اذ قد أمر الحاكم بأمر الله باطلاق سراحه ^(٢) .

٥٥ - ومن العجيب أن يكون الوحش أكثر انسانية من الإنسان فى بعض المواقف ، وأن يحس بالرهبة أمام أصفياء الله فى الوقت الذى يتعدى عليهم اخوتهم من الناس . هكذا كان موقف الحاكم ، ولكنه اتعظ بالأسود وأخلى سبيل الأتبا زكريا ، ثم لم يلبث أن نسى الدرس الذى لقتته إياه هذه الضواري ، وعادته شهوة الفتك . على أنه رأى أن ينفس عنها بصورة جديدة ، فلم يقتل ولم يستعن بالكواسر ، بل أرسل أمراً عاجلاً الى والى القدس يأمره فيه بحرق كنيسة القيامة . وخاف الوالى أن هو لم ينفذ أمر مولاه أن يلحقه الأذى . فاشعل النار فى الكنيسة فوراً ^(٣) .

على أنه أمعن فى تعسفه بأن أمر كاتبه النصرانى - ابن عبدون - أن

(١) دانيال ٦ : ٢٢ .

(٢) القول الابرى للعلامة المقرى . طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس ص ٥٨ . تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأتبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته الى الانجليزية بسى عبد المسيح ، عزيز سورىال عطية ، أو سولد برمستر - المجلد الثانى - ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

يوقع بالنيابة عنه أمر احراق كنيسة القيامة . وجين هذا القبطى أمام بطش مولاه فرضى أن ينفذ أمره على الرغم من أنه وصف بأنه « ثقة ثقات السيف والقلم » ^(١) ولكن الجبن لم يحم ابن عبدون لأن الحاكم لم يلبث أن استغنى عن خدماته وأخرجه من ديوانه . وبعد أيام رأى الحاكم أن يستغنى عنه نهائياً فأمر بقتله وبمصادرة أمواله .

ولما كانت أهواء الحاكم فى تقلب مستمر فقد عين كاتباً نصرانياً بدل ابن عبدون ولو أنه كان هذه المرة من الخلقيدونيين وهو زرعة بن عيسى بن نسطور . واستمر هذا الخلقيدونى يتمتع بثقة الحاكم ما يقرب من عامين ثم أكفهر الجو حوله فجأة فصدر الأمر بقتله من دون مقدمات . وامتد بطش الحاكم بعد ذلك الى جميع المسيحيين من خلقيدونيين وقبط فأمرهم بلبس السواد وتعليق صلبان من الخشب حول أعناقهم على أن يكون طول الصليب ذراعاً ووزنه خمسة أرطال ويوضع على الصدر فوق الثياب ليكون مرئياً من جميع المارة . كذلك تكون سروج الحمير والبغال التى يركبونها من الخشب والسيور السوداء الخالية من كل زينة ولا يركبون الخيل إطلاقاً . وتشدد فى تضيق الخناق عليهم بانزال أشد العقاب بمن لا ينفذ هذه الأوامر . فكان هذا التعسف سبباً فى دفع البعض الى انكار مسيحيتهم واعتناق الاسلام .

ولم يكتف الحاكم بهذا كله بل أمر بإبطال الاحتفالات التى كانت تقام حتى بعد ذلك العصر بأحد الشعانين وبعيدى الصليب والقطاس إذ كانت العادة أن يخرج القبط فى مواكب احتفالية رائعة : بالصلبان والشموع والمباخر ويطوفون بالشوارع وعلى ضفاف النيل حتى ساعات متأخرة من الليل . كذلك كتب الى ولايته فى مختلف بلاد مصر أن يستبيحوا أواني الكنائس وأوقافها مما أدى الى نهبها ثم هدمها . وفى هذه الضيقة هدم العامة دير القصير وهو أحد الأديرة التى طالما تغنى بها شعراء المسلمين . ثم قام بدور خاص بأن هدم كنائس خط راشدة والمقس واستولى على الأراضى التى كانت مقامة عليها كما استولى على كل ما وجده فيها من أواني وملابس ^(٢) .

(١) المخطوط للمقرئى ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ٢٨٧ و ٢٩٥ - وخط راشدة والمقس كانا من الأحياء الواقعة خارج مدينة القاهرة . كما أن المقرئى يعلق على مدى السلب الذى حدث إذ ذاك بقوله : « فانتبهوا منها ما يجعل عن الوصف » .

٥٦ - على أن الآب السماوى أبدى رأفته كالمعتاد فهياً للفتانين والصناع القبط طريقاً تظهر فيه مواهبهم . فقد كان ملك الحبشة يومذاك لاليبالا الذى رغب فى أن يشيد عدداً من الكنائس فبعث الى مصر برجاء الى البابا المرقسى يطلب منه إيفاد الاخصائيين فى البناء والزخرفة . فسارع اليه عدد غير قليل ونحتوا له مجموعة من الكنائس فى الصخور الطبيعية لا تزال للآن آية من آيات الفن المسيحى ^(١) .

كذلك بدت المراحل الإلهية فى مصر نفسها إذ قد رن صوت من الجراة والبسالة وسط الذعر والإضطراب . فقد كان فى ديوان الخلافة كاتب قبطى اسمه بقيرة ، شق عليه أن تنزل كل هذه الهلايا بقومه . فاعتزل منصبه ، وحمل صليبه ودخل قصر الخليفة . ولما وصل الى بهابته ، وقف وصرخ بأعلى صوته : « أن المسيح هو ابن الله » فما أن وصلت كلماته مسامع الحاكم حاتى استحضره وأمره بانكار دينه . فكرر بقيرة فى حضرتة ما فاه به عند البوابة . والغريب أن الحاكم لم يأمر بقطع عنقه وانما أكتفى بالقائه فى السجن وتطويق عنقه بسلسلة حديدية . وذهب صديق له اسمه مينا ليعوده فى السجن ، فوجده واقفاً يصلى فى نشوة روحية عجيبة . فلما رآه على هذا الحال تهلل بالروح . وحينما هم مينا بالخروج سأل بقيرة ان كانت هناك أية رسالة يريد تبليغها لأهله . فقال له بقيرة : « قل لهم طيبوا نفوساً لأننى ساكون معكم الليلة » . وقد تحققت كلمات هذا الشاهد الأمين للمسيح ، اذ قد جاءه مرسوم من الحاكم بالافراج عنه ومنحه الحرية فى أن يتجول حيث يشاء ، ويشغل بما يروق له من المهن . وبهذا المرسوم خرج بقيرة ، وأخذ ينتقل بين عائلات القبط ، يشجعهم ويعزى قلوبهم ، وينبئهم بأن هذه الشدة ستزول بعد ثلاثة أيام . ثم قرن كلماته المعزية بهدايا من الطعام والشراب - وظل بقيرة فى تجواله ، وفى توزيع عطاياه خلال الأيام الثلاثة التى تنبأ عنها .

وفى اليوم الرابع صدر مرسوم بتوقيع الحاكم يأذن فيه للقبط بأن يياتشروا صناعاتهم وزراعاتهم وتجارتهم ، وأن ينتقلوا حيث شاءوا بكل حرية . ومن أراد منهم أن يسافر إلى الحبشة أو غير من البلاد يستطيع ذلك دون مانع ولا عائق .

(١) كنيسة الأسكندرية فى أفريقيا لزامر رياض ص ٩٨ - ٩٩ .

٥٧ - وظل بقيرة بعد هذا الفرج يوالى زياراته . فافتقد المحبوسين منهم والمعوزين والغرباء . وعشر ذات يوم على قبلى مسجون لأنه عجز عن أداء الضريبة المفروضة على من يعبر النيل . فدفعها عنه وبذلك هيا له سبيل الحرية . ثم رأى بقيرة أن يقوم عند أنبثاق القجر . ويبحث عن الأشخاص أو العائلات المعدمة تماماً . ويقدم لهم الطعام والشراب عن سعة . وذات يوم اشترى عدداً كبيراً من الأرغفة وزعها كلها ولم يستبق منها رغيف واحد لنفسه . ولما كان معتاداً أن لا يأكل الا عند غروب الشمس . فقد جلس يومئذ ليأكل الرغيف فى تلك الساعة . ولم يكذب يأخذ منه لقمة حتى دق الباب . ففتحه . واذا بشيخ عجوز جاء يطلب طعاماً . فأعطاه الرغيف على الفور لأن الدكاكين كانت قد أغلقت اذ كان الوقت ليلاً .

وكان بين الرهبان آنذاك كاهن اسمه أبو ياسر بن القسطل . عالماً فاضلاً كثير التأمل فى الأسفار الإلهية وفى ما آل اليه القبط . وقد وجد نتيجة لهذا التأمل أن هناك أخطاء اجتماعية يمكن ملاحظتها بشئ من التبصر . فقد رأى الكثير من الأزواج فى شجار مع زوجاتهم لذلك كتب كتاباً قال فيه بأنه يجب على الخطيب والخطيبة أن يتقابلا متى انعقدت نيتهما على الزواج . لأنهما فى تقابلهما سيعرف كل منهما أن كان قد راق فى عينى الآخر . ومتى قبل كل منهما الآخر عن رضى ومن غير اكراه شرعت العائلتان فى اتخاذ اجراءات الزواج - وذلك منعاً لما قد يحدث من تخاصم نتيجة لجهلها بعضهما البعض أو للاكراه من جانب الآباء والأمهات . كذلك كتب ضد الختان اذ كان قد وجد أن بعض الآباء والأمهات يزعم أنه ضرورة الى حد أنه لا يعمد طفله قبل اختتانه . فبين أنه عادة اجتماعية فقط كانت مفروضة عند اليهود ولكنها لم تعد فرضاً فى المسيحية فمن شاء ممارستها نفذها ومن لم يشأ تركها . أما المعمودية فهى الباب الوحيد الذى يستطيع المؤمن أن يدخل منه الى الإيمان المسيحى فهو ضرورة موضوعة على الجميع . على أن مثل هذه النصائح لم ترق لغالبية الإكليروس والشعب مما أدى الى طرده من الدير الذى كان مترهباً فيه . وكان هذا الدير بنواحي طرة وبجانبه بستان فسح زرعته واعتنى به هذا الكاهن فلم يسمحوا له حتى بالاقامة فى البستان . ثم حدث فى أوائل العصر الأيوبي أن صدر الأمر بالاستيلاء على أوقاف الأديرة والكتائس فكان هذا البستان ضمن ما تم عليه الاستيلاء .

وكان لأبى ياسر صديق يهودى شديد الولع بالبحث فى الأمور الروحية فكان كلاهما يتناقشان معاً فى هذه الموضوعات . ولقد نجح أبو ياسر فى أن يجتذب صديقه اليهودى الى الإيمان المسيحى . فدأب هذا الصديق على الدراسة وعلى تعلم اللغة القبطية الى حد أنه رسم شماساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث عاش الى النفس الأخير مكرساً كل جهوده لخدمة هذه الكنيسة وشعبها ^(١) .

٥٨ - وفى تلك الأثناء عاود الحاكم بأمر الله خطة الراهب فأمر باغلاق عدد كبير من الكنائس . ولما كان لا يتورع عن الاستغفاف بأى شخص علت مكانته أو كبر سنه ، فقد رأى أغلب الأساقفة أن يلجأوا الى الصحراء ليجدوا الفرصة للتعبد والتضرع الى الله تعالى أن يتراخى على شعبه . وأعتاد بعض المؤمنين أن يقصدوا الى الصحراء مرتين سنوياً : فى عيد الغطاس وفى عيد القيامة ليتمكنوا من الصلاة فى مأمن من غدر الحاكم . على أن الغالبية لم تستطع الذهاب الى الصحراء لبعد المسافة من جهة ولأن السفر اذ ذاك كان شاقاً بالإضافة الى ما يتطلبه من مصروفات . ولكى تستطيع هذه الغالبية أن تستمتع بالمشاعر الدينية ، لجأت الى رشوة الحراس ليتفاضوا عنهم بعد الغروب ، ومن ثم اعتادوا أن يقيموا صلواتهم ليلاً بدلاً من النهار . واستمرت هذه الحالة غير الطبيعية تسع سنين متتالية . وحدث ذات يوم أن تجمع عدد من القبط الذين أنكروا الإيمان هرباً من الضيق ، ووقفوا بجموعهم فى طريق الحاكم . وما أن رأوه حتى هتفوا بصوت واحد : « أسمع لنا أن نعود الى ديننا » فسألهم . « أين صلبانكم وأحزمتكم وغيرها من العلامات التى أمرت المسيحيين بحملها ؟ » فأخرج كل منهم لفورده الأشياء المطلوبة التى كانوا يخفونها بين طيات ثيابهم . وعندئذ أمرهم بأن يلبسوها أمامه . ففعلوا . فسمح لهم بالعودة الى دينهم ، وأعطى كلا منهم كتاباً يضمن لهم الأمان على حياته ومباشرة أعماله والتثقل حيث شاء .

٥٩ - وحدث أن كان بين القبط الذين أسلموا وعادوا الى مسيحيتهم بهذه الوقفة القريبة راهب اسمه بيمن . وتقدم هذا الراهب الى الحاكم يرجو

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٥٠ - ١٥٣ ، دائرة المعارف القبطية

لرمزى تادرس ج ١ ص ١٧

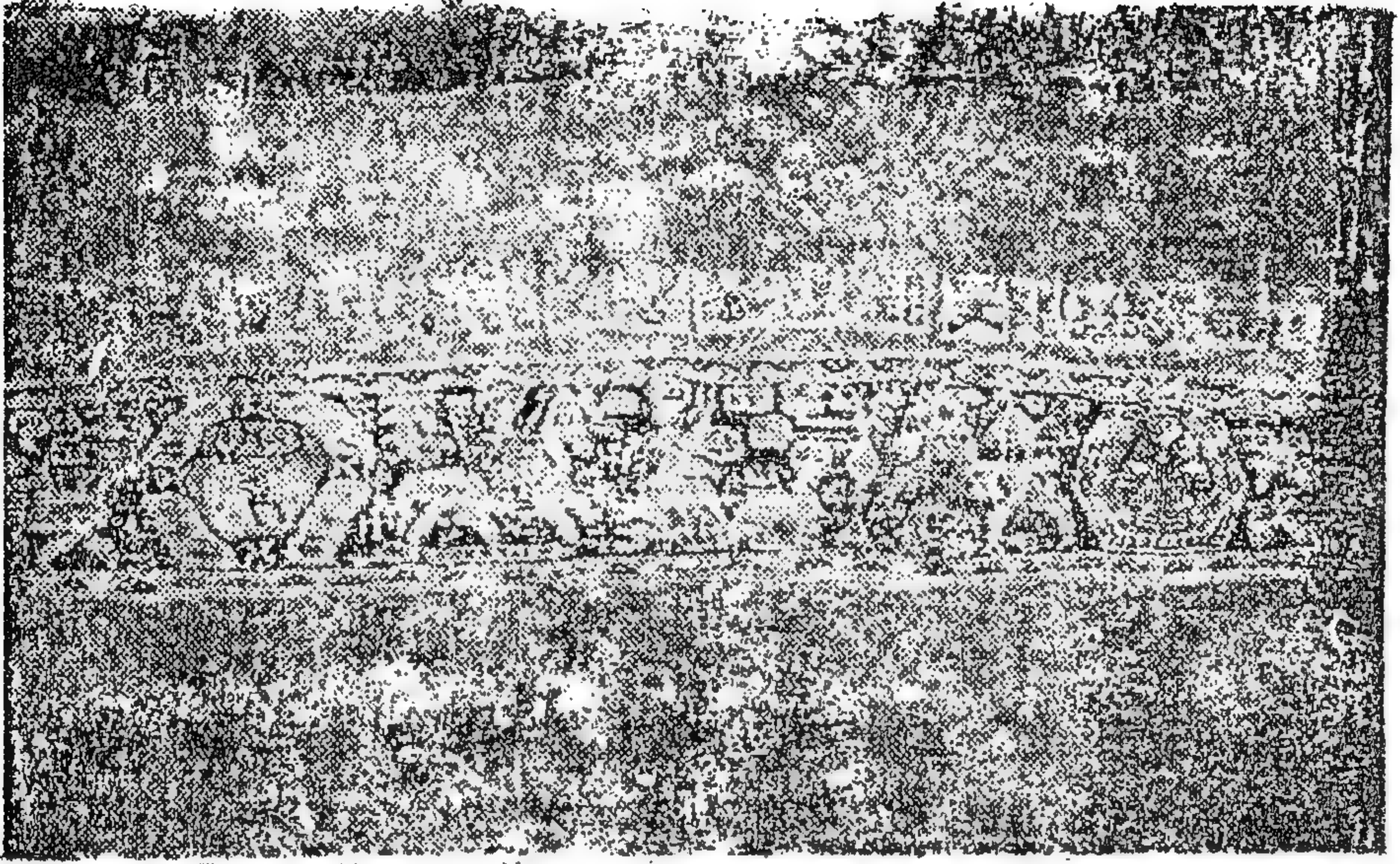
منه أن يسمح له بتجديد دير علي مقربة من القاهرة يعرف بدير شهران ، فمنحه الأذن على الفور . ولما انتهى يمين من تجديد هذا الدير اجتمع معه عدد من النساك ، وعاشوا معه عيشة مشتركة ونال يمين حظوة عظيمة في عيني الحاكم إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً . فاعتاد كل قبضى أن يلجأ إليه ان كانت له حاجة عند الحاكم . كذلك اعتاد الخليفة أن يذهب إلى هذا الدبر ليقضى فيه أياماً للتسامر مع الرهبان ^(١) .

٦- وكان الأنبا زكريا قد قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير بيرية شيهيت على أثر الأفراج عنه من سجنه ليجد في رحاب الصحراء وسكونها الهدوء والاستقرار اللازمين للصلاة والضراعة . وهناك قضى أيامه ولياليه يصلى بدموع غزيرة لكي يتراخى الله على شعبه . فلما حل السلام بعد سنى الأهوال التسعة ، تقدم يمين إلى الحاكم يرجو منه أن يأذن له بالذهاب إلى بيرة شيهيت ليطلب إلى البابا الاسكندرى أن يعود إلى مقر رياسته . وكما يتساقط المطر فيحمل الحصب في نقاطه ، هكذا تبدد سخط الحاكم وغضبه إلى رضى مثير . فلم يأذن للأنبا زكريا بالعودة فحسب ، بل أبدى رغبته فى أن يقابله . وعندها سارع المندوبون إلى بيرة شيهيت يحملون إلى البابا الاسكندرى أخبار السلام الذى أشتب . فعاد معهم ، يصحبه عدد من الأساقفة ، وقصدوا جميعاً إلى دير شهران وبعد أيام من وصولهم ، جاء الحاكم إلى الدير ، وسأل يمين عنهم . ولم تمض دقائق حتى دخل الجميع قاعة الاستقبال . وتفرس الحاكم فيهم واحداً واحداً وقد بدت أمارات الدهشة على وجهه ، لأن الأنبا زكريا كان قصير القامة ، بسيط الملبس ، خالياً من كل مسحة الوجاهة أو الرسامة . ورغم ذلك فقد حفر الوقار وشع منه الجلال . وكانت غالبية الأساقفة طويلة القامة ، لا يخلو أحدهم من وجاهة . وقد أحاطوا جميعاً ببياهم فى احترام وألفة . وسألهم الحاكم : « أهذا كبيركم » أجابوه : « نعم . هو بعينه » . فعاد يسألهم : « وإلى أين يمتد سلطانه ؟ » قالوا : « ان سلطانه يمتد من مصر إلى النوبة فالسودان فالحبشة جنوباً ، وإلى الخمس مدن غرباً وإلى فلسطين شرقاً » . واستمر الحاكم فى تساؤله : « وبأية قوة يستطيع أن يجعل هؤلاء أقوام يطيعونه ؟ » أجابوه فى ثقة : « لا قوة له إطلاقاً . ولكن هؤلاء الأقوام

(١) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١١٩ .

يطيعونه بقوة الصليب « ولأن الحاكم كان وقتئذ في ساعات رضاء فقد أعجب بصراحتهم وقال لهم : « أنتظروا قليلاً » ثم غادر قاعة الاستقبال وجلس في المكتب حيث كتب مرسوماً جاء كالغيث بعد الجفاف . فقد نص على فتح الكنائس المغلقة ، وتجديد المتداعية ، ورد جميع الأملاك المصادرة الى أصحابها - سواء في ذلك الأملاك الموقوفة على الكنائس أو الأملاك الخاصة . كذلك نص هذا المرسوم على أنه لا داعي لتعليق الصليبان الخشبية وغيرها من العلامات على الصدور ، وعلى السماح بدق أجراس الكنائس في مواعيدها . فكان يوماً سعيداً حقاً : يوماً استعاد فيه القبط كامل حريتهم للعبادة وللعمل، وأحسوا بالاستقرار النفسي، وسعدوا بالسلام. فخرجت جموعهم كهنة وشعباً الى الكنائس . ورفعوا شكرهم للأب السماوي الذي تداركهم بمراحمة . ولم يعودوا في حاجة الى الذهاب للصلاة في الصحراء لأن مرسوم الحاكم هياً لهم الفرصة لتعميد الغطاس على ضفاف النيل كما كانوا يفعلون في أيام العزيز والمعز كذلك استعادوا الحرية في أن يطوفوا الشوارع بمواكبهم آحاد السعف، قرنت أصوات ألحانهم في الطرقات والميادين مرة أخرى (١) .

(١) من الأدلة على تسامح المعز والعزيز ثم الحاكم حين تاب إلى رشده أنه يوجد في الفترينة المسلسلة بالجهة الشرقية في الخزانة حرف D بالتحف القبطي ملف على ورق كتان ملصق على قماش يتضمن انعامات لرهبان الأديرة هذا نصه : « عماراتكم ولا تطالبوا بحشد في حرب ، ولا بخروج وإعزاز كل راهب يخرج منكم إلى الضياع للتمش فيها وقضاء حاجات من وراء منكم وألا تلتزموا بعمل يحمل النصر من المهرة وما يجري مجراها مكساً ولا غرماً قل أو جل وأن تحفظوا ما لكم من زرع وغلة وعوامل من مهاني النواحي وألا يعترض ما يخلقه موت من رهبانكم خارجاً عن دياراتكم في حال تردده إلى الريف وغيره للتصرف في مآربكم من كل شيء يملكه ليكون جمعية عائداً على إخوته في رهبانيته دون كل قريب له ونسب غيرهم فان الإمام المعز لدين الله والإمام العزيز بالله والإمام الحاكم بأمر الله قدس الله أرواحهم تقدموا بكتب سجلات بإمضاء ذلك كله لكم وسألتم كتب سجل بتجديدها كانت أمضته لكم الأئمة وتركيد ما دعتكم أكافئكم من الحرمة وحفظ ما لكم من هذه الموات والأزمة فأمر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل المنشور بحملكم على مقتضى النص المذكور وموجب الشرع المنظور وإقراره في أيديكم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حده أو يتأول متأول بما يصرفه عن جهته وقصده والذنب عنكم لمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة والمتصرفين في الأموال والجهة وسائر عبيد الدولة وخدمها على اختلاف طبقاتهم وتراجع درجاتهم فليعلمه من أمير المؤمنين ورسمه ليعمل عليه وبحسبه إن شاء ..) مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة ص ٨٢ - ٨٣ .



قطعة من النسيج عليها كتابة كوفية وزخارف مسيحية - صناعة الفيوم في
القرون العاشر الميلادي - محفوظة بدار الآثار العربية رقم السجل ٩٠٥٢ .

نشرت مع مقال للدكتور زكى محمد حسن عنوانه « بعض التأثيرات
القبطية في الفنون الإسلامية » في مجلة الآثار القبطية - المجلد الثالث -
القاهرة سنة ١٩٣٧ .

على أن التأثيرات القبطية امتدت خلال الفنون الإسلامية إلى أوروبا فيقول
المستشرق الفرنسي جاستون فييت ما نصه :

(L' Europe se mit à l'école de la civilisation Orientale : la production en Occident se transforma . C'est d'Orient que nos ancêtres apprirent á fabriquer les étoffes de luxe .. le satin, le velour, les étoffes brochés d'or et d'argent, ou les tissus légers comme la mousseline, la gage, le taffeta .. avec l'usage de l'alun pour fixer les couleurs ..C'est encore á l' Orient que l'Occident emprunta l'art de faire le papier, la confiserie, les sirops . De la même source, enfin, nous vinrent certaines espèces, dont la culture devait susciter des industries nouvelles Comme la canvre et le lin ...) .

وترجمته ما يلي : « لقد أنتسبت أوروبا إلى مدرسة الحضارة الشرقية وبذلك تطور الإنتاج في الغرب . فمن الشرق تعلم أجدادنا نسج أقمشة كالساتان والقטיפه والأقمشة المزركشة بالذهب والفضة والأقمشة الخفيفة كالموسلين والشيفون والتافتاه ... مع استعمال حجر الشب (الشبة) لتثبيت الألوان ... ومن الشرق أيضا تعلم الغرب صناعة الورق والحلوى والشربات . ومن المنبع ذاته وردت إلينا أنواع معينة من النبات التي أدت زراعتها إلى قيام صناعات جديدة : كالكتان والتيل » ^(١) .



(١) « تاريخ الأمة المصرية » ج ٤ مصر العربية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى
سنة ٦٤٢ - سنة ١٥١٧ م لجاستون فييت ص ٣٨٦ .

٦١ - على أن الحاكم - رغم عودته إلى جادة الحق في معاملة القبط - ظل يحيط نفسه بالخفاء والغموض الذي كان شيمة آله جميعاً . فاستمر يخرج ليلاً بمفرده على ظهر حماره ويصعد فوق جبل المقطم والظلام مخيم . وفي هذا التجول الليلي ، كان يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء ، ويكتفى بهذه البساطة المتناهية في الملبس ، فلا يتعالى بجوهرة واحدة - سواء في ثوبه أو في عمامته . وكان قد بنى مرصداً للنجوم في أعلى هذا الجبل ليقضى فيه الساعات الطويلة . وكانت إحدى وسائله لإرهاب شعبه ادعاؤه معرفة الغيب والرؤيا في الظلام . حتى لقد اعتقد بعض الناس أنه يستطيع أن يستشف الخفايا . وكان خروجه ليلاً بمفرده لا يحيط به حرس ولا يمشي خلفه تابع . لأن الخفاء الذي أشاعه عن نفسه وقوته الجسمية الخارقة وعدم تورعه عن الفتك بأي شخص - كل هذه الصفات أحاطته بسياج من الرهبة وكانت بمثابة حرس ساهر عليه .

٦٢ - ثم تجاوز الحدود وادعى الألوهة . وتثبيتاً لهذا الادعاء في القلوب أعلن حرمان ابنته الظاهر من العرش وأوصى بتوليده أحد المشايخين له من بعده كذلك ظل يبطش بالمسلمين رغم مهادنته القبط . وزاد على هذا كله تعرضه بشرف أخته التي قضت حياتها بغير زواج والتي كانت على جانب كبير من الذكاء والدهاء . فتنقمت عليه . وتآمرت ضده مع بعض المتبرمين به من حرس القصر . فحدث بعد أن عرض الحاكم بشرف أخته بأيام قليلة - أن خرج ليلاً كالاعتاد ولم يعد . ولم يعثر أحد على جثته ولا حتى على بقية منها . مع أن حماره وجد مشخناً بالجراح . وظل اختفاء سرّاً مكثراً . فادعى مشايخه أنه اختفى مؤقتاً وأنه سيعود إلى الظهور يوماً ما . بينما أشاع غيرهم أنه قصد إلى جبل الدروز حيث نادى بدين جديد ^(١) وهناك تقليد قبطي يقول أنه ذهب إلى دير شهران حيث تنصر وقضى بقية حياته في هدوء وانزواء . وقد تولت أخته الملك ستين ثم سلمت مقاليدته للأمير الظاهر الذي كان قد حرمه أبوه .

٦٣ - أما الأنبا زكريا فقد عاش ثلاث سنين بعد الحاكم ، تمتع خلالها

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٣٣ -

١٣٤ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لجاستون فييت

ص ١٨٢ - ١٨٣ .

هو وشعبه بالأمن والاستقرار . لان أخت الحاكم أولاً ثم الظاهر ثانياً اتبعا خطة المعز والعزیز فی حسن المعاملة وفي اقرار حق الجميع : مسلمين وقبط سواء بسواء . وتنسم القبط عبير هذه الحرية فرحين مسبحين الله الذي فرج كربهم وأراح قلوبهم بعد التعب والعناء (١) .

٦٤ - ولقد تجلت نعمة الله تعالى في شخص الأنبا زكريا إذ كان عطوفاً على اخوته الأساقفة وعلى أبنائه الكهنة والشعب . وقد بدا هذا العطف واضحاً بأزاء الأنبا مرقوريوس أسقف تلبانة . فقد أصيب هذا الأسقف فجأة بالبرص ، فامتلات نفسه حزناً وقصد إلى دمره حيث كان البابا الاسكندري مقيماً . وما أن وقعت عيننا رجل الله على أخيه المريض حتى أنهمرت الدموع عليه وقال له في دعة وتوجع : « انتى حزين القلب من أجلك يا أخى ، لكن اسمع لى أن أقول لك أن كهنتك فى خطر ان لم يرفع الله عنك هذا المرض لأنه من الأمراض التى قيل عنها فى الكتاب المقدس بأنها نجسة » . وبكى الأسقف المريض بكاء مرأ ثم قال : « أسألك يا أبى أن تصلى لأجلى » . وتركه على هذه الكلمات وذهب الى كنيسة فى ايبارشيتة على اسم السيدة العذراء والدة الإله . وكانت الكنيسة فى بلدة اتمى ولها كاهن شيخ اسمه فرج . وكان وصول الأنبا مرقوريوس إلى هذه الكنيسة يوم الاثنين . فنادى تلميذه وقال له : « أتركنى وحدى ثلاث أيام . ثم تعال لترى ماذا أصابنى يوم الأربعاء » فتركه التلميذ ومضى . ووقف الأسقف المريض أمام أيقونة السيدة العذراء طوال الاثنين والثلاثاء ، وفى يوم الأربعاء غلبه تعب وصوره ودموعه فمال رأسه إلى الأمام وأستند إلى أيقونة أم الرحمة فى شبه إغماء . وعندها أحس بيد السيدة العذراء تمتد إليه وتمسح جسمه كله . فأفاق فى لحظة تامة وتفرس فى نفسه فإذا به جلده أبيض لا بقعة فيه إطلاقاً . وتهلل قلبه فنادى على الكاهن فرج . وكان فى رنين صوته ما يبين انفعاله فسارع إلى القمص . فرجا منه الأسقف مرقوريوس أن يفحص جسمه بالتدقيق فأطاعه ووجده معافى . فرفع الكاهنان صلاة الشكر للآب السماوى ، وسبحا تسبحة التمجيد للسيدة العذراء فى نشوة وانتصار .

(١) السنكسار الأثيووى ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج١ ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .
مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٥٨ .

وفى المساء جاء تلميذ الأنبا مرقوريوس ليرى ماذا به حسب الاتفاق .
فقال له الأسقف : « لقد تحنن على سيدى ومخلصى الحبيب وشفانى بشفاعته
السيدة العذراء أمد الحنون ، لذلك سأبقى هنا ثلاثة أيام أخرى لأرفع آى
شكرى وتمجيدى لله العلى . فاتركنى هذه الأيام الثلاثة ، وعد إلى يوم
السبت ، وأحضر معك دابة » فأطاعه تلميذه وخرج . وأحضر القمص فرج
طعاماً لأسقفه الذى لم يأكل غير قطعة من الخبز وشرب قليلاً من الماء . ثم
عاود صلواته ولكن فى بهجة ومديح . وفى يوم السبت عاد التلميذ إلى
أسقفه الذى غادر الكنيسة وركب الدابة التى أحضرها له تلميذه وقصد إلى
دمرو ثانية ، فوصلها صباح الأحد ووجد أن الأنبا زكريا لا يزال فيها فقال
له : « لقد تقبل الآب السماوى صلواتك عنى يا أبى » . أجابه الشيخ
القديس : « ان إيمانك هو الذى شفاك » . ثم تهلل الخبران معاً وسبحا الله
الرحيم . وحين دخلا الهيكل قال البابا الاسكندرى للأنبا مرقوريوس :
« تقدم اليوم وارفع الذبيحة الإلهية لأن نعمة الله قد تداركتك » . فأدى
الأسقف شعائر القداس الإلهى فى بهجة وتهليل ، وسرت فرحته إلى الشعب
فشاركه إياها .

على أن عطفه لم ينصب على رجال الكهنوت وحدهم بل شمل الشعب
أيضاً إذ كان يكتفى بالقليل من القوت والملبس ويوزع كل ما يأتیه من
مال على المستورين والفقراء . ومن طريف ما حدث له أن أتته امرأة
ذات يوم وقدمت له مبلغاً من المال . فقال له الأنبا زكريا : « الرب يقبل
عطاياك » وصمت . وانتظرت هى أن يقول شيئاً آخر ولما لم يقل خرجت
وهى تشعر بالضجر . فجاء تلميذه يخبره بأمرها . فقال البابا : « امض
وادعها » فلما دخلت إلى حضرته ثانية أمر تلميذه باحضار ميزان . ثم
وضع تقدمتها فى كفة وفى الكفة الأخرى وضع ورقة كتب عليها الرب
يقبلها منك » وأمر تلميذه بأن يرفع الميزان . وعندما رفعه رجحت الكفة
التى فيها الورقة . وقال لها البابا : « يا ابنتى خلى منهما ما أردت »
فخرت على ركبتها باكية وأخذت الورقة ثم رجحت منه أن يصلى لأجلها .
واتخذت من الورقة قوة لها على الشدائد ووقاية لها ضد صغر القلب .
وهكذا بالخدمة والدعة ، وبالمشاركة الوجدانية والصلوات غير المنقطعة ،

قضى الأنبا زكريا أيامه ، ولقد انعكست معبته على القلوب ، فبادله أبنائه
هذه المحبة وأخلصوا له الولاء فرعاهم ، وسهر عليهم فى مدى سبع وعشرين
سنة وأحد عشر شهراً أنضم بعدها إلى صفوف الكنيسة المنتصرة ^(١) .



(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته
إلى الإنجليزية بمسى عبد المسيح وعزيز سورمال عطية وأوسولد برمستر - المجلد
الثانى - الجزء الثانى ص ١١١ - ١٥١ ، السنكسار الأثيووى...ترجمة واليس بودج
ج١ ص ٢٣٩ - ١٤٣

بولس (الواضح) بن الرجاء

٦٥ - وثمة صورة ساطعة تلمع أمامنا من وراء القرون عن هذه الفترة التي سادها السلام والطمأنينة : هي صورة الواضح بن الرجاء . فلقد شابه هذا الرجل شاول الطرسوسى حين وقف شاهداً على رجم استفانوس أول شهيد إذ وقف الواضح شاهداً ومشاركاً فى قتل أحد المؤمنين من المسيحيين ، ثم شابهه حينما أصبح بولس إذ آمن بالمسيح ولذلك اختار أن يتخذ لنفسه اسم بولس أيضاً . وتتخلص سيرته فى أنه بعدما اشترك فى قتل المسيحي ذهب ليحج . وكان السفر للحج قديماً شاقاً محفوفاً بالمخاطر إذ كان يضطر الحجاج الى قطع الصحراء الشاسعة على ظهور الجمال . وحدث عند العودة من الحج أن نزل القوم فى ذات مساء ليشرّبوا ويسقوا جمالهم . فضل عنهم الواضح وخاصة لأن الظلام كان قد أسدل أستاره . وفيما هو قلق ومتحير ماذا يعمل لينجو بنفسه من هذا القفر المترامى الذى غطاه الظلام إذا بفارس يرتدى الملابس الرسمية ويمتطى صهوة جواده يقف أمامه ويسأله : « ماذا حدث لك ؟ » فلما أخبره بما هو فيه من مأزق قال له الفارس : « مادمت قد فقدت جملك وضللت عن القافلة التى كنت معها فاركب خلفى على جوادى » . وتنفس الواضح الصعداء وركب خلف الفارس . ولم يعرف من هو ولا ماذا فعل به ولكنه وجد نفسه بعد دقائق داخل بناء فسيح . وكان البناء هو كنيسة أبى السيفين ببابلون ولو أنه لم يعرفها طبعاً . ولكنه رأى القناديل موقدة ورأى على ضوئها أيقونات القديسين فأدرك أنه داخل كنيسة ما . ونام مطمئناً الى الصباح . وعندما دخل بواب الكنيسة كعادته لينظفها ورآه ظن أنه لص وكاد يستغيث ولكن الواضح أشار إليه بالسكوت وروى له كل ما أصابه . ولم يصدق البواب فعاد الواضح يسأل عن القديس شفيح الكنيسة التى هو بها فاعلمه أنه أبو السيفين . فرجا منه أن يريه صورته إذا كان ذلك ممكناً . وحينما وقف أمام الأيقونة هتف : « حقاً ان هذا هو الفارس الذى أنقذنى من الموت فى الصحراء . فهذا لباسه وهذه منطقته وهذا حصانه وهذان سيفاه ١ » وذهل البواب وزعم أن الرجل قد جن . ولكن الواضح طلب إليه أن يأخذه الى قمص شيخ يفهم الحقائق الروحية فأجابه الى طلبه . وحينما سمع الرجل الروحاني بما جرى صدقه ولبى طلب الواضح فى أن يقرأ الكتاب المقدس وكتب الآباء . وأكب الواضح على القراءة وتفتح

قلبه فرجا من القمص أن يعمده . وتردد القمص فى بادئ الامر واقترح عليه أن يذهب الى بيرة شيهيت كى يكون بعيداً عن أهله ومعارفه . ولكن الواضح ألح عليه قائلاً : « أن الطريق بعيد وقد يفترسنى وحش أو أموت بسبب من الأسباب قبل أن أصل إلى الوادى المقدس وأنال نعمة المعمودية » . وعندها صبغه القمص بالصيغة المقدسة (المعمودية) باسم بولس ثم عاد يطلب إليه أن يذهب الى البيرة فلبى طلبه وترك كنيسة ابى السيفين التى ظل مقيماً بها منذ أن أحضره شفيعها اليها .

ووصلت القافلة التى كان الواضح أحد أعضائها . وذهب صديق أبى الرجا ليعلمه أن ابنه ضل عنهم ولم يبقوا له على أثر فظنت العائلة أنه توفى وعملت عليه مناحة .

على أن الرهبان قالوا للواضح بأن معموديته لا تدعمها غير شهادته أمام عارفه فترك البيرة وعاد الى كنيسة أبى السيفين . ورآه أحد عارفه فذهب الى أسرته يقول : « لقد رأيت اليوم شاهياً نصرانياً شديد الشبه بآبائكم » . فذهب اخوته الى منطقة الكنيسة يراقبونه عن بعد فلما رأوه تيقنوا أنه هو فأمسكوا به وأخلدوه الى البيت واشتد معه أبوه وأساء معاملته فقبلها فى رضى . واشتكى أمره للخليفة العزيز فلما استوضح الخليفة الحقيقة امر بتركه حراً وهياً له فرصة للمناظرة الدينية فى قصره أمام المسلمين والقبط . فاستمتع بولس إذ ذاك بالحرية .

على انه لما آل الحكم الى الحاكم بأمر الله عاد أبوه « الواضح » الى التضيق عليه فحبسه واستبد به ومنع عنه الطعام والشراب عدة أيام . ثم أخرجه فوجده فى صحة ونضرة ولم يكن يدرى أن الأنبا مكارى الكبير ظهر له فى الحبس وقواه وأطعمه . وعند ذاك ضاعف استبداده وأخيراً ذهب يشتكى منه الى الحاكم بأمر الله . ولكن شامت المراحم الإلهية أن تكون هذه الشكوى فى فترة من فترات الصفاء . فأمر الحاكم بأن يأتى المشتكون والمشتكى عليه أمامه . فلما مثلوا بين يديه أمرهم أن يتحاجوا أمامه . وبعد أن استمع إلى الطرفين أعجبه كلام الواضح فأمر بتركه وشأنه . فلما أخلى سبيله للمرة الثانية ذهب الى البيرة حيث ترهب بدير الأنبا مكارى الكبير . وفى تلك الأثناء تعرف بالأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ووضع نفسه تحت خدمته بأن جمع له كل السير التى وجدها فى الدير . كذلك

وضع كتابين سمي أحدهما « الواضح » لأنه ضمنه توضيحاً صريحاً للعقيدة التي اعتنقها، أما الكتاب الثاني فدعاه « نواذر المفسرين »^(١) فلما رأى الرهبان ما تحلى به من الفضل والعلم أمسكوا به قسراً وقدموه إلى الأب البطريك الذي كان يزور البرية آنذاك فرسمه قساً . فتعرض بهذه الرسامة لغضب العربان المقيمين بتلك الجهات وخاف عليه الرهبان من القتل فقالوا به : « لقد شهدت لإيمانك وسط العالم فلا تعرض نفسك للموت الآن بل أمض إلى الريف »^(٢) وعش هناك . فمضى إلى بلدة صندفا حيث صار قيما لكنيسة الشهيد ثيودورس يخدمها ليلاً ونهاراً مدة سنتين . واتفق أن جاء شماس من أهل منوف اسمه تيدرا بن مينا إلى هذه الكنيسة فوجد هذا القديس محموراً . ولقد قال له بولس حين رآه : « مطانة أن لا تفارقني لأنى لم يبق لى غير يومين على هذه الأرض . فمتى أسترده الأب السماوى وديعته فادفنى قبل أن يعلم أحد » . ولما تتيح هذا الرجل البار تخير الشماس فى أمره قليلاً إذ كان بعض الفوغاء قد سمعوا بالخبر رغم الحرص الذى أبداه الشماس . فبدأوا يتجمعون حول الكنيسة . وفيما هو يروح ويغدو فى داخلها مصلياً مفكراً انزلت رجله تحت العتبة وإذا به يجد مطمورة حسنة نظيفة فأنزل بها جسد جسد القديس وردم فوقها وأصلح موضع العتبة . ثم فتح باب الكنيسة . فلما دخلها الفوغاء لم يجدوا شيئاً فتركوا الكنيسة لأصحابها فى سلام^(٣) .



(١) جاء فى دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج١ ص ٣٥ بأنه كتب أربع رسائل لا إثنين ، عنوان الرسالة الثالثة هو « هنك المحبوب » ، والرابعة سيرته الخاصة ، كذلك بنى كنيسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل فى رأس الخليج .

(٢) الريف فى نظر الرهبان هو البلاد المصرية كلها ما عدا الصحراء .

(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأب ساورس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الإنجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوربال عطية وبورمستر - المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٠١-١١٢ .

التراخي الموجه

- ٦٦- التنافس في الإنتاج الفكري والفنى .
٦٧- التداول في امر انتخاب البابا
٦٨- العودة الى السمونية ونفور الشعب
٦٩- فترة من الجوع والفوضى .
٧٠- معاهدة مع امبراطور القسطنطينية
٧١- ولاء القبط لكنيستهم رغم الجفوة
٧٢- الراحة الكبرى للانياسنودة الثاني .
من باباه .

٦٦ - وعاد السلام إلى البلاد المصرية . وسار الخليفة الظاهر بن الحاكم بأمر الله على خطة التسامح والألفة ^(١) التي سار عليها جده العزيز بالله . وقد نتج عن هذه الحرية وهذا التسامح أن كثر الإنتاج الفكري والفنى : فتبارى العلماء والأدباء فى تأليف الكتب الدينية والأدبية والعلمية وتنافس الشعراء فى نظم القصائد ^(٢) . وراجت سوق العلم والأدب واستمتع الشعب بالموسيقى والغناء ^(٣) .

بل أن الظاهر ذهب فى تسامحه إلى أبعد من هذا لأنه منح الذين غيروا دينهم فى عهد أبيه الحق فى أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم كما سمح بإعادة بناء الكنائس المتهمة ^(٤) .

كذلك اندفع ذوو المواهب فى الإنتاج الفنى فاستمروا يزينون الخشب وينقشونه ، فبعد أن كانوا يرسمون صور الرسل والقديسين خلال هذه الزينة أصبحوا يستخدمون الأشكال الهندسية والنباتية التى تتخللها الطيور

(١) يقول لنا محمد جمال الدين سرور بأن الخليفة الظاهر كان على النقيض من أبيه الحاكم نحو أهل الذمة ، فلم يكدهم يتولى الخلافة حتى عمل على إكتساب عطفهم بأن أصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار فى شعائهم وعقائدهم وأنه لا إكراه فى الدين - راجع كتابه عن « مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٥٨ » .

(٢) « نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة ص ٩٢ - ٩٤ . ويجدر القول هنا بأن أحد أولاد المعز كان شاعراً .

(٣) بل لقد إستمتعوا بالخيال (أو خيال الظل كما نسميه الآن) فيخرج الناس فى بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة عن كتاب « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » لمحمد جمال الدين سرور ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٦٢ .

والحيوانات فى تزيين منتجاتهم . ومن الطريف أنهم هيارا الفرصة أمام الآتين بعدهم ليعرفوا شيئاً عن معيشتهم إذ قد صوروا الكثير من المناظر التى تبين طريقة حياتهم من صيد وقنص ومن لهو وتسلية . ومما يزيد هذه الصور طرافة أنها وجدت داخل الكتانس^(١) . ومن الأمثلة على مثل هذا التفنن باب له أربع مصاريع يحتوى كل منها على ست حشوات مستطيلة منقوشة نقشاً بارزاً من الأشكال النباتية ويتوسط الحشوة حيوانات مختلفة كالأرانب والغزال والأسد ، الا أن بعض الحشوات يتوسطها شخص جالس القرفصاء يشرب من كأس بيده أو يعزف على آلة موسيقية . وكان هذا الباب أحد أبواب الكنيسة المعلقة^(٢) .

على أن التفنن فى صناعة الخشب لم يقتصر على مثل هذه الزخارف إذ أن هناك صندوقاً مقسماً من الداخل إلى ستة أجزاء لحفظ أوانى الزيت المقدس وتزين مسطحاته الخارجية نقوش لصلبان وأشخاص . أما غطاؤه فينزلق عليه فى مجرى صغير .

٦٧ - وفى وسط هذه الحياة الناعمة انتقل الأنبا زكريا إلى عالم الأرواح ، وإذ بعدد من الأراخنة يتنافسون فى سبيل اعتلاء السدة المرقسية الجليلة . فلما علم بقيرة بذلك ، جمع بعض المسئولين فى الكنيسة وقصدوا جميعاً إلى دار الخلافة حيث قابلوا الوزير على بن أحمد وبينوا له حق الشعب فى انتخاب راعيه الأعلى . وكان هذا الوزير رجلاً عاقلاً متزناً فقال لبقيرة : « أنت تعلم أن من الأعباء الملقاة على البابا الاسكندرى دفع ثلاثة آلاف دينار لخزانة الدولة . ولكننا سنتنازل عن حقنا هذا اكراماً لكم . فاتخذوا الخطوات اللازمة لتحقيق أمنيتكم فى انتخاب من ترونه صالحاً لكم . وسيروا بخوف الله » . فكانت كلماته هذه بلسماً لقلوب بقيرة وصحبه . وبعد أن شكروه استأذنوا فى الاتصراف . ثم أبلغوا الشعب بكل ما جرى . ومن ثم اجتمع الأساقفة مع رؤساء الأديرة والأراخنة ، واستعرضوا أبرز الرهبان الذين يصلحون لمثل هذه الكرامة العليا . وفيما هم يتبادلون رأى ذكر أحد الحاضرين اسم شنودة الذى بدأ حياة الرهبنة فى

(١) مرشد المتحف القبطى لرديع شنوده ص ١٦١ .

(٢) شرحه ص ١٧١ .

الرابعة عشرة من عمره . وبعد أن قضى الستين الطوال فى الدرس والعبادة والتأمل رسم قساً على دير الأنبا مكارى الكبير . فأيده بعض الأساقفة بينما اعترض عليه البعض الآخر لتقدمه فى السن . وتداول الطرفان ثم انصرفا دون أن يستقر قرارهما نهائياً . وفى روى الليل تراءى شيخ فى ثياب بيضاء لواحد من الأساقفة وقال له : « ان الراهب الذى سيكون أول من يدخل الكنيسة فى الصباح غداً وقبل رفات التسعة والأربعين شيخاً هو المختار للخلافة المرقسية » . فلما أستيقظ هذا الأسقف أبلغ أخوته الأساقفة بما رأى . فدخل جميعهم الكنيسة . وما كادوا يجلسون فى أماكنهم حتى دخل شنودة وقبل رفات القديسين . فلم يترث الأساقفة ليتأكدوا من صحة الحلم الذى لم يره غير واحد منهم فقط بل عملوا بموجبه مباشرة فأمسكوا بشنودة وساروا به لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية حيث رسموه الخليفة الخامس والستين لكاروز ديارنا المصرية سنة ٧٤٠ ش (١٠٢٤ م) باسم الأنبا شنودة الثانى ^(١) .

٦٨ - وبعد رسامته بأيام جاءه أراخنة الاسكندرية يذكرونه بأن أسلافه مديتون للاسكندريين بمبلغ ألف دينار سنوياً مقابل الأوقاف الكنسية التى كان الأنبا ميخائيل الثالث (البابا الاسكندرى الـ ٥٦) قد اضطر إلى بيعها . فاعتذر لهم الأنبا شنودة الثانى بفداحة المبلغ لا سيما وأنه لا يملك منه شيئاً وأن مطالب الكنيسة العديدة تتطلب منه شتى المصروفات . فتفاوضوا معه ، ورضوا بأن يدفع لهم خمسمائة دينار سنوياً . وما كادوا ينتهون إلى هذا الاتفاق حتى دخل بقيرة وبعض أصحابه ورجوا من باباهم أن ينبذ السيمونية نبذ النواة ، ولا يراعى فى اختيار اللائق للرتب الكهنوتية غير خيرة الرهبان . فلم يوافقهم الأنبا شنودة الثانى على هذا الطلب شفوياً فحسب بل أعطاهم تعهداً كتابياً بذلك . فخرج الجميع من عنده فرحين مستبشرين .

غير أنه لم تمض شهور على هذا الاتفاق الكتابى حتى نقضه البابا الاسكندرى ، ليتسنى له دفع الضريبة المفروضة عليه من الدولة إلى جانب

(١) لم تكن مثل هذه الرؤيا كافية لأنها لم تظهر الا لشخص واحد ربما يكون قد أدعاها - هذا من جهة ومن الأخرى تصرف الناحيون بمقتضاها من غير بحث ولا تمحيص مع أن الآباء جروا على نصيحة يوحنا الحبيب القائل : « أمتحنوا الأرواح ... » ١ يو ١:٤ .

الخمسمائة دينار التي تعهد بدفعها إلى الاسكندريين . وكان السبب المباشر لنقضه عهده هو أن بعضاً من المقربين إليه قالوا له : « هل أنت خير من أسلافك الذين فرضوا الأموال ثمناً لمنح الرتب الكهنوتية ؟ أم ترى أنت أغنى منهم وأقدر على دفع الضرائب المفروضة عليك ؟ » وبهذه الكلمات ومثيلاتها غرّوه على اتخاذ السيمونية خطة له . وقد أشتارت السيمونية شهوة الغنى في نفس الأتبا شنودة الثاني فبدأ بفرض مبالغ بسيطة ثم أخذ يضاعفها على مر السنين . وكلما جمع المال إزداد جشعه . وأخذ يوزعه على أقاربه ومحظوظيه متناسياً مطالب الشعب وأعباء الرعاية . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان الخطب . الا أن هذا التصرف غير المنتظر قد أحنّ القلوب ، فبدلاً من أن يلتف القبط حول باباهم ويعطوه ولاهم الخالص كما كان يفعل أجدادهم مع الرعاية الساهرين ، نفروا منه وأعرضوا عنه . وقد تزايد هذا النفور نتيجة لما حدث عند زيارته القاهرة لأول مرة بعد رسامته . وذلك أنه قصد إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل . فاجتمع عنده جمهور من الكهنة والشعب لتحيته وأخذ بركته ، ومن بينهم الأرغن بقيرة حامل الصليب فالتفت إليه الأتبا شنودة الثاني وقال له : الرب ملك فلتسخط الشعوب »^(١) . فسأله بقيرة « ماذا تعنى بهذه الآية يا أبى ؟ » أجابه لساعته : « لقد كان مطمئناً منذ سنوات أن أكون البابا الاسكندري ولكنكم انتخبتم الأتبا فيلوثيريوس فالأتبا زكريا . وها قد أصبحت أنا الخليفة المرقسى الآن دون أن يكون لأحدكم صوت في الأمر » . وتبادل الأراخنة نظرات الألم المزوج بالغضب ، وأستاذنوا في الخروج وعندها قال بقيرة : « لقد ترنم صاحب الزمور بهذه الآية للتعبير عن أن السيد المسيح ملك رغم إرادة اليهود . ومثل هذا التشبيه غير لائق » . وبهذه الكلمات خرج جميع الأراخنة بلا استثناء فكان خروجهم تعبيراً صحيحاً عما في نفوسهم من خيبة . ولو أن الأتبا شنودة الثاني كان ضمن الرعاية المدركين لعظم مسئوليتهم لسعى إلى تدارك الأمر ، ولحاول أن يستعيد ثقة الشعب ولكنه لم يأبه لهم . ثم تمادى في طغيانه ورسم أسقفاً لأسيرط دون أن يستشير أحداً من أراختها لأنه كان قد قبض منه مبلغاً من المال . فواجه الأسيرطيون هذا التصرف بأن وقفوا في وجه الأسقف ومنعوه من دخول

(١) مز ٩٩ .

مدبتهم . ثم بعثوا برسالة إلى الأنبا شنودة الثانى قالوا له فيها : « لقد قال مخلصنا الصالح مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » ^(١) فإن كان - له المجد - قد منحك الكهنوت مجاناً فكيف تستسيغ أن تعطيه لغيرك بالمال ؟ ولقد أعلن الرسل ، وخلفاؤهم من بعدهم ، الحرم على من يبيع الكهنوت أو يشتريه . غير أن هذه الرسالة لم تجد صدق فى نفس البابا الاسكندرى فلم يحاول تصحيح الموقف . وأصر الأسيوطيون على موقفهم . ولما لم يتمكن الأسقف المفروض من أن يصل إلى عاصمة كرسيه ، عاد إلى الأنبا شنودة الثانى ورجا منه أن يعيد له المال الذى أخذه منه ويرده إلى ديره ، أو يحاول التفاهم مع الأسيوطيون ليسمحوا له بالدخول إلى عاصمتهم . على أن البابا الاسكندرى أصم أذنيه عن الطلبين ، فلم يجد الأسقف أمامه سبيلاً غير العودة إلى ديره . فتزايد نفور الشعب من باباه لهذا التصرف .

٦٩ - وكان هذا الركود الروحى ، وهذا الأسى الذى عم القبط لم يكن كافياً فجاء الفيضان ناقصاً سنتين متواليتين . وكانت النتيجة الطبيعية أن شحت الزراعة وانتشر الجوع . وزاد الطين بلة أن الأشقياء أخذوا يسطون على الشعب المسكين كما تسطو الذئاب الجائعة على القرى الآمنة . وقمادى هؤلاء الأشقياء فى سطورهم فلم يتورعوا عن الاعتداء على قوافل الحجاج . وانتهاز السوريون فرصة اختلال الأمن فثاروا واعتدوا على الحدود المصرية .

٧٠ - وفى سنة ١٠٢٧ م جاء الفيضان وافياً فأعاد الرخاء كما أعاد الاستقرار إلى البلاد . وفى تلك السنة عينها وقع الظاهر معاهدة مع قسطنطين الثامن مؤادها أن يرسم امبراطور الروم المسجد القائم فى القسطنطينية ويطالب المسلمين بالدعوة للظاهر فى صلواتهم ، وتعهد الخليفة مقابل هذا أن يمنح الامبراطور الحق فى ترميم كنيسة القيامة التى كان أبوه الحاكم قد أحرقها ^(٢) . وهكذا أعيد بناء الكنيسة التى تضم القبر المجد بين جوانبها بعد ثمانى عشرة سنة من إحراقها . وتهلل القبط مع بقية المسيحيين لهذه الفرصة السعيدة وتعاونوا على إعادة بناء الكنيسة التى كانوا يتباركون جميعاً بزيارتها فى مختلف المناسبات المجيدة .

(١) متى ١ : ٨ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٣٥ - ١٣٦ المخطط للمقرئى ج ١ ص ٣٥٥ .

٧١ - ولم يتسرب اليأس إلى قلوب بقيرة وصحبه بل عاودوا الكرة لعلهم يفلحون في اقناع باباهم بالعدول عن خطته ، وتقابلوا معه عدة مرات ليذكروه بأن السيد له المجد قد قال أن الذي يعبد المال لا يقدر أن يعبد الله ^(١) . غير أنه مما يؤسف له أن جهودهم جميعاً ذهبت أدراج الرياح . لأن الأتبا شنودة الثانى كان يعدهم بالعدول عن خطة السيمونية ثم لا يلبث أن ينسى وعده عند خلو أول كرسى .

وفى تلك الفترة رزح المصريون تحت نير عاملين كليهما مر : فقد امتلأت نفوس القبط خيبة إذ رأوا باباهم يتمادى فى التفاضى عن رغباتهم ، وفى السعى نحو هدف واحد هو اكتناز المال . وفى الوقت عينه أخذ الظاهر يلهو عن مهام الملك بالاتفاس فى السهر وانعبث ، فأحاط نفسه بالراقصات والمغنيات وتناسى كل شئ آخر . على أن حكمة الزارة تلافى عبث الظاهر ، أما انزلاق الأتبا شنودة الثانى فلم يكن له من يوقفه . لأن هذا البابا رفض أن يصفى إلى نصيح الناصحين كما رفض أن يسلم إدارة الكنيسة لأى شخص . ورغم ما أحس به القبط من ألم وخيبة فقد ظلوا على ولايتهم لكنيستهم : يتمسكون بإيمانها ويحضرون الصلوات بانتظام . وقد تبع ولاؤهم هذا من اعتزازهم بماضيهم ومن اعتبارهم بدم الشهداء وجهاد المعترفين ، ومن ثقتهم التامة فى مواعيد الله . كذلك أدركوا أن ولايتهم يحتم عليهم أن يحافظوا على التراث الذى تسلموه عن الآباء ليسلموه الى الأبناء فكانوا يشددون عزائم بعضهم بعضاً ويتخلون من مواسمهم وأعيادهم فرصاً للتساند والأستبشار .

٧٢ - وحدث أن أصيب الأتبا شنودة الثانى بخفقان شديد فى قلبه وبألم فى أذنيه وبكحة هنيئة تهزه هزاً . وهلل الأطباء قصارى جهدهم من غير جدوى . فظل المرض على شدته ثلاث سنين كاملة والبابا يئن ويتوجع ، ويتناول الأدوية لعله يجد فيها الراحة التى فقدتها . وبعد هذه المدة من الألم وملازمته الفراش وجد الراحة الكبرى إذ قد انتقل الى دار الخلود سنة ١٠٣٩ م . وقد دامت باباويته أربع عشرة سنة وسبعة شهور ^(٢) .

(١) متى ٦ : ٢٤ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٥٤ .

خادم أمّين

- ٧٢- « غيرة بيتك أكلتني »^(١)
 ٧٤- الاجتماع على انتخاب خريستودولس
 ٧٥- تشييد الكنائس ورسامة الكهنة
 ٧٦- اتخاذ القاهرة مقر الرئاسة
 الكرازة المرقسية .
 ٧٧- عدل المستنصر بالله .
 ٧٨- دهاء اليازورى ورعايته للفن .
 ٧٩- الاحتفاظ بالصلة بانطاكية
 والنوبة .
 ٨٠- الكاتب الفارسي ناصر الخوسرو .
 ٨١- تولد الامراء والشعراء على مصر .
 ٨٢- ازمة مفاجئة .
 ٨٣- عدد من القبط في ديوان الخليفة .
 ٨٤- اشتباك بين الجند السودانيين والجند
 الترك .
 ٨٥- القحط والافلاس والوباء .
 ٨٦- انهيار في كل نواحي الحياة .
 ٨٧- « غير المستطاع عند الناس مستطاع
 عند الله »^(٢) .
 ٨٨- تبادل الرسائل بين حبرى الاسكندرية
 وانطاكية .
 ٨٩- انتقال الانبا خريستودولس الى يريجة
 الابكار .
 ٩٠- لمحة عن الراهب ييسوس .
 ٩١- الانبا ميخائيل اسقف تقيس .
 ٩٢- الشمس الاسكندراني .

٧٣ - « غيرة بيتك أكلتني » - هكذا ردّد يوحنا الرسول كلمات فاديه الحبيب ، وبقرة هذا التردد وهذه الذكرى للتعاليم الإلهية التي تلقوها أندفع الرسل يعلمون ويبشرون . وكانت حياتهم قدوة مثلى للآلاف من جامعا بعدهم والتهبوا بنورهم . ومن بين هؤلاء الآلاف الذين كرسوا حياتهم للتبشير والتعليم شماس اسكندري اسمه موهوب بن منصور بن مفرج . فقد كتب يقول في مقدمة كتاب سير البطارقة الذي وضعه : « منذ أن عني أبائنا الأبرار بتدوين سير الباباوات ، والقديسين مبتدئين باللحظة التي وطئت فيها قدما مرقس البشير أرضنا الحبيبة حتى الأنبا شنودة الثاني خليفة السادس والخمسين لنيان المؤمنين ، رأيت أن أنهج على منوالهم وأكمل سير الآباء الذين تعاقبوا على الكرسي المرقسي من بعد الأنبا شنودة . وكان هدفي بتيان المؤمنين ونيان نفسي . فبدأت عملي بأن قصدت الى دير الأنبا مكارى الكبير حيث تقابلت مع الشماس أبى حبيب

(١) يوحنا ٢ : ١٧ .

(٢) متى : ١٩ : ٢٦ .

ميخائيل بن بدير الدمنهورى الذى تبادلت الرأى وإياه عن غايته من جمع سير الآباء . وقد زرنا معاً كل الأديرة القائمة فى تلك المنطقة المقدسة ، وفرحنا اذ وجدنا سبعمئة راهب فيها : أربعمئة منهم فى دير الأنبا مكارى الكبير ، ومائة وخمسة وستين فى دير الأنبا يؤنس القصير ، وخمسة وعشرين فى دير الأنبا يؤنس كامى ، وعشرين فى الهرموس ، وأربعين فى دير الأنبا بيشوى وستين فى السريان ... بينما وجدنا ناسكين عائشين فى صومعة الأنبا موسى الأسود أحدهما قبطى والآخر حبشى ^(١) . وقد قابلنا هؤلاء الرهبان السبعمئة ولكتنا لم نسعد برؤية المتوحدين والسياح المنتشرين فى أنحاء المنطقة . فأطلعناهم على رغبتنا وفرحنا اذ وجدنا خمسة وستين سيرة مكتوبة . فعزمت بنعمة الله أن أتتبع سيرة الأنبا خريستودولس البابا الاسكندرى السادس والستين وسير من تعاقبوا بعده على السدة الجليلة . وألقيت رجائى على الآب السماوى ليعينتى على الوصول الى بغيتى . فكان هذا الشماس الغيور قد أدرك بقلبه تلك الحقيقة العظمى التى عبر عنها أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال :

ما الناس الا أول	يمضى فيتبعه الأخير
الفكر بينهما على	بعد المزار هو السفير

٧٤ - وبهذه المقدمة التى أستهل بها موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى كتابه ، أخذ يسرد سيرة الأنبا خريستودولس فقال : لما خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا شنودة الثانى على دار النعيم اجتمع كهنة الاسكندرية وأراختتها للتشاور ، وبدأوا يستعرضون أسماء الرهبان الممتازين حسب العادة . فذكر أحد الحاضرين راهباً فاضلاً اسمه خريستودولس كان قد قضى بضع سنين فى دير الهرموس نال خلالها رتبة الكهنوت . ثم ترك الدير وانفرد فى صومعة على شاطئ البحر ليكرس نفسه للتأمل فى الإلهيات ورغم وحدته وبعده عن العالم فإن عبير قداسته ملأ الأرجاء . فلما جاء اسمه على لسان من ذكره وافق الكل بالاجماع على أنه راهب متفوق جدير بالكسامة العليا . ومن حسن الحسظ أن أشبين هذا الراهب كان بين

(١) تقع كل هذه الأديرة فى برية شيهيت ، وما يؤسف له أن ديرى الأنبا يؤنس القصير والأنبا موسى الأسود قد خربا ولم يتبقى سوى أطلالهما .

الحاضرين فانتدبوه ضمن الوفد الذى قرروا ايفاده إلى صومعة خريستودولس . فلما وصلوا إلى المنطقة وجدوا باب الصومعة مسدوداً . فتقدم أشيئنه ونادى عليه وأخذ يتحدث إليه فى ثقة وهدوء إلى أن أقنعه بفتح باب صومعته . وما كاد يفتحه حتى اندفع الوفد إلى الداخل وحملوا خريستودولس رغماً عنه إلى الاسكندرية . ولما سمع الاسكندريون باقتراب الوفد من مدينتهم سارعوا إلى استقباله عند مداخلها . ثم ألفوا له موكباً رائعاً ، وساروا به وهم يترنمون بالمزامير والألحان الكنسية حتى وصلوا إلى الكاتدرائية حيث رسمه الأساقفة الخليفة السادس والستين للقديس مرقس سنة ٧٥٧ ش (١٠٣٩ م) .

٧٥ - وقد استهل الأنبا خريستودولس باباويته بتشديد عدد من الكنائس الجديدة فى الاسكندرية ، وبالتالى برسامة الكهنة والشمامسة اللازمين للخدمة فيها . وقد تهللت القلوب جميعاً حين وجدت البابا الجديد يتخير الخدام الأمتاء المتلتئين بغيرة ومحبة للكنيسة ويزودهم بنصحه وبركته ، وازدادت القلوب فرحاً . إذ أعلن هذا البابا الغيور ان الآباء الرجال المرسومين للخدمة لا حق لهم فى مال الكنيسة اطلاقاً . ثم كتب الرسائل إلى أبنائه يحثهم فيها على التمسك بالصوم والصلاة ومراعاة المراسم الكنسية المختلفة ، والمواظبة على حضور القداسات وغيرها من الصلوات المقدسة التى رسمها الآباء وختم رسائله بتحذير الكهنة والشعب من الاستعانة بالحكام المدنيين فى علاقتهم ببعضهم البعض .

ولقد وجد هذا البابا الأمين - فى تجواله بين أبنائه - أنهم فى حاجة إلى معرفة القوانين الكنسية لأن قوانين المجامع المسكونية والآباء الرسولين كانت قد وضعت فى القرون الأربعة الأولى أو ما يتجاوزها بقليل . وبذلك لم يعد نسخها . ثم قامت أحداث مختلفة وظروف جديدة لم يتناولها المشرعون بالبحث إذ لم تكن قد حدثت أيام أن وضعوا تشريعاتهم . فرأى الأنبا خريستودولس أنه - بوصفه الحارس الأمين على الوديعة التى تسلمها - مسئول عن توضيح القوانين التى سبق الآباء أن وضعوها ، وعن وضع القوانين اللازمة لمقابلة الظروف الجديدة . وقد نشر أول مجموعة لهذه القوانين فى الثامن من شهر مسرى المبارك سنة ٧٦٤ ش (أول أغسطس سنة ١٠٤٨ م) . ولا تزال هذه القوانين محفوظة بحمد الله ، وتتعلق

بالمواسم الكنسية ووجوب مراعاتها ، وما يجب على الرعية نحو رعاتها ،
ويمسك الكهنة نحو رؤسائهم الدينيين ^(١) .

٧٦ - وفى أول زيارة جاعها الأنبا خريستودولس الى القاهرة رأى
ضرورة اتخاذ هذه المدينة مقراً لرياسته بدلاً من الاسكندرية . لأن وجود
الحكام المدنيين فيها - واضطراره الى التشاور معهم فى شتى المناسبات
بوصفه المسئول الأول عن الكرازة المرقسية جعل وجوده فى الاسكندرية أمراً
عسيراً . ولما أستقر رأيه على وجوب الإقامة فى القاهرة رأى أن يجعل من
كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة مقره المختار . على أنه رأى وجوب
المحافظة على خطة أسلافه بإقامة القديس الأول فى كنيسة القديسين
سرجيوس وواخس (الشهيرة بأبى سرجة) . غير أن الشعب ألح عليه فى
أن يصلى بالمعلقة فتزل على رغبته ، ولكنه رأى أن يسترضى كاهن أبى
سرجة بإقامة القديس الثانى فى كنيسته فتهلل الشعب عندما وجد أن الأنبا
خريستودولس يسعى الى ارضاء الجميع بالطرق المشروعة وفى حدود القوانين
الكنسية .

٧٧ - ولقد ساد الشعب شعور بالطمأنينة والأستقرار لأن الأب الروحى
والحاكم الزمنى - كلاهما - كانا يعملان على راحة الجميع . فلقد كان
المستنصر بالله قاصراً عند وفاة أبيه الظاهر ، فتولت أمه الوصاية عليه .
وكانت أصلاً جارية سودانية ، فلما أنجبت ولى العهد أصبحت الملكة . على
أنها لم تلبث أن سلمت مقاليد الملك لإبنها عندما بلغ سن الرشد . ومن
حسن الحظ أنه كان مسالماً ، عادلاً ، واسع الصدر .

٧٨ - وكان وزير المستنصر رجلاً على جانب عظيم من الدهاء اسمه
يازورى وحدث فى ذلك الحين أن شق التونسيون عصا الطاعة على الخليفة
الفاطمى . فرأى يازورى فى دهائه أن لا يبدد قوى الجيش المصرى فى

(١) هناك أربع نسخ لهذه القوانين : احداها فى المتحف القبطى بباهلون (مصر القديمة)
وثانيتهما فى المكتبة الأهلية بهاريس ، والثالثة بمكتبة الفاتيكان ، والرابعة فى مكتبة
المتحف البريطانى بلندن - راجع مقال أوسولد هورمستر (بالانجليزية) عن « قوانين
خريستودولس بطريرك الاسكندرية السادس والستين » نشر فى مجلة موزيون المجلد
٤٥ ص ٧١ - ٨٧ .

معاربة التونسيون الثائرين . وكانت في مصر يومئذ قبائل تعرف باسم بني هلال . كانت هذه القبائل موصومة « بالتمرد والعناد » . فرأى يازورى أن يتخذ مصر من برائن هذه القبائل المخربة بتسليطها على التونسيين وبالفعل أرسلها لإخضاعهم . فضرب عصفورين بحجر واحد لأنه أراح المصريين من شر هذه القبائل وأخمد الثورة التونسية في آن واحد ^(١) .

وفي عهد المستنصر أثمر ازدهار الفنون الجميلة التي شجعها الفاطميون ووزراؤهم . ومن طريف ما يروى عن الوزير يازورى أن اثنين من الفنانين كانا يتفاخران أمامه بإبداعهما في الرسم ابداعا يوهم الناظر أن ما يراه حقيقة واقعة . فطلب اليهما أن يشتا له ما يدعيان . وكان لهذا الوزير قصر شيد مدخله على هيئة قوس . فأخذ أحد الفنانين ناحية من هذا المدخل ، ونحت فوق قاع أسود واقصة في ثوب أبيض فبدت للناظرين كما لو كانت خارجة من الحائط وأخذ الفنان الثاني الناحية المقابلة ، ونحت على قاع أصفر واقصة في ثوب أحمر ، فبدت للناظرين كما لو كانت داخلية في الحائط . فأعجب الوزير ببراعة الفنانين الاثنين وأجزل لهم العطاء ^(٢) .

٧٩- وفي هذه الأوانة بعث خليفة مارمرقس برسالة الشركة الى أخيه يوحنا بطريرك أنطاكية . وقد حمل رسالته الأنبا ميخائيل أسقف تينيس والآنبا غبريال أسقف صا لأنهم كانا يجيدان اللغة اليونانية فقضيا في أنطاكية بضعة أيام لقيا فيها كل مودة وترحاب . وعاد الى مصر يحملان معهما أجمل الذكريات .

كذلك حرص الأنبا خريستودولس على الصلة الطيبة التي ترتبط بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة . فما أن وصلت رسالته جرجس ملك النوبة يرجو منه فيها رسامة أسقف له لنياحة أسقفهم حتى بادر بأختيار راهب ممتاز ورسده وأرسله لهم في أسرع فرصة . ففرح النوبيون لهذه التلبية السريعة ، وبخاصة لأن الأسقف المتنيح بنى كنيسة فعاجلته المنية قبل تكريسها .

(١) « مختصر تاريخ مصر » . (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لجاستون فبيت ص ١٨٤ .

(٢) مصر : من مينا الى فؤاد الأول (بالفرنسية) للأب دى هينو ص ٢٣٨ .

وكان هذا الملك قد قطع الجزية المفروضة على بلاده لمصر ، فأوصاه البابا الاسكندري بدفعها حرصاً على صلات المودة بين البلدين على أن البابا - حين بعث للملك النوبى بهذه الوصية - أكد له أن هدفه هو حفظ السلام فحسب وهو لا يريد التدخل فى شئون الدولة إطلاقاً لأنه يتمثل بخطة آباء الاسكندرية . وهى جعل رسالته قاصرة على الدين وترك الأمور السياسية لأصحابها ^(١) .

٨ - ولأن ذلك العصر ساهى السلام فقد وفد على مصر عدد كبير من السياح والجواريين وبين هؤلاء السياح البارزين الكاتب الفارسي ناصر الخوسرو . فما أن وطئت قدماء أرض مصر ، ووقف على ما فيها من آثار وفنون حتى وصفها وصفاً غاية فى الروعة والدقة ، وأن وصفه ليعتبر وثيقة تاريخية مشيقة لأنه يصور القاهرة يوم ذاك تصويراً مسهباً يمكن القارئ من أن يعرف ما كانت عليه هذه المدينة الكبيرة من رونق ونظام . فقد قدر ناصر الخوسرو عدد منازلها بعشرين ألفاً ، كما ذكر أن البعض من هذه المنازل كان يتألف من خمسة طوابق أو ستة . وتتخلل المدينة الحدائق والقنوات ليتنزه فيها القاهريون .

وبعد أن وصف المباني والحدائق انتقل الى التحدث عن الفنادق التى كانت من مفاخر القاهرة إذ ذاك ، فقال ان عددها يبلغ المائتين . على أن أدق وصف وأبلغه هو ما أختص به بركة الحبش فقال عنها : « أيا بركة الأحباش ، أن اليوم الذى قضيت به فوق سطح مياهك كان أشبه بالحلم الجميل ، ومرت الساعات فى بهجة وسرور . فما أجمل زهور الكتان السابحة فوق سطحك : بعضها متجمع متماسك كالفتيات الرقيقات الحالمات ، وبعضها منفرد فى أنفة واعتزاز » ^(٢) . وعلى مقربة من هذه البركة قام دير القديس يوحنا به حدائق الغناء التى وضع تصميمها الخليفة المعز بنفسه . فكانت الركن المفضل عنده وعند خلفائه كلما شاعوا الاستجمام من غناء الحكم .

ولم تكن الحدائق والقنوات مفردة بالجمال فى حكم ناصر الخوسرو ، لأنه

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاخر رياض ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤن پول ص ١٤٠ .

انتقل بعد ذلك الى الاسهاب فى وصف الاسواق وما تحويه من بدائع الفن لم يرى لها مثيلاً . فى أية مدينة أخرى فالأوانى الفخارية دقيقة الصنع رائعة الرسوم الى حد أنه لم يسعه إلا أن يتفرس فيها مأخوذاً بها . كذلك أذهلته رقة النقوش التى يتفنن فيها صانعوا المصابيح النحاسية وزاد هذه النقوش جمالاً أن الزجاج الذى كان يوضع داخلها للأنارة كان ملوناً شتى الألوان . وحين كانت توقد هذه المصابيح كانت الأنوار المنعكسة منها خلال الزخرفة الشبيهة بالدانتلا والألوان العديدة تجعل المرء يشعر بأنه فى فردوس من الجمال .

كذلك رأى ناصر الخوسرو سبع سفن راسية على شاطئ النيل ، كانت من السفن التى استعملها جيش المعز قبل أن يراها الكاتب الفارسى بما يقرب من ثلاثة أرباع القرن ، فقال عنها إن طول الواحدة منها كان مئة وخمسين ذراعاً وعرضها - عند الوسط - ستين ذراعاً^(١) . وقد تبدو هذه المقاييس صغيرة الآن ، ولكنها كانت كبيرة جداً منذ عشرة قرون .

واسترسل الخوسرو بعد ذلك فى وصف النسيج الذى كان المصريون ينتجونهم فقال ألوان الكتان من أرق ما رأى ، بل ان النسيج الذى كانوا ينتجونهم فى تنيس كان ذا ألوان تتغير بتغير ساعات النهار . فكان الناس فى الشرق والغرب يستوردونه لجماله المنقطع النظير . وكانت هناك ألف سفينة مجهزة تروح وتغدو فى هذا الميناء الذى كانت الحركة فيه يومية . وكانت بعض هذه السفن ملكاً للخليفة والبعض الآخر ملكاً للتجار . وكان الخليفة يدفع للعمال الذين ينتجون له النسيج المطلوب منه عن سعة فكانوا يعملون برضى وسرور . ولم يكن النسيج الرائع بالانتاج الوحيد الذى يصنعه التينيسيون بل كانوا ينتجون السكاكين والمقصات الدقيقة^(٢) . وكان على مقربة من تنيس بلدة واقعة على بحيرة المنزلة ينتجون فيها أنواعاً من الأقمشة الحريرية المزركشة تعرف بالديقى نسبة اليها لأن اسمها ديبق^(٣) .

(١) شرحه ص ١٢١ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٣٠٣ - ٣٠٤ . ويعقب جاستون فينيت على معاملة الخليفة السمجة بمقارنتها بما كان الأمراء الاقطاعيون يفرضونه من السخرة فى أوروبا فى تلك القرون .

(٣) « القاهرة : تاريخها وأثارها ... » لعبد الرحمن زكى ص ٣٨ والهامش به .

وان دل وصف ناصر الخوسرو للصناعات التي تغنى بها على شئ فإنما يدل على تقدم الصناعة في بلادنا العزيزة في القرون المفروضة بأنها قرون مظلمة لأن هذه المنتجات صنعها عمال مصريون إذ لم يكن الاستعمار الغربي قد أشاع بيننا ادعاءه بأن بلادنا زراعية فحسب ولا بأنه علمنا الصناعة التي كنا نجهلها

ولم يكن جمال الابتكار المصري بالشئ الوحيد الذي أذهل ناصر الخوسرو بل أذهله أيضاً خصب التربة المصرية . فأبدى إعجابه بالفاكهة المتعددة الأنواع والخضروات الطازجة . وكانت أسعار هذه الحاجيات محددة ، فإن نجاسر بائع أن يزيد عليها كان عقابه أن يركب جملاً ويسير جمهور رعاة ، فيستقلون من شارع إلى آخر ، بينما هو يرن جرساً ويعلن بنفسه خطأ الذي ارتكبه . وكان الصمير الجماعي في تلك الأيام خير رقيب على التجار . كذلك كان الأمن مستتباً إلى حد أن أصحاب المحال التجارية كانوا لا يحتاجون إلى إغلاقها بالمفاتيح ، بل كانوا يكتفون بربط درفتي الباب بقطعة من الجبل للدلالة على أن المحل مغلق .

٨١ - وانتهى الرحالة الفارسي إلى القول بأن بلاط الخليفة كان مقصد الشعراء والأدباء من كل بلد ، لأنه كان يجزل لهم العطاء . كذلك كان البلاط يمجج بالأمراء والأشراف من المغرب واليمن والثوبة والحبشة ، ومن القوقاز وما يجاوره وأحياناً كان يأتيه ضيوف من التركستان والهند . وكان يخلو لهؤلاء الزوار أن يشاركوا المصريين أعيادهم الخاصة بالنيل ، والتي كان يحتفل بها القبط والمسلمون على السواء . فكان الجميع يخرجون ليلاً في مراكب تسطع منها المشاعل العديدة . وكان الخليفة المستنصر بالله يرأس هذه الاحتفالات بنفسه أسوة بأسلافه (١)

(١) تاريخ مصر ، د. كسنتان لابين بول عن ١٢٩٠ ب ١٤٤١ ، راجع أيضاً مقال دكتور حسن الباشا المنشور بصحيفة الأهرام الصادرة في ٢٤/١/٦٩ عن كتاب ناصر الخوسرو سفر نامه ، الذي نقله إلى العربية عن الفرنسية دكتور يحيى الخشاب وصدر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ، بينما يخبرنا دكتور حسن حبشي نقلاً عن ناصر الخوسرو بأنه كان في زمن هذه الرحالة الفارسي رجل نصراني وأن الجميع كانوا يتوقعون حدوث مجاعة تعم القطر بأكمله ، فما كان من هذا القبطي إلا أن تقدم إلى الوزير مخبراً إياه بأن في شوته قدرًا من القمح يكفي لثمنين القاهرست سنوات . راجع كتابه د. أهل الذمة ، ص ٢٢٢ .

٨٢ - ثم تعكر صفو السلام فجأة ومن غير مقدمات إذ قد حلا لبعض الدساسين أن يوقع بين البابا الاسكندري وبين الخليفة ، فأدعى أمام يازورى بأن الأتبا خريستودولس قد بنى عشرين كنيسة جديدة فى منطقة دمر (المحلة الكبرى) . ولم يترث يازورى ليعرف صدق الرواية من بهتانها ، بل أمر الدساس لفوره بأن يهدم الكنائس الجديدة ويغلق القديمة مع وضع أختام الدولة على أبوابها ، وتحديد جزية لفتح كل واحدة منها . وحمل مثيرو الفتنة أمراً كتابياً من الوزير ، وذهبوا الى دمر حيث اقتحموا البيت الذى كان البابا الاسكندري يقيم فيه . وفيما هم داخلون وجدوا على البوابة كلمات « باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد أمين » فأخرج أحدهم سيفه وكشطها . فقال له الأتبا خريستودولس فى هدوء تام : « لئن كشطت هذه الكلمات من على الأبواب فلن تستطيع كشطها من قلوبنا » . فدهش المعتدى من هذا الرد الرصين ومضى لحال سبيله .

على أن يازورى لم يكتف بما حدث فى دمر بل أمر باغلاق جميع الكنائس فى القطر المصرى ، ولم يفقد الى أن مثل هذا العمل سيفضب المسلمين أنفسهم . فقد ثارت نفوس العقلاء منهم لهذا التعنت الذى لا مبرر له . وخلال هذه الفترة قامت فتنة فى الصعيد الأوسط أدت الى الفتك بجميع رهبان دير أبانوب قرب الأشمونين . ولقد أندفع المسلمون العقلاء بدافع نفوسهم الثائرة فقصدوا الى الخليفة المستنصر واحتجوا أمامه بشدة على يازورى . فصدر أمر الخليفة بإقالة وزيره ثم بنفيه الى مدينة تنيس . وأعقب ذلك أن أعيدت كنيسة مارجرجس بخط الحمراء (خارج القاهرة) الى القبط فرمموها على الفور . الا أن العامة تدمروا لهذا الترميم فعاودوا تخريبها ولكن القبط لم يلبثوا أن استرجعوها مرة أخرى وجددوا بناءها فدشنت من جديد . ويبدو خلال هذا المد والجزر أن تزايد استياء المسلمين من يازورى لأن الخليفة لم يلبث أن أمر بأعدامه ^(١) وتولية ناصر الدولة مكانه .

٨٣ - ووضع للجميع أن المستنصر يستهدف العدالة لرعاياه كلهم مما جعل المصريين اذ ذاك يعيشون فى ألفة وتفاهم . كذلك نال بعض القبط

(١) أهل الامة فى الاسلام ترجمة حسن حبشى ص ٥٧ .

حظوة خاصة فى عينيه فعينهم فى ديوانه منهم أبو سرور ويونس بن يوسف الأبح الذى كان كاتم سر الخليفة والذى أتاح له منصبه أن يرمم كنيسة أبى سرجة حينما وجدها متهدمة ^(١) .

وفى عهد الفاطميين استمتع القبط بالاحتفاء بأعيادهم الدينية بصورة رائعة ما عدا فى الفترات القائمة أيام الحاكم بأمر الله ... ومن أبهى الأحتفالات الاحتفاء بعيد الميلاد فكانوا يوقدون المشاعل والشموع العديدة ويزينون الكنائس . وكانت الشموع بألوان مختلفة وفى أشكال متباينة فمنها ما هو على شكل تمثال ومنها ما هو على شكل عامود أو قبة ومنها ما هو مزخرف أو محفور ولم يضيئوا الكنائس والمنازل بها فقط بل كانوا يعلقونها فى الأسواق وأمام الحوانيت . ومن الطريف أن الفاطميين كانوا يوزعون بهذه المناسبة المجيدة الحلوة القاهرية والسميد والزلاية والسمك المعروف بالبورى . والعيد الثانى كان يشترك الخلفاء الفاطميون مع القبط فى الاحتفاء به كان عيد الغطاس . فكان القبط يخرجون من الكنيسة فى مواكب رائعة ويذهبون الى النيل حيث يسهر المسلمون معهم على ضفاف نهرهم الخالد . وفى كل من ليلتى الميلاد والغطاس كانوا يسهرون حتى الفجر . وكان شاطئا النيل يسطعان بآلاف الشموع الجميلة والمشاعل المزخرفة . وفى هذه الليلة كان الخلفاء يوزعون النارج والليمون والقصب وسمك البورى . أما فى أحد الشعانين (السعف) فكان القبط يخرجون من الكنائس حاملين الشموع والمجامر والصلبان خلف كهنتهم ويسير معهم المسلمون أيضاً فيطوفون الشوارع وهم يرتلون . كذلك كان خميس العهد فرصة للتعبير عن البهجة والتآخي فكان الفاطميون يضرعون خمسمائة دينار على شكل خرايب ويوزعونها على الناس . وكان « يباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ألوان ما يتجاوز حد الكثرة فيقامر به العيد والصبيان والغوغاء » . وكان القبط يتبادلون الهدايا من البيض الملون والعذس المصفى وأنواع السمك المختلفة كما يقدمون منها لآخونهم المسلمين ^(٢) .

وثمة عيد آخر ليس دينياً بالمعنى الدقيق ولكنه ارتبط بالأعياد الدينية

(١) « الدبر المحرق » للأبنا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمى - هامش ص ٦٥ .

(٢) المخطوط للمترزى ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٤٥٠ ، ٤٩٤ .

وهو عيد النيروز الذى أطلق عليه الآباء اسم « عيد الشهداء » حينما ربطوا بين السنة المصرية القديمة وبين ما جرى فى عصر دقلديانوس من اضطهاد . وقد رأى الفاطميون أن يشتركوا فى أحياء هذا العيد أيضاً فكان يوم عطلة عامة تغلق فيه الاسواق ويوزع فيه الخليفة الكسوة على رجال الدولة ونسائهم وأولادهم ويصرف حوائج العيد من بيت المال ^(١) .

ولقد سار والى الاسكندرية - حصن الدولة - على خطة الخليفة المستنصر فقامت بينه وبين القبط مودة وصداقة ولم يأذن لهم بالسير فى مواكبهم أيام هذه الأعياد فحسب بل أنه زاد على ذلك أيضاً بأن أمر رجاله وحفظة الأمن فى المدينة أن يشتركوا مع القبط فى هذه المواكب كي يحافظوا عليهم من الرعاع .

وفى هذه الفترة السعيدة ظل الأنبا خريستودولس مقيماً فى دمره . وكان يرسل للاسكندريين سنوياً ثلاثمائة وخمسين ديناراً من غير أن ينتظر مطالبتهم إياه . فقتنوا بهذا المبلغ لكونه يصلهم بسهولة وانتظام .

٨٤ - وما يؤسف له أن المستنصر بدأ بعد ذلك ينصرف إلى ملاذه ولهوه تاركاً دفة البلاد فى يدى وزيره ناصر الدولة . واتبع الوزير خطة مناهضة الجند السودانيين الذين تناصروهم أم الخليفة ، وتشجيع للجند الأتراك . فقامت منافسة عنيفة بين هذين الفريقين وصلت إلى الحرب . وانتصر الأتراك ، واضطروا السودانيين الى أن يلتجئوا إلى الصعيد . ولم يرض السودانيون بالفشل ، فأخذوا يناوشون الأتراك براً وبحراً (على النيل) . وأخذت أم الخليفة تدبر المؤامرات لعلها تعيد إلى مواطنيها نفوذهم ولكن الترك ظلوا قابضين على زمام الأمور . فأسكرهم فوزهم ، وتشددوا فى المطالبة بزيادة مرتباتهم . وكلما نالوا زيادة طالبوا بغيرها حتى أفلست الخزينة . وعندها صحا المستنصر إلى واجبه وعزل ناصر الدولة الذى هرب الى الاسكندرية حيث كان الجيش موالياً له . وزحف بهذا الجيش على الدلتا، بينما كان الصعيد لا يزال تحت سيطرة الجنود السودانيين .

٨٥ - وما زاد الطين بلة أن الفيضان جاء ناقصاً فانتشر الجوع والقحط . وانتهاز أشقياء الناس الفرصة فعاثوا فى البلاد فساداً ونشروا الذعر بين

(١) شرحه ج ١ ص ٤٩٣ .

أهلها . واشتدت وطأة الجوع على القاهرة خاصة لأن الاتصال بينها وبين الريف كان معتذراً . واستمر الجوع سبع سنين متتالية حتى لقد روى بعض المؤرخين أن هناك من الناس من تحولوا الى وحوش ضارية تفترس غيرها من الناس .

وكانت المعارك التى دارت أولاً بين الأتراك والسودانيين ، وثانياً بين أتباع ناصر الدولة وأتباع الخليفة قد أضعفت هيبة الحكومة الى حد بعيد ، كما أضعفها افلاس الخزانة ، فزال الأمن وعم الإضطراب . وضاعف القوضى انتشار الوباء الذى كان دائماً نتيجة حتمية للقط . ولما كان الناس يعانون الجوع والخوف فقد ضعفت مقاومتهم إلى حد بعيد ، فمات الآلاف منهم . وكان الوباء يقضى على عائلات بأسرها ، فلم ينج بيت من برائه .

٨٦ - وفى هذه الفترة تداعت كل الأنظمة والمثل العليا . فضعفت الحكومة المركزية التى تضمن الأمن ، وتلاشى الفن والعلم والأدب ، وتدهورت الأخلاق وزال كل ما كان يستهدفه الإنسان من سمو وعذوبة . ومن أروع الأدلة على الانحلال الذى ساد إذ ذاك أن المكتبة التى وصفها المقرئى كأنها أسطورة من نسج الخيال ، والتى كانت تحوى مئة ألف مجلد إلى جانب آيات الفن فى القصور والمتاحف أصبحت نهياً لكل ناهب ، وتبددت بأتفه الأثمان ، لعل الدراهم القليلة المدفوعة فيها تسد غائلة الجوع ولو لبضع ساعات .

٨٧ - على أنه من دواعى فخرا واعتزازنا أنه حالما أستتب الأمن مرة أخرى عاود المفكرون جهودهم ونجحوا إلى حد أنه حين تولى صلاح الدين الملك بعد ذلك بما يقرب من قرن وجد فى القاهرة مكتبة تحوى مئة وعشرين ألف مجلداً^(١) أما فى هذه الساعات الحالكة ، فلم يوجد للجنش الإنسانى حد . فإن الأشقياء لم يكتفوا بنهب سكان المدن و القرى ، وبالقتل والسلب ، بل زحفوا على الصحارى وأعتدوا على رهبانها ، فقتلوا كل راهب عثروا عليه ولم ينج من بطشهم غير الرهبان الذين لجأوا إلى الصعيد فبدا للمصريين المعذبين الفرعين أن الله تعالى نفسه قد حجب وجهه عنهم .

(١) أورد ستانلى لاين هول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) تفصيلات ما حدث من فظائع خلال هذه الفترة ص ١٤٥ - ١٥٠ .

ولكن غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله ، فجاء الفرج من
لذنه بصورة غير متوقعة ، هي أن المستنصر حين وجد أن البلاء قد
أستحكم ، ثاب الى رشده وبعث بخطاب سري الى بدر الجمالى والى عكا ،
وطلب اليه الاسراع الى نجدته وتولى أمر مصر . وكان بدر هذا أرمى
الأصل بلغ درجة الولاية لأنه انتصر فى معركتين قاد فيهما السوريين ضد
الأتراك . فقبل طلب المستنصر بشرط واحد هو أن يستصحب معه جنوده
السوريين . فرحب الخليفة بهذا الشرط . وعندها ركب بدر الجمالى البحر
بجنوده رغم أن السفر فى شهر ديسمبر محفوف بالأخطار . ووصل
القاهرة فى أوائل فبراير . ولم يكن الأتراك يعرفون ما فعله المستنصر
فتلقوا بدر الجمالى بالترحاب . وكان بدر ذا دهاء ، فعين لكل ضابط سوري
ضابطاً تركياً يقتله . وفى الصباح التالى دخل السوريون يحمل كل منهم
رأس التركى الذى كان منوطاً به . وهكذا قضى بدر على بطش الأتراك فى
ليلة واحدة . ولشدة الفرح الذى ملأ قلب المستنصر عين بدر الجمالى أميراً
للجيوش ووزيراً فى آن واحد ولم يتوان بدر فى أن يعيد الأمن والنظام
الى البلاد ، والهدوء والأستقرار إلى النفوس . فلم يعد الفزع والجوع
والهول غير ذكرى كاهوس - مر وكأنه لم يكن .

٨٨ - وباستتباب الأمن استطاع الأنبا خريستودولس أن يعاود مهامه
الراعية فى سكىنة وثقة . ثم بلغه أن بطريكاً جديداً قد أعتلى السدة
الأنطاكية فبعث إليه برسالة الشركة صوناً للعلاقات المتينة القائمة بين
الكنيستين الرسولييتين : على أن رسالته اختلفت عما سبقها من رسائل :
كان الجزء الاول منها يتضمن العقيدة التى تجمع بين أنطاكية والاسكندرية
كما جرى التقليد ، أما الجزء الثانى منها فقد خالف التقليد تماماً إذ قد
تضمن شكوى مريرة مما جرى له ولشعبه ، تتلخص فى وصف الأحوال
والأوجاع التى جازوها معاً ، ثم قال أنهم اضطروا إلى دفع الجزية تلو الجزية
حتى بلغت قيمة ما اضطروا إلى دفعه مئة ألف دينار . فرد يوحنا رداً
يفيض نعمة ومحبة ثم اختتمه بقوله : « ما حاجتنا الى المال - نحن الذين
حسبنا أهلاً لأن ننال كرامة الكهنوت العظمى بنعمة الله ؟ لقد أكل فادينا
الحبيب ورسله الطعام الذى كان يمنحه إياهم أهل الخير مع أنه هو رب
الحياة . وعاش رسله فقراء لا يملكون شروى تقير . ولقد روى المؤرخون عن

يوحنا الحبيب أنه كان يكسب عيشه بتنظيف أبراج الحمام في أفسس وهذه السحابة العظمى من الشهود ، كيف نستطيع أن نقتنى المال ؟ وكيف نستطيع أن نشتكى لأن المال الذى كان لنا قد اغتصب ؟ إن كنوزنا يجب أن تكون فى السماء ، وعلينا أن نخدم فى دعة وقناعة مستودعين أمورنا جميعها يدي ذاك الذى دعانا لخدمته والذى وعد أن يعتنى بنا .

٨٩ - وكانت كلمات البطريك الأنطاكي بلسماً لقلب البهايا الاسكندري ، فكرس حياته لتقوية عزائم أبنائه وتعزية قلوبهم . على أنه كان قد قارب النهاية إذ قد أنهكته السنون ، وأضنته الشدائد ، فانتقل إلى بيعة الأبهكار فى كيهك سنة ٧٨٦ ش (ديسمبر ١٠٧٠ م) ، بعد أن رعى الشعب القبطى تسعاً وعشرين سنة وثمانية شهور . وأقام عليه الأساقفة الشعائر الجنائزية الخاصة بالبهايات الاسكندريين . ثم دفنه فى كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . وبعد فترة وجيزة نقلوا جثمانه إلى دير الأنبا مكاري الكبير ببرية شيهيت ^(١) .



(١) كتاب تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ، ص ٣٦١ - ٣٨٤ .



أيقونة للميلاد المجيد - وهي واحدة من مئة عثرت عليها بعثة الآثار البولندية برئاسة البروفسور كازيمير ميخالوفسكى^(١) بينما كانوا ينقبون فى منطقة النوبة ليحاولوا استخلاص الآثار من الفيضان الذى سيغمرها بعد الانتهاء من السد العالى . وفى بلدة فراس^(٢) وقف المنقبون مذهولين إذ وجدوا أنفسهم داخل كنيسة قد زينت جدرانها بالأيقونات الملونة التى حفظت الرمال بها ما حتى لكأن العمال قد انتهوا من صنعها أمس فقط . وقد بدأت البعثة البولندية تنقيبها على أثر النداء الذى وجهته هيئة اليونسكو إلى العالم لإنقاذ آثار النوبة سنة ١٩٦٠ وعثرت على هذه الكنيسة وغيرها فى فبراير سنة ١٩٦٣ . ومنها كنائس كانت أصلاً معابد فرعونية إذ كانت الأيقونات محاطة بزخارف هيروغليفية أو بصور للآلهة القديمة ، وقد ذكر خبرها جميع الصحف العالمية من بينها مجلة صنداي تايمز^(٣) فى عددها الصادر فى ١٤ يونيو سنة ١٩٦٣ . وجاء فى هذه المجلة أن الأيقونات بيزنطية وعللوها بأن النوبة ظلت على صلتها ببيزنطية رغم انقطاع هذه

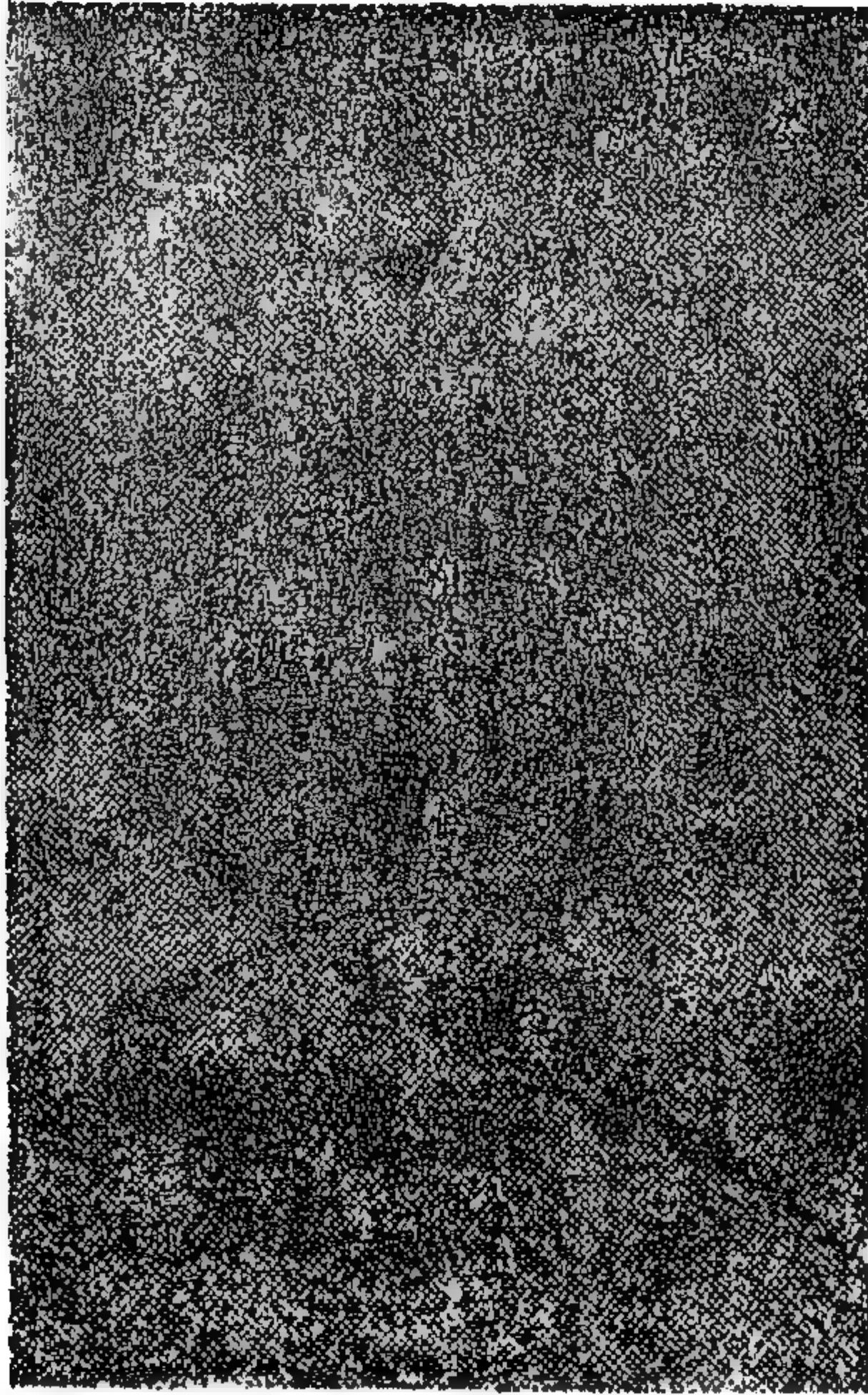
(1) Prof . Kozimierz michalowski .

(2) Faras .

(3) TheSunday Times Magazine July 14 , 1963 pp. 1- 11

الصلة بمصر ١ وأن بيزنطة هي التي أوصلت المسيحية إلى النوبة ولو أنهم يناقضون أنفسهم في المقال عينه إذ يقولون أن كنيسة مصر هي أيضاً أرسلت بعثة تبشيرية للنوبة . وبدلاً من النقاش في هذا الموضوع أوردنا الصورتين التاليتين : أيقونة للسيد المسيح من النوبة وأخرى تزين القبة الرئيسية لكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة لأن الاثنتين متشابهتان إلى حد بعيد . ومعنى هذا أن الفنانين المصريين هم الذين رسموا هاتين الأيقونتين كما رسموا غيرهما ، وأنهم كانوا في ذلك الوقت ما زالوا متأثرين بالفن البيزنطي فجاء إنتاجهم بيزنطياً في تعبيره .

ويلاحظ في أيقونة الميلاد أن الفنان قد رسم في أسفل الركن الشمالي صورة رجل على رأسه تاج ، ويستنتج المؤرخون أنه الأمير الذي تم بناء الكنيسة في عهده .



أيقونة السيد المسيح - وهي واحدة من مئة عثرت عليها البعثة البولندية في بلاد النوبة



كنيسة حارة زويلة - قبة الهيكل الأساسي

لمحة عن الراهب بيسوس

٩ - ولما كان الله تعالى يظهر عجائبه فى قديسيه - حال وجودهم بالجسد وحال وجودهم خارج الجسد - فقد تجلت مراحمه بصور شتى فى شخص الأنبا خريستودولس نفسه ، وفى الأحداث التى جرت فى أيامه ، وفى النعمة التى فاضت على معاصريه . فقد أوضح الله تعالى مجده حين حفظ هذا البابا الاسكندرى من بطش الأسود ، وإلى جانب ذلك فقد حدث أن الأنبا إيليا أسقف طموه كان يؤدى شعائر القداس الإلهى يوم عيد الشهيد العظيم مار بقطر بكنيستته فى الجيزة . ولم يكد يصل إلى منتصف الصلوات حتى سطع على أيقونة السيدة العذراء نور بخطف الأبصار . وقد رآه جميع الحاضرين فى الكنيسة فتهللت قلوبهم وهتفوا : « حقاً أن سيدتنا البتول هى أم النور » ^(١) .

أما معاصرو هذا البابا الأمين فكان منهم الراهب بيسوس الذى تنسك بدير الأنبا يؤنس كامى . وكانت صلة هذا الراهب بالله تعالى متينة عميقة جعلته يتمتع لدى خالقه بدالة عظمى . وحدث أن انتشر وباء الجدري فراح ضحيته واحد وعشرون ألف طفل حتى فزعت قلوب الآباء والأمهات من فتك هذا المرض . فبعثوا برسلهم إلى الراهب بيسوس يطلبون إليه أن يشفع فيهم وفى الشعب المصرى المعذب لدى الآب السماوى . فوقف هذا الراهب القديس يصلى طول الليل ، وظل فى ضراعتة إلى أن انبثق الفجر . وعندها قال للرسل الموفدين إليه : « عودوا فى طمأنينة وقولوا للذين أرسلوكم

(١) لقد سعد الناس فى عصرنا هذا بتجلى السيدة العذراء فوق قباب الكنيسة التى تحمل اسمها بضاحية الزيتون . وكان أول ظهورها مساء ٢ أبريل سنة ١٩٦٨ فى شكل إنسانى . ومذاك وهى تتجلى تارة فى شكل إنسانى وأخرى فى شكل نورانى ، وأحياناً يسطع نور كالبرق أو كطوق مضيء وأخرى يظهر حمام أبيض ساطع كسرب أو كواحدة فقط . وقد شاهد هذا التجلى مئات الآلاف من الناس : مصريون وأجانب ، قبط ومسلمون . لأنها ما زالت تتجلى بعد انقضاء سنتين من ظهورها الأول ومن يدرى إلى متى يستمر هذا التجلى العجيب وهذه نعمة عظمى أسبغها الله على المصريين فى القرن العشرين إذ قد أعطاهم أولاً الدليل على عنايته ومحبه وثانياً على أن الظواهر الروحية التى ذكرها الناس فى عصور مختلفة ما زالت حقيقة واقعة تخطف الأبصار وتقلل القلوب ...

أن سيدنا المسيح تحن علينا، وسيرفع عنا هذا الوباء بنعمته». فعاد الرسل لساعتهم . وحين وصلوا إلى مرسلتهم وجدوا أن الوباء قد تلاشى ^(١) .



الأنبا ميخائيل أسقف تنيس

٩٢ - ومن بين الرهبان الذين استنصحت مصر بثورهم في هذا العصر
الراهب أبو حبيب ميخائيل بن بدير الدير الذي اندفع بحماسة شابة
وتوقد روحه إلى الترهيب بدير الأنبا مكاري الكبير بديرية شبيث . وقد
كان أبوه بناءً ونجاراً وقد اعتنى هو وزوجته بتربية ولدهما تربية روحية
فعالة . وكان خاله مينا مهندساً ورئيساً للشبان العاملين في خدمة
الدولة . وبلغ أن مينا هذا كان من خدام الدولة فقد تصادق مع بقيرة
الرشيدى وكان السبب في أن يتعرف ميخائيل ابن أخته على هذا الأرغن
الحامل الصليب . فقامت بينهما صداقة متينة . ثم نال ميخائيل رتبة
الشباسية فأنشأ بجهاذه المتواصل جدارته بهذه الرتبة الكهنوتية . وحينما
انشغل فكره بتدوين سير باباوات الاسكندرية ترك دير الأنبا مكاري الكبير
وانزوى عند الراهب بيسوس بدير الأنبا يونس كامي خمسة عشر يوماً
بصحبة بعض الأراخنة من بينهم بقيرة . وانشغل الجميع في الكتابة
والمراجعة طول النهار وحتى منتصف الليل فكانوا يتدارسون من الصباح
ويستمررون معاً بعضهم يكتب والبعض الآخر يراجع ثم يقرأون معاً ما
روّج مما يضطرون إلى الاستمرار في العمل إلى وقت صلاة نصف الليل
وبهذا الدأب كل يوم وكل ليلة كتبوا لنا سيرة عشر باباوات : من البابا
السادس والخمسين إلى البابا الخامس والستين . كذلك تعاون الشماس
ميخائيل بن بدير مع الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين حينما كان هذا
الأسقف الساهر مشغلاً بكتابة تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية بأن ترجم له
السير الباباوية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية .

ثم انتخبه الأنبا أبرام بن زوزنة ليكون كاتباً ووضع عليه كتابة
« السنوديق » . أي كتابة الرسالة العقيدية التي كان البابا الاسكندري
يبلغ بها إلى أعيانه في الخدمة الرئسولية البطريركية الأنطاكية واستمر

(١) « تاريخ البطاركة » نقله النضر شودة ... ج ٢ ص ٢٧٥ .

يكتب هذه الرسالة العقيدية تحت رئاسة خمسة من الباباوات المرقسيين . فلما اعتلى الأنبا خرستودولس الكرسي المرقسى رأى ألا يكتفى بهذه الخدمة من جانب الشماس أبى حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى فرفعه إلى درجة الأسقفية إذ رسمه أسقفاً على تنيس مع استمراره فى عمله ككاتب للسندويقا . وبعد أن كتب الرسالة (السندويقا) على لسان الأنبا خرستودولس انتخبه هذا البابا ليحملها بنفسه إلى أنطاكية بصحبة الأنبا غبريال القديس أسقف صان الحجر . فلما عاد إلى مصر كتب أخبار الكرسي الأنطاكى ولو أنه وضعها ضمن سيرة الأنبا زكريا البابا الرابع والستين .

وحدث حينما توسط بقيرة وبعض زملائه من الأراخنة بين الأنبا شنودة الثانى وبين أهالى الاسكندرية لتسوية الخلاف الذى كان قائماً إذ ذاك حول الخمسمائة دينار الذى كان على البابا دفعها لأهالى تلك المدينة أن كان أبى حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى حاضراً معهم . وحينما كتب سيرة هذا البابا قال ضمن ما قاله عنه : « وكتب أنا البائس ميخائيل غير المستحق أن أدعى أسقف تنيس وأنا يومئذ شماس ففرحت بهذا الأمر وساعدته عليه وكان قد جعلنى كاتبه لأن قوماً من أصحابى وصفونى له فأخذنى أكتب له . » ثم أختتم سيرة هذا البابا بقوله : « وتتيح الأب البطريك وأنا جالس عنده وأغمضت عينيه بيدي واجتمعنا للصلاة ودفناه فى الكنيسة الكبرى بدمرو . »

ولا يعرف بالضبط يوم نياحة هذا الأسقف اليقظ إلا أنه يتضح من المخطوطات الباقية بين أيدينا أنه تنيح فى أواخر أيام الأنبا خرستودولس إذ قد ورد فى سيرة هذا البابا الجليل أنه رسم القس سيمون من بيعة القديس مرقس الهشير أسقفاً على تنيس باسم الأنبا صموئيل . كما أنه فى الحديث عن الإحتفاء برسامة الأنبا كيرلس الثانى جاء بأن الأنبا صموئيل أسقف تنيس كان ضمن الأساقفة الذين حضروا هذا الإحتفال المهييب . وهكذا عاصر الأنبا ميخائيل ستة من الباباوات . خدم الخمسة الأولين منهم بوصفه شماساً وكاتباً للسندويقا وخدم الأخير بوصفه آخاً فى الخدمة الرسولية (١) .

(١) مقال لكامل صالح نخلة عن «الشماس ميخائيل بن بدير الدمنهورى» نقله عن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس الأشمونى ونشره فى مجلة «رسالة نهضة الكنائس» العدد الرابع من السنة الثالثة الصادر فى القاهرة فى أبريل سنة ١٩٤٢ ص ١٣٣-١٣٦ .

٩٢ - واسم الأنبا ميخائيل يقترب باسم شماس آخر ظل شماساً طيلة حياته لأنه كان ممن عاشوا في العالم فلم يذهب إلى الدير - وهذا الشماس هو موهوب ابن منصور بن مفرج الاسكندراني الذي انتهى أن يجمع سير الآباء البطارقة^(١) إذ قال : « انتهيت أنا الحاطي البائس أن أجمع سيرهم وأكتبها ليكون ذلك ربحاً لي ولن يقرأها بعدى ، فاستعنت بالله تعالى ذكره وصرت إلى دير القديس أبو مقار بوادي حبيب المقدس فوجدت هناك الشماس أبا حبيب ميخائيل ابن بدير الدمشوري »^(٢) .

وبعدما تحدث موهوب إلى هذا الشماس اليقظ اتفقا معاً على جمع سير الباهوية وتنفيذاً لرغبتها تنقلا في مختلف الأديرة فوجدا في دير السيدة العذراء بنها سيرة اثنين وأربعين من الباهوات ابتداء من مارمرقس كاروز ديارنا إلى الأنبا سيمون وفي دير الشهيد الجليل تادرس باهلاج سيرة أربعة منهم : هم الأربعة الذين تعاقبوا بالتتالي من بعد الأنبا سيمون وبذلك أكتملت لدى الباحثين سير ستة وأربعين باها . أما التسعة الذين جاؤا من بعد ذلك (أي من الباه السابع والأربعين إلى الباه الخامس والخمسين) فقد وجدا سيرهم في دير السيدة العذراء بنها أيضاً ، ثم وجدا سير الباهوات العشر (من السادس والخمسين إلى الخامس والستين) في دير الأنبا مكارى الكبير . فجمعوا هذه السير واجتمعوا معاً ونقلوها . ويقول لنا موهوب بأن الأنبا ميخائيل أسقف تنيس كتبها إذ طلب إلى راهب من أولاده اسمه لقوط بأن ينقلها له .

ولم يكتف الشماس موهوب بنقل السير التي وجدها بل أدرك أن واجبه يحتم عليه الاستمرار فكتب سيرة الأنبا خريستودولس الذي عاصره . فحقاً أن الله لا يدع نفسه بلا شاهد على مدى العصور^(٣) .

(١) راجع ما جاء عنه في ص ٧٣ .

(٢) تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية للأنبا سابورس أسقف الإيثنون - المجلد الثاني الجزء الثاني - نشره مع ترجمته الأنجليزى يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر ص ١٥٩ .
(٣) شرحه ص ١٥٩ - ٢٦١ - هذا ولم يبق أى أثر للذين ذكرهما هذا الشماس - وهما دير السيدة العذراء بنها ودير الشهيد تادرس باهلاج . وقد ذكر ايقلين وايت في كتابه « أديرة وادي النطرون » (بالانجليزية) ج ٢ ص ٣٦٠ نقلاً عن موهوب بن منصور بأن عدد الرهبان في القرن الحادى عشر كان أربعين في دير الأنبا مكارى الكبير، ومئة وخمسة وستين في دير الأنبا يؤنس القصير ، وخمسة وعشرين في دير الأنبا يؤنس كامى ، وعشرين في دير الهرموس ، وأربعين في دير الأنبا يوشوى ، وستين في دير السريان ، واثنين في مغارة الأنبا موسى الأسود أحدهما قبطى والثانى سريانى .

مشرع حكيم

- ٩٣- الراهب جورجىوس يصبح الاتبا
كيرلس الثانى .
- ٩٤- الانتاج المعمارى اعظم مخلفات هذا
العصر .
- ٩٥- التقاء البابا المرقسى بالخليفة
المستنصر والوزير .
- ٩٦- فيض الميزون .
- ٩٧- تبادل رسائل الشركة مع الجبر
الانطاكي .
- ٩٨- ادرالك صحيح للمسئولية .
- ٩٩- الالفه بين مصر وجيرانها .
- ١٠٠- ليس احد ترك بيتا... الا
ويأخذ منه ضعف^(١) .
- ١٠١- حرص الاتبا كيرلس الثانى على
التعاليم الرسولية .
- ١٠٢- مزيد من البركات .
- ١٠٣- نظر القوانين الكنسية .
- ١٠٤- تكريس كنيسة القيامة بالقدس
الشريف .
- ١٠٥- الاتبا كيرلس الثانى يصل الى
نهاية شوطه .

٩٣ - وملت السدة المرقسية بانتقال الأنبا خريستودولس إلى مساكن
النور ، فوجد الأساقفة والأراخنة أن الضرورة موضوعة عليهم للمبادرة إلى
دير الأنبا مكارى الكبير بيرية شيهيت ليتفاهموا مع رؤساء الأديرة فى أمر
من يصلح لأن يخلف القديس مرقس الرسول . وبعد أن قضوا به شهرين دون
أن يصلوا إلى نتيجة انتقلوا إلى دير الأنبا يونس كامى إذ كانوا قد سمعوا
عن الشيخ الناسك الجليل بيسوس العائش فى هذا الدير . فما أن وصلوه
حتى اتجهوا صوب صومعة بيسوس ، وأمسكوا به ، وأرادوا أن يقتادوه
إلى الأسكندرية قسراً . فأخذ يردد بصوت جهورى : « أنا ابن عبد حقير
فكيف تقيمونى على السدة المرقسية التى لا يستحقها غير حر ؟ » فعرا
وفد الأساقفة والأراخنة شئ من الدهول وصمتوا حيناً ، فانتهر الراهب
بيسوس الفرصة ليقول لهم فى تأكيد : « لماذا تجهدون أنفسكم فى البحث
عنم يخلف المتنيح الأنبا خريستودولس ؟ ان الراهب الذى تتشدونه موجود
فى دير الأنبا مكارى الكبير ، واسمه جورجىوس . وهذا الراهب مزكى من
البابا الراحل نفسه » . وتأثر الجميع بهذا التصريح الجرىء ، فعادوا إلى دير الأنبا
مكارى الكبير واقتادوا هذا الراهب إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم

(١) متى ١٩ : ٢٩ .

الدينية ، وبها أعتلى الراهب جورجىوس السدة المرقسية باسم كيرلس الثانى، فأصبح البابا الاسكندرى السابع والستين سنة ٧٨٦ ش (١٠٧٠ م) .

٩٤ - وكانت مصر تنعم إذ ذاك بسلام كله إنتاج . لأن بدر الجمالى لم يلبث أن أقر العدالة والأمن . وكان بعيد النظر ، ثاقب الرأى . وضع نصب عينيه هدفاً واحداً : هو أن يجعل من مصر دولة قوية تنعم بالرخاء . وقد استطاع أن يصل إلى هذا الهدف بسرعة عجيبة . وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها هى العمل على تنمية التجارة ، فأقرض المشتغلين بها مبالغ كبيرة تسدد على أقساط طويلة . كذلك مكثهم من الأتجار مع البلاد الأخرى خارج مصر : ثم رأى أن يولى الزراع عنايته أيضاً فتنازل لهم عن ضرائب ثلاث سنين متأخرة عليهم . وفرحوا بهذا الكرم غير المنتظر فضاعوا جهودهم ، ومن ثم تضاعفت محاصيلهم وعاد نشيد العمل فى الحقول والتاجر والمصانع . وترددت أصداؤه فى الوادى العتيق . وكانت النتيجة الطبيعية للرخاء المادى أن نشط الفكر ، وعاد الناس يكتبون ويبتكرون . فازدهرت العلوم والفنون . على أن أعظم ما أنتجته هذه الفترة هو الفن المعمارى . ذلك لأن بدر الجمالى أراد أن يحصن القاهرة ببناء سور منيع حولها ، فنفذ المهندسون رغبته . وقد جعلوا لهذا السور ثلاث أبواب هى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة . وقد وضع تصميم هذه الأبواب هذه الأبواب راهب قبطى اسمه يونس ^(١) .

٩٥ - وبينما كان الزارع يعمل فى حقله ، والتاجر يشتغل بتجارته ، والصانع يتفنن فى إنتاجه ، كان الناس منصرفين كل إلى أموره فى هدوء . وهكذا وجد الأتبا كيرلس الثانى الفرصة أمامه للقيام بأعبائه الراعية بلا مانع ولا عائق . فما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وقصد إلى القاهرة . وحالما بلغ ضواحيها ذهب إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل التى كانت مقامة على جزيرة فى النيل . فسارع الأتبا ياكوبوس أسقف باهلون لاستقباله . وكان قد أبلغ الشيخ أبأ الفضل ناظر الأبواب ^(٢) بمقدم البابا الاسكندرى . فسارع هذا الشيخ بدوره إلى إرسال حصان أبيض بصحبه عدد

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤن پول ص ١٥٢ - ونقلاً عن أبى صالح الأرمنى (أو بالأحرى أبى المكارم القبطى) .

(٢) أبى رئيس الشرطة .

من حفظة الأمن ورجال القصر إلى كنيسة الملك ميخائيل . فركب الأنبا كيرلس الثانى الحصان الأبيض وأحاط به الأساقفة والأراخنة والرجال الموفدون من قبل الشيخ أبى الفضل . وساروا تتبعهم الجموع إلى قصر الخليفة . وقد تقدم هذا الموكب الشماسة حاملين الشموع الموقدة والمباخر التى يتصاعد منها البخور الزكى . وما أن وصلوا إلى باب القصر حتى خف مأمون الدولة (أستاذ الخليفة)^(١) لاستقبالهم . ودخل الجميع قاعة الضيافة . ثم دخل البابا المرقسى مع مأمون الدولة إلى قاعة بجانبها حيث كان الخليفة المستنصر وأمه وأخته فى الانتظار . وقد حملت السيدتان زجاجات العطور . وأخذتا ترشان الضيف الكبير ، وتعطران أرجاء القاعة . ثم قالتا : « تفضل فباركنا وبارك قصرنا » . فاستجاب رجاءهما على الفور عما أفرحهما للغاية . ثم مشى الأنبا كيرلس الثانى إلى الباب الفاصل بين القاعتين ، وطلب إلى الأنبا بطرس أسقف دميرة أن يرفع صلاة شكر لله تعالى ثم يقرأ بسالته الراعوية . وأصغى المستنصر وأمه وأخته فى اهتمام بالغ لهذه الصلاة وهذه الرسالة . ولما انتهى الأسقف ، تبادل الجميع التحية . ثم خرج البابا على رأس موكبه فى تجلّة واكبار . وقصد إلى دار بدر الجمالى الذى ما كاد يلمح الموكب البابوى آتياً نحوه حتى خف لاستقباله بكل مظاهر الأبهة والاجلال . وتقدم إلى البابا مع كل أفراد أسرته راجياً منه أن يمنحهم بركاته . ثم تلا الأنبا بطرس الرسالة الراعوية مرة أخرى . وكان والى القاهرة ووجوه الشعب حاضرين هذه الزيارة فلما انتهت طلب بدر الى الوالى أن يخرج فى معية الأنبا كيرلس الثانى ليوصله إلى الدار البابوية ، وأن يلازمه وينفذ كل طلباته . فشكر البابا الاسكندرى للوزير حسن وفادته ، وانصرف إلى الكنيسة المعلقة التى كان سلفه قد اتخذها مقراً له بعد أن نقل مركز الرئاسة من الاسكندرية الى القاهرة .

٩٦ - وبعد أسابيع قصيرة بدأ الصوم الكبير ، فنهج الأنبا كيرلس الثانى منهج أسلافه بأن قصد دير القديس مكارى الكبير لقضاء أيام الصوم فيه لكى يجد فى سكون الصحراء وتراميتها إلى الأفق القرصة اللازمة للتأمل فى مراحل القدير . وفى هذه الفترة قام البابا الاسكندرى بتأدية الشعائر

(١) كان الأساتذة فى عهد الفاطميين خواص الخليفة وأقرب الناس إليه . راجع « نظام الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة - الطبعة الثانية . ص ٨٩ .

الخاصة بتكريس الميرون . وقد بلغت حرارة صلواته درجة جعلت الميرون يفيض ويسيل من الوعاء الذى هو فيه على المذبح . واهتزت القلوب نشوة حين أبصروا هذه الظاهرة ، ومجدوا الله الذى أعطاهم راعياً بهذا الصلاح .

٩٧ - وظل الأنبا كيرلس الثانى فى الدير إلى أن احتفى بصلوات عيد القيامة المجيدة . ثم عاد إلى القاهرة حيث وجد رسالة الشركة من مار ديونيسيوس بطريرك أنطاكية . ففرح بها وأمر بقراءتها فى جميع كنائس مصر . ثم بعث بالرد مباشرة ، جدد فيه العهد مع شريكه فى الخدمة الرسولية ، وأعلن له تمسكه بالايان الأرثوذكسى الذى يربط بين كنيسيتهما .

٩٨ - وما يؤثر عن الأنبا كيرلس الثانى أنه كان قليل العلم عند انتخابه ، فلما وجد نفسه بين عشية وضحاها جالساً على السدة المرقسية كرس نفسه للدرس والاطلاع كما فعل الأنبا ديمتريوس الكرام الذى سبقه بسبعة قرون^(١) . ولشدة رغبته فى تعويض ما فاته استوعب الكثير من العلوم حتى لقد ترك تراثاً مجيداً يشهد له بالتفوق^(٢) .

٩٩ - وفى تلك الفترة - كثرت المراسلات بين مصر والنوبة والحبشة . كذلك كانت المقابلة الأولى التى تمت بين الأنبا كيرلس الثانى وبين الخليفة المستنصر سبياً فى توثيق العلاقات بينهما . فكان الخليفة يستشير فى مختلف الأمور ويدعوه إلى قصره للائتناس به والاسترشاد بأرائه .

١٠٠ - وكانت المناوشات بين ولاية منطقة أسوان وملوك النوبة لا تهدأ إلا لتعود . على أن بدر الجمالى رأى بثاقب فكره أن مسالمة الجيران خير من استعدادهم . وهكذا استقر السلام بين أهالى المنطقة كلها .

وفى تلك الفترة - حينما اطمأنت نفس سلمون ملك النوبة إلى حالة بلاده - رأى أن يتنازل عن العرش لجورجا ابن أخته لأنه أحس برغبة قوية فى الدخول إلى الدير . واختار دير القديس الأنبا نوفر السائح فى الوادى الذى يحمل اسمه والذى يقع على الحدود المصرية النوبية . وكان والى

(١) راجع سيرته فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) «قوانين كيرلس الثانى الهايا السامع والستين لاسكندرية» (بالانجليزية) مقال لاوزولد برومستر نشره فى مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٧-٢٤٨ .

أسوان إذ ذاك أسمه أسعد الدولة . فجاء بعض رجاله ذات مرة يسألونه : « أتريد أن نأتى إليك بسلمون ملك التوبة ؟ » ورغم السلام السائد الذى أقر دعائمه بدر الجمالى أجاب أسعد الدولة : « إن ذلك ليسعدنى » . فذهبوا خلصة إلى حيث يقيم الملك وأخذوه على غرة وأحضره إلى واليهم . فجاء معهم من غير مقاومة إذ كان قد اختار طواعية ترك أمجاد العالم . وهياً له أسعد الدولة حرم شرف ليرافقه إلى القاهرة إذ قد رأى إفاده إلى الخليفة . وما أن أشرف على المدينة وسمع رجال الحكم بمقدمه حتى سارع بدر الجمالى إلى استقباله بالطبول والدقوف ثم أعد له منزلاً مستكمل الأثاث والأواني وأنزله فيد . وتقبل الملك سلمون كل مظاهر الحفاوة بدعة وسكون . وقد لاحظ بدر الجمالى أثناء زيارة هذا الملك المسيحى الوديع قوة الصلة التى تربط بينه وبين القبط من ناحية وبينه وبين الأحباش من الناحية الأخرى . ولما كان يسعى إلى تعزيز الروابط بين مصر وجيرانها فقد كشف البابا كيرلس الثانى وأساقفته وأراخنة شعبه برغبته فى عقد معاهدات مع هذين البلدين لتسهيل طرق التجارة وامتدادها . وقد أقره على رغبته وسعوا إلى تحقيقها بأن أخذ الأنبا كيرلس على عاتقه مفاوضة المسئولين فيهما . ونجحت مفاوضاته . فازدادت منزلته ارتفاعاً لدى الخليفة ولدى بدر الجمالى . وشمل التقدير القبط وبالتالى تقلد عدد منهم الوظائف العالية فى دواوين الحكومة . وكانوا فى ذلك العهد قد تمكنوا من اللغة العربية إلى حد أنهم ألفوا فيها مؤلفات تشهد لهم بغزارة المادة . ولم يفوزوا بالوظائف فحسب بل فازوا باللقاب التقدير التى كان الخلفاء فى تلك الأيام يطلقونها على من يعرفون فضلهم ومن هذه الألقاب : « الرئيس . هبة الله . الأمجد . الأسعد . الشيخ . نجيب الدولة . تاج الدولة . فخر الدولة »^(١) .

وهكذا كانت إقامة الملك سلمون سبباً فى تعزيز صلات المودة والتقدير بين القبط والمسلمين رغم أنها لم تدم غير ستة أشهر انتقل بعدها إلى دار النعيم ودفن بدير الخندق^(٢) .

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) المعروف الآن بأنبا رويس ولم يبق من الدير غير كنيسة باسم هذا القديس وكانت ملاصقة لكنيسة باسم السيدة العذراء ولكنها هدمت فى مايو ١٩٦٨ لأنه أقيمت كاتدرائية عظمى باسم ماركس شغلت الجزء الأكبر من مساحة الأرض وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد كاروز الديار المصرية وعودة رفاقه بعد غيبة زادت عن ألف سنة فى مدينة الهندية .

١٠١- ثم وجد الأتبا كيرلس الثانى عدداً من الايبارشيات شاغراً فرأى أن يسير بموجب التعاليم الرسولية وتقاليد الآباء الرسوليين فجد فى البحث عن الزهبان الصالحين المثلثين نعمة ورسمهم على هذه الكراسى . كذلك دأب هذا الراعى الصالح على تعليم الشعب مداومة قراءة الكتاب المقدس له وتفسيره منعاً لبليلة الأفكار . ومن نعمة الآب السماوى أنه تحنن على الجميع بفيضان واف كل سنة من سنى باهوته فعم الخير البلاد .

١٠٢ - وكان هناك رجل اسمه يوحنا بن الظالم ظفر بأسقفية سخا ، اختلف مع البابا وتمكن من أن يضم إليه بعض الأساقفة وجمهوراً من الشعب . وذهب الأساقفة (وكانوا جميعاً من الوجه البحرى) إلى باهام مصرين له عن استيائهم من بعض الرجال المحيطين به ورجائهم فى أن يبعد هؤلاء الرجال . على أنه لم يبعد غير واحد منهم . فعادوا إليه يعاتبونه . وكان فى ديوان الخليفة إذ ذاك رجل اسمه أبو زكريا يحيى بن مقارة شيعياً وقوراً عاقلاً ذا كلمة مسموعة نجح فى مصالحة الجميع ^(١) . على أن أسقف سخا وبعض أنصاره لم يكتفوا بهذه المصالحة فاحتكموا إلى بدر الجمالى الذى صارحهم تبجيله للبابا المرقسى . ثم طلب إلى كل من الفريقين أن ينظم القوانين التى يرى ضرورة العمل بموجبها لتكون قاعدة الفصل فى التعامل بين الجميع . وبعد ذلك بأيام دعا بدر الجمالى البابا الاسكندرى وأساقفته إلى قصره ، فلقى دعوته سبعة وأربعون منهم ^(٢) . وكان الوزير يستهدف السلام من دعوته هذه لأنه كلمهم بكلمات كانت كالروحى من الروح القدس إذ قال لهم : « كونوا جميعاً برأى واحد ، وليكن ولاؤكم لكبيركم خالصاً ، وتمسكوا بقول السيد المسيح حين أوصى تلاميذه بأن لا يكتزوا لهم كنوزاً على الأرض ، وإنى استمحيكم عذراً فى نصحى هذا لأنى أعرف أنكم حريصون على حفظ الوصايا الإلهية والتقاليد الرسولية . ولكنى رددتها أمامكم للتذكرة فحسب » . ثم تداول الوزير مع الأساقفة فيما يهدفون إليه وماتل تحقيقه ولما انتهى من مداولاته دعا كتبة ديوانه وأمرهم بكتابة المراسيم التى بها تخول السلطة التنفيذية للأساقفة تنفيذاً لأهدافهم ، فخرجوا

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٤٧ .

(٢) « قوانين كيرلس الثانى البابا السابع والستين للاسكندرية » (بالانجليزية) مقال لاوولد برومستر نشره فى مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٦ حيث يقول أن عدد الأساقفة إذ ذاك كان أربعاً وخمسين .

من عنده شاكرين له أفضاله وذهبوا لساعتهم إلى كنيسة أبى السيفين
يبابلون حيث رفعوا صلاة الشكر للآب السماوى على ما هيا لهم من فرصة
للجهاد . كذلك اشتركوا فى اقامة القداس الإلهى واحتشدت الكنيسة حتى
أبوابها بالمصلين الذين تجمعوا لكى يمجدوا الله فارج الهم والكرب .

١.٣ - وانشغل البابا الاسكندرى بعد ذلك بنشر القوانين الكنسية على
الشعب ليعرفها ويعمل بها . ويبدو أنه استلهم القوة على الجهاد من الاسم
العظيم الذى يحمله - اسم كيرلس عامود الدين الذى أوضح حقيقة الإيمان
فى المجمع المسكونى الثالث . فقد تمكن - باجتهاده ومشارته - على تنظيم
خلاصة للقوانين الكنسية فى أربع وثلاثين مادة واذاعتها على الشعب .
فسطعت الكنيسة خلاله وتهلل جميع سكان مصر بنوره ^(١) .

وقد أستهل هذا البابا المعظم قوانينه بقوله : « لما كان من قضاء الله
وحكمته غير المدركة تقدمتى إلى هذه الخدمة الجليلة التى لا أستحقها ،
فقد اتكلت على رحمته تعالى ووثقت بنعمته فى معاونتى على النهوض
بأعباء رسالتى مبتهلاً إليه أن يكمل نقصى » .

وانتقل - بعد هذه الديباجة - إلى التأمل فى محاولات موسى وأشعيا
وأرميا الاعتذار إلى الله تعالى عن عجزهم على القيام بما يأمرهم به
لقصورهم وضعفهم ، وكيف أنه تعالى وضع عليهم الضرورة لحمل
رسالته ^(٢) . وأفاض عليهم نعمته فمكنتهم بذلك من تأدية الأمانة التى
ائتمنهم عليها : فشجعه هذا على السير فى جهاده ، وأستعان بهذه النعمة
الإلهية عينها ، فصاغ القوانين الكنسية ارشاداً لشعبه وتذكيراً لهم بالمبادئ
التى دان لها الآباء . وقد وضع أربعاً وثلاثين مادة صاغها كما يلى :

١ - انتهى إلى مسكنتى أن قوماً يلتمسون رشوة لمنح الرتب
الكهنوتية ، فمن فعل ذلك ، وأخذ رشوة على الموهبة ، أو وعد برشوة
لنيلها ، مستعيناً فى ذلك بالمر والخديعة ، فلا تقبل رياسته الكهنوتية
ولا يكون عندكم إلا بمنزلة الوثنى والعشار ، وهو مقطوع محروم منفى من
بيعة الله ، هو ومن منحه الرتبة الكهنوتية ، ولقد جاء فى القوانين أنه

(١) السنكسار الأثيووى ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج ٤ ص ٩٩٥ .

(٢) خر ٣ : ١١ - ١٤ ، أش ٦ : ١ - ٨ ، أر ١ : ٤ - ١٠ .

على الرئيس أن يؤدب شعبه ويقومه بالصليب لا بالحرم ، وأن لا يربط ولا يجعل من غير حق . فإن هو حرم أو ربط من غير حق ، طلباً للتشفي أو التماساً لإذلال الناس واخضاعهم ، فليكن هو المربوط المحروم من الله وأحكامه .

٢ - أى أسقف أو قس يرفض قبول الخاطئ التائب ، فليقطع . لأنه خالف قول السيد المسيح الذى أعلن أنه يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة ^(١) .

٣ - يجب على كل أسقف أن يتفقد جميع البيع والأديرة الواقعة تحت سلطانه ، وأن يحافظ على آلاتها ومستغلاتها وريعها ، ويراعى نظافتها وعمارتها .

٤ - يجب على كل أسقف أن يعرف حال كهنته فى مختلف الكنائس والجهات الخاضعة له ، وأن يفحص أمورهم فى عملهم وفى القداسات التى يقيمونها ، وفى قراءة الكتب التى يفرضون على أنفسهم تلاوتها .

٥ - يجب على الأسقف أيضاً أن يتعهد كهنته وشعبه بالتعاليم الإلهية التى تخلصه وتخلصهم من خطاياهم . فكل نفس من أنفس الرعية مطلوبة من راعيها .

ثم بين الأنبا كيرلس الثانى بعد ذلك واجبات الأسقف نحو الفقراء والمعوزين ، ونحو الرهبان الذين يجب أن يقضوا العمر فى الدير ما لم يطلب إليهم رؤساؤهم تأدية عمل معين خارجه وبعد هذا البيان قال :

١٢ - « يجب أن يعذر الكهنة والعلمانيون الالتجاء إلى غير حكم البيعة . فإن جرى خلاف بين البعض منهم فعليهم أن يحتكموا إلى أسقفهم وينزلوا على حكمه » .

واسترسل البابا الاسكندرى فى قوانينه ، فبين أهمية الصوم ووجوب التمسك به ، كما أوصى الكهنة بالعناية التامة فى عقد سر الزيجة ، فلا يعقدونه إلا متى تأكدوا من شرعيته . ثم أوصى الشعب بوجوب احترام الأساقفة ورجال الإكليروس . وأختتم قوانينه بقوله : « يجب على أبناء

(١) لو ١٥ : ٧ .

المعمودية توقير المذابح المقدسة والهيكل الطاهرة وتزينها عن اقتحام كل العلمانيين لها ^(١) . وأخيراً دعا الله جل اسمه أن يوفق الشعب لعمل ما يرضيه ، ويثبت بينهم المحبة الروحية والأخوة المسيحية ، ويغفر ذنوبهم ، ويصفح عن زلاتهم ، ويرحم موتاهم ، وينجى شيوخهم ، ويمنح العفة لشبابهم بشفاعته ذات الشفاعات ومعدن الطهر والبركات السيدة مريم العذراء وجميع الشهداء والقديسين ^(٢) .

١٠٤ - ومن دواعي التهليل الروحي أن كنيسة القيامة بالقدس الشريف - التي كان قد أحرقها الحاكم بأمر الله - قد تم بناؤها في عهد الأنبا كيرلس الثاني . ولما تم تشييدها ، أرسل الأسقف الأنطاكي خطاباً إلى البابا الاسكندري يتبادل وإياه التهنئة ، لأن الآب السماوي أسعدهما بإتمام هذا العمل في أيامهما . ثم رجا فيه أن ينتدب نفرأ من أساقفته ليشاركوا معه في إقامة الشعائر الكنسية الخاصة بتكريس أماكن العبادة . فأجاب الأنبا كيرلس الثاني هذا الطلب فوراً ، وتمت مراسيم التكريس في موسم عيد القيامة سنة ٨٠٠ ش - (سنة ١٠٨٤ م) .

ولقد فاضت نعمة الله في تلك الآونة إذ كان بالقدس قبطى من ذوى المكانة في الدولة اسمه منصور التليانى كان قد بنى كنيسة على مقربة من كنيسة القيامة . وكان قد بعث برسالة إلى البابا الاسكندري يرجو منه فيها أن يحضر إلى القدس لتكريسها . ولما كان قد انتدب الأساقفة الذين كلّفهم بالاشتراك مع أسقف أنطاكية في تكريس كنيسة القيامة نفسها فقد طلب إليهم أيضاً أن يكرسوا الكنسية التي بناها منصور التليانى ^(٣) .

١٠٥ - وفي هذه السنة عينها انتقل الأنبا كيرلس الثانى إلى بيعة

(١) يلاحظ هنا أن هذا البابا الحريص على القوانين حرم دخول العلمانيين الهيكل فلم يقصر الحرمان على السيدات كما هو حادث الآن لأن القانون الأصيل فى هذا الشأن هو أن لا يدخل الهيكل إلا من وضعت عليهم اليد فقط .

(٢) « قوانين كيرلس الثانى البابا الاسكندري السابع والستين » نشر الأصل العربى مع ترجمته الانجليزية أوسوالد بورمستر فى مجلة « موزيون » عدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٥ - ٢٨٨ .

(٣) تاريخ الأمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل (الحلقة الثانية) ص ١١٨ ، قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديترى رزق ص ١٩ ، ٢٤ .

الأهبار وقد حدث أنه - خلافاً للعادة - لم يقض فترة الصوم الكبير في دير الأنبا مكارى الكبير بشيبيت بل أكتفى بالذهاب إلى دير الشمع غرب طموه ثم إلى كنيسة الملاك ميخائيل في جزيرة النيل . ومن هناك عاد إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) بعد عيد القيامة المجيدة . ولم تكد أيام الخمسين تنتهى حتى بلغ نهاية شوطه فأسلم روحه بين يدي الآب السماوى بعد أن قضى أربع عشرة سنة وستة أشهر على السدة المرقسية ^(١) .

ومن الآباء المعاصرين لهذا البابا الأنبا بطرس أسقف البهتسا الذى حضر المجمع وقت انعقاده بدار أمير الجيوش بدر الجمالى وكان من مؤيدى باباه . وقد عنى هذا الأسقف عناية خاصة بصلوات الشعائر الكنسية . فقد لاحظ خلال أسبوع البسخة أن لبعض ساعاتها صلوات وقراءات مطولة فى حين أن لبعضها الآخر صلوات وقراءات قليلة . فجمع الكتب المقدسة ودرسها ووضع لكل ساعة من الساعات ما يوافقها من العهدين القديم والجديد ومن صلوات وميامر . وبهذا الوضع رتب ساعات البسخة المقدسة فصارت الساعات متساوية قيما تتضمنه من شعائر . كذلك وضع لكل يوم من أيام أسبوع الآلام عظتين : واحد للصباح وأخرى للمساء كما وضع كتاباً خاصاً بتكريس المعمودية قال فيه : « اذا بنيت بناء جديداً يكون بناؤه فى الشرق عن يمين البيعة وتوضع فيه أيقونة يوحنا المعمدان وهو يعمد سيدنا له المجد » . وبعد ذلك أورد صلاة التكريس وهى التى يصلى بها الآباء الأساقفة عند تكريس جرن المعمودية الى الآن ^(٢) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الهرموسى الصوامى ج ٢ ص ٣٨٥-٣٩٥ .
(٢) عن مقال للقمص مبصائيل بحر خاص باقليم المنيا فى العصر القبطى نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة المدين السادس والسابع (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) ص ٣٨ - ٣٩ . ويعلق فى هامش ص ٣٩ بقوله : « فى الكنائس الأثرية التى بنيت فى أول القرن الخامس الميلادى تقع المعمودية على يمار الداخل إلى البيعة . وفى كنيسة الأنبا يوحنا القيصير بدير أبى حنن بنيت المعمودية بين الخورس الثانى والثالث إلى الشمال وتطل نحو الغرب . وفى بيعة الأنبا بهشوى بدير البرشا تقع المعمودية بحرى باب الكنيسة فى الخورس الأول وتطل نحو الغرب أيضاً . وفى هذا الوضع حكمة بالغة . ذلك لأن المعمودية تعيد ولادة المعمد وتجدد خلقة . وبعد مسحه بمر الميرون المقدس بعد المعمودية مباشرة ينتقل إلى اليمين إلى الهيكل حيث الملبح الطاهر ليتناول سر الشكر الذى به يتحد عقلياً مع يتبرج الخلاص نفسه . فبناء المعمودية فى بعض الكنائس الجديدة إلى اليمين فيه خطأ يجب أن يصحح .

الأمين فى القليل أمين فى الكثير

- ١٠٦- مزايا المتوحد الحبيس ميخائيل
١٠٧- وسيلة القناعه لقبول رياسة
الكهنوت .
١٠٨- قضاء بضعة ايام بدير الانبيا مكارى .
١٠٩- عصيان الخضوع .
١١٠- الخليفة المستنصر ووزيره بدر
الجهالى .
١١١- المناداة بالمستعلى خليفة بعد ابيه
١١٢- ثورة فاستكانة .
١١٣- توسط البابا الاسكندري بين مصر
والثيوبيا .
١١٤- فى العجلة الندامة .
١١٥- سطوة الافضل .
١١٦- نهاية راع امين .

١٠٦ - وحتمت أحداث الحياة ، وتعاقب الموت عليها ، أن يجتمع الأساقفة والأراخنة معاً ليفكروا تفكيراً جماعياً فى الراهب الذى يريدونه ليجلس على الكرسي المرقسى . ولما كان للاسكندريين الأولوية إذ ذاك ، اجتمعوا وتشاوروا دون أن يصلوا إلى نتيجة . فقرروا الذهاب إلى القاهرة ليتفاهموا مع أولى الرأى فيها . ولما بلغوها وجدوا بها بعض أساقفة الصعيد ، جاؤا هم أيضاً للتشاور فى أمر الانتخاب . على أن مداولاتهم لم تسفر عن شئ . فرأوا أنه من الأجدى أن يتوجهوا إلى برية شيهيت للتفاوض مع رؤساء الأديرة هناك لعلمهم يظفرون بضالتهم المنشودة . وكان دير الأنبا مكارى الكبير مقصدهم . وبينما هم مجتمعون فيه يستعرضون بعض الرهبان ، إذا بزائر يدخل عليهم صدفة ^(١) . ولما عرف السبب الذى اجتمعوا لأجله أعلمهم بأنه يوجد راهب متوحد حبيس فى صومعة بسنجار ^(٢) اسمه ميخائيل ، وقال عنه : « لقد اشتاقت روحه الطاهرة إلى الجهاد الحسن وفقاً للحياة الرهبانية القدسية ، ورغب فى أن يتجند للسيد المسيح منذ صباه . فعاش فى هذا الدير الذى أنتم فيه الآن سنوات عديدة ونال رتبة الكهنوت . ثم غادره وقصد إلى مدينة سنجار . فانفرد فى صومعة على مقربة منها » ^(٣) وما كاد الوفد الكنسى يسمع هذا الوصف

(١) لا يقر المؤتمنون مبدأ الصدقة لأنهم يرون تدبير العناية الإلهية حتى فيما يبدو للناس صدقة .

(٢) مدينة أهتلعتها بحيرة الهرلس المعاذية للبحر الأبيض المتوسط .

(٣) السنكسار الأثيوبي ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج ٣ ص ٩٤٤ .

حتى غادر بركة شيهيت لفوره وذهب إلى مدينة ستجار حيث سأل أهلها عن الراهب ميخائيل ، فأجابوا أنه راسخ الإيمان متبحر في العلم ، يملأ عبير قداسته الأرجاء . فإزداد شوق أعضاء الوفد لرؤية الناسك ميخائيل واستقر رأيهم على انتخابه .

١٠٧ - ولكي يتمكن هذا الوفد من الوصول إلى غايته انتدب الأنبا سسنيوت أسقف القاهرة ، والشماس أبا غالب بن مرقوريوس ليقابلاه شخصياً . ولما دخل هذان المندوبان صومعة ميخائيل المتوحد أخذوا يسألانه عن الإيمان وعن تعاليم الكنيسة . وقد أبدت أجوبته ما قيل عنه ، وعندها أعلنوا له السبب الذي جاءا - هما وزملاؤهما - لأجله . فاعتذر لهما بعدم استحقاقه لهذه الكرامة العظمى وبأنه لم يعد يصلح للحياة في العالم بعد أن قضى الستين الطويلة في الوحدة . على أن الأسقف وشماسه لم يقرأه على هذه الأسباب ثم أكدوا له أنه لم يأت معهما طوعاً فسيحملانه قسراً ، واستعطفاه لكي لا يضطرهما إلى حمله عنوة . فتأثر ميخائيل بكلماتهم ، وبما أولياه من ثقة ، ونزل على رغبتهما . وخرج ثلاثتهم ، واجتمعوا ببقية أعضاء الوفد . ثم قصد الجميع إلى القاهرة . فتلقاهم الأساقفة والشعب بالترحيب والتهليل وسار الجميع إلى الاسكندرية حيث أقيمت مراسيم الاحتفال باقامته البابا الاسكندري الثامن والستين يوم ١٢ بابه سنة ٨٠٠ ش (١٠٨٤ م) باسم الأنبا ميخائيل الرابع .

١٠٨ - وما أن تمت رسامته حتى بادر بالذهاب إلى دير القديس مكارى الكبير للتعبد والتأمل في الإلهيات لكي يستمد من هذه التأملات النعمة الإلهية التي تمكنه من تأدية مهامه الراعوية . وبعد أن قضى في الدير أيام استعرض في نفسه خلالها سير الآباء الأماجد الذين قادوا دفة الكنيسة بحكمة وصلاح عاد إلى القاهرة . واتخذ من كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل القائمة على جزيرة في النيل مقراً له .

١٠٩ - ولقد عكر صفر السنة الأولى لبابوية الأنبا ميخائيل الرابع عصيان بعض أبنائه عليه . على أنه استطاع بحكمته أن يلفظ من حذتهم ويجعلهم يستغفرونه ويقدمون له فروض الولاء . ولكنه لم يكد يهنأ بتثبيت السلام بينه وبين أبنائه حتى فوجيء الجميع بانتقال پدر الجمالى إلى دار الخلود . وكان هذا الأرمنى الكبير قد خدم مصر بتفان واخلاص مدى

خمس عشرة سنة . فقد أدرك أنه أن شاء أن يظل قابضاً على أعنة السلطة وجب عليه أن يستميل الشعب إلى جانبه ، وأن خير وسيلة لاستمالتهم هي تأمينهم على صناعاتهم وتجارتهم وزراعتهم وجعلهم يشعرون بالطمأنينة والاستقرار . لذلك لم يثبت دعائم الإقتصاد فحسب ، بل جعل الانصاف قاعدة الحكم أيضاً فعامل المصريين جميعاً على السواء ، ودرج على دراسة جميع الشكاوى التي تصله بنفسه ليعرف مدى صحتها وليعطى الحق لصاحبه .

١١ - وقد أحب المصريون هذا الوزير لهذه المزايا رغم أنه لم يكن من مواطنيهم . وقد يكون أقوى الأسباب لتعلق القلوب به هو أنه - مع كونه أرمينياً - خدم مصر خدمة الإبن المحب لأمة الرؤوم . وقد توفى هذا الرجل الأمين عن ثمانين عاماً ، وحظى بعرفان الجميل من جميع المصريين . وخلال الخمس عشرة سنة التي تولى فيها الوزارة استطاع أن يسيطر تماماً على الخليفة المستنصر الذي كان للملذاته المكان الأول من تفكيره ، فرحب بسيطرة وزيره الحازم . وكان من حسن حظ مصر إذ ذاك أن الرجلين اللذين كانا على رأسها تفاهما وكمل أحدهما الآخر : فالمستنصر ينعم بمجالس الأنس والسمر ، ويشعر بالراحة لوجود من يدعم الأمن والسلام في البلاد ، ويدبر الجمالي قوى الشكيمة يرغب في الحكم . على أن الوزير - وإن كان ميالاً للوجاهة والترف - إلا أنه لم يكن قانعاً بمظاهر الحكم ، وإنما أراد الحكم الفعلي ، بعكس الذي تنفس الصعداء حين وجد التجدة ، وسلم المقاليد إلى يدي وزيره القوى قانعاً بمظاهر الأبهة والملك . ولأن كلا منهما كمل الثاني ، فقد عاش كلاهما في أمن وثقة متبادلة . فلم تعكر الدسائس صفو علاقاتهما ، ولم يقف أحدهما بالمرصاد للآخر ^(١) . وهذا الصفاء الذي صبغ الصلات القائمة بين المستنصر ويدر الجمالي انعكس على الحياة العامة . فعاش المصريون فترة ذاقوا فيها طعم الأمن والاطمئنان وسعدوا بالعمل والإنتاج .

وشمل الهدوء المنتج الأديرة فازدهرت حتى لقد أقيم ديران لطائفتين

(١) مصر : من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) - الطبعة الرابعة ص ٢٣٦ - ٢٣٩ ، ويقول ستانلى لايون بول أن وزارة بدر الجمالي دامت عشرين سنة - راجع كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » (بالإنجليزية) ص ١٥٠ - ١٥٤ .

مختلفتين هم الأحباش والأرمن ، ويغلب الظن على أنهما كانا ضمن القلاىى
الملحقة بدير القديس يؤنس القصير .

ومن الأدلة على وجود رهبان من جنسيات غير مصرية فى أديرة شيهيت
فى الفترة ما بين القرن الثانى عشر والقرن الرابع عشر وجود مخطوطين
بلغات متعددة وبعض أجزاء من الإنجيل تنقسم كل صفحة فيه إلى خمسة
أعمدة : وكل عمود بلغة مختلفة وهى الأرمنية والعربية والقبطية
والسريانية والحيشية .

وفى دير السريان لوحة مذهب مستديرة نقشت عليها كتابة باللغتين
اليونانية والنوبية لتخليد ذكرى جرجس ملك النوبة الذى عاش فى القرن
الثانى عشر .

وكان هناك دير يحمل اسم النبى إيليا فى شيهيت اذ ذاك به قلاية تحمل
اسماً قبطياً . ومن المرجح أن الأحباش والنوبين قد عاشوا فى هذا الدير
الذى استضافهم القبط فيه ^(١) .

١١١ - ولقد آلت الوزارة بعد بدر الجمالى الى إبنه شاهنشاه الذى أتخذ
لنفسه لقب « الأفضل » . ولم تمض سبعة أشهر على تسلمه مقاليد الحكم
حتى انتقل الخليفة المستنصر بدوره الى رحمة مولاة . وكان هذا الخليفة قد
أوصى أخته كما أوصى وزيره الأفضل بالمتاداة بابنه الصغير خليفة من
بعده . وتنفيذاً لهذه الوصية نادى الأفضل بأبى القاسم أحمد ملكاً على
البلاد باسم المستعلى بالله . ثم بعث برسالة الى أبناء المستنصر الثلاثة
ينبئهم برغبة أبيهم بتنفيذ هذه الرغبة . وثارت ثائرتهم ، فسارعوا الى
القاهرة ودخلوا قصر الخليفة ، وقد بدا غضبهم على وجوههم وتأملهم الأفضل
بضع ثوان ثم قال فى هدوء تام : « قدموا فرض الولاء لسيدنا أمير
المؤمنين ، وأقسموا له يمين الولاء والطاعة ، لأن هذه وصية أبيكم الخليفة
المستنصر بالله » . ولكن ثلاثتهم رفضوا الازعان وأدعى كل منهم أن أباه
انتخبه شخصياً ليكون خليفة من بعده . ثم خرجوا من القصر غاضبين
حائقين . وترك الابن الأكبر القاهرة وقصد الى الإسكندرية . فلما أصبح

(١) أديرة وادى التطرون (رسالة مارميثا العدد السادس) للدكتور منير شكرى
ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

الصباح ، وعلم الأفضل بسفره ، أرسل وراء رجاله ولكنهم فشلوا فى معرفة أين اختبأ ففشلوا أيضاً فى القبض عليه . أما الأخوان الآخرون فبقيوا فى القاهرة ، فوضعهما الأفضل تحت رقابة شديدة . ثم أجلس المستعلى على كرسى الخلافة ، وبعث فى طلب كبير القضاة وأعيان المدينة . ولما مثلوا بين يديه طالبهم بتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة الجديد الذى لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره . فنزل الكل على رأيه بالاجماع . وعندها بعث برسوله الى الأميرين ، وأبلغهما بما جرى طالباً اليهما أن يحضرا ليضما صوتيهما الى صوت وجوه الشعب . فرضى الأميران ، وجاءا الى القصر حيث أعلننا ولائنا لأخييهما على رؤوس الأشهاد .

١١٢ - وفى تلك الأثناء جمع نزار - الإبن الأكبر للمستنصر - عدداً من الأنصار والمشايخين وأعلن نفسه خليفة فى مدينة الاسكندرية . فأدى هذا التحدى إلى قيام حرب دامت عشرة شهور وانتهت بهزيمة نزار شر هزيمة . فقبض عليه رجال الأفضل وألقوا به فى السجن حيث مات بعد ذلك بشهور قليلة . واستتب السلام على أثر ذلك لأن المستعلى أصبح الخليفة بلا منازع ، وسلم مقاليد الحكم الى الأفضل الذى شابه أباه فى نزاهته وعدالته كما شابهه فى شهوة الحكم . كذلك ، شابه المستعلى أباه فى حب الترف والاسترخاء والاكتفاء بمظاهر الحكم . وهكذا عادت الحياة إلى مجراها الطبيعى دون أن يطرأ عليها أى تغيير سوى تغيير الأشخاص . واستمر المصريون ينعمون بالهدوء والاستقرار ، ويسعدون بالإنشغال فى أعمالهم وهواياتهم . فكانت فرصة عظيمة هيأتها العناية الإلهية للأبنا هيثايل الرابع ليباشر مهامه الراعية فى ثقة وأمان . وبدأت نعمة الله أيضاً فى أن حكم القدس إذ ذاك أسند إلى قبلى نال حظوة خاصة وهو منصور التلبانى ^(١) .

١١٣ - وحدث أن جاء الفيضان ناقصاً منخفضاً إلى حد أزعج المصريين . وكان المستعلى يعرف أن النيل يصل إلى مصر من بلاد الحبشة وأن الأحباش يدينون بالولاء للكرسى المرقسى ، فأرسل مندوباً من عنده إلى البابا المرقسى يرجو منه الذهاب إلى بلاد الحبشة ليقابل ملكها ويتفاوض معه على الوسائل الممكنة اتخاذها لكسب تعلق مياه النيل . وقد

(١) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لنشر ترجمة مصطفى زيادة والهاز العرنى .

بعث الخليفة مع مندوبه بهدية ثمينة ليحملها البابا الاسكندري إلى العاهل الحبشى ، ولقد فرح الأنبا ميخائيل فرحاً عظيماً حين أئتمنه المستعلى على هذه المهمة لأنه أدرك أنها خدمة وطنية مزدوجة : فهي من جهة خدمة لبلاده الأصلية مصر ، وهي من الجهة الأخرى خدمة لأولاده بالتبني وهم الأحباش . فقبل رجاء الخليفة وسافر على الفور . وما أن اقترب من مشارف الحبشة ووصلت أنباء اقترابه حتى خف الامبراطور ورجاله إلى استقباله هو ومن معه بكل مظاهر التجلة والاحترام . وحين علم الامبراطور بالسبب الذى حدا بضيفه العظيم أن يحضر إلى بلاده ، أمر رجاله بأن ينظفوا مجرى النيل من كل الأعشاب النامية فيه والتي قد تعيق أنسيابه بقوة . فأدى ذلك إلى ارتفاع منسوب النيل ثلاث أذرع فى ليلة واحدة . وقد بقى الأنبا ميخائيل الرابع فى الحبشة عدة أسابيع ، نجح خلالها فى أن يقيم علاقات المودة بين ملك تلك البلاد وبين الخليفة المستعلى . ومن ثم توثقت الصلة بين الدولتين . وكان الأنبا ميخائيل الرابع أول من سافر إلى الأقطار الحبشية من باباوات الاسكندرية ^(١) ، رغم أن الصلة الروحية ربطت بين البلدين منذ عهد الأنبا أثناسيوس الرسولى - أى أنه كان قد أنقضى على تلك الصلة ما يزيد على سبعة قرون ونصف تعاقب خلالها سبعة وستون خليفة لمارمرقس الرسول .

١١٤ - ولم تمض غير مدة وجيزة على عودة الأنبا ميخائيل الرابع إلى مصر حتى وفد رسول من بلاد الحبشة يحمل خطاباً إلى الوزير الأفضل يتضمن رجاء إلى البابا الاسكندري برسامة مطران جديد لتلك البلاد لانتقال مطرانها إلى الأختار السمارية . فبعث الأفضل برسالة إلى هذا البابا الجليل يرجو منه فيها أن يسارع إلى رسامة مطران فى أقرب فرصة بحيث يستطع المطران الجديد أن يسافر إلى الحبشة مع الرسول الملكى عند عودته إلى وطنه . فلبى الأنبا ميخائيل الرابع الرجاء ، وبادر برسامة راهب اسمه جرجس من نساك دير الأنبا مكارى الكبير . على أن هذه الرسامة أثبتت صحة المثل القائل : « فى العجلة الندامة » لأن المطران الجديد أثبت أنه غير

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لنسب القمص ص ٥٢ - ٥٢١ ، ويقول المقرئى فى « المخطط » ج ٢ ص ٤٩٦ بأن الخليفة الذى طلب إلى الأنبا ميخائيل بالذهاب إلى الحبشة هو المستنصر .

جدير بالكرامة العظمى التى نالها . فقبض عليه الملك الحبشى ، وأعادته إلى القاهرة فى حراسة جنده . ولما عرف البابا المرقسى حقيقة ما جرى ، جمع مجعاً جرد فيه المطران من كرامته وأنزله إلى رتبة راهب بسيط ، كما أعتقله الأفضل عدة سنوات سمح انه بعدها بالعودة إلى ديريه حيث قضى بقية أيامه . وبعد إصدار الحكم المجمعى بتجريد جرجس ، سعى البابا الى تخير راهب فاضل ، وانتقاه هذه المرة بهدوء ومن غير تسرع ، فنجح فى رسامة مطران مدرك لمجد الكرامة التى نالها والمستوليات الجسام الملقاه على عاتق من بلغ هذه المرتبة الكهنوتية العظمى .

١١٥ - وبينما كان البابا المرقسى والوزير الأفضل يعملان جهدهما لخدمة المصريين : كل فى دائرته ، انتقل الخليفة المستعلى الى الدار الباقية دون أن يشعر انسان بفقده . فبادر الأفضل بالمناداة بإيئته الأمر باحكام الله خليفة - وكان طفلاً فى الخامسة من عمره . ولكى يرضى الأفضل هذا الطفل ، وضع له على سرجه الخاص مقعداً صغيراً ، كان يجلسه عليه حين يجوب المدينة ليتفقد أحوال الرعية . فكانت هذه المظاهر فاتحة لعشرين سنة كان الأفضل الأمر الناهى فيها بلا منازع . فلم يتقصده من مستلزمات الحكم غير اللقب .

١١٦ - ولم تمض غير شهر قليلة على المناداة بالخليفة الأمر حتى تفشى وباء الطاعون فى البلاد . ولما كان الأنبا ميخائيل الرابع راعياً أميناً أخذ ينتقل بين أولاده المنكوبين : يواسى هذا ويشجع ذاك دون أن يأبه لما قد يتعرض له من خطر . ولما كان المرض عدواً لكل جسم انسانى بغض النظر عن صاحبه ، فقد دب الطاعون الى جسم هذا البابا الاسكندرى الرحيم الساهر على أولاده . ففى ذات يوم - أثناء تجواله بين المرضى - لاحظ المحيطون به أنه يتأرجح على دابته فسارعوا الى مساندته لئلا يسقط من فوقها وحملوه الى الدار الباهوية . ولم يمهل المرض غير ساعات قصيرة اذ انتقل فى صبيحة اليوم التالى الى فردوس النعيم بعد أن خدم القبط خاصة والمصريين عامة مدى تسع سنين وسبعة أشهر^(١) .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٢٩٦ - ٤٠٥ .

الحروب الصليبية

عيسى سبيلك رحمة ومحبة فى العاملين عصمة وسلام

✻ ✻ ✻

يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم رخصا وباسمك تقطع الأرحام

✻ ✻ ✻

واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للإله وروحه ظلام
خلطوا صليبك بالحناجر والمدى كل أداة للأذى وحمام^(١)

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) هذه الأبيات لأحمد شوقى أمير الشعراء مأخوذة عن قصيدته «الأندلس الجديدة» .

(أ) الأنبا مكارى الثانى

- ١١٧- الراهب الفنان مكارى ومسعى
ابى الفضل كاتب الوزير
١١٨- تعنت الاسكندريين ثم رضاهم .
١١٩- رسامة البابا المرقسى التاسع
والستين .
١٢٠- ظلام ورياح وزلزال .
١٢١- دايما الدين كم من الآثام تتعرف
باسمك،^(١) .
١٢٢- حزن على حزن .
١٢٣- نوبة من الشر تطغى على الأمر .
١٢٤- القلق يتضاعف .

(ب) مجموعة من الكواكب

- ١٢٥- ماذا وراء مخطوطاتنا الضئيلة ؟
١٢٦- سطور خلفها مجلدات .

(ج) الأنبا غبريال الثانى

- ١٢٧- ابو العلا شماس وكاتب فى ديوان
ال خليفة .
١٢٨- جراحة الانبا غبريال الثانى
١٢٩- سلسلة من الاغتيالات .
١٣٠- مدام مع الحبشة .
١٣١- مجموعتان من القوانين الكنسية
١٣٢- مرض الانبا غبريال الثانى
فشفاؤه لم يلاحظه .

(د) الأنبا ميخائيل الخامس

- ١٣٣- ما زاد عن حده انقلب الى ضده
١٣٤- الاحتكام الى القرعة الهيكلية .
١٣٥- « تكفيك نعمتى »^(٢) .
١٣٦- بباوية الانبا ميخائيل الخامس
فى عمر الزهور .
١٣٧- وقفة قصيرة .

١١٧ - كان انتقال الأنبا ميخائيل الرابع فى فصل الصيف حين يكون
المصريون عامة منشغلين بحصادهم ومحصولات حقولهم فاكتفى الأساقفة

(١) مع الاعتذار لدام رولان احدى ضحايا الثورة الفرنسية التى قالت يوم ساقوها الى
المقصلة « أيتها الحرية - كم من الآثام تتعرف باسمك » .
(٢) ٢ كو ١٢ : ٩ .

والأراخنة إذ ذاك بتبادل رسائل التعزية ، ولكنهم لم يجتمعوا للتشاور معاً إلا فى شهر بابه (أكتوبر) . وما أن اجتمعوا حتى اتفقت كلمتهم على إيفاد نفر منهم إلى برة شيهيت ، إلى دير القديس مكارى الكبير ليقابلوا رئيس الدير ، ويعرفوا منه رأيه فى خير الرهبان المقيمين بتلك المنطقة المقدسة . وبقى المندوبون فى الدير أكثر من أسبوعين دون أن يصلوا إلى قرار حاسم ، وفى آخر شهر بابه اجتمعوا معاً كما كانوا يفعلون يومياً منذ وصولهم إلى الدير ، إلا أنهم حين اجتمعوا يومذاك اتفقوا بانسجام روحى عجيب على راهب معين ، وكأنما كان اتفاقهم بوحي من الروح القدس . وكان اجماعهم على ناسك اسمه مكارى ، تجمل بالوداعة والعلم والإيمان الراسخ ، كما كان فتناً بارعاً ^(١) . وكان هذا الراهب الوديع يقضى أوقات فراغه فى رسم الأيقونات وفى تزيين المخطوطات . وفرح المندوبون حين تجلت أمامهم حقيقة ذلك الراهب الفنان ، ورأوا أن يتداركوا ما فاتهم من الوقت ، فقبضوا عليه لفورهم وخرجوا لساعتهم قاصدين إلى القاهرة . وما كادوا يصلون إلى كنيسة الأنبا قزما التى عند القنطرة ^(٢) حتى أسرع أبو الفضل الكاتب القبطى للوزير الأفضل فأبلغ وزيره بمقدم الركب الآتى من شيهيت ، كما رجا منه أن يصدر أمره إلى والى الاسكندرية ليعفى الراهب المنتخب من دفع الضريبة التى يفرضها ولاية تلك المدينة على كل من يعتلى السدة المرقسية . فقبل الأفضل هذا الرجاء ، كما رأى أن يدعو الراهب مكارى وناخبيه لمقابلته قبل سفرهم إلى الاسكندرية . فخرج أبو الفضل فرحاً متهللاً ، وأبلغ قومه بما جرى ، فألف القبط موكباً فخماً حول من انتخبوه ، وساروا خلفه حاملين الأناجيل والمجامر والشموع ، وامتزجت ألحانهم بالبخور المتصاعد والنور المتلاكى حتى وصلوا إلى دار الأفضل . وقد سار فى موكبهم متولى القاهرة ورجاله . وحالما دخلوا إلى الداخل رفع الراهب مكارى يده بالبركة ، وتفرس فيه الوزير فوجده « عفيفاً حسن الوجه جيد الكلام » ^(٣) وأحس بانعطاف نحوه ، فأكرمه كل الاكرام ثم أمر

(١) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) القنطرة المشار إليها هنا كانت تقع أمام ضاحية فم الخليج جنوبى القاهرة وتقع بينها وبين حصن بابلون (مصر عتيقة) ولا أثر لهذه الكنيسة الآن .

(٣) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الهرموسى الصوامى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٤٠٧

بكتابة رسالة إلى والى الاسكندرية لا بلاغه بأن يقدم كل ما يمكنه من تسهيلات لرسمات البابا الجديد ، وأن يتجاوز عن الضريبة المفروضة فى مثل هذه الظروف . فابتهجت القلوب جميعها لهذا الاكرام وهذه المودة ، وحملوا خطاب الوزير وخرجوا من عنده قاصدين الاسكندرية مباشرة .

١١٨ - على أن التسهيلات التى هياها لهم الوزير لم تكن كافية لتجعل أراخنة القبط فى الاسكندرية يلينون ، فقد تنازل الوالى عن الضريبة المفروضة تنفيذاً لأمر الأفضل ، بينما تشدد الأراخنة فى مطالبة الراهب مكارى بأن يكتب لهم وثيقة بالمال الذى يجب عليه دفعه لهم أسوة بأسلافه منذ البابا الاسكندرى السادس والخمسين . ولكن مكارى رفض أن يرتبط بتعهدات لا يعرف مقدماً إن كان سيستطيع أداؤها أم لا ، وبخاصة لأنه كان فقيراً فقراً مدقماً . وظل هو والاسكندريون فى أخذ ورد من أول هاتور حتى الحادى عشر من كيهك . فأدرك الاسكندريون بعد هذه المدة صدق هذا الراهب المختار وصفاء سريره . وأدركوا أنه كان فى امكانه أن يوقع لهم على الصك الذى قدموه إليه ثم يحث بتعهده كما فعل غيره . وحين أدركوا هاتين الحقيقتين ، سلموا بوجهة نظره .

١١٩ - ولما أطمأن هذا الراهب العفيف إلى رضى الاسكندريين ، قبل أن يضع الأساقفة اليد عليه ، فتتم شعائر الرسامة فى الثانى عشر من كيهك (١٠٩٤ م) باسم مكارى الثانى الخليفة التاسع والستين لكاروز ديارنا الحبيبة . فأقام فى الاسكندرية اثنى عشر يوماً بعد رسامته ثم سافر إلى القاهرة حيث قضى ثلاثة أسابيع احتفل فى نهايتها بعيد الغطاس المجيد . وفى اليوم التالى لهذا العيد العظيم قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير ، وبقي فيه إلى أن انتهى موسم الصوم الكبير واسبوع البسخة ، فأدى شعائر عيد القيامة المجيدة بين رهبان هذا الدير وعاد بعد ذلك إلى القاهرة . ولقد أطلق القبط لقب « أبى الباهرات » على الأنبا مكارى الكبير منذ هذا العهد لكثرة النساك الذى انتخبوا من بين رهبانه للجلوس على الكرسي المرقسى .

١٢٠ - وحدث بعد عودة الأنبا مكارى الثانى من برية شيهيت بأيام قليلة أن أصيب الناس بلعز شديد لأن ظلام دامساً غطى الأرض فجأة فى رائعة النهار ، وفى حلكة الظلام عصفت رياح هوجاء . وما كادت الرياح

تهداً وينتشع الظلام حتى اهتزت الأرض بزلزال مفرع ، وفى الليلة التالية للزلزال انهارت كنيسة الملاك ميخائيل (فى جزيرة على النيل) ، وأشيع أن الزلزال صدع بنيانها فتداعت . ولو أن عدداً من القبط لم يصدق هذه الرواية ، واتهموا بعض الرعايا بهدمها . ولكن هذه التهمة لم تحقق ، وظل السبب الحقيقى لانهيار الكنيسة مجهولاً حتى الآن . ولما سمع البابا الاسكندرى الخبر ذهب لفرده إلى مكان الكنيسة ، وبكى بكاء مرأ حين رأى الأنقاض ثم طلب إلى كهنتها أن يستخلصوا الكتب والأواني المقدسة من بين الأطلال ويحملوها إلى الكنيسة المعلقة .

١٢١ - وكأنما كانت غضب الطبيعة ، وتصدع كنيسة رئيس الملائكة تذكيراً بالدمار - وقد جاء الدمار فى هذه المرة من الغرب . لأن راهباً ايطالياً - اسمه بطرس الناسك - كان قد نجح فى استشارة ملوك أوروبا وأمرائها إلى حد جعلهم يزعمون أن من واجبهم تخليص الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين فجمعوا جحافلهم للحرب ولكنهم لم يكتفوا بمهاجمة فلسطين ، وإنما صوبوا بنادقهم إلى مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، بل وهاجموا امبراطور القسطنطينية أيضاً . فلو أن ادعائهم بأنهم لم يقاتلوا إلا لانتزاع الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين كان صحيحاً ، فلماذا اعتدوا على المصريين والسوريين وأهالى القسطنطينية ؟ ولو احتجوا بأن حكام مصر وسوريا من المسلمين فما هى حجتهم فى مقاتلة امبراطور الروم وهو مسيحى ؟ قد يكون الرد الصحيح على هذه الأسئلة أن الغرب أراد أن يستعمر الشرق بأكمله فتستر بستر الدين ليبرر فعلته . وكان لأسماء المدن - كأورشليم وأنطاكية وغيرها - رنين خلاب ، ألهب خيال الأشراف الأوربيين وملأ قلوبهم حماسة دفعتهم إلى القتال ، لعل كل واحد منهم يظفر بشرف الاستيلاء على إحدى هذه المدن العتيقة ويقيم من نفسه والياً عليها .

وكان فى الشرق عاهلان يرقبان الزحف الأوربي باهتمام بالغ : هما اليكسيس امبراطور القسطنطينية الذى زعم أنهم قد يدعمون ملكه ، والأفضل (وزير الخليفة الفاطمى) الذى زعم أنهم سيقونه شر الزحف السلجوقى ^(١) . فأصيب العاهلان بخيبة أمل قاصمة - لأن الفرنجة قاتلوا

(١) السلجوقيون قبائل تركمانية تتارية أقامت دولة ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر فى بلاد فارس وآسيا الصغرى والتوقاز الواقع فى الأراضى الروسية (الآن) .

اشباعاً لأطماعهم ورغبة فى أن يكونوا أصحاب الحكم المطلق . ولم يقف
الأفضل مكتوف اليدين بل بعث بجيشه واحتل فلسطين . ولكن نصره كان
قصير الأمد . ذلك لأن هؤلاء الغزاة لم يكونوا على استعداد للتراجع بهذه
السرعة . فقد قطعوا الجبال والوهاد ، وتحملوا مشاق السفر رغم بعد
المسافات ووعورة الطرق إذ ذاك ليظفروا بغنائم متنوعة أهمها الاستيلاء
على مدينة القدس . فكانت مطامعهم تتعارض تماماً مع أهداف الأفضل .
ومن العجيب أن أحلام الفرلجة بالاستيلاء على القدس تلخصت فى أنهم إنما
يهدفون إلى تخليصها من أيدي الحكام المسلمين كأنها مدينة مهجورة لا
سكان فيها . فلم يخطر ببال أحد الزاحفين ماذا يكون حال أهل القدس ،
بل لم يفكروا لحظة فى هؤلاء الأهالي ، وحينما سقطت المدينة المقدسة فى
أيديهم تبخرت من عقولهم كل فكرة سامية وزال من قلوبهم كل شعور
نبيل ، بل لقد نسوا تعاليم المخلص الذى وضعوا شارته على دروعهم
وصدورهم ! ولم يعمل جود فروا دى هويون (أو غيره من الأشراف) على منع
عساكره من النهب والسلب فاندفع الجند إلى الفتك بالشعب الآمن حتى لقد
قتلوا فى مدينة ملك السلام سبعين ألفاً من الأهالي العزل^(١) . وبأزاء هذا
البطش الغاشم أدرك الأفضل مدى الخطأ الذى وقع فيه حين زعم أن هؤلاء
الغزاة قد يحمونه من السلجوقيين . ولم يكن مسلكهم مع القدسيين بالحبيبة
الوحيدة الى أصابته ، إذ قد صادفته خيبة أشد مرارة مؤداها أن جند
الصلبيين فاجأوا الجيش المصرى عند أسوار عسقلان ، ثم أطلقوا عليه
رصاصهم رغم راية الهدنة البيضاء ، وأمعنوا فى الغدر فأشعلوا النيران فى
غابة قريبة من المدينة كان المصريون قد لجأوا إليها . وبأزاء كل هذا الطغيان
رأى الأفضل أن يسارع إلى القاهرة حرصاً على البقية الباقية من جند
مصر^(٢) . وما ان استقر به المقام حتى انغمس فى الترف وفى أحياء المواسم
والأعياد بمواكب فخمة وبذخ شبيه بالخيال . فأغرق خيسته فى لجة هذه
المفاتن . وبهذه المظاهر الخلابية أرخى الأفضل ستاراً على ما أصابه من فشل
وانكسار . فانسابت الحياة فى مجراها الطبيعى . على أنه رغم ما بدا على
صفحتها من هدوء فإن التيارات العنيفة كانت تتزاحم فى أعماقها .

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأشمونيت جيتى ج ٧ ص ٢٦٨ - ٢٩٧ .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستاتلى لاين هول ص ١٦٤ .

واستبد الأسى بالقبط إذ رأوا المعتدين يحملون الصليب على صدورهم . وكان من الطبيعي أن يسئ المسلمون الظن بالقبط في بادئ الأمر إذ من أين لهم أن يعرفوا عما جرى في خلتيدون وعما جرّه هذا المجمع المشنوم من البلايا ؟ لذلك شدد الحكام الخناق عليهم وضاعفوا الطلبات . هذا من جانب . أما من الجانب الآخر فإن هؤلاء الذين انتحلوا لأنفسهم لقب الصليبيين « كانوا يعتزون القبط وغيرهم من مسيحي الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية » ^(١) وهكذا كاثت هذه الحروب الصليبية هما وغماً على حاملي الصليب في الشرق . فقد استطاعوا أن يتعايشوا مع مواطنيهم المسلمين في أيام الضيق وأن يتعموا وإياهم في أيام الفرح ولكن القادمين من الغرب وسط صليل السيوف إنما جاؤا للقتل والنهب رغم رمز المحبة والسلام الذي يحملونه على ألويتهم . وصمّ هذا الصليل أذانهم إلى حد أن سيدة كسيحة هي أئنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت ضغط تهديداتهم « أن تعطيهم كل ما تملك لتنقذ الكنيسة التي كانت أمينة عليها » ^(٢) .

وليس ذلك فحسب بل أنهم حين لمجحوا في إقامة مملكة لاتينية بالقدس وأحسوا بشئ من الاستقرار فيها « ساد الوثام بين مسيحي الغرب ومسيحي الشرق فيما عدا أقباط مصر (اليعاقبة) الذين منعوهم من الحج إلى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون ، ويصف أحد مؤرخي الأقباط حزنهم لذلك بأنه لم يكن بأقل من حزن المسلمين ، ويتساءل قائلاً : « بأي حق يمنع نصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الاقتراب من المدينة . ان الصليبيين يكرهوننا كما لو كنا ضللنا عن الإيمان القويم » ^(٣) .

١٢٢ - على أنه قبل أن تدهبم القبط هذه الكارثة المزدوجة نعموا

(١) يقول دكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ : « في هذه الحروب (الصليبية) التي كان ظاهرها الدين وباطنها الرغبة في السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط في مصر » . راجع أيضاً كتاب « الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية » للدكتور ولهم سليمان ص ١٥ .

(٢) تاريخ الكنائس الشرقية (بالإنجليزية) للدكتور عزيز سوريال عطية ص ٩٧-٩٨ .

(٣) قصة الأقباط في الأرض المقدسة لديمتري رزق ص ٢٠ - ٢١ نقلاً عن المؤرخ الفرنسي رينودو .

هم وباباهم الأتيا مكارى بالاستقرار النفسى فى ظل العدالة التى دعمها الأفضل رغم أن قلوبهم كانت مفعمة بالحزن والألم . فلقد كان وجعهم مضاعفاً : إذ تضامن الحزن على بلادهم التى يبغي الدخيل الاستيلاء عليها مع حزنهم الناتج عن رؤية الصليب على صدور المستعمرين الفاشمين ، نعم أنه الحزن على بلادهم المهددة وعلى دينهم المفترى عليه . ثم تضاعف حزنهم إذ رفض هؤلاء المتسترون خلف الصليب أن يسمحوا لهم بالحج، وزادوا على ذلك بأن هجم هولنديون على ميناء الفرما وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً وأشعل النار فيها . ثم استمر فى زحفه حتى وصل إلى تينيس . ولكن انتصاره انقلب فجأة إلى هزيمة ساحقة : فقد عاجلته المنية وتهدد جنده . ورأى المصريون فى هذا الحادث انتقاماً إلهياً فاكتفوا به ولم يحاولوا الأخذ بالثأر وفضلوا الوقوف موقف الدفاع وبهذه الخطة الرشيدة لمجها فى حماية بلادهم من الوقوع فى أيدي الغزاة القادرين ^(١) .

١٢٣ - وفى وسط هذه الحالة - حالة القلق والتوتر التى كانت تسود البلاد - خطر نبال الخليفة الأمر أن يتخلص من وزيره الأفضل ، فبدلاً من أن يقيله ، أوعز إلى ثلاثة من رجاله بقتله .

وكان الأمر قبل أن تتباه هذه التوبة العنيفة من الشر قائماً بمظاهر الملك ، ينعم بالترف والأبهة ، وينتقل من سرايه الإقامة على جزيرة الروضة إلى حديقته الغناء المشهورة بورودها ذات العبير الزكى . وحين يسأم هذا كله يذهب إلى دير نهيا لقضاء بضعة أيام فيه . وكان - كلما ذهب إلى هذا الدير - بمنح رهبانه ألف دينار . أما فى الزيارة الأولى فقد أوقف عليه ثلاثين فداناً ^(٢) على أن هذا الشاب المترف المدلل تحول فجأة إلى طاغية غشوم إذ تسلطت عليه شهوة الاستئثار بالحكم .

وكان الأفضل هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذ رغبة المستعلى فتادى

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ١٦٣ - ١٦٥ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى : المبحث الثانى لجاستون فييت ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٥٤٣ . تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ .

بالأمر خليفة وهو بعد فى الخامسة من عمره ، وهو الذى حماه من بطش أخيه الكبير ، وأخلص فى خدمته وخدمة البلاد . إلا أن الترف الذى كان يعيش فيه هذا الوزير ملأ قلب الخليفة حسداً إذ أحس بأن وزيره منافس له فى الحكم وفى مظاهر الأبهة أيضاً . فاندفع بعنف هذا الحسد إلى التخلص منه على هذه الصورة المروعة ، وانتقلب عليه رغم كل هذه الخدمات . ثم أراد أن يغطى فعلته الشنعاء فتظاهر بالحزن عليه وسار فى جنازته . غير أن النفس الأمارة بالسوء قد فضحت هذا النفاق ، لأن الأمر ما كاد يرجع من جنازة وزيره الأمين حتى سطا على جميع ما يملك ، فاستولى عليه ، ونقله إلى دار الخلافة . وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أن ما تركه الوزير الأفضل كان يتضمن ست ملايين درهماً من الذهب ، ومائتين وخمسين زكبية مليئة بالدراهم الفضية ، وخمسة وسبعين ألف جبة من الحرير (الساتان) ، ومثالاً لرجل بالحجم الطبيعى من العنبر لاستعراض القفاطين بواسطته . وبين الأنظمة التى وضعها نظام يقوم على القروسية ، ويتلخص فى أن من يلتحق به من الشباب يحظى بحصان وسيف ودرع ، ويتدرب على النزال والطاعة . ثم ينال المتفوقون منهم لقب أمير ^(١) .

١٢٤ - وأنه لمن المؤسف حقاً أن يقتل الخليفة وزيره ، لأن الأفضل كان قد سعى جهده فى تثبيت دعائم العدالة وفى تهيئة الفرص للعمل المنتج . وقد سعد المصريون جميعاً فى عهده ، فأوجسوا خيفة لمقتله . ويبدو أن الأنبا مكارى الثانى قد حزن حزناً بالغاً لهذه الفعلة الشنعاء ، فلم تنقض شهور قليلة حتى لاقى ربه بعد باباوية دامت سبعة وعشرين سنة وشهراً واحداً . فصلى عليه الأساقفة الصلوات الكنسية الخاصة بالباباوات ، ثم دفن فى الكنيسة المعلقة ^(٢) .

ويبدو أن الأمر وقتذاك كانت تنتابه نوبة من البطش إذ قد استولى عنوة على بستان لإحدى البيع ، وكان الشيخ صنيعة الملك أبو الفرج بن الشيخ قد اشتراه ووقفه على الكنيسة . وقد كان الشيخ صنيعة الملك يعمل فى

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالإنجليزية) لستاتلى لاين هول ص ١٦٥ -

١٦٦ .

(٢) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى الهرموسى عن نسخة مخطوطة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤١١ .

ديوان الخليفة ثم عزل . ولا يعرف على وجه التحقيق إن كان قد أوقف هذا البستان على البيعة قبل عزله أو بعده . ولم يكتف الأمر بالاستيلاء على هذا البستان بل استولى على بستان آخر ملحق بكنيسة كانت تعرف بكنيسة المرقوتى ^(١) . ومع ذلك فقد كان هذا الخليفة كلما شاء الاستجمام يقصد الى دير نهيا وقضى به أياماً . وكان كل مرة يزور فيها الدير يمنح رهبانه وخدامه ألف دينار فى حين أنه منحهم ثلاثين فدانا بلا مال فى زيارته الأولى .



(ب) مجموعة من الكواكب

١٢٥ - وما يؤسف له أن المخطوطات القبطية التى لا تزال باقية بين أيدينا ضئيلة للغاية بالنسبة إلى تاريخنا الضخم . وما يزيد الأسف أن عددا غير قليل من هذه المخطوطات الضئيلة قد وصلنا فى شذرات . فيجد الباحث كلمة هنا أو جملة هناك . ثم يقف حائراً بين هذه وتلك إذ لا يجد لهما بقية . فيتساءل عما عساه أن يكون وراء هذه الكلمة وتلك الجملة ولا يجد من يجيب . أو قد يعثر الباحث على اسم من تلك الأسماء البراقة التى تلهب الخيال فيسعى ليدعم خياله بالمعرفة وإذا به يجد السبيل مسدوداً فيضطر إلى الاكتفاء بما يصوره له خياله أو يستشفه قلبه .

وليس من شك فى أن عدداً لا يحصى من مخطوطاتنا قد ضاع بين براثن الاستبداد أو اعتداء الجهل . على أن الأمل يحلو البعض منا إلى الظن بأنه قد تكون هناك مخطوطات لا تزال محفوظة فى مغاور لم تعثر عليها يد بعد . وبخاصة بعد العثور على مجموعة من المخطوطات بنجع حمادى فى صعيد مصر وأخرى قرب البحر الميت بفلسطين ولا يسع الباحث فى وقتنا هذا إلا أن يكتفى بالكلمات أو الجمل المتناثرة ، أو بمجرد معرفة أسماء بعض الأعلام الذين كان لهم - من غير شك - أبعد الأثر فى المجتمع الذى عاصروه . كذلك لا يسع الباحث إلا أن يدرك أن الحياة

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ . أهل اللمة فى الاسلام ترجمة حسن حبشى ص ١٤٩ .

انسابت انسياب النهر الذى يجرى أحياناً فوق هضاب وصخور وعرة ، وأحياناً أخرى فوق أرض رخوة ناعمة . هكذا كانت حياة القبط . فقد عرفوا معنى السلام والاستقرار كما عرفوا معنى القلق والفرع ومواجهة الاستبداد . ولئن كانت سجلات المجتمع القبطى غير واقية إلا أن الحقيقة التى لا مرأى فيها هى أن وجود البهاوات يستلزم وجود شعب يرعونه . والشعب بالطبع يتألف من رؤساء ومرؤوسين - أو بالأحرى من قوم مختلف المشارب والأمزجة والمهن والحظوظ . ولئن كانت سير البهاوات محفوظة للآن فما ذلك إلا للجلال الذى فاض عن قلوب القبط نحوهم بوصفهم خلفاء للقديس مرقس كاروزهم المحبوب . وإلى جانب هؤلاء البهاوات توجد شخصيات سجل لنا التاريخ أسماهم ، ولكنه لم يحدثنا عنهم إلا فى سطور قليلة . على أنه لما كانت قمة الهرم لا تتسامى إلا متى تراصت أجزاؤه فى تماسك تام ، هكذا لم يكن من الممكن أن تسطع أمامنا شخصيات الآباء ومن يليهم فى المسئولية من غير أن يكون وراءهم شعب متماسك على الرغم من عدم وجود السجلات التى تبين لنا تواريخهم وكيفية معيشتهم ، والقليل الذى وصل إلى أيدينا إن هو إلا صور خاطفة تتلخص فيها مجلدات فهى لذلك جديرة بأن تشعل هممنا للبحث عنها وتلهب خيالنا لتكملتها .

١٢٦ - ومن السطور التى وصلتنا عن القرن الحادى عشر ما يرسم لنا تراجم عدد من الأراخنة وهم :

سرور جلال : متولى الخراج فى خلافة المستنصر - امتاز بالانصاف وسعة الصدر وبعد النظر ، فاكسب بهذه الصفات حظوة خاصة لدى الخليفة الذى وثق به إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً كما أذن له بتجديد كنيسة مارجرس بالقاهرة ^(١) ومن الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق سرور تنظيم الموكب يوم الاحتفال بوفاء النيل ، إذ كان المستنصر يرأس هذا الاحتفال بنفسه . وقد ظل سرور على وداعته وتواضعه رغم ما أولاه إياه الخليفة من ثقة فأحببه الناس حباً جماً ، وقصد إليه كل من له احتياج . فكان يعاونهم جميعاً ، ويقضى لكل حاجاته سواء أكان مسيحياً أم مسلماً أم يهودياً .

(١) أهل اللغة فى الاسلام ترجمة دكتور حسن حشيش ص ١٦٩ .

أبو اليمن يوسف : الملقب بأمين الأمان - كان أميناً لخزانة الخليفة الذي عهد إليه أن يجمع خراج الدلتا نظراً لأمانته المتناهية ، فزادت مكانته في أعين مواطنيه . وقد رأى أبو اليمن هذا أن يعبر عن شكره لله تعالى على ما أولاه من نعم فبنى ديراً متيناً وسط حديقة واسعة من أشجار النخيل على شاطئ النيل بطموه فكأنه باختياره هذه البقعة الجميلة يترنم مع الشاعر :

وللتخيل منظر مهيب ترع فسى جماله القلوب
فوق الضفاف ظلها رهيب صفاً بصف زانها الترتيب
من كل جبار عظيم القدر
تحسبها مردة طرالا تحت مظلات زهت جمالاً
فى النيل جاءت تبتغى اغتسالاً سحرها النيل فلن تزالا
واقفة هنا بفعل السحر (١)

وقد أطلق على هذا الدير اسم « أبى السيفين » (٢) - ولم يلبث هذا الدير أن أصبح المكان المختار لنزهة الوزير الأفضل لما امتازت به حدائقه من جمال وهدوء ، ولما كان يوحى به النيل من كرم ووفاء .

أبوسعد منصور : هو ابن أبى اليمن ، كان كاتباً بارعاً جريئاً لا يخشى فى الحق لومة لائم . فعينه الخليفة المستنصر ضمن وزرائه . ولما تمرد الجنود الأتراك ، جمع أبو سعد هذا من بقى من الجند على ولاته للخليفة ، وخطب فيهم خطبة بليغة ثم قادهم فى المعركة ضد المتمردين وانتصر نصراً مبيناً . وكان لجرائته وولاته أبعد الأثر فى نفس الخليفة الذى ازداد حباً له واعترف بفضل مدى حياته .

أبو المليح الملقب بماماتى : كان واسع الثراء ، ومن ينطبق عليهم قول

(١) عن قصيدة « لبالى الصيف فى مصر » للشاعر الياس فياض - أنظر كتاب « مختارات الزهور » طبع فى القاهرة سنة ١٩١٤ ص ١٣٠ - ١٣٤ .

(٢) واسمه مرقوريوس فيلوباتير (أى محب أبوه) ، وهو أحد الآلاف الذين نالوا اكليل الشهادة ويلقب بأبى السيفين لأنه كان ضابطاً ثم رأى المسيح له المجد يقول له فى حلم « أترك السيف الذى تقتل به الناس وتقلد سبنى - سيف الحق المحيى » .

المزمور « بدد وأعطى المساكين » ^(١) . ولأن السخاء كان شيمته فقد أطلق عليه مواطنوه لقب « ماماتى » ^(٢) . وحدث فى أيامه أن اجتاحت البلاد مجاعة مفرقة كان الأطفال - إذا ما رأوا أبا المليك خارجاً من بيته - يصرخون فى استعطاف قائلين « ماماتى » . وكان هذا النداء يهز قلبه حتى الأعماق ، ويدفعه إلى أن يعيظهم بسخاء عجيب .

بقيرة الإشيدي : كان هو أيضاً من الأراخنة الذين شهدوا المجاعة . فكان - خلال السنين العجاف - يقصد إلى الأحياء الفقيرة ليتفقد صفار الصناع والعمال . وكان يدخل بيوتهم ليرى بنفسه إلى أى حد من الهوس وصلوا ، ثم يوزع عليهم الملابس والطعام حسب احتياجاتهم وكان ينصرف إلى عمل المحبة هذا خلال النهار ، فإذا ما غربت الشمس انصرف إلى عمل آخر من أعمال المحبة هو البحث عن المرضى والغرباء والمسجونين لكى يقدم ما يحتاجون إليه من خدمات متنوعة وهى السعى للحصول على الإفراج عن المسجونين ومعاونة الغرباء على العودة إلى بلادهم واستحضار الطبيب ثم الأدوية للمرضى . وهكذا كان ينفذ أوامر القادى الحبيب بالفعل بدلاً من أن يكتفى بالتشدد بها .

الشيخ السعيد أبو الفخر المعروف بابن صاعد ^(٣) : كان كاتب الرواتب فى خلافة الحافظ وترقى إلى رئاسة المجلس . ولما توفى تعيين مكانه فى الوظيفة الأولى ابنه الشيخ السعيد سديد الملك . أما ابنه الثانى السعيد أبو البركات فقد انشغل فى خدمة الكنيسة . على أن الوالد وابنيه خدموا الكنائس والأديرة فعمروها وبذلوا فى سبيلها الأموال الكثيرة .

الشيخ الوجيه أبو الحسن الأحم : كان كاتب سر الخليفة الحافظ امتاز بالتقوى وتعمير الكنائس .

الأخضر بن زكريا : كان أمير الدواوين فى عصر الحافظ - ذلك لأن هذا

(١) مز ١١٢ : ٩ .

(٢) كلمة قبطية مؤلفة من كلمتين : « ما » وهى صيغة الامر من فعل أعطى و « ماتى » أى « مسرة » - فمعنى الكلمتين معاً « أعطنا مسرة » (أو فرحنا)

(٣) يجب التمييز بين ابن صاعد هذا الذى عمل بمسيحيته وبين الوزير هبة الله ابن صاعد الذى أسلم وأصبح واسع السلطان فاستبد ونجبر وكرهته البلاد - راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٧ .

الخليفة كغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يرصدون النجوم كما كانوا يقربون إليهم المتجمين ويستشيرونهم فى شتى الأمور . وكان منجم الحافظ قد عيّن له صفات إن اكتملت فى رجل كان من المخلصين له . ولما رأى الحافظ الأخرم بن زكريا رأى فيه الصفات التى عيّن لها منجمه « فاستدناه إليه وقربه وآل أمره إلى أن ولاه أمير الدواوين » (١) .

الشيخ المكين أبو البركات : المعروف بابن كتامة الذى كان كاتب الدولة فى خلافة الفائز ولم تنسده مكانته الاجتماعية واجبة نحو الكنيسة لأنه بنى كنيسة باسم مارجرجس بأعلى كنيسة مار بقطر ، ثم جدد كنيسة باسم الشهيد مارميناء تقع على مقربة منها . كما جدد كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين ودير نهيا بالجيزة .

الاسعد أبو الخير جرجة بن وهب الشهير بابن المقياط : كان من أكابر القبط فى عهد الخليفة العاضد وقد جدد بناء كنيسة يوحنا المعمدان . ثم حدث أن نال إكليل الشهادة ودفن بتلك الكنيسة (٢) . ولقد كان ابن المقياط هذا من عائلة كبيرة ممتازة تفوق فيها أكثر من رجل - وهى عائلة النشو . ومنها أبو الفتوح بن المقياط الذى تقلد رئاسة ديوان الجيش فى أيام الملك العادل .

الشيخ صفى الدولة ابن أبى ياسر بن علون الكاتب : بنى كنيسة عظيمة « أها صوفيا » خلافا للمعتاد بين القبط . وقد قيل أنها أقيمت على مقربة من الأهرام ولكنها تلاشت ولم يبق لها أثر إطلاقاً .

الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الاسفند : كان كاتب سر الفضل (وزير الخليفة الأمر) .

المعلم زوين : كان ملتزماً (٣) بمصر فى خلافة الحافظ

أبو الطيب : كان كاتب سر ناصر الدولة زعيم الجند الترك فى أيام

(١) المخطوط للمقرئ ج ١ ص ٤٠٦ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل - ص ١٢١ .

(٣) أى المستول عن جمع الضرائب .

الخليفة المستنصر . فلما عاث الترك فساداً حين أعلنوا تمردهم على الخليفة دخلوا الأديرة ونهبوها . وعثروا خلال عصيانهم على الأنبا خريستودولس فى أحد الأديرة فقبضوا عليه وجعلوه رهينة مطالبين بفدية منه . فسارع أبو الطيب إلى تخليصه من قبضتهم .

الشيخ الاتحزم : كان كاتب ديوان النظر - أى ديوان المراجعة على مختلف الدواوين والأموال . وكان لمن يتولى نظارة هذا الديوان حق العزل والولاية (١) .

الشيخ الرئيس شبيعة الخلافة أبو بكرى : اشتغل متولياً لديوان التحقيق ثم لديوان النظر على جميع الدواوين فى خلافة الحافظ ، ثم تنقل بين مختلف الأعمال من صرف ومن استخدام ووصل إلى درجة عظمى فى الرئاسة .

الشيخ أبو بكرى ابن أبى نصر : متولى خراج الأشمونين فى خلافة الحافظ أيضاً . وقد جدد دير المحرق وزين قصر الضيافة به . ثم نقل إلى الفيوم فجدد هناك كنيسة الشهيد العظيم أبى السيفين .

الإشيد أبو بكرى : كان قساً فى هذه الفترة عينها على كنيسة السيدة العذراء ومارجرس بحارة الروم فنشط فى ترميمها وتزيينها .

أبو الخير الصيرفى : كاتب فى ديوان الخليفة وكان رئيساً نبيلاً صرف الكثير من الجهد والمال على عمارة الكنائس والأديرة فى منطقة الجيزة .

ابن الإيج : كاتب من الخليفة المستنصر بالله وقد جدد كنيسة أبى سرجة وأبا كير ويوحنا ، وكلتاها بمصر القديمة . وهذا الأرخن الفاضل يحمل نفس الاسم الذى حمله أسقف جرجا بعد ذلك بما يزيد على قرنين .

أبو السعيد الكاتب : كان رئيس ديوان المكاتبات فى العصر الفاطمى وقد جدد كنيسة الخمسة وأمنهم بمنيل شيعة (بالجيزة) (٢) .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٢٢ - ٥٢٣ . تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٣ - ١٦٨ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣١ . ٣٢ . ٣٦ . ٥٢ . ٦٢ . ٧٤ . ٥٥ . ٥١ . ٥٠ .

الشيخ الاكرم بن ابي الفضل : رئيس ديوان العاضد لدين الله الفاطمي ،
وقد جدد بناء كنيسة أبي يحنس بمصر القديمة بعد حرقها .

ابوزكريا يحيى بن مقارّة : شيخ عاقل مسموع الكلمة في ديوان الخليفة أيام
بدر الجمالي ، وكان وقوراً مهيباً لشيخوخته ولحسن سياسته إذ قد اشتهر
بمعالجة الخلاف الذي كان قد دب بين الأتبا خريستودولس وبين أسقف سخا
كما نجح في تهدئة خواطر كل الذين اشتركوا في هذا الخلاف .

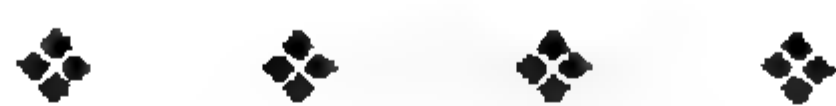
الشيخ الفاضل يوحنا بن ابي الفضل : كان عالماً محبواً وله دالة خاصة على
الأمير شاهنشاه بن بدر الجمالي مما جعله يتخذ كاتم أسرارهِ . وكان مع سمو
مكانته يوجه عنايه خاصة إلى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة
مارجرس بمصر القديمة . ويصفه ابن مسعود بأنه كان مواظباً على الصلاة في
كنيسة مارجرس هذه . أما كاهنتها فكان بشير بن البشر الذي كان عالماً
خبيراً شجى الصوت مليح الوجه تام القامه كهلاً في الرجال . وحدث في
تلك الفترة أن ماطل البابا في رسامة أسقف لبابلون (مصر القديمة) فجمع
أبو الفضل الأراخنة في بيته وتشاوروا معاً ثم انتخبوا يؤنس بن سنهوت
لهذه الكرامة ، وبعد رسامته في كنيسة أبي سرجه سار الجميع به إلى
كنيسة حارة زويلة ومعهم نائب الوالي وجماعة من رجاله في موكب حافل
ارتفعت فيه الأناجيل والصلبان والشموع الموقدة .

ابواليعزى : مصور أصله من مليج له لوحة كبيرة قد رسم عليها صورة
للميلاد الإلهي المجيد وأخرى لعماده في نهر الأردن . وهذه الأيقونة الكبيرة
موضوعة بأعلى حجاب الهيكل في كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم .

ابن بقر : كان من المقربين لدى الخليفة الظاهر وبالتالي كان مسموع
الكلمة محفوظ المكانة . ولقد استخدم نفوذه عند الخليفة ليستصدر منه
الأمر برفع الجزية التي كان على البابا الاسكندري أن يدفعها عقب
رسامته مباشرة .

يوحنا بن زكريا المعروف بابن سباع : كان لاهوتياً ضليعاً وضع كتاباً بعنوان «
الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة » أوضح فيه طقوس الكنيسة وتعاليمها
في سطوع واخلاص حتى لقد وصفه المستشرق الألماني جراف بأنه من كبار
العلماء وبأن كتابه من المؤلفات المسيحية ذات العبارة الفصيحة ودقة البحث .

وقد طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٩٠٢ وهو يتضمن التعاليم عن التثليث والتوحيد وخلق الملائكة والعناصر والانسان ، ثم شرح الآيات الجوهرية فى سفر التكوين والوظائف الكنسية وممارسة السيد المسيح لها على الأرض فالأسرار المقدسة والبخور والأيقونات والشوربا والمعانى الرمزية لهذه كلها والأعياد الكنسية ^(١) .



(جـ) أنبا غبريال الثانى

١٢٧ - لما كانت قصة الإنسان تبدأ بالمهد وتنتهى إلى اللحد ، كان القول بأن التاريخ يعيد نفسه صحيحاً إلى حد بعيد . ذلك لأن المؤرخ كلما تناول سيرة بطل من الأبطال اضطر إلى أن يبدأها وينتهى منها على الوثيرة عينها . وهكذا يتكرر القول بأن السدة المرقسية شغرت بانتقال البها الجالس عليها إلى الأخدار السماوية واجتماع الأساقفة والأراخنة للتداول فيمن يخلفه . وعلى هذا القياس ترى أن كرسى مارمرقس خلا للمرة التاسعة والستين ، وللمرة التاسعة والستين أيضاً اجتمع الأساقفة والأراخنة للتشاور فى أمر من ينتخبونه .

وكان لكنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) إذ ذاك شماس اسمه أبو العلا بن تريك ، حكيماً ، محباً للجميع ، متضلعا من الأسفار الإلهية والعلوم المدنية ، ساهراً ، صاحياً . وفوق هذا كله فقد كان راسخ العقيدة الأرثوذكسية ، محباً للشعائر الدينية ، مكرساً للصلاة والتأمل . وكان يقضى نهاره فى نقل الكتب واقتناء اليتامى والأرامل والسؤال عن المسجونين . وكان أبو العلا - إلى جانب شماسيته - كاتباً فى ديوان الخليفة الأمر . ولكن لما جاءت نياحة الأنبا مكارى الثانى فى أعقاب مقتل الأفضل ، ظل الكرسى المرقسى شاغراً مدة من الزمن ^(٢) - لأن الأساقفة والأراخنة لم يجتمعوا بسبب اختلال الأمن . فلما هدأت الحالة نوعاً ما واجتمعوا معاً ، وأوا أن يتتبعوا نفساً منهم للذهاب إلى دير الأنبا مكارى

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جوا ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٢ .
٧٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ .

(٢) يقول بعض المؤرخين أن هذه المدة بلغت سنتين .

الكبير فى شيهيت قلما وصل المندوبون إلى دير هذا القديس العظيم صاحبهم رهبانه إلى دير الأنبا يؤنس كامى الذى كان يرأسه إذ ذاك ناسك شيخ معروف بقداسته وتقواه اسمه يوسف . وحالما وقعت أعينهم على هذا الراهب أدركوا فى الحال صدق ما سمعوه عنه لأن النعمة الإلهية كانت تضىء على وجهه وتتعكس منه بنور عجيب . وما أن رأهم حتى منحهم بركتته ثم قال لهم : « عودوا يا أولادى إلى القاهرة لأن المختار من الله لهذه الكرامة العظمى هو أبو العلا شماس كنيسة القديس مرقوريوس » . ففرحوا لهذه الكلمات فرحاً عظيماً ، وزاد فرحهم حين علموا أن هذا الشماس كان يلعب فى طفولته أدوار الكهنة والشمامسة ، فذكرهم عمله هذا بالأنبا أثناسيوس الرسولى وقتنوا على الله أن يكون مثله . وعادوا إلى مصر لفرورهم وحملوا أبا العلا إلى الاسكندرية حيث رسمه الأنبا غبريال الثانى سنة ٨٣٨ ش . وكان ترتيبه السبعين بين باباوات الاسكندرية .

١٢٨ - وقد استهل الأنبا غبريال الثانى باباويته بالذهاب إلى دير القديس مكارى الكبير ليقوم بصلاة القداس الإلهى فى هذا الدير عملاً بتقاليد ذلك العهد . وقضى بالدير بضعة أسابيع ثم عاد إلى مقر رياسته بالكنيسة المعلقة ببابلون . وانقضت بضعة أيام جاء بعدها كاهن يرغب فى أن يكون أسقفاً على اخميم مقابل مبلغ من المال . فتألم البابا شديداً لهذا العرض ولم يوافق على الرسامة . ومن المؤلم أن هذا الكاهن زعم أنه يستطيع الحصول على بغيته إن هو اشتكى الأنبا غبريال إلى ابن الخليفة . فقابلته ، وقدم إليه هدايا ثمينة ، فأرسل ابن الخليفة رسولاً من عنده إلى البابا الاسكندرى ، يطلب إليه رسامة الكاهن الذى لم يرع للكهنة حرمة . فبعث هذا البابا الجرىء الجدير بأن يجلس على السدة المرقسية - بعث برسالة الى الخليفة نفسه لم يقل فيه غير هذه العبارة : « ان دينى يمنعنى من رسامة كاهن يبغي هذه الكرامة بالمال » . وكانت هذه الرسالة القصيرة سبباً فى أن يحترم الخليفة وابنه كاتبها منذ اللحظة التى تسلمها فيها حتى آخر نسمة من حياتهما . وأصدر الأوامر إذ ذاك إلى المصريين جميعاً بوجوب احترام الأوامر الباباوية وتنفيذها بكل دقة وسرعة .

١٢٩ - وحدث أن الخليفة الأمر بدأ يجمع فى شخصه سلطة الخلافة وسلطة الوزارة لأنه - بعد أن قتل الأفضل - عين وزيراً بدلاً منه اسمه

المأمون ، ثم لم يلبث أن قتله . ثم نال راهب قبطى اسمه أبو نجاح حظوة كبيرة فى عينى الخليفة ، فاتخذة مستشاراً له ولو أنه لم يعينه وزيراً . ولكن الأمر رأى بعد شهر قصيرة أن يتخلص من مستشاره بنفس الطريقة التى تخلص بها من وزيره ، على أن رجال بلاطه سثموا هذا الشطط ، فاغتاله أحدهم فى ثورة غضبه^(١) . وتولى الخلافة من بعده ابن عمه الحافظ .

١٣ - وفى تلك الأثناء تقدم ملك الحبشة إلى الأنبا ميخائيل مطران تلك البلاد إذ ذاك ، يرجو منه رسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيسة الاسكندرية والحبشة . على أن الأنبا ميخائيل رد على الملك بقوله انه لا يستطيع أن يخرج على التقاليد إلا بأذن من البابا الاسكندرى . فلم يقنع الملك بهذا الجواب بل أرسل خطاباً إلى الأنبا غبريال الثانى يتضمن طلبه هذا ، ثم تجاوز الحدود فبعث إلى الخليفة الحافظ يستشفع به . فما أن تلقى الحافظ هذه الرسالة حتى بعث برسول من قبله إلى البابا الاسكندرى يطلب إليه أن يحقق رغبة الملك الحبشى . فقال البابا المرقسى : « لو اننى حققت أمنيتي لعجلت باليوم الذى تنفصل فيه الكنيسة الحبشية عن أمها الكنيسة القبطية التى تعتز بهذه الأمومة . ولا شك عندى فى أنه لو تم هذا الانفصال لأدى إلى اضعاف العلاقات بين البلدين » . وقد اقتنع الحافظ بهذا الرد ووافق البابا الاسكندرى على رأيه فى عدم رسامة أسقف جديد .

١٣١ - ثم رأى الأنبا غبريال الثانى أن مسئوليته لا تنحصر فى رعاية شعبه المعاصر له ، بل أنها تمتد لتشمل الأجيال الآتية من بعده ولكى يؤدي هذه المسئولية أصدر مجموعتين من القوانين : تتضمن المجموعة الأولى منها اثنتين وثلاثين مادة تتعلق الجزء الأول منها بالأساقفة والكهنة وبالمسلك الذى يجب عليهم انتهاجه كرعاة مؤمنين على الشعب المسيحى ، ويختص الجزء الثانى منها بالشعائر الدينية والفرائض الكنسية . أما المجموعة الثانية فتشتمل على قوانين الميراث . وقد وجه الأنبا غبريال الثانى هاتين المجموعتين إلى الكهنة والشعب إذ قال : « غبريال - بنعمة الله وحكمته الفاتكة ، وسابق عمله - بطريرك مدينة الاسكندرية العظمى وبابا

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لسنانى لاين بول ص ١٦٦ . مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى . المبحث الثانى . لجاستون لبييت ص ١٩٠ .

الكرازة المرقسية ، يكتب إلى جميع الاخوة المظللين بنعمة الله ، المختارين ، ليباركهم الله . ولذراعه القوة ليخلصهم ويحميهم . وليكن السلام والنعمة معكم ، وليسكننا فيكم ، وليفيضنا على بيوتكم من الآن وإلى الأبد آمين » . وبعد أن قدم الأتبا غبريال الثانى السبع لله على نعمائه ، قال : « عندما تأملت الكرامة التى منحنى إياها الله الأب ضابط الكل امتلأت رهبة لعظمتها ، وحين أمعنت التأمل خيل إلى أننى أسمع صوت موسى العظيم فى الأنبياء قائلاً : « أنا ثقيل الفم واللسان » ^(١) وإلى أرميا وهو يعتذر بقوله : « أنى لا أعرف أن أتكلم لأننى ولد » ^(٢) وتجاوبت مشاعرى مع هذين التبيين وهما يعبران عن عجزهما أمام ما يأمرهما به الله القدير إذ أحسست بضعفى وعجزى أمام مجد الكرامة الكهنوتية وما يستتبعها من مسئوليات . وعندها رن فى أذنى الأمر الإلهى كما رن فى آذان هذين التبيين وحتم على الطاعة ، فلم يسعنى إلا أن أبذل الجهد لتنفيذ أحكام الله ، طالباً إليه تعالى أن يستندنى بنعمته ويؤازرنى بحكمته ويقوينى لكى أرعى شعبه وأرشده إلى ميناء السلام . ولما عولت على تحقيق وصايا الله تذكرت كلماته سبحانه إلى حزقيال النبى وهى : « إذا لم تنلر الشرير . ولا تكلمت انذاراً له من طريقة الرديئة لحياته . فذلك الشرير يموت بأثمه . أما دمه فمن يدك أطلبه » ^(٣) ولهذه الأسباب كلها سارعت إلى تدوين هذه القوانين تذكيراً لكم ، واستنهاضاً لاهتمامكم ، رغم أنى متأكد من أنكم تعرفون غرضى الذى أستهدفه من هذا العمل . واننى على يقين من أننى - بتنفيذى الوصايا الإلهية - أنال واياكم البركة والسلام فكونوا على ثقة من أنكم حين تسمعون كلامى لا تطيعوننى أنا ، وإنما تطيعون الأب السماوى الذى أقامنى لرعايتكم وتطيعون الإبن الحبيب الذى قدم حياته فدية عنكم ، وتطيعون الروح القدس الذى يرشدكم ويهديكم إلى طريق الحق والإله الواحد - المثلث الأقانيم - بجازيكم خيراً ويعوض أتعابكم بحسب مراحمه الجزيلة . ثم انتقل البابا المرقسى - بعد هذا الخطاب - إلى تدوين القوانين التى عدها فى المرتبة الأولى من الأهمية وهى الخاصة بحماية رجال الدين والشعب معاً ،

(١) خر ٤ : ١٨ .

(٢) أر ١ : ٦ .

(٣) حز ٣ : ١٨ .

مبتدئاً بنفسه . فهو نص في المادة الأولى على نهى الباباوات من الالتجاء إلى السيمونية ^(١) .

أما المجموعة الثانية فتهدف إلى تنظيم الارث . وقد استهلها الأنبا غبريال الثاني بقوله « أنه لما كانت المسيحية ديناً يهين الناس للحياة الأبدية ، فقد أغفل الرسل والآباء الأولون أمر الموارث اغفلاً تاماً . ثم مرت الأجيال ، وأدرك بعض الباباوات أن الشعب في حاجة إلى من يرشده في هذه الأمور » . على أنه لما كانت بعض القوانين التي وضعوها لا تصلح إلا للعصور التي وضعت فيها ، فقد قرر أن ينقحها ويوبئها مستعيناً بما جاء في الأسفار المقدسة وفي القوانين التي وضعها الآباء الأولون ^(٢) .

على أن الأنبا غبريال اختط طريقاً أدى في النهاية إلى القضاء على اللغة القبطية ذلك أنه لما وجد أن الغالبية من الشعب لم تعد تفهم اللغة القبطية أصدر أمره بقراءة الأناجيل والمحطبات الكنسية وغيرها من القراءات باللغة العربية بعد قراءتها بالقبطية حتى يتسنى لجمهور المصلين فهم ما يسمعون . وهذا الأمر سليم من حيث التربية لأن المصلين يجب أن يفهموا الشعائر فهماً صحيحاً لكي يستطيعوا تركيز انتباههم على ما يسمعون وإلا تشتت أفكارهم ونقصت قيمة الصلوات التي ترن في مسامعهم دون إدراكهم إياها . على أن الاستعاضة بالعربية عن القبطية في الشعائر نفسها ضاعفت من استهانة القبط بلغتهم الأصلية إذ لم تعد لها أية ضرورة إطلاقاً . وقد أدرك خلفاؤه خطورة هذا الأمر ولكنهم عملوا به ^(٣) . ولكن هل كان في استطاعة الأنبا غبريال وخلفائه أن يستعشوا القبط على دراسة لغتهم كي يفهموا الشعائر الدينية على الأقل ؟ لا نستطيع تقديم الرد القاطع على هذا السؤال . ولكن الذي نستطيعه هو أن الأيام قد أثبتت أن

(١) راجع تفاصيل هذه القوانين في رسالة عن « قوانين الأنبا غبريال بن تريك » - البابا الاسكندري السبعين (بالانجليزية) لأوسولد هرمستر ، نشرها مع النص العربي في مجلة « أورنتاليا كريستيانا بيرموديكا » المطبوعة في رومية سنة ١٩٣٥ ص ٥ - ٤٥ .

(٢) قوانين الموارث « للأنبا غبريال بن تريك » (بالانجليزية) المرجع السابق - ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(٣) تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم - ص ٩٧ . مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة ص ٧٤ - ٧٥ .

الأمر الذى أصدره أدى فى النهاية إلى أن تصبح اللغة القبطية فى حكم اللغات الميتة وبخاصة بعد طغيان الأفكار الدخيلة واللغات الأجنبية على بلادنا . ويا حبذا لو يأتى اليوم الذى فيه يتقن الشعب لغة كنيسته ولا يصلى إلا بها ١١ .

١٣٢ - وما أن فرغ الأنبا غبريال الثانى من كتابة هذه القوانين حتى مرض وقارب الموت . وذات ليلة رأى فى حلم جموعاً من الكهنة والرهبان يحملون الأناجيل والمجامر والصلبان ، وسمعهم يقولون له : « ستنال الشفاء من هذا المرض الصعب . ولكننا سنعود إليك بعد سنة من الزمان لتأخذك كى تعيش معنا » . وقد تحققت هذه الكلمات ، إذ أن البابا الاسكندرى قد عوفى بعد أيام قلائل من مرضه ، وعاد رعاية شعبه بكل أمانة . ولما استكملت الأرض دورتها حول الشمس تمت الرؤيا وانتقل إلى بيعة الأبهكار فى هدوء شامل . وكانت أيام باباويته أربع عشرة سنة وثلاثة شهور^(١) .



(د) أنبا ميخائيل الخامس

١٣٣ - مرت بضعة شهور - بعد نياحة الأنبا غبريال الثانى - ظل الكرسي خلاها شاغراً ، إذ لم يسارع الأساقفة والأراخنة إلى التشاور فى أمر الانتخاب . ومع أن هذه الفترة كانت قصيرة إلا أنها كافية لأن ينتهزها راهب اسمه يؤنس ابن كدران ليعكر فيها الصفو والهدوء . فقد نسى هذا الراهب مبادئ أساسيين من مبادئ الرهبنة هما الطاعة والاتضاع . فخرج من غير إذن رئيسه وأخذ يعلن على الملأ فضائله التى تؤهله لأن يكون خليفة لكاروز ديارنا الحبيبة . وقد نجح فى أن يقنع عدداً من الرهبان بتأييده ، فناصروه وأخذوا يروجون له ، واستطاعوا بدورهم أن يكسبوا عدداً من الأساقفة . وازداد يؤنس بن كدران غروراً لهذا النجاح ، وحث مناصريه على

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامع الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ٢ ص ٤١٢ - ٤١٩ . السنكسار الأثيوبي - ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج ٣ ص ٧٩٨ - ٨٠١ .

الترويج له أكثر فأكثر . على أنهم ماكادوا ينشطون في دعايتهم حتى قولوا بمعارضة عنيفة ، إذ قد رفض الشعب رفضاً باتاً أن يمنع ثقته لراهب يروج لنفسه ، وعبثاً حاول أنصار ابن كدران أن يتغنوا بمزاياه ويتشدقوا بفضائله ، لأن الشعب أجمع على مقاطعته ، معلناً أنه لو كان هذا الراهب يتجمل بما يصفونه به من مزايا ، لظل قابلاً في صومعته ، متصرفاً إلى الصوم والصلاة .

١٣٤ - وكان متولى أمر مديرية البحيرة إذ ذاك قبطياً اسمه أبا يوسف ، ساء تصرف ابن كدران . فتجاهل كل الدعايات التي روجها أنصاره عنه . وبعث برسالة إلى أراخنة القاهرة يدعوهم إلى المبادرة بالذهاب إلى الاسكندرية ليتشاوروا معاً في أمر انتخاب البابا المرقسى . فلما وصلتهم هذه الرسالة ، تقابلوا مع الأساقفة واتفقوا جميعاً على وجوب الإسراع في السفر . وبالفعل قصدوا إلى الاسكندرية . ومن العجيب أن ابن كدران ذهب معهم ، وحضر اجتماعاتهم زعماً منه أن وجوده بينهم قد يحرجمهم فينتخبوه . وقد استصحب أنصاره معه . على أن الأساقفة والأراخنة رفضوا قبوله ، وأصرروا على وجوب انتخاب الراهب العفيف الذي لا يدعو لنفسه ، بل يصمت لأن أعماله تتحدث عنه . وتمسك كل من الفريقين برأيه حتى بدا أن لا مخرج من الموقف . وهنا تشارروا نفر من الأراخنة على حدة ، واتفقوا على الاحتكام إلى القرعة الهيكلية تهدئة للنفوس واسترضاء لمناصري ابن كدران ومعارضيه . ثم قدموا اقتراحهم للمجتمعين فوافقهم عليه . ومن ثم تقدم أصحاب الاقتراح بأربعة أسماء من بينها يونس بن كدران . وأقيمت الصلوات وانتهت بالقداس الإلهي ، بينما كانت أسماء الرهبان الأربعة موضوعه على المذبح تحت الصينية ومعها ورقة بيضاء ^(١) . وما أن انتهى الأساقفة من هذه الشعائر المقدسة حتى استدعوا ولداً صغيراً سحب ورقة من بينها ، فإذا بها تحمل اسم ميخائيل ^(٢) . أحد رهبان دير الأنبا مكاري الكبير ، وكان ميخائيل هذا متصفاً بكل الفضائل الرهبانية ، إذ كان

(١) كان المحتكمون إلى القرعة الهيكلية يضعون دائماً ورقة بيضاء مع أسماء المقترع عليهم حتى إذا شأت الإرادة الإلهية رفضهم جميعاً ظهر هذا الرقص بالورقة البيضاء .

(٢) يلقب هذا الراهب بكلمة « الدنشرى » - ويقول برمستر نقلاً عن كروم إن هذه الكلمة قبطية وأصلها NP[π] و معناها القلاية الكبرى .

متواضعاً عفيفاً مطيعاً فقيراً ، كرس نفسه من اللحظة الأولى لدخول الدير للصلاة والتأمل وخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه ، وأولوه ثقتهم ، واعتادوا أن يتجمعوا حوله ليصفوا إلى نصائحه . فضاعفت محبتهم إياه جهوده في سبيل خدمتهم وتعليمهم ، وفاضت عليه النعمة الإلهية وانعكست على وجهه فكسته جمالاً . على أنه كان أمياً رغم كل هذه المزايا . وفرح القبط لوقوع القرعة عليه . وقالوا : « ان الروح القدس الذي اصطفاه سيلاهم الحكمة وفيها الكفاية » . وذكروا أنفسهم بأن معظم الرسل الأطهار كانوا عاميين ، ولكنهم هزوا العالم وأثروا على أصحاب التيجان . لأن الحكمة التي منحها إياهم الروح القدس كانت مساوية تفوق كل العلوم الإنسانية . وبهذه الآمال العالية والثقة الراسخة في المعونة الإلهية ، حملوا الراهب ميخائيل ، وساروا به إلى الإسكندرية في موكب فخم أشبه بمواكب القادة المنتصرين وقصدوا إلى الكنيسة المرقسية حيث رسمه الأساقفة البابا الاسكندري الحادى والسبعين باسم ميخائيل الخامس في اليوم الخامس من شهر مسرى المبارك سنة ٨٥٢ ش (٢٩ يوليو ١١٣٦ م) .

١٣٥ - وتقبل الأنبا ميخائيل الخامس كرامة البابوية بكل شكر ودعة إذ قد عداها هبة عظمى من رب الهبات . واختار لنفسه سكرتيراً بارعاً في الكتابة لكي يدون له رسائله الفصحية وغيرها من الرسائل التي كان لزاماً على البابا المرقسى أن يكتبها . على أن البابا - رغم أميته - كان يعرف كيف يصل إلى القلوب عن طريق مواعظه وإرشاداته . فداوم على تعليم الشعب مثبتاً المؤمنين ومجتذباً الزائغين إلى طريق البر . فالتف الشعب حوله في محبة وولاء ، وتقبلوا إرشاداته بفرح معلنين إعجابهم بمقدرته التي أنستهم جهله . ولم يكتف بالتعليم والعطف على أبنائه ، بل رأى أن واجبه يحتم عليه زيارة الفقراء والمعوزين في بيوتهم ليعرف حاجتهم بنفسه ، ويعمل على سدها . وكان يوزع المال الذي يأتيه على الفقراء أولاً ، حتى إذا ما استوفوا طلباتهم ووجد أنه لا يزال لديه بعض المال صرفه على بناء الكنائس ^(١) . كذلك ظل الأنبا ميخائيل الخامس محتفظاً بتواضعه وقناعته ، واستمر في نسكه وتقشفه كما لو كان لا يزال عائشاً في الدير .

(١) السنكسار الأثيوبي ترجمه الى الانجليزية واليس بودج ج ٢ ص ٧٨ .

ولما ذهب الأنبا ميخائيل إلى القاهرة لأول مرة سارع أراخنة القبط ووجوه المسلمين إلى استقباله فى فرح وتهليل ، ثم ذهبوا معه إلى الكنيسة المعلقة مقر البابوية إذ ذاك .

وقد أبدى الشعب حبه وولاءه الخالص لباباه بالمواظبة على الأصوام والصلوات ، فكانت الكنائس تضيق بمن فيها لكثرة الزحام . وكان الأنبا ميخائيل الخامس يبدى عطفه عليهم وفرحه بهم .

وفى هذا الجو الملى بالهدوء والثقة المتبادلة إزدهرت الأديرة وتضاعف عدد الرهبان .

١٣٦ - وكانت هناك خمس ايبارشيات شاغرة عندما تسلم الأنبا ميخائيل الخامس مقاليد الرئاسة . فرأى أن يختار لها خمسة من الرهبان الصالحين . وكان يصوم ويصلى قبل رسامة أحدهم ، ثم يزوده بالنصائح والبركات بعد رسامته .

على أن هذه الأيام السعيدة كانت قصيرة الأمد ، فكانت أشبه بموسم الزهور الصيفية التى تملأ الجو بعبيرها مدى شهور قليلة ثم لا تلبث أن تذوى . ذلك أن الأنبا ميخائيل الخامس مرض بعد رسامته بأربع شهور . ولما اشتدت عليه وطأة المرض رأى أن يذهب إلى برية شيهيت أملاً فى أن يكون للهواء الصحراوى الجاف والهدوء الشامل والفضاء الفسيح أثر طيب على صحته وبخاصة لأنه اعتاد الحياة فى هذه البرية . فذهب إلى دير الأنبا مكارى الكبير طلباً للاستشفاء . ولكن المرض ظل ملازماً له إلى أن قضى عليه فاستودع روحه يدى الأب السماوى ولم تمض غير تسعة شهور على اعتلائه السدة المرقسية ^(١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ٢ ص ٤١٩ - ٤٢١ .

وقفة قصيرة

١٣٧ - الأنبا ميخائيل أسقف دمياط

١٣٧ - وهنا أيضاً تقف حيارى ، ثمن النظر فيما لدينا من مخطوطات لعلنا نستشف من خلفها الوقائع التى نريد معرفتها والتى لا نجد حرفاً واحداً عنها . ذلك لأن أحد الأخبار المعاصرين لهذا البابا الذى عبر كالحياى هو الأنبا ميخائيل أسقف دمياط الذى ترك للآتين من بعده مجموعة من التعاليم لا تزال أربع نسخ منها باقية للآن : كلها مخطوطة - اثنتان منها محفوظتان فى مكتبة الباباوية القبطية بالقاهرة ، وواحدة فى المكتبة الأهلية بباريس ، والرابعة بمكتبة الفاتيكان ^(١) . فمن هو هذا المطران ؟ لا نعرف عنه إلا أنه عين معاوناً للأنبا ميخائيل الخامس ، وأنه عاش إلى عهد البابا الاسكندرى الـ ٧٣ . أما تعاليمه فتتعلق بممارسة بعض الفرائض الكنسية وتتلخص فيما يلى : الاعتراف السرى ، حلق الرأس ، الختان ، البخور ، عدم ابقاء شىء من الأسرار المقدسة من يوم إلى آخر ، رسم علامة الصليب ، زواج الأقارب ، التحفى ^(٢) ، تغطية القربان المقدس بالقول والترمس ^(٣) .

ويجدر بنا هنا أن نذكر تعريفه للاعتراف السرى وهو: «وأما الاعتراف فهو طب روحانى نسبته إلى الروح نسبة الطب الجسدانى إلى الجسد. وكما أن الجسدانى لا يتم إلا بطبيب خبير خير وإلا كان ترك التطبيب خيراً منه من جاهل أو شرير. ثم يقبول المريض واستعماله ما يوصف له ، ثم بإمكان المداواة من جهة الزمان والمكان وإلا فلا فائدة . فكذاك الروحانى ... وكما أنه ليس كل إنسان يحتاج إلى الطب الجسدانى فكذاك الروحانى . وكما أنه ليس كل المحتاجين إليه يحتاجون إليه مستمراً وفى كل مرض فكذاك الروحانى » .
وهكذا نجد فى كل عصر جنوداً مجهولين ، يكفيهم فخراً أنهم جنوداً أنفسهم لخدمة جيلهم وخدمة الأجيال الآتية من بعدهم .

(١) نشر أولوسولد برمستر هذه التعاليم مع ترجمتها إلى الإنجليزية (نقلًا عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس) فى مجلة « أوروبونتاليا كريستيانا بيريوديكا » الصادرة فى رومية سنة ١٩٣٦ بعنوان « أقوال ميخائيل مطران دمياط » .
(٢) أى حافى القدمين

(٣) كان بعض عهدة النجوم يندسون بين القبط ليتناولوا من الأسرار المقدسة ، وكانوا يعافون الترمس والقول ، فاستعان الكهنة بهذه القول ليتعرفوا بها على هؤلاء الدخلاء .

مد وجزر

١- الأتبا يؤنس الخامس

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| ١٢٨- الشماس الراهب ابن أبي الفتح | ١٤٢- دخيل يغتصب عرش الحبشة |
| ١٣٩- ابن كدران يعاود تلاعبه | ١٤٣- قتل واستبداد وقتال في الداخل |
| ١٤٠- الحساسية المرفقة للبابا | والخارج |
| الاسكندري | ١٤٤- ثورة عارمة فهدوء واستقرار |
| ١٤١- تنابذ مريز وحزيبه بقلعة | ١٤٥- نياحة الاتبا يؤنس الخامس |

١٣٨- وختمت أحداث الحياة على الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا مرة أخرى وكأنهم لم يستريحوا بعد من التداول في أمر البابا المرقسي. فلما اجتمعوا اتجهت أنظارهم صوب الرهبان الثلاثة الذين كانوا قد ذكروا أسماؤهم ساعة أن وقعت القرعة الهيكلية على الأتبا ميخائيل الخامس. على أن واحداً من هؤلاء الثلاثة كان مركز انتباههم. وهو شماس اسمه يؤنس بن أبي الفتح يعيش في دير الأتبا يؤنس كامي^(١). ومن نعمة الله أن اتفاهم هذه المرة كان اجماعياً، فلم يحتاجوا إلا أن يبعثوا برسلهم إلى البرية لاستحضار هذا الراهب المختار. فذهب المنديون وعادوا معهم يؤنس الذي رسمه الأساقفة قمصاً إذ كان لا يحمل غير رتبة الشماسية.

١٣٩- والعجيب أن يؤنس بن كدران الذي انتهى البهاوية في المرة السابقة عاد يروج لنفسه من جديد وحضر الاجتماع الذي انعقد في كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فلما رأى الاجتماع على انتخاب الشماس ابن أبي الفتح استشاط غضباً ونسى ما تحتمه عليه الرهينة من دعة واحتشام، فقصد الخليفة الظاهر ورجا منه أن يعضده ليبلغ مرامه. وقد دهش الظاهر لهذا الطلب ورأى فيه خروجاً على المألوف. فأرسل إلى الأساقفة والأراخنة وأطلعهم على أمر هذا الراهب الطامع، ثم قال لهم إن بيدهم الأمر لأنهم هم المسئولون عن إدارة شئون الكنيسة. وعليه اجتمع الأساقفة وأراخنة الشعب في حضرة القاضي وتناقشوا في الأمر حتى لقد احتدم بينهم

(١) يذكر القمص ميسائيل بحر في كتابه «تاريخ القديس الأتبا يحنس القصير» ص ٤٩ أن هذا البابا قضى سني رهبته في دير الأتبا يؤنس القصير.

النقاش . وفى النهاية أعلن الجميع بأن السدة المرقسية ليست نهياً لكل طامع بل هى جليلة القدر لا يجلس عليها إلا المختار من الله . فمن يسعى إليها يحكم على نفسه بهذا السعى أنه غير مستحق لها . كذلك نصت القوانين الرسولية على تحريم الاستعانة بالسلطان للوصول إلى هذه الكرامة . وقد أيد القاضى المسلم هذا المبدأ وأبلغه للخليفة الذى أيد بدوره وأصدر أمره بتسهيل السفر للاسكندرية أمام الأساقفة والأراخنة لكى يقوموا برسامة من يريدونه . فبادروا بالسفر وتقابلوا مع كهنة الاسكندرية وأراختها فى حضرة القاضى والوالى وغيرهما من رجال الحكم . وقد أكد لهم الجميع بأن الخليفة أمرهم بتقديم كل التسهيلات وضمان الأمن والحرية لرسامة من يختاره الشعب . ففرح القبط بهذا التصريح وهتفوا : « يؤنس بن أبى الفتح هو البابا الذى نريده » ... وذهبوا لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية حيث وضع الأساقفة عليه اليد فأصبح الخليفة الثانى والسبعين لما مرقس فى الثانى من أيام النسيء سنة ٨٥٤ ش (٢٦ أغسطس سنة ١١٣٨ م) باسم يؤنس الخامس .

١٤ - وما أن تمت رسامته حتى ذهب إلى القاهرة ، فتزاحم الشعب حوله وأوصلوه إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين) ببابلون حيث اختار أن يقيم .

ولقد كان هذا البابا مرهف الحساسية لم تنسه الكرامة العظمى التى نالها تواضعه الجهم كما لم تنسه ما قد ينتاب الناس من آلام وشعور بالخيبة فأخذ يفكر فيما قد يساور يؤنس بن كدوان من مرارة لفشله مرتين فى أن ينال البابوية التى سعى إليها بكل قواه . فاستبدعاه إلى جانبه ورجا منه أن يقبل أسقفية سمند . ويبدو أن ابن كدوان كان قد تعلم الدرس وأدرك ما فى القناعة من هدوء وراحة بال ، فاعتذر للبابا عن قبول الأسقفية وشكر له عطفه كما وعده بأنه سيقضى بقية حياته فى الدير كراهب بسيط ، وقد حافظ على هذا الوعد بالفعل .

ولقد دأب الأتبا يؤنس الخامس على تشجيع الناسخين من الرهبان توسيعاً لغرض المطالعة . ومن المخطوطات الباقية للآن مخطوطة رقم ٢٧

محفوظة بدير مارمرقس بالقدس ^(١) . تم نسخها في دير القديسة مريم
المجدلية . وقد ورد على غلاف هذه المخطوطة أنها نسخت في عهد الأنبا
يونس الخامس لاستعمال الرهبان المقيمين بدير هذه القديسة ^(٢) . ويبدو أن
هذا الدير كان يجمع بين الرهبان القبط والرهبان السريان .

١٤١- وكان المصريون إذ ذاك يعيشون في قلق واضطراب بسبب
التنافس بين الخلفاء ووزرائهم على السلطة . وكثيراً ما أدى هذا التنافس
إلى القتل . ولما كان الله تعالى قد خلق الناس لكي يعيشوا في مجتمع
فقد جعل التعاطف والتجاوب قاعدة أساسية للحياة في مجتمع ، لذلك كان
الشر الذي يقتضيه الواحد يؤدي إلى إيذاء الآخرين كما أن الخير الذي يجاهد
في سبيله الأبرار يعم الباقين . ولقد تجلت هذه الحقيقة في تلك الفترة من
تاريخ مصر إذ أن ما قام بين الخلفاء ووزرائهم من صراع انعكس على حياة
الشعب بأكمله . وقد دفع هذا التنافس على السلطة ببعض الوزراء إلى قتل
الخلفاء لعلهم بذلك يكونون الأمرين الناهين ، فكان رد الفعل أن حرص
بعض الخلفاء على سلطانهم حرصاً أدى بهم إلى أن يبطشوا بوزرائهم متى
وجدوهم ذوي نفوذ . ومثل هذا النزاع بين أصحاب العرش وبين الأقوياء من
رجال الدولة أدى بدوره إلى قيام أحزاب بين الجند إذ كان البعض منهم
يناصر الخليفة بينما يناصر البعض الآخر الوزير ونتج عن انشغال الجند
بالقتال في سبيل هذا الخليفة أو ذلك الوزير اضطراب الأمن وانتشار القلق
والفوضى . وكان للقبط نصيب الأسد من هذا التوتر : فأضاع الموظفون منهم
مراكزهم وصودرت أملاك البعض منهم بينما لاقى فريق ثالث الموت ^(٣) .

(١) يقال أن هذا الدير مشيد مكان منزل مريم أم مرقس الرسول وكان أصلاً من أملاك
القبط .

(٢) قصة الاقباط في الأرض المقدسة ليعترى رزق ص ٢٤ ، ومن مخلفات هذا العهد
أيضاً عمودان محفوظان بالقاعة الرابعة بالدور الأول من المتحف القبطي . وهذان
العمودان يتوسطان القاعة أحدهما مصلع وحوله كتابة عربية هنا نصها : « عمل باسم
المعلم غبريال عهد المسيح في سنة ١١٣٩ عزه يدوم ونعمه لا تنقضي وبلغ ما تهوى
النفوس وترتضى وسعادة دائمة وفرح مخلص » . أما العمود الثاني فمزخرف بخطوط
متعرجة في أعلاه ويرسوم نباتية في أسفله - راجع مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة
ص ٩٠ .

(٣) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ج ٢ المبحث الثاني : « مصر
الاسلامية .. » لجاستون ليهيت ص ١٩٢

وقد زاد الطين بلة هجوم الصليبيين على بليس . لأن عامة الناس لم تدرك الفرق بين الغزاة وبين المسيحيين الوطنيين ، لأن الشارة التي كان يحملها هؤلاء الغزاة زوراً وبهتاناً كانت الصليب - والصليب هو أيضاً شارة المسيحيين من المصريين . فكان على هؤلاء المصريين الحاملين للصليب أن يدفعوا ثمن الغدر الذي أهداه الصليبيون الأجانب . وفي الوقت عينه كان هؤلاء الأجانب المستترون تحت شارة الصليب يفتكون بجميع المصريين من غير تفریق ^(١) . فكان أن القبط وقعوا بين شقي الرحى .

١٤٢ - وحدث في تلك الآونة العصبية أن اغتصب عرش الحبشة دخیل نفی الملك الشرعى . فوبخه المطران على سوء فعلته . واغتاط الغاصب لهذا التوبيخ فبعث إلى العادل وزير مصر برسالة ادعى فيها أن المطران داخله مس في عقله ، وطلب إليه أن يشير على البابا بعزله ورسامة مطران بدلاً منه . على أن البابا أحس في أعماق نفسه بهتان هذا القول فقال للوزير : « ليس في شريعتنا أن تولى انساناً رتبة من رتب الكهنوت ثم نعزله لغير سبب خطير » . فغضب العادل لهذه الاجابة وأمر بالقاء الأنبا يؤنس الخامس في السجن حيث ظل بضعة شهور ولم يحصل على الافراج إلا بعد مقتل العادل ^(٢) .

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٥٨

(٢) هذا ما ورد في معظم كتب التاريخ ، على أن هناك من روى هذه الواقعة بطريقة أخرى . فقد جاء في كتاب لباب الآداب لواضعه أسامة بن منقذ الكتاني ما يأتي : ولقد أذكرني قول الحكيم « إنما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب » . أمراً شهدته في مصر سنة ٥٤٧ هـ . وهو أن رسول ملك الحبشة وكتابه وصل إلى الملك العادل أبي الحسن على بن السلار رضى الله عنه يسأله أن يأمر البطرك بمصر أن يعزل بطرك الحبشة وتلك الهلاد كلها مردودة إلى نظر بطرك مصر فأمر العادل باحضار البطرك فحضر وأنا عنده فرأيت شيخاً نحيفاً مصفراً فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم اتحرف وجلس على دكة في الدار وأنفذ إليه يقول له ملك الحبشة قد شكاه من البطرك الذي يتولى بلاده وسألتني في التقدم اليك بعزله فقال يا مولاي ما وليته حتى اختبرته ورأيت به صلاح للناموس الذي هو فيه وما ظهر لي من أمره ما يوجب عزله ولا يسعني في ديني أن أعمل فيه بغير الواجب ولا يجوز لي أن أعزله فاعتاط الملك رحمه الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ إليه وأنا حاضر أيضاً يقول له لا بد من عزل هذا البطرك لأجل سؤال ملك الحبشة في ذلك فقال يا مولاي ما عندي جواب غير ما

١٤٣- وخلال كل هذا الاضطراب والقلق تهدم عدد من الكنائس وسرقت أوانيها . فما انتشعت هذه الغمة كان لا يزال في ديوان الخليفة قبطى واحد اسمه الأسعد صليب أخذ على عاتقه بناء الكنائس المتهدمة وترميم المتداعى منها وشراء الأواني اللازمة لها .

على أن فترة الهدوء كانت قصيرة الأمد لأن الوزير العباسى قتل الخليفة الظافر ثم زعم أنه يستطيع أن يستر فعلته هذه بإعلان الفائز بن الظافر خليفة . وكان الفائز يبلغ الخامسة من عمره فخیل للعباسى أنه سيحكم مصر إلى أن يبلغ الخليفة سن الرشد على الأقل . ولكن العباس أخطأ التقدير إذ لم يكن فى إمكانه أن يتمكن بجرى الحوادث قبل وقوعها . فآدى به خطأه إلى أن يلقى مصرعه بدوره . ذلك أنه حين ظن أن السلطة أصبحت فى يديه أخذ يقتل كل من حسبه منافساً له . وبعد أن يقتله يصادر أملاكه ويستبد بقومه . ثم زاد على ذلك بأن استولى على كل المحصولات الزراعية . وبهذا هو يستبد بالمصريين كان يناوش الصليبيين بحرب العصابات . وكان كأس المصري لم يطفح به الكيل إذ زاد عليها ما جرته مناوشات البحارة الصقليين على دمياط وتيس ورشيد والاسكندرية على الرغم من أن حكومتهم كانت عقدت اتفاقية تجارة مع مصر^(١) .

١٤٤- ثم حدث أيضاً أن الوزير العباس قمادى فى غيه فجمع حوله ألف جندى فأعملوا جميعهم النهب والسلب والتقتيل فى رجال البلاط ثم ساروا فى شوارع القاهرة فى زهو وخيلاء كأنما الدنيا قد دانت لهم . فثار أهالى القاهرة فى وجههم ثورة عارمة إلى حد أن النساء كن يرمينهم بالحجارة من النوافذ والشرقات . فتهدد فرسانه وهرب العباس من القاهرة قاصداً إلى سوريا ولكنه لقي مصرعه فى الطريق إذ كانت أخوات الخليفة القتيلى قد اتهمنه علناً أمام الجميع . ثم استنجدن بعد ذلك بالأمير طلائع بن رزق

= قلته لك وحكمك وقدرتك إنما على الجسم الضعيف الذى بين يديك أما دينى فمالك عليه سبيل والله ما أعزله ولو تالنى مكروه . فأقر الملك العادل رحمه الله باطلاله واعتذر إلى ملك الحبشة

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) .. لجاستون فيبى ص ١٩٤ . ١٩٥ . و تاريخ مصر فى العصور الوسطى « لستانلى لاین پول ص ١٧١-١٧٤ .

متولى الأشمونين وأقوى الأمراء بأساً . فجاء إلى القاهرة وتغلب على
فلول جند العباس وأعاد الاستقرار والهدوء إلى المدينة الثائرة .

١٤٥- ويبدو أن كل أعمال العنف هذه قد ملأت قلب الأنبا يونس
الخامس حسرة وأسى لأنه كان مرهف الحساسية إلى حد بعيد . وقد طغت
عليه هذه الحسرة فأقضت مضطجعه وأنهكت قواه . فلم يلبث أن استودع
روحه يدى الآب السماوى . وكان حزن الشعب عليه عميقاً زادت الأحداث
المفزعة المسيطرة على البلاد حدة إذ قد أضافت إلى مخاوفهم وقلقهم الحزن
والتوجع . وقد دفنه المؤمنون فى كنيسة أبى سيفين بجوار الأنبا غبريال
سلفه المباشر إلى أن نقلهما الأنبا مرقس الثالث إلى برية شيهيت التى امتزج
أديمها بأجساد القديسين منذ قرون . وقد قاد دفن الكنيسة وسط الأحوال
والمفازع مدة ثمانى عشرة سنة وعشرة شهور .



ب - عالم نادر

١٤٦- راهب مكرس

١٤٧- خلاصة مؤلفاته .

١٤٦ - صحيح أن المشتغلين بالعلم أو الأدب في حاجة ماسة إلى الهدوء ، والطمأنينة ، ولكن سجلات الكنيسة لهذه الفترة قد حفظت لنا اسم رجل من كبار البحاثة كما حفظت لنا مؤلفاته لحسن الحظ، ولا ندرى - فقد يكون له أكفاء من معاصريه تركوا ثمار أبحاثهم أملاً في أن تجتنيها الأجيال الآتية من بعدهم . ولكن السجلات لم تحفظ مؤلفاتهم ، أو قد يكون السبب في عدم وصولها إلينا هو شهوة التخريب التي تستحوذ أحياناً على الناس فتدفعهم إلى أن يبطشوا ببعضهم البعض أو يحرقوا آثار بعضهم البعض . أما صديقنا الذي لم تمتد يد الحدثان إلى أعماله فهو راهب اسمه سمعان ابن كليل بن أبي الفرج - قضى حياته في دير الأنبا يونس القصير . وانصرف إلى البحث والتأمل وإلى دراسة الأسفار الإلهية .

١٤٧- وإحساسه بالمسئولية أراد أن يقدم لاختوته خلاصة لكل أبحاثه ، وتأملاته ، ودراساته ، فوضع تفسيراً لبشارة متى الرسول ^(١) . ثم وضع كتاباً أسماه « روضة الفريد وسلوة الوحيد » ، قال في مقدمته : « حين أدركت نفسي الحقيرة أن نهايتي قد قربت ورحيلتي عن هذا العالم وشيك الحدوث ، قررت وضع كتاب يتضمن اختباراتنا وثمار أبحاثنا . وإذا ذاك وضعت كل اتكالي على الله فأدركت أنني بلغت الهدف مقدماً . أما هدفي فيتلخص في تعزية الحزين وإرشاد الضال إلى طريق البر ، وبعد هذه المقدمة القصيرة قسم ابن كليل كتابه إلى اثني عشر فصلاً كالآتي :

(١) الغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها - فهو جل اسمه لم يخلق الإنسان عبثاً وإنما خلقه لغرض نبيل فخلقته منتصباً لكي يرفع عينيه نحو السماء - ويقترب إلى خالقه وينال نعمته وبركاته . ولما كان الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله (تكوين ١ : ٢٦-٢٧) وجب عليه أن يسعى نحو الكمال ليكون أهلاً لأن يقترب من الله ويرث ملكوته .

(١) سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سمكة ويسى عيد المسيح رقم ٣١ . ٣٦ . ٣٧ لاهوت .

(٢) الإيمان بالله - يمتدح الكاتب الانسان الذى يتصف بالشجاعة الأدبية فيعترف بمبادئه دون تردد . ثم يوضح بعد ذلك الإيمان الأرثوذكسى الذى تتمسك به الكنيسة القبطية .

(٣) التقوى وخوف الله - هنا ينصح الكاتب بوجوب المداومة على قراءة الانجيل وغيره من أسفار الكتاب المقدس . ثم يصف الحرية التى يتمتع بها كل من يعرف امكانياته بما فيها من قوة وضعف . ويختتم الفصل بقوله أن الرجل الذى يخاف الله أشبه بواحة زاهرة وسط صحراء قاحلة ، أو كالنجم فى ليلة مظلمة .

(٤) الصلاة - ويعرفها بأنها غذاء القلب والدرع الواقى الذى يحمى الانسان من سهام العدو النارية .

(٥) الصوم - إن أول وصية أمر الله الانسان بحفظها هى الصوم إذ قال لآدم « من شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل » تك ٢ : ١٧ . ويدعم ابن كليل أهمية الصوم بسرده عدداً من الوقائع التى لحجا فيها الناس من الأخطار المحيطة بهم بقوة الصوم والصلاة . ويختتم حديثه هذا بقوله إن الانسان الذى لا يقرن صومه وصلواته بأعمال الخير لا يدخل ملكوت السماوات .

(٦) الصبر - إن هذه الفضيلة لها قيمة عظمى لأنها الأساس الذى تقوم عليه بقية الفضائل وبها يقتنى الانسان نفسه كما قال رب المجد (لوقا ١٩: ٢١) .

(٧) المحبة والعطاء - إن المحبة هى أعظم وصية وبها يكمل الناموس والأنبياء (مت ٢٢: ٣٧-٤٠) . والمحبة الحقيقية تؤدى إلى العمل لأن الانسان الذى يحب أن يخدم أحبائه . أما العطاء فلا يقدم عن رضى وفى الخفاء فحسب بل يجب على المعطى أن يستشف حاجات إخوته ويسدها مقدماً حتى يوفر عليهم مذلة السؤال .

(٨) العفاف - إن الانسان الذى يرغب فى أن يتحكم فى نفسه ، حقاً عليه أن يحترس من الخطايا الموصوفة بالصغيرة . فكأس من الخمر قد لا تضر فى حد ذاتها ، ولكنها قد تؤدى إلى الرغبة فى ثانية وثالثة إلى أن يصبح الادمان عادة يصعب التغلب عليه . فتسيطر الخمر على مدمنها وتجعل منه عبداً ذليلاً . لذلك يجب الاحتراس من الخطايا الصغيرة .

٩) التواضع والهروب من الغرور - بما أن الله تعالى هو أبو الناس جميعاً كانوا إخوة ، ولكل منهم نفس عاقلة ثمينة أمام هذا الآب السماوى الرؤوف وأمام الإبن الكلمة الذى تنازل وتجسد من أجلها . فلا داعى لأن يتشامخ إنسان على آخر مادام رب المجد قد قدم نفسه أسمى قدوة للتواضع.

١٠) المغفرة - أعطى موسى التاموس القاتل عين بعين ، أما السيد المسيح فقد أعطانا تاموس المغفرة إلى أبعد الحدود إذ قال له المجد « أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطغدونكم » مت ٥ : ٤٣-٤٥ .

١١) القناعة - لما كانت حياة الانسان على هذه الأرض عابرة ، وكل أمجادها وأفراحها سراياً ، وجب على كل من يبغي الكمال أن يدرّب نفسه على القناعة . لأن من يرغب فى أمجاد العالم هو عبد لهذه الرغبة ولم يبلغ الحرية بعد .

١٢) الصيت الحسن - إن هذه الفضيلة لا يبلقها إلا من يداوم على قراءة الكتاب المقدس ويعمل بما فيه . ويجب عليه أن يذكر نفسه بأنه يستطيع أن يزرع ما يشاء ولكنه سيحصد بالحزن إن هو لم يزرع بالحكمة . ولما كان للأصدقاء أثر بعيد على الانسان وجب عليه اختيارهم بحرص شديد ومجانبة المستهترين لئلا يصبح مثلهم ، كذلك عليه أن يتجنب شرب الخمر لأنه إن شربه فى السر فرائحته ستفضحه وخير ما يتحلى به الانسان هو العلم ، فعلى كل من رام الكمال أن يفترق منه ما استطاع .

هذا ملخص ما قدمه ابن كليل للمؤمنين جميعاً ، ولا يزال كتابه هذا طى النسيان إذ قد طبع مرة واحدة ^(١) .

وليس ذلك فحسب بل إن ترجمة هذا المرشد الروحى غير معروفة ، فهو أيضاً جندى من كتيبة الجنود المجهولين .



(١) ورد فى آخر هذه الطبعة ما نصه : تم طبع هذا الكتاب المبارك بالمطبعة الوطنية يوم الخميس ٩ أبيب سنة ١٦٠٢ للشهداء الأطهار وعلى الله حسن الختام . تم

ج - الأنبا مرقس الثالث

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| ١٤٨- اختلال الأمن فى الوادى الأمين | ١٥٩- ومضة وسط الظلام والمول |
| ١٤٩- انتخاب البابا الثالث والسبعين | ١٦٠- إرتداد وتخريب |
| ١٥٠- استيلاء نور الدين على دمشق | ١٦١- جهود الخليفة المرقسى |
| ١٥١- محاولات فاشلة | ١٦٢- انتصار صلاح الدين على القلوب |
| ١٥٢- خيانة شاور و غصبة شيركوه | ١٦٣- نهاية الفاطميين بموت العاضد |
| ١٥٣- جلاية مصر تسبب الآلام لابنائها | ١٦٤- بناء القلعة |
| ١٥٤- مقابلة كلهاروغة | ١٦٥- القضاء على المتأمرين والانتصار |
| ١٥٥- تحالف شاور مع الفرنجة | الساحق |
| ١٥٦- خيانة مزدوجة | ١٦٦- الرخاء والطمانينة |
| ١٥٧- انتصار شيركوه وصلاح الدين | ١٦٧- اقرار الحق |
| ١٥٨- بسالة بعض الكهنة | |

١٤٨- كانت مصر فى ذلك العهد فريسة للوزراء الطامعين فى الحكم والخلفاء المستضعفين : فكانت القوى المسيطة هى الحسد والتحزب والدسائس والوشايات فأضحت شوارع القاهرة أشبه بميادين القتال منها بطرقات عامة ، لأن رجال الجيش كانوا حزبين : أحدهما موال للخليفة وثانيهما موال لوزيره . فإذا ما تقابل الحزبان على قارعة الطريق تقاتلا على مرأى من المارة . وقد أدى هذا التحزب إلى الفوضى والاضطراب فانتشر اللصوص وقطاع الطريق فى طول البلاد وعرضها ، ولم يعد فى الوادى الأمين انسان يشعر بالطمانينة . وقد ضاعف هذا الاضطراب تربع الجيوش الصليبية والتركية بالبلاد المصرية .

١٤٩- وفى وسط هذه الأحوال انتقل الأنبا يؤنس الخامس إلى الأندلس السماوية . وإدرك الأساقفة والأراخنة أن ما يحيق بالبلاد من ضيق وعناء يستلزم الاسراع فى انتخاب الراعى الأعلى للكنيسة لأن الشعب المضطرب سيشعر بالطمانينة إن هو وجد أباً حنوناً يفرج إليه فى الملهمات ، كالطفل المذعور لا يشعر بالهدوء إلا إذا ارتقى على صدر أبيه (أو أمه) رغم عدم زوال الخطر . ولقد ألهم الأب السماوى المستولين - من أساقفة وأراخنة - إلى الاجماع على الشماس أبى الفرج ابن أبى السعد حتى لا تتفرق كلمتهم

ويضيع الوقت فى النقاش حول هذا أو ذاك - وكان أبو الفرج هذا - مع كونه تاجراً يعيش فى العالم - ناسكاً متبتلاً معروفاً لدى الجميع بفضلته حتى لقد وصفوه بأنه ذو همة ومروءة ، عاقل ، رزين ، حازم يحسن السياسة والتدبير كما أنه جليل مهيب نافذ الكلمة ^(١) . فتمت رسامته سنة ١١٥٧م باسم مرقس الثالث إذ قد اختار له الأساقفة هذا الاسم تيمناً بالكاروز المحبوب الذى أصبح هذا البابا الخليفة الثالث والسبعين فى سلسلة خلفائه .

وما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وركب مركباً سارت به فوق النهر الخالد لترسو هنا وهناك فيتزل الأنبا مرقس الثالث منها ليتفقد شعبه المضنى ويعزى القلوب الكسيرة ، فكانت رحلة كلها بركة إذ امتلأت القلوب هزاء وشعوراً بالاستقرار رغم التآرجح الخارجى .

١٥- وبينما كان الأمراء فى مصر يتطاحنون ، لنجح نور الدين فى الاستيلاء على دمشق وفى الاستئثار بلقب « حامى حمى الاسلام » . فكان لزاماً عليه - والحالة هذه - أن لايتحالف مع القوات المصرية الخاضعة لخليفة شىحى ، كما كان لزاماً عليه أن يقاتل الفرنجة (الصليبيين) . وكان هؤلاء يخشون بأسه فلم يجسروا على غزو مصر وهو قريب منهم لئلا يهاجمهم من الخلف على الرغم من أنهم كانوا ، أصحاب القدس وكانوا متلهفين على الاستيلاء على مصر ^(٢) .

١٥١- وكان طلائع بن رزق - وزير مصر يرغب رغبة أكيدة فى التحالف مع نور الدين إذ كان متيقناً من أن مثل هذه التحالفه هى أضمن وسيلة للقضاء على الصليبيين . وقد اختار الشاعر أسامة ليكون مندوبه - ومع أن هذا الشاعر كان ذائع الصيت وقد تقدم إلى نور الدين بقصيدة عصماء فقد فشل فى مهمته تماماً إذ تكسرت أبياته على آذان صماء . ولم تضع هذه القصيدة فحسب ، بل أن انتصار الجيش المصرى على الفرنجة فى غزة لم يكن له من أثر اطلاقاً . ولم يياس رزق فجمع مجموعة من قصائده

(١) الخطط للمقريزى ج٢ ص ٤٩٦ ، « الكافى فى تاريخ مصر الحديث والقديم »

لميخائيل شاروويم ج٢ ص ٣٨٦

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) الستائلى لايڤن پول ص ١٧٤ .

الحربية وأرسلها هدية إلى نور الدين . وللمرة الثالثة فشل فشلاً ذريعاً .

١٥٢- وفى سنة ١١٦٠ انتقل الفائز (الخليفة الصورى) إلى رحمة مولاه وهو فى الحادية عشرة من عمره فتولى ابن عمه العاضد لدين الله الخلافة من بعده . وما أن اعتلى العاضد العرش حتى اغتيل رزق وأعلن شاور والى الصعيد الحرب على ابن رزق وانتصر عليه فأقام نفسه والياً على القاهرة . وبعد شهور قليلة تغلب ضرغام (وهو وال آخر) على شاور الذى لجأ إلى بلاط نور الدين خوفاً على حياته ، وهناك وعد نور الدين بثلاث خراج مصر إن هو ناصره . ونجح المال حيث فشل الشعر والأدب لأن حاكم دمشق الذى رفض كل عروض رزق رضى بالتعاون مع شاور فأرسل معه جيشاً بقيادة شيركوه والتقى بالجيش المصرى عند تل بسطة (بالشرقية) وانتصر عليه فاستعاد شاور السلطة . على أنه حين وصل إلى الحكم خان عهده مع نور الدين فبعث برسوله إلى أمالريك ملك الفرنجة المتولى أمر القدس يستنهضه لمحاربة نور الدين . فزحف أمالريك على مصر لمناصرة شاور واضطر شيركوه إلى العودة إلى سوريا . على أن شيركوه لم يكن بالرجل الذى يرضى بالهزيمة أو يفض الطرف عن الخيانة فاستفزه فشله واستثار فيه رغبة جامحة فى الاستيلاء على مصر فظل يلح على نور الدين بأن يرسله على رأس حملة ضد الجيش المصرى . ولم يفلح شيركوه فى بادئ الأمر ، ولكن لما سمع نور الدين بقيام تحالف بين شاور وأمالريك رأى أن الوقت قد حان للهجوم على مصر .

١٥٣- وكان سباق للاستيلاء على الوادى العتيق ، وعادت المأساة التى مثلت مراراً وتكراراً : فقد رابط أمالريك وجيشه فى القسطنطينية على الضفة الشرقية من النيل بينما رابط شيركوه وجنده عند الجيزة على الضفة الغربية منه ، فحق للمصريين أن يقولوا : ما أشبه الليلة بالبارحة - فكم من غزاة وقفوا هذه الوقفة على ضفتى النهر الخالد ، لقد تغير القواد وجنودهم أما الفريسة فهى هى . إنها الأرض المقدسة أرض النيل العريق . فقد كان لاسم مصر (ولا يزال) رنين خلاب طالما تسبب فى أن تفيض قلوب أبنائها بالوجع والحسرة . فكم من مرة عدا عليها المغيرون فداوسوا بأقدامهم الغليظة هذه الأرض الوادعة وأرووها - رغماً منها - بدم أبنائها وساموهم الخسف والعذاب . وفى تلك الفترات المألقة سكنت فى مصرنا الحبيبة أصوات المرح

والنشيد وحلت محلها التأوهات والأثين . وانطوى الشعب على ألمه يتأمل
الباطش الفاصب ويتحمل فى صمت غدره وقسوته إلى أن تحين ساعة
النجاة . وهذا الصبر الذى امتاز به المصريون مقترناً بإيمانهم الذى لا يتزعزع
فى الله تعالى هو سر إنتصارهم المرة بعد المرة على كل من أغاروا عليهم ،
وهو سر عميق لا يدرك كهنه الساخرون .

١٥٤- وأدرك شاور خطورة موقفه فسمى بكل ما لديه من حيلة ودهاء
إلى استماله الفرنجة لمناصرته . وأدرك الفرنجة بدورهم أنه إنما يخطب ودهم
ليحتفى خلفهم فتشددوا فى مطالبهم مشترطين عليه أن يعطيهم مائتى
ألف دينار ومائتى ألف أخرى عند انتصارهم . ثم تقدموا بطلب لم يكن فى
الحسبان : فقد صافح الملك أمالريك مندوبى الخليفة بيده قطاب بأن يعطى
مندوبوه بمصافحة الخليفة ، ولم يكن هذا الطلب بالأمر الهين لأن الخلفاء
الفاطميين كانوا قد اعتادوا أن يحيطوا أنفسهم بستار من الغموض والحناء
إلى حد أن عدد المسلمين الذين حظوا برؤياهم كان ضئيلاً - فكيف ومطالبو
المقابلة من الفرنجة ؟ وكان طلب أمالريك معناه أن العاهل الخفى المتعالى
الذى لم يسمح لغالبية رعاياه بمقابلته سيسمح بأن يظهر أمام أغراب عنه
ديناً ووطناً ، وفشلت المحاولات الأولى ولكن أمالريك أصر على أن ينال
حقه . ولم يكن شاور فى مركز يسمح له بالرفض إذ لم يكن أمامه إلا أن
يختار بين التسليم بهذا المطلب أو الوقوع فى يدى نور الدين . فرضخ
للفرنجة وأشرف بنفسه على ترتيب المقابلة بين الخليفة ومندوبى أمالريك
وهما : هيو حاكم قيصرية وجيوفرى فولشر . « فاقتهما داخل عمارات سرية ،
ومرا خلف أبواب تغطيها الستائر ويقف أمامها الحراس شاهرى السلاح ، ثم
وصلا إلى فناء فسيح فى الهواء الطلق تحيط به أروقة ذات أعمدة مرمرية
وسقوف مزخرفة وموشاة بآل الذهب والألوان الرائعة ، بينما كانت أرضها من
الموزايكو البديع الصنع . وحملق الغريبان فى كل مظاهر البذخ والجمال وقد
امتلات نفساهما ذهولاً إذ لم يعتادوا رؤية هذا الذوق الفنى الرفيع وهذا
الترف المتناهى . وكانت كل خطوة يخطوانها بها تكشف لهما عن مظاهر
جديدة من آيات الفن والرفاهية : فهنا فسقيات مرمرية تتغنى حواليتها
الطيور من سكان المناطق الحارة والمعتدلة وهى ذات أصوات رخيمة وألوان

آية فى التنسيق . وهناك فى ركن ثان مجموعة من الحيوانات قد يبتدعها
فنان عبقرى أو يصفها شاعر موهوب أو يحلم بها عقل ذو خيال مرهف ^(١) .

١٥٥- وبعد السير من عمر إلى آخر ومن دهليز إلى ثان ومن بهو إلى
بهو وصل المتدويان فى النهاية إلى قاعة العرش التى فاق جمالها كل
خيال ^(٢) ، وحظيا بمصافحة الخليفة ويتوقيع المعاهدة فى حضرته . وعلى
أثر ذلك بدأت المعركة ضد قوات نور الدين التى كانت تحت قيادة شيركوه .
وكانت الموقعة الأولى فى منطقة المنيا (فى الصعيد الأوسط) . وانتصر
جيش شيركوه ولكن الانتصار لم يكن حاسماً . وفى هذه المعركة ظهر صلاح
الدين للمرة الأولى فى تاريخ مصر . وقد أبدى فى هذه المعركة الأولى تلك
البسالة التى تميز بها حتى آخر حياته . ولم يتراجع الفرنجة بل استمروا
يقاتلون فى عناد حتى اضطروا شيركوه إلى الانسحاب إلى سوريا للمرة
الثانية .

١٥٦- وتنفس شاور الصعداء ، ووجد الفرصة سانحة لينكث عهده مرة
أخرى وبخاصة لأن الفرنجة بدورهم نكثوا عهدهم . فإنهم لم يكتفوا بما
فرضوه من مال بل طالبوا بمئة ألف دينار علاوة عليه . ثم أصروا على أن
يقيموا من جنودهم حراساً على أبواب القسطنطين . فلما أعلن شاور رفضه
زحفوا على مصر من جديد ولكنهم كانوا فى هذه المرة خسرماً لا حلفاء .
وقاد أماليك الجيش بنفسه وما كاد يدخل بلبس حتى أضاف الجريمة إلى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص. ١٨
(٢) روى الدكتور عبد الرحمن زكى هذه المقابلة وصفاً تفصيلياً وانتهى منها بقوله :
وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يظن - الخليفة - وفاق هذا القصر كل ما رأوه من
قبل ... وأدخل المبعوثون الى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب
والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت
تلمع بما عليها من الباقوت والزمرد والأحجار النفيسة ... وارتفعت الجبال فجأة وانكشفت
الستارة المبرية الذهبية بسرعة البصر كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل
(السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه
تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة - راجع كتابه
« القاهرة : تاريخها وآثارها » (من جواهر القائد الى المهرتى المؤرخ) ص ٢٠-٢١ .

الخيانة . فقد أعمل رجاله سيوفهم فى رقاب أهلها وأبادوهم عن بكرة أبيهم : فلم يحترموا سناً ولا جنساً ولم يفرقوا بين مسيحي ومسلم . وراقب شاور ما اقتربوا من قطائع ووجدهم منتصرين على طول الخط ، فأمر بإشعال النار فى القسطنطينية كى لا يحتسب الفرنجة فيها ورابط هو وعسكره فى القاهرة . وكانت القسطنطينية أهلة بالسكان كما أنها كانت العاصمة مدى ثلاثة قرون . وحين رآها المصريون مشتعلة بالنار امتلأت قلوبهم غيظاً . وتضاعف غيظهم أضعافاً إذ استمرت النار مشتعلة أربعة وخمسين يوماً . وذكرتهم النيران بالخيانة المزدوجة : خيانة شاور وخيانة الفرنجة وأدركوا أن مدينتهم ذهبت ضحية لهذه الخيانة المزدوجة فانضموا بمجموعهم إلى شيركوه . هل إن الخليفة العاضد أدرك معهم هذه الحقيقة المرة فبعث برسوله يستنجد بنور الدين الذى استجاب هذه المرة على الفور ^(١) .

١٥٧ - وأصيب الفرنجة بانكسار مربع عند أسوار دمياط ، وأصاب شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سلسلة من الانتصارات ودخلا القسطنطينية بجنودهم فأبادوا شاور ورجاله وقضوا على الحرس السودانى المرابط داخل قصر الخليفة فى يومين اثنين فقط ^(٢) .

١٥٨ - وكان حريق القسطنطينية ضربة قاصمة للقبط : فقد كان الكثيرون منهم يعيشون فيها ويمتلكون بيوتهم ، كما كان حصن باهلون يضم أقدم كنائسهم وأعظمها . وما يجدر تسجيله بالاعتزاز هو أن بعض الكهنة رفضوا أن يغادروا المدينة وصمموا على البقاء إلى جانب كنائسهم لعلهم يستطيعون حمايتها أو يموتون داخلها . وقد تجلت مراحم الله فى هؤلاء الكهنة البواسل إذ سلمت ست كنائس من الحريق تماماً ^(٣) .

(١) تاريخ مصر ... لستانلى لاين بول ص ١٨١ - ١٨٢ ، « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ص ١٩٦ - ١٩٧ ، « تاريخ الأمة المصرية ... » (بالفرنسية) ص ٢٩١ - ٢٩٧ .

(٢) « تاريخ الأمة المصرية ... » ص ٢٠١ حيث يشهد باندحار الفرنجة اذ يقول : " Les Francs furent reduits à Solliciter une paix que l'on accorda bien Volontiers; ils durent payer une forte indemnité, et evacuer sans delai le territoire Egyptien " وترجمته ما يلى « اضطر الفرنج الى طلب الصلح الذى قبول بالرضى ، وألزموا بدفع تعويض بالغ وبإخلاء الأراضى المصرية على الفور » .

(٣) تاريخ الكنيست القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

وكانت كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) ضمن الكنائس الست التي سلمت من الحريق . وكان بها آنذاك مكتبة ثمينة بها الكثير من كنوز الفكر . وحدث أن قام جدال حول موعد عيد القيامة فلبأ العلماء إلى الكتب الموجودة بتلك المكتبة ودرسوها فاقتنعوا بأن الحساب القبطي هو الحساب الصحيح ^(١) .

١٥٩ - على أن حريق القسطنطين لم يكن غير نذير بشر مستطير إذ قد صب شيركوه غضبه الذي شعر به نحو الصليبيين على القبط . فلم يجد أمامه من يكفر عن سيئات حاملي الصليب زوراً وبهتاناً غير حاملي الصليب الأمنين من أهل هذا الوادي العريق . فاستشهد منهم عدد كبير وأحرقت كنائس كثيرة وتضاعفت الجزية . ورأى بعض قبط الصعيد أن يطلبوا إلى العرب المقيمين بينهم حمايتهم وتجنبهم الاضطهاد أو الموت مقابل معاملتهم كعبيد . لقد كانت فترة حالكة الظلام مليئة بالأهوال .

ورغم الظلام والأهوال كان هناك وميض من النور - هذا النور الذي استمر يسطع كالخط الذهبي المعلن عن وجود الشمس خلف السحب المتكاثفة . فقد كان في هذه الفترة أرغن من الأراخنة اسمه الاسعد صليبي بن ميخائيل المعروف بابن الايغومانس مشهوراً له بالعلم ومحبة العلماء كما كان متعلقاً بالكنيسة في صدق وولاء . فلما انطفأت النيران التي كان شاور قد أشعلها في القسطنطين قام هذا الأرغن بتجديد كنيسة مارمينا وألحق بها مدرسة ومنتدى يجتمع به رجال العلم والأدب للتباحث والتناظر . وقد كتب رسالة عن أسرار الكنيسة محفوظة الآن بدار الكتب بلتينجراد (في روسيا) وأشار إليها أحد المستشرقين الروس في كتاباته ^(٢) .

١٦٠ - وكان هناك رجل قبطي من أهالي أسيوط اسمه زكريا بن أبي المليح بن مائى منحه الله المقدرة على كتابة الشعر السلس العذب . فبعث بقصيدة من روائعه إلى شيركوه يستعطفه ليخفف الرطة على القبط .

(١) مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة ص ٢٦ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج ١ ص ٣٧ - ويلاحظ أن مدينة ليتنجراد تحول اسمها إلى ستالينجراد ثم إلى موسكو .

ولكن شيركوه كان رجل سيف لا يهزه القلم ، فلم يعبأ بهرجاء زكريا رغم أنه فى قالب شعرى جميل . بل إنه ليبدو أن هذا الاستعطاف أحدث فى نفس شيركوه أثراً عكسياً فضاعف تنكيله بالقبض بدلاً من أن يخففه . ولم يحتمل زكريا هذه المحنة المتزايدة فخاف عهد آباءه بأن أنكر دينه واعتنق الاسلام وفى الحال عينه شيركوه ناظراً للدواوين ^(١) . وقد ساعدته هذه الوظيفة التى استمر يشغلها أثناء حكم صلاح الدين والتى أورثها لابنه من بعده - ساعدته على أن يكتب كتاباً بعنوان « قوانين الدواوين » صور لنا فيه أوامرالدولة المصرية إذ ذاك ، كما ضمنه وصفاً دقيقاً للسفن التى كان يتألف منها الأسطول المصرى فى ذلك العصر . فأوضح بدقة وصفه مدى اهتمام صلاح الدين بالأسطول كما أوضح عناية الصناع المصريين بانتاج السفن المطلوبة منهم ^(٢) . وفى الكتاب عينه تحدث عن بعض المنشآت فى مختلف البلاد المصرية فذكر ضمن ما ذكر « دير العسل » من أعمال الأشمونين وكان هذا الدير يقع على ضفة النيل ويشغل مساحة كبيرة . تتوسطه كنيسة باسم مارجرجس تحيط بها قلالي النساك . ولقد غرس الآباء كرمًا فى مزرعته كما بنوا إلى جانبها معصرة حجرية لعصر قصب السكر . ولهذا السبب سمى الدير « دير العسل » ^(٣) .

أما ابن ممائي فقد توفى فى حلب ^(٤) . على أنه كان هناك من أثر

-
- (١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٠ - ١٦٢ .
- (٢) راجع كتاب « الفن الاسلامى » د.ى المصر الأيوبي « للدكتور عبد العزيز مرزوق ص ١٣ و ١٩ - ٢٠ .
- (٣) اقليم المنيا فى العصر القبطى للقمص ميخائيل بحر نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٦ - ويورد الكاتب أيضاً ما جاء فى دائرة المعارف القبطية عن هذا الدير وهو أنه كان محصناً وبه جوسقان . كذلك نقل عن أبى المكارم حديثه عن الأتيا سيمون وهو : « كان من رهبان دير العسل ورسم أسقفاً للدير . وكان عاهداً زاهداً مشهوراً بالصلاح فاستفاد منه الرهبان وأقبل الناس على تعاليمه » .
- (٤) ذكر الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه « القاهرة » تاريخها وآثارها على ص ١٣٩ هذا الكاتب وقال عنه فى هامش الصفحة عينها ما يلى « هو أبو المكارم أسعد بن المذهب المصرى القبطى الأصل ... » . وراجع ترجمته فى المقيزى ج ٢ ص ١٦٠ . وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية الملكية بإشارة الأمير عمر طوسون - وراجعته وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية سنة ١٩٤٣ .

الموت بل فضل أن يتحمل العذاب على انكار دينه فقد جبن الشاعر زكريا وتراجع أمام سطر الجند على حرمة الأديرة مع أنه لم يكن من ساكنيها . ولكن المعتدين على ساكني بيرة شيهيت اصطدموا بعزيمة الراهب شنوقا الذي كانوا قد خطفوه من دير الأنبا مكارى الكبير وهددوه بالقتل إن لم ينكر دينه . فواجه تهديداتهم ببسالة أجداده وانتهى به الأمر إلى أن نال إكليل الشهادة كما نالوه .

وفى تلك الفترة الحالكة صدر الأمر بهدم كاتدرائية مارمرقس بالاسكندرية التى كانت تطل وقتذاك على الميناء بحجة أنها ضخمة منيعة قد يجد فيها الصليبيون قلعة يحتمون فيها إن هم تمكنوا من دخول المدينة ^(١) .

كذلك قامت حملة تأديبية على النوبة بتخريب واسع النطاق شمل دير القديس سمعان بأسوان وكنيسة ابريم بالنوبة ، وسبى أهالى تلك المنطقة وعلى رأسهم الأسقف القبطى وسيقوا جميعاً إلى سوق النخاسة . وعم التخريب مدينة قفط أيضاً وتساوت بالأرض فلم تعد لها قائمة مذاك ^(٢) .

١٦١ - ولكن - ما الذى كان يفعله خليفة مارمرقس خلال هذه الظلمة الحالكة ؟ أنه - حين تأمل شعبه المتوجع المتألم - لم يجد أمامه غير سبيلين : أولهما الصوم والصلاة وثانيهما تفقد الشعب المعبود . فابتهج هذين السبيلين معاً واستطاع بهما أن يثبت أولاده على الإيمان ويحصنهم ضد العذاب .

ولقد استجاب الآب السماوى ضراعة الأنبا مرقس الثالث ونظر إلى دموعه وإلى أصوامه غير المنقطعة لأنه تعالى لا ينسى تعب المحبة .

(١) كان الأنبا أغاثون (البابا الـ ٢٩) قد بناها سنة ٦٦٢ م إبان الفتح العربى وكانت بالفعل آية فى الضخامة والقن . ولقد سعى القبط إلى أنقاذاها وعرضوا أن يدفعوا (٢٠٠٠) ألفى دينار فى سبيلها ولكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح .

(٢) حينما قام علماء الآثار بعملية انتقاذ آثار النوبة قبيل بناء السد العالى عثروا خلال حفرياتهم على بقايا كنيسة ابريم كما عثروا على عدد من الكنائس بعضها أطلال وبعضها يكاد يكون سليماً .

راجع أيضاً كتاب عزيز سوربال عطية عن « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية) ص ٩٥ .

فانقضى بموته عهد شيركوه بعد شهرين من انتصاراته إذ قد انتقل فجأة إلى الدار الباقية . فانقضى بموته عهد الظلم والظلام وتولى صلاح الدين الوزارة تحت الحكم الصورى للخليفة العاضد .

١٦٢ - وكان صلاح الدين اسماً على مسمى : فقد بدأ معه عهد من الاستقرار والعدالة فأنصف جميع المصريين على السواء . وقد ازدانت عدالته بالكرم والسماحة فأجبه المصريون حباً جماً وأخلصوا له الولاء . وكان انتصاره على القلوب حاسماً . وفى هذه الفترة فاضت موجة الأخوة والرخاء فمسحت التوتر والعوز وانسجم ميزان المجتمع المصرى انسجام النيل بما يتناوبه من فيض وانحسار . ولقد عبر القبط عن عرفانهم بالجميل لهذا التغيير بما كتبوه فى مخطوطات ذلك العصر إذ تقرأ هذه العبارات : « ولم تنزل الأمور تتوطأ بصلاة هذا الأب القديس الطاهر أنبا مرقس وهو يجاهد على شعبه إلى أن أصلح الله لهم قلب السلطان فقربهم وأدناهم واستخدمهم فى ديوانه وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه .. وصار لهم جاهاً ونفاذ كلمة وعزاً . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات فتمت أرزاقهم وصلحت أمورهم وانشرحت صدورهم وأخذوا الإذن من السلطان بعمارة ما هدم من البيع وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم المحسن إليهم . وعادت الأمور إلى أوفى مما كانت عليه » (١) .

١٦٣ - وفى سبتمبر سنة ١١٧١ انتقل العاضد إلى رحمة مولاة فى غفلة وانزواء فكان موته سبباً من الأسباب العديدة التى دعمت سلطان صلاح الدين الذى تسلم الحكم من غير منازع . وقد رأى أن يدع أقرباء الخليفة الراحل يعيشون فى بلذخ وترف دون أن يكون لهم رأى أو صوت فى سياسة الدولة - أى أنه وضعهم فى قفص ذهبى جميل . أما كنوز العاضد فقد وزعها صلاح الدين على المجموعة الجديدة من الرجال الذين انتخبهم لمعاونته فى القيام بأعباء الحكم ، وكانت مكتبة الفاطميين تحوى إذ ذاك مئة وعشرين ألفاً من المخطوطات وهبها للفقير القاضى الفاضل . وفى الوقت عينه رفض صلاح الدين أن يعيش فى قصر الفاطميين لأن ما يحويه من مظاهر الأبهة والترف يتضارب مع ما كان يمتاز هو به من بساطة .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى الهرموسى عن النسخة

المحفوطة بديره ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

ولقد اتخذ صلاح الدين لنفسه كاتباً خاصاً من عائلة قبطية كريمة هي عائلة شرافى . وكان أبوه من كبار رجال ديوان الخليفة العاضد واسمه أبو المعالى . فلما وثق به صلاح الدين وأمنه على سره . منحه لقب الشرف والرئاسة فصار معروفاً باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى . ولقد ظل يخدم صلاح الدين إلى يوم وفاته ^(١) .

١٦٤ - ولقد استطاع صلاح الدين بما حباه الله من مؤاهب نادرة أن يصبح الزعيم الأول للمسلمين فى الشرق الأوسط فامتد سلطانه من آسيا الصغرى شمالاً إلى ما بين النهرين شرقاً . ورغم هذا السلطان المتزايد فقد ظل محتفظاً بعذالته ونزاهته وبساطة معيشته .

وألقى نظرة النسر حوله فرأى أن يبني قلعة فوق الرهوة الغربية لجبل المقطم واختار لتنفيذ رغبته مهندسين قبطيين هما أبو منصور وأبو مشكور لبنيناها له ^(٢) . ولما تم بناؤها أصبحت المقر الرسمى للحكومة وأطلق عليها اسم « قصر الجبل » . فكان منظرها يملأ النفس رهبة فيردع كل من تشول له نفسه بأن يتمرد أو يعتدى وقد استمرت القلعة المقر الرسمى لحكام البلاد مدى ستمائة وست وستين سنة - أى إلى سنة ١٨٧٤ م حينما بنى اسماعيل باشا قصر عابدين واتخذ مقرّاً وسار خلفاؤه على نهجه ^(٣) .

١٦٥ - وقد نجح صلاح الدين فى التغلب على جميع أعدائه والمتآمرين عليه فأصبح صاحب الكلمة العليا . وتهلل المصريون لذلك لأنهم كانوا قد رزحوا تحت نير ثقل فترة طويلة فتتسموا الحرية فى ظل هذا القائد الشاب التزيه وأجمع القبط والمسلمون على الصلاة من أجله . وكانت استجابة الله لهم هذه المرة سريعة إذ قد منحه السلطان من النيل إلى الفرات . وقد ملأ النصر زهواً هذه المرة فارتكب غلطة كانت السبب فى سقوط أسرته فيما

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٦ .

(٢) فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٢ افتتح برنامج رائع للصوت والضوء حول القلعة التى لا تزال شامخة فوق ربوتها - وهى مبنية على الطراز البيزنطى . راجع أيضاً كتاب « تاريخ مسيحية الشرقية » (بالانجليزية) لعزیز سوربال عطية ص ٩٥ .

(٣) راجع مقال « القلعة » بقلم الدكتور عبد الرحمن زكى أستاذ الآثار الاسلامية بجامعة القاهرة نشر بجريدة الأهرام فى ٢٨ يناير سنة ١٩٦٩ بمناسبة ذكرى مرور ألف سنة على تأسيس القاهرة .

بعد ، وهى أنه أقام من رجال عشيرته حكماً فى كل البلاد التى أخضعها لسلطانه . وقمادى فى هذا الغرور إلى حد أنه أقام ابنه ملكاً على حلب مع أنه كان صبياً تجاوز العاشرة بقليل .

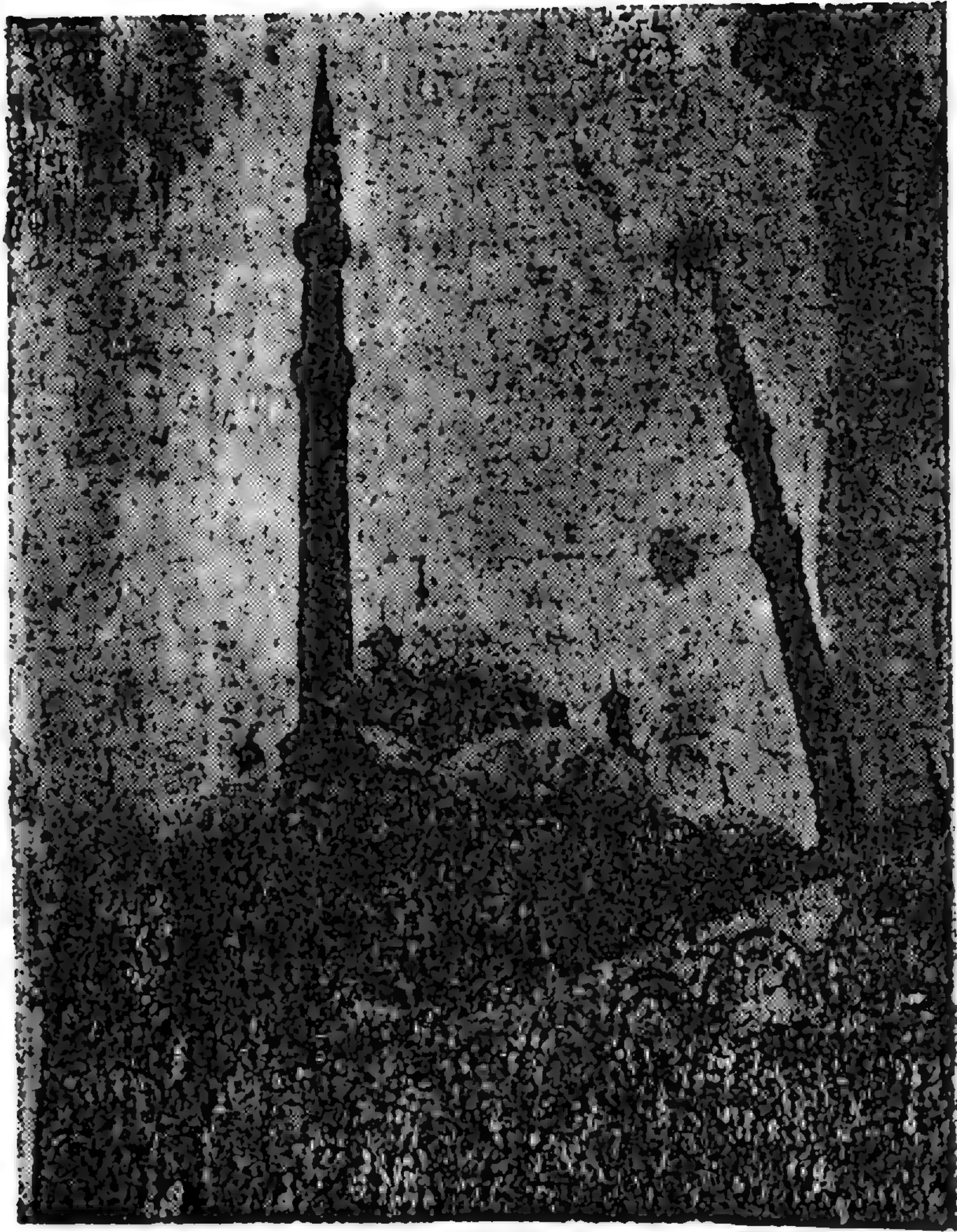
١٦٦ - واحترم صلاح الدين والفرنجية الهدنة التى أبرموها معاً ومن ثم استقرت الأمور وعم الرخاء . ثم جاء الحصاد وافراً ورخصت أسعار الحاجيات اليومية واتسعت التجارة وسعد الجميع .

١٦٧ - أما الأتبا مرقس الثالث فقد فاض قلبه بالسبح لله الذى أبدل اليأس نعيماً . ورأى أن يتفقد شعبه فى الرخاء كما تفقده فى الضيق ليوضح فى هذه الزيارة الراحوية الثانية مدى عناية الأب السماوى بأبناءه على هذه الأرض . وقد لاقاه الشعب بالفرح : سواء أكان من القبط أو من المسلمين .

كذلك عاد القبط إلى العمل فى دواوين الحكومة إذ قد أقر صلاح الدين حقوقهم كما أعاد إليهم أملاكهم المصادرة . فازدحموا فى الكنائس ليرفعوا شكرهم إلى الأب السماوى ، وواظبوا على الأصوام والصلوات والصدقة . وازداد عرفانهم حين جاءهم الإذن باعادة ما تهدم من الكنائس وتجديد عمارة الأديرة . وهكذا بدأت باهاوية الأتبا مرقس الثالث فى جو مكفهر ملبد بالغيوم القائمة . وانتهت بسمااء صافية ساطعة النور . وانعكس هذا البهاء على وجهه فلمعت أساريره وزادته جاذبية مما زاد حب الشعب فيه . وانقضت بضع سنوات كلها صفاء وطمانينة انتقل بعدها البابا المرقسى إلى مساكن النور . وكان انتقاله فى السادس من طوبة سنة ٨٩٦ ش (١١٨٠ م) وقد دامت باهاويته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر (١) .

وقد اختتم كاتب تاريخ البطارقة سيرة هذا الأب البار بكلمات لها دلالتها وجمال تعبيراتها لذلك ننقلها كما هى : « ولم تزل الأمور تتوطأ بصلوات هذا القديس مرقس البطرك وهو يجاهد على شعبه ورغبته إلى أن أصلح الله لهم قلب سلطانهم ببركة صلواته فقرهم وأدناهم واستخدمهم فى ديوانه فى أموال دولته وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه وركبوا

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط تله التمس شئذة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بديره ج ٢ ص ٤٣٢ - ٤٤١ .



قلعة صلاح الدين الأيوبي

بنيت لأسباب استراتيجية وظلت مقراً للحكم ٦٦٦ سنة

الخيـل والبغال ولبسوا الخفاف والثياب المقرحة وساروا معه فى الغزوات كتاب ديوانه وكتاب أهله وأقاربه وكتاب أجناده وتعلق كل نصرانى بكتاب أمير من أمراء دولته ومن أهله وأقاربه وحفظ كل منهم حرمة كاتبه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاء ونفاذ كلمة وعز وتقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم إلى الله وطاعتهم لرئيسهم ذلهم إلى عز وإهانتهم إلى كرامة وبغضهم إلى محبة وضعفهم إلى قوة . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات وتشبهوا ببعضهم بعض فى المسارعة إلى فعل الخيرات . فتمت أرزاقهم وصحت أجسامهم وكثر بنوهم وبناتهم وخزائنها من خيراتها . وصلحت أمورهم وطابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وعلت كلمتهم عند سلطانهم فتتنجزوا التواقيع منه والكتب عنه إلى ولاية الأعمال بمرمة بيعهم وما تشعت من كنايسهم وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم فرموا ما كان وهم وينوا ما كان هدم ورموا ما كان تشعت وعادت الأمور إلى أوقافها كانت من السلامة ورخص الأسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الأمطار وتبيح هذا القديس أنبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين بصلوات القديس آمين » (١١) .



(١) بطاركة الكنيسة المصرية لساورس بن الملقح أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره دكتور أنطون خاطر ودكتور أزولده بورمستر - (القاهرة سنة ١٩٧٠) ص ٩٧ - ٩٨ .

« جلال الملك أيام وتمضى ... »^(١)

- | | |
|----------------------------------|------------------------------------|
| ١٦٨- قيام دولة جديدة . | ١٧٤- عدالة صلاح الدين تسرى الى |
| ١٦٩- رسالة الاتبايونس السادس | ذريتته |
| ١٧٠- تقصير مزعج يعقبه تكفير مشرف | ١٧٥- نهاية المسيحية في المدن الخمس |
| ١٧١- معارك متتالية لتحالف واسع | ١٧٦- الست ترفه |
| المسدى . | ١٧٧- مطران فنسان . |
| ١٧٢- الذوق المصرى الرفيع . | ١٧٨- مؤرخ له نزعة لكاهية . |
| ١٧٣- صلة صلاح الدين بالقبط . | ١٧٩- ضيف منتصف . |

١٦٨ - كان شهر سبتمبر سنة ١١٧١ شهراً بعيد المدى فى مجرى الحوادث المصرية : فيه انتقل الحكم من أيدي الفاطميين إلى أيدي الأيوبيين وأعظم رجال الدولة الجديدة هو صلاح الدين من غير نزاع وهو الذى دعيت الدولة باسمه إذ كان يدعى يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر صلاح الدين .

وكان العصر الفاطمى من أعجب العصور ، فقد شهد فيه المصريون أفخم مظاهر الترف كما عرفوا فيه طعم البؤس والجوع ، وسعدوا بالتسامح الدينى الشامل كما كانوا فريسة الاضطهاد والاستبداد . وخلال هذه المتناقضات كان عصرًا ازدهرت فيه العلوم والفنون ، وتزاحم المؤرخون والكتاب والشعراء ورجال القانون والعلماء فى قاعات الخلفاء الذين اشتهروا بكرمهم الذى كان مضرب الأمثال . كذلك وفد على مصر عدد غير قليل من السواح مسحرهم جمالها فتركوا للأجيال المتعاقبة وصفاً دقيقاً رائعاً عما شاهدوه . وما يؤسف له أن القصور الفخمة التى وصفوها قد أصبحت أثراً بعد عين ولكن المساجد لا تزال باقية تشهد لمبدعيها بطول باعهم فى الذوق والفن كما تشهد بما استمتعوا به من حرية^(٢) . وليس ذلك فحسب بل أن الصناعات هم أيضاً

(١) عن قصيدة لأمير الشعراء عن توت عنخ آمون ومطلعها « قفى يا أخت يوشع خيرينا أحاديث القرون الفاهرينا » .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالإنجليزية) الستاتلى لاين هول ص ١٨٦ - ١٨٩ . مختصر تاريخ مصر ... لجيستون لبيت ص ١٩٩ - ٢١٤ .

قد برزوا ، ولا تزال آثارهم تنطق للآن بعملهم المتواصل واتقانهم وذوقهم ومن أروع منتجات هذا العصر النسيج : فقد أفلح النساجون فى تنيس^(١) . فى انتاج نوع من القماش أطلقوا عليه « بوقلمون » كان لونه يتموج من ساعة إلى ساعة حتى لكأنه يتبدل ويتشكل . بينما صنع نساجو أسبوط قماشاً من الصوف للعمائم ناعماً خفيفاً إلى حد أن الناس كادوا يظنونهم من الحرير^(٢) . وليس ذلك فحسب بل إن العرب استمروا يطلقون على النسيج المصرى اسم « القباطى » فذكر كل من المقرئى وأبى المحاسن أن الحاكم بأمر الله كسا الكعبة بالقباطى فى السنة العاشرة من حكمه . وكانت بعض مصانع النسيج تحت الاشراف المباشر من الحكومة وكانت تعرف بالطرازى فكان الانتاج الذى يصدر عنها مزخرفاً بانتظام وتنسيق كما كان قبلى الأسلوب^(٣) .

ولما كانت الحياة مؤثرات وانطباعات فإن اعتياد القبط تصوير هالة من النور تحيط برأس القديس أو الشهيد كان لها أثر فى نفس الفنان المسلم الذى أخذ هذه الفكرة الفنية عنهم ولكنه وضعها حول رأس الشخصيات البارزة كالأمر مثلاً ، أو للتعبير عن الفرح فى حفلة استقبال .

وثمة فن آخر كان له أهمية كبرى لدى القبط وبخاصة لدى الرهبان منهم ، هو فن تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضغوطة وقد ازدهر هذا الفن فى مختلف العصور .

وتدل بعض جلود المصاحف المحفوظة للآن فى دار الكتب - تدل دلالة صريحة على الأثر القبطى : فإحدى هذه الجلود محفورة فى أشكال صليبية شبيهة بزخارف تزين قطعة من النسيج القبطى موجودة فى قيينا^(٤) .

(١) خرب القرنجة هذه المدينة تخريباً شاملاً .

(٢) مختصر تاريخ ص ٢٠٩ .

(٣) « أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة فى العصر الفاطمى » لسعاد ماهر ص ٤ و ١٧ .

(٤) « تراث الاسلام » تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ ، دليل المتحف القبطى لمقرس سميكة ج ١ ص ٤٢ ، ٥١ - ٥٢ ، وللوقوف على المؤثرات المتبادلة فى الفنون المختلفة بين القبط والمسلمين راجع كتاب زكى محمد حسن : « الفن الاسلامى فى مصر » « وكنوز الفاطميين » .

وبازدهار كل هذه العلوم والفنون سرت موجة من الهناة عمت المصريين جميعاً ، فاندفعوا فى التعبير عن وجداناتهم وخلجات نفوسهم فى رضى وجور . وكانت الأعياد تتيح أمامهم الفرصة للتشارك فى هذا التعبير : فكان قبط مصر ومسلموها يعيدون معاً أعيادهم المختلفة ، ولم ينسوا فى ذلك العهد السعيد أن يتشاركوا فى العيد الذى ورثوه عن آباؤهم الفراعنة وهو عيد وفاء النيل ^(١) .

وأن الصورة التى خلفها لنا الفاطميون عن الأعياد فى عصرهم لهى صورة الانسانية المثلى التى ترتفع فوق الاختلافات كلها ^(٢) على أنه مما يؤسف له أن كل ما هو انسانى هو مؤقت مهما بلغ من المجد - فزالت دولة الفاطميين وحلت محلها الدولة الأيوبية .

١٦٩ - وفى فترة الهناء والاستقرار شغرت السدة المرقسية . وتلفت الأساقفة والأراخنة حولهم باحثين عمن يجدر بهم انتخابه . ويبدو أن الهدوء النفسى الذى كانوا يستمتعون به كان قد تغلغل فى أعماقهم فاتفقوا برأى واحد على انتخاب شماس متبتل اسمه أبو المجد بن غالب . ولم يكن هذا الشماس متبحراً فى العلوم الكنسية فحسب ، بل كان - إلى جانب ذلك - صالحاً تقياً يزدان معياه بابتسامة جذابة تكاد لا تفارق شفقيه وبصوت حنون وحديث عذب . كذلك كان ذا ثروة كبيرة إذ « كان فى ابتداء أمره تاجراً يتردد على اليمن فى البحر ... وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء ... » ^(٣) .

وكان أيضاً يملك مصنعاً للسكر وطاحونة للفلال . ولكن ثروته لم تنسه انسانيته ولم تنسه وجوب العبادة وشكر الله تعالى ، فكان سخياً لا يرفض

(١) مختصر تاريخ . . . ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر . . . جستون فييت ص ٢٠٧ .

(٣) المخطط للمقرزى ج ٢ ص ٤٩٦-٤٩٧ ، بينما يصفه كاتب تاريخ البطارقة بقوله : « ... وكان كاملاً فى دينه ودينياه وغير محتاج إلى شىء من أمور الدنيا يصدق صدقات كثيرة ومع اشتغاله بأمور الدنيا ما كان يغفل عن صلوات السواعى الليلية والنهارية محباً ومجتهداً فى ضيافة الغرباء واقتقاد المرضى والمحوسين ويدفع الجوالى عن الفقراء من أهله والمحتاجين من قومه . وكان كثير المودة لكل أحد ويفعل الخير مع كل أحد ... » - تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لأسقف الأشمونين - المجلد الثالث ج ٢ - قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ٩٩ .

لسائل طلباً ، يبحث عن الغرباء والمسيحونين ليقدم لهم ما يمكنه من مساعدة . وحين استقرت الأنظار على هذا الشماس التاجر المتبتل رأى الأساقفة والأراخنة استصحابه إلى الاسكندرية من غير تسويق حيث رسم البابا الرابع والسبعين للكرسى المرقسى باسم يونس السادس سنة ١١٨٠ م^(١).

١٧ - ولم يكذ هذا البابا يتسلم مقاليد الرئاسة حتى بلغه أن مطران الحبشة قد انتقل إلى دار النعيم . ولما أخذ يفكر فى رسامة خليفة له وجد أن مطران قوه قد أصبح بلا ايارشية لأن القرلجة كانوا قد أفنوا أهلي تلك المدينة عن بكرة أبيهم : فلم يبقوا فيها على نسمة واحدة سواء فى ذلك القبط أو المسلمين ، وأن المطران كان قد اضطر إلى الالتجاء إلى الدير إذ لم يعد له شعب يرعاه . فاستقر رأى الأنبا يونس السادس إذ ذاك على ارسال هذا المطران إلى البلاد الحبشية بدلاً من رسامة راهب ظناً منه أن الاختبارات والسن ستجعل من المطران المكلوم راعياً مثالياً^(٢) فلما وصل المطران - كيلوس - إلى أكسوم تلقاه الشعب وامبراطوره بالترحاب . على أنه مما يؤسف له أن كيلوس هذا خيب آمال البابا الاسكندرى كما خيب آمال الأقباش . ويبدو أن المحنة التى جازها قد حولت قلبه إلى صخرة صماء بدلاً من أن ترهف مشاعره . فانصرف عن أمور الرعيه إلى الاستمتاع بملاذ الحياة وحدث أن ضاعت آنية ذهبية غالية من أوانى الكنيسة بأكسوم ، واتهم كيلوس حارس المخزن بسرقتها . فأمر بضربه حتى يعترف . فانهال خدامه على المتهم ضرباً ولكمأ إلى أن مات دون أن يتفوه بكلمة . فثار أهل القليل وقاموا فى جمع غفير يريدون اقتحام المطرانية أخذاً بالثار . وارتاع كيلوس ففر إلى مصر . وحينما رآه الأنبا يونس السادس امتلاً ألماً ودهشة وسأله عما حدا به إلى ترك ايارشيته . وخاف كيلوس أن يعترف بالحقيقة فتمتم بعذر أحس البابا الاسكندرى بتفاهته . فأبقاه فى الدار البابوية وبعث برسول من قبله إلى الحبشة ليستعلم الحقيقة وبعد سنة من الزمان عاد الرسول الباهوى ومعه عدد من كبار رجال البلاط وعلى رأسهم

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط ... ج ٢ ص ٤٤١ .

(٢) مما يجدر الاشارة إليه هنا أن القانون الكنسى يمنع نقل مطران من كرسى إلى آخر - إلا أن الأنبا يونس السادس رأى أن ارسال كيلوس إلى الحبشة لا يعتبر نقل بالمعنى الصحيح لكون المطران كان قد فقد ايارشيته وكان عائشاً فى الدير إذ ذاك . وعلى الرغم من ذلك فقد نهت عدم صلاحية هذا النقل .

أبو اعتراف الامبراطور وقد طلب هؤلاء الأحباش إلى الخليفة المرقصى أن يستدعى كيلوس ليشتكوا عليه فى مواجهته

ولما استمع الأنبا يؤنس السادس إلى الشكوى . دعا مجعاً من الأساقفة ومن أراخنة الشعب وتنافس معهم فيما جرى واعترف كيلوس بأنه مذنب فعلاً . وعندها أصدر المجمع حكمه بتجريد من كل رتبة كهنوتيه مع السماح له بأن يعيش فى الدير راهباً بسيطاً . وبهذا الحكم شغرت الايبارشية الحبشية . فتفاوض البابا الاسكندرى مع مجعته عنم ينتخبونه واستقر رأيهم على رسامة راهب اسمه اسحق من دير الأنبا أنطونى .

ورأى المطران الجديد أن العبء الذى وقع عليه ثقیل ، فهو لم يتسلم زعایة شعب حزين على راع ساهر ، متطلع إلى راع يخلفه - بل تسلم زعایة شعب حائق غاضب يجب استعادة ثقته وطمأنينته . فاستصحب معه عدداً من مهرة الصناع والفنانين القبط وحالما استقر به المقام انشغل هؤلاء القبط فى بناء الكنائس الجديدة وتجميل القديمة . وقضى أيامه فى تفقد أبنائه ولياليه فى السهر عليهم . فأحبوه حباً جماً وأخلصوا له الولاء ومن نعمة الله أن الأنبا اسحق قضى أربعين سنة يرعى الشعب الحبشى دون أن يكل أو تفتقر له عزيمته ^(١) .

١٧١ - ثم نقض الفرنجة عهدهم واعتدوا على قافلة للحجاج فكانت هذه الخيانه فاتحة لسلسلة من المعارك دامت خمس سنوات طلب الفرنجة فى نهايتها الصلح وأبرموا مع صلاح الدين معاهدة فى الرملة (بفلسطين) مؤداها تسليم جميع الأراضى الواقعة غربى الأردن إلى أيدي أصحابها ما عدا شريط ضيق على الشاطئ ما بين صور ويافا . فظل صلاح الدين سيداً بلا منازع من جبال كردستان إلى صحراء ليبيا . وسارع ملك جورجيا وكاثوليكوس الأرمن وسلطان كونيا وامبراطور القسطنطينية نفسه إلى التحالف معه ^(٢) .

١٧٢ - ولم تكن مقدرة صلاح الدين الحربية بالميزة الوحيدة التى رفعت من قدره بين شعوب هذا الشرق العريق . بل إنه كان أول من فكر

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٢٨ - ٥٣٩ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاین پول ص ٢٠٨-٢١١ .

فى الحاق المدارس بالجوامع كما كان صاحب ذوق فنى . لأنه - حين دانت له فلسطين - أرسل مجموعة من الصناع والفنانين إلى القدس الشريف ليجددوا قبة الصخرة ^(١) وبعد أن جددوها زخرفوها بالنقوش البديعة ثم لونوها باللون الفيروزى المسود بماء الذهب . ولا يزال جمال هذه القبة ينطق بدقة الفنانين المصريين وحسن ذوقهم الذى توارثوه عن أجدادهم الفراعنة واحتفظوا به فى أعماق نفوسهم يبرزونه كلما سنحت لهم الفرصة .

١٧٣ - ولم يكن تجديد قبة الصخرة بالخدمة الوحيدة التى أداها صلاح الدين للقدس ، بل أنه أقام فيها مستشفى وجد فيه المرضى والجرحى من الأهلين والجنود العلاج مجاناً . وعندما زار هذه المدينة المقدسة شخصياً نزل فى دار القسوس المجاور لكنيسة القيامة . ثم رأى أن يعوض القبط عما أصابهم بعدما تبين له اخلاصهم فمنحهم المكان الذى أصبح معروفاً باسم « دير السلطان » نسبة إليه ^(٢) . وليس ذلك فحسب بل أنه رد إليهم كل

(١) يروى التقليد أن هذه الصخرة هى التى رفع إبراهيم ابنه اسحق فوقها - وبعد أجيال أصبحت ضمن هيكل سليمان . كما يروى أيضاً أن سمعان الشيخ الذى تلقى السيد المسيح على يديه فى الهيكل (لو ٢ : ٢٥ - ٣٥) كان يعيش فى المغارة الواقعة تحت هذه الصخرة انتظاراً لمجىء القادى الذى تنبأ عنه أشعيا . بأنه سيولد من عذراء (٧ : ١٤) .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٩ . مذكرة ملكية دير السلطان بالقدس للاقباط الارثوذكس أصدرها الأنبا ياكوبوس مطران الكرسي الأورشليمى فى أغسطس سنة ١٩٥٣ وأيدها الأنبا باسيليوس خليفته بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ . وقد جاء على ص ١ من المذكرة الأولى ما نصه : يجدر بنا قبل استعراض الأسانيد التى تثبت ملكية القبط لدير السلطان من أن نتحرى أسباب هذه التسمية اذ لا نسبة بين « الدير » « والسلطان » إلا اذا كانت نسبة الهبة إلى الواهب . والهبة لا تأتى جزافاً بل لابد لها من حائز مثل نفع ذى صلة كصلة القرى أو صلة التبعية ، وما دام السلطان هنا هو الواهب فلا ريب إن الصلة كان أساسها التبعية أو الرعية « وجاء على ص ٢ ما نصه : « ... وهل تنسى من حاربوا فى صفوف جيوش الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى يقول لنا التاريخ عنه أنه لما تم الصلح فى فلسطين عم السرور بين الفريقين ونادى المتنادون أن البلاد الاسلامية والتصرانية واحدة فى الأمن والمسألة ... وتوجه الملك الى القدس لتفقد أحوالها . وأقام فيها مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للسير إلى مصر ... » راجع أيضاً ص ٧٥٥ من المجلد =

الأماكن التي كان الفرنجة قد سلبوها منهم . وكان مسلك صلاح الدين بإزائهم على هذا النحو ناتجاً عن أن عدداً غير قليل من القبط قد رافقه في حملته على الأراضي المقدسة : بعضهم بوصفهم كتبة والبعض الآخر عمالاً وفنانين ^(١) ولم يكتف بذلك بل إنه أعفى الحجاج من الضرائب و « راعى القبط والأقباط وثبتهما في أماكنهما لأن القبط كانوا من رعاياه والأقباط من جيرانه » ^(٢) .

ثم حدث أن هاجر عدد كبير من الأرمن وتركوا ضمن مخلفاتهم كنيسة لهم في القسطنطينية فأنعم بها صلاح الدين على فقيه دمشق . غير أن كاتبه صفى الدولة طلبها منه لقومه فأعطاهم لهم على يده ^(٣) .

وما يجدر ذكره أيضاً أن الفرنجة حينما استولوا على القدس رفضوا السماح للقبط وغيرهم من مسيحي الشرق بأن يسعدوا بزيارة الأماكن المقدسة . فلما استرجعها منهم صلاح الدين فتحها مرة أخرى لهم ^(٤) .

١٧٤ - وما يؤسف له جد الأسف أن الحروب التي اضطر صلاح الدين إلى خوضها سنة بعد سنة قد أثرت على صحته فانتقل إلى دار الخلود بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة . ومن حسن حظ المصريين أن المنصور محمد اتبع سياسة أبيه العزيز عثمان وجده صلاح الدين . بل لقد كان حبه للعدالة قوياً إلى حد أنه كان يعمل جهده على غرسها في قلب ابنه العادل الذي يبدو أنه تأثر إلى حد بعيد بالاسم الذي يحمله . فرأى أن يرفع عن المصريين

= العاشر من دائرة المعارف العمومية للبهتاني ، تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ ، قصة الأقباط في الأرض المقدسة للبيترى رزق ص ١٢٣ - ٢٤٤ حيث أورد الوثائق والمخططات المتبادلة بين مطارنة الكنيسة القبطية للكرسي الأورشليمي وبين المسئولين من رجال الدين ورجال الدولة - وكلها تؤيد ملكية القبط لدير السلطان .

(١) « قصة الأقباط ... » ص ٢١

(٢) شرحه ص ٢٢ حيث يستشهد بكتاب « خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم

الأرثوذكسية لشحاده خوري ونقولا خوري ص ٧٨ - ٨٠ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ - ٧٩ ، قصة الأقباط . ص ٢١ حيث

يستشهد بأبي المكارم المؤرخ القبطي الذي كان آخر ما كتبه في سنة ١٢٠٨ .

كل ظلم ويفرح قلوبهم بالانصاف . ومن الطريف أن حسوداً أراد أن يوغر صدر العادل ضد القبط فادعى أمامه أن دير الأتبا مكارى الكبير يحوى كنوزاً ثمينة . وعندها صدر الأمر بانتداب بعض كتبة الديوان للذهاب إلى الدير المذكور والبحث عما فيه من كنوز . فلما قابل المندوبون رئيس الدير عرفوا منه أن الكنوز الموجودة فيه فعلاً هي أواني المذبح والملابس الكهنوتية فأخذوها بعد أن أكدوا لرئيس الدير أن العادل منصف للغاية . وحينما رأى الملك هذه الأشياء أمر بتقييمها وعرف أنها لا تساوى غير ثلاثة آلاف دينار . فأمر بتسليمها إلى الأتبا يؤنس السادس مع الاعتذار له وتوقيع العقاب على الحسود . وحينما حاول بعض دعاة السوء اقناع الملك العادل بمضاعفة الضرائب على القبط كما فعل غيره أجابهم : « إن كان غيرنا قد ظلم فلا داعى لأن نكون ظلمة » .

ومقابل هذه العدالة النزيهة التى ملأت قلوب القبط طمأنينة نجد أن الفرنجة حينما فاجأوا المصريين بهجومهم على رشيد تقدموا إلى قوه وتحصنوا فيها . وكانت آنذاك أسقفية إذ كان عدد القبط فيها كبيراً . فأعملوا السيف فى الرقاب وقتلوا من قتلوا وسبوا من بقى حياً . ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب . فلما وجد الأسقف نفسه وحيداً إذ لم يبق من شعبه صريح ابن يوم واحد ذهب إلى البابا المرقسى وأعلمه بما حدث ^(١) (وهو المطران الذى أقنم على الحبشة كما سبق القول) .

ولم يكن بطش الفرنجة بالكلاثة الوحيدة التى أصابت المصريين فى تلك الأيام بل لقد أصاب القحط بلادهم فحدث غلاء لم يسمع بمثله من قبل . فرأى عدد من الأقباط أن يهجروا مصر إلى الحبشة ووجدوا من ملكها كل ترحاب . ذلك لأن غالبيتهم كانت من أصحاب الصنائع فانتهاز الملك فرصة مجيئهم وشغلهم فى بناء الكنائس وغيرها من المباني الضخمة . وقيل أن بين من هجروا رجل من أكابر قومه اسمعه فخر الدولة ، وجد من الملك ترحيباً خاصاً ، ثم عهد إليه الملك بتنظيم مملكته وترتيب الدواوين بها وفقاً للنظام المعمول به فى مصر ^(٢) .

(١) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سليمان ص ١٦ .

(٢) تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخلة ووفيلة ص ١٧٨

١٧٥ - على أنه لما كان الكمال لله وحده كان كل ما هو انساني يتضمن على الأقل ناحية من النقص . وفى هذا العصر حين سعد المصريون بالعدالة الشاملة أصاب القبط منهم خيبة أمل جارفة : ذلك أن المدن الخمس التى كان البابا الاسكندرى يرسم لها مطرانا قد تحول أهلها جميعاً عن دين المسيح ^(١) . فامتلات نفس الأنبا يؤنس السادس حزناً على النفوس التى حفرت بينها وبين فاديها هوة سحيقة . وقد مهد هذا الحزن للمرض الذى أضعف من قوته فلم يلبث أن انتقل إلى الأمجاد السماوية بعد باباوية دامت ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ^(٢) .

كذلك وقع حادث وإن يكن فردياً إلا أنه كان مؤلماً . ويتلخص هذا الحادث فى أن رجلاً ممن تولوا بعض مناصب الجيش استقال من منصبه ورغبة منه فى الرهبنة . فترك العالم وتوحد فى صحراء جبال حلوان . وأشيع أنه عثر على كنز من أيام الحاكم بأمر الله لأنه كان ينفق المال الكثير فى معاونته الفقراء والهاربين والمستورين من القبط والمسلمين على السواء . فذاع صيته وكثر قاصدوه وبالطبع بلغ صيته مسامع السلطان صلاح الدين الذى رغب فى رؤيته فجئ به إليه . ولطفه السلطان محاولاً أن يعرف حقيقة ما أشيع عن الكنز . إلا أن الرجل رفض أن يبوح بسرّه مما أغضب السلطان فشتمه وتناول عليه بالسب ، ولكن الرجل لم يزد إلا سكوتاً . وأشار بعض المحيطين بالسلطان بهجوب قتله خوفاً منهم على ضعف الايمان من المسلمين وتدعم غضب السلطان بهذا الاقتراح فأمر بتعذيب الرجل إلى أن مات ^(٣) .

١٧٦ - وإن سجلات القبط فى القرون الوسطى - وإن تكن ضئيلة - إلا أن ما بقى منها يحوى الكثير من المعلومات الشيقة التى تفتح للباحث كرة يتفد منها إلى رؤية بعض صور الحياة فى تلك القرون . ومن هذه المعلومات أن سيدة اسمها ترفه عاصرت الأنبا يؤنس السادس ، وكانت واسعة الثراء فبنت كنيسة أطلقت عليها اسم أبا توفى السائح . كذلك شيدت

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاخر رياض - ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره ج ٢ ص ٤٤١ - ٤٥٤ .

(٣) أهل الامة فى الاسلام ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ٢٩ .

ديراً للراهبات أوقفت عليه من الأطياف ما يكفى للاتفاق عليه . ثم صرفت أموالاً طائلة فى نسخ عدد كبير من الكتب الكنسية وهبتها للراهبات ، لريح نفوسهن فحافظت بذلك على التقليد المصرى الذى جعل من المرأة « حاملة الشعلة » لتضىء الطريق أمام جميع الباحثين عن الحق ^(١) .

١٧٧ - وتقف مرة أخرى لتأمل شخصية جبارة من تلك الشخصيات التى أنجبتها كنيسة العريقة . وهذه الشخصية - رغم إنتاجها الروحى الفنى - هى أيضاً ضمن الجنود المجهولين الذين لا نعرف عنهم غير أعمالهم . فحقاً أنه يجدر بنا أن نطلق على كنيسة المصرية اسم « كنيسة الجنود المجهولين » وهذا الجندى المجهول الذى نحن بصدده هو الأنبا ميخائيل مطران دمياط فى القرن الثانى عشر . فقد كان هذا المطران يدرك أن الراعى الحق هو من يسهر على الرعية ، فلم يسهر على رعيته المعاصرة له فحسب بل سهر أيضاً على الأجيال الآتية من بعده . ذلك أنه كان فناناً كما كان مصرياً صميماً . وحين تأمل أبناءه وجد أن الكثيرين منهم يجهلون القراءة والكتابة . فأراد أن يوصل لهم بشرى الخلاص باللغة التى يستطيعون قراءتها وهى لغة الفن . فرسم تسعين صورة للبشائر الأربع . والقول بأنها تسعون إنما هو وصف اجمالى فحسب لأن كل صورة من هذه الصور التى ابتدعها خيال الأنبا ميخائيل هى مجموعة من المناظر الموضحة للعجيبة أو للمثل أو للحادثة . وذلك لكى يدرك كل من يراها تسلسل الوقائع الواردة فيها بالضبط . فمثلاً حينما أراد أن يوضح مجريات الأمور التى أدت إلى أن يقتل هيرودوس الملك أطفال بيت لحم رسم فى ركن من الصفحة صور للمجوس سائرين خلف النجم الهادى تليها صورتهم وهم واقفون فى القاعة الملكية وقد جلس هيرودوس على العرش بينما انشغل الكهنة والشيوخ فى قراءة النبوات التى تشير إلى مولد الملك المنتظر ، أما الصورة الثالثة فتبين هيرودوس وهو يعطى تعليماته للمجوس ، تتبعها صورة المجوس على الطريق خلف النجم مرة أخرى ، ثم وصولهم بيت لحم وتقديمهم الهدايا ، فعودتهم من طريق آخر ، وفى آخر هذه السلسلة من المناظر صورة جند هيرودوس يخطفون الأطفال من أمهاتهم ويقتلونهم ، ثم مجموعة من أولئك الأمهات الشكالى يبكين ويتساندن إلى شجرة باسقة بينما حمل الجنود

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤١ .

جث أطفالهم فى مقاطف ليوصلوها إلى هيرودوس. وهذه المجموعة من الصور مرسومة على الطريقة الفرعونية . أى أنها فى صف واحد من غير فاصل بين الواحدة والأخرى كما أنها على مستوى واحد من غير مسطحات مختلفة ، بل إن الأشخاص جميعاً واقفون جنباً إلى جنب . ولولا أن هذه الصور مسيحية لظن من يراها أنها من العصر الفرعونى . وهذا الطراز المصرى الصميم لا يتناول التصوير فحسب بل يشمل التلوين أيضاً . وهذه الصور تجتذب القلب قبل أن ترضى العين لبساطتها ودقة تعبيرها . وهى تتخلل سطور البشائر الأربع المكتوبة باللغة القبطية . وقد قضى الأنبا ميخائيل ستين فى اتمام هذه الصور التسعين لأن المخطوط الذى يشتمل عليها يحمل فى آخره تاريخ سنة ١١٧٩ - ١١٨١ .

وبعد هذا المخطوط من أعظم المخطوطات أهمية لندرة البشائر المصورة فى كل العالم ، ولأنه يوضح كيف أن مطراناً قبطياً فى القرن الثانى عشر ظل محتفظاً فى أعماق عقله الباطن بالروح الفرعونية الفنية .

على أنه من المؤلم أن المستعمرين والغزاة كانوا يسطون على تراثنا الروحى كلما سنحت لهم الفرصة . وهذا المخطوط ضمن مخلفاتنا العظمى المحفوظة الآن بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم « مخطوط قبطى ١٣ » ومن الشائع أن الملك لويس التاسع أخذه خلسة حين عاد إلى وطنه بعد أن فشل فى حملته الصليبية التى وقع فيها أسيراً فى أيدي المصريين سنة ١٢٥٠ م .

كذلك ترك لنا الأنبا ميخائيل عدداً من المواعظ والتفاسير للكتاب المقدس ولا تزال الرسائل التى تبادلها وأباً صالح الأرمنى^(١) باقية للآن - وتتعلق بشخص لا بد أنه كان ذا حيثة يتذبذب بين الأرثوذكسية وبين المناصرين للمجمع الخلقيدونى .

(١) عشر المتقبون منذ سنوات على مخطوطة ضاعت ورقاتها الأولى ، عليها اسم « أبو صالح الارمنى » ، فطنوه مؤلف المخطوطة ولكن علماء الآثار يرجحون أنه لم يكن سوى صاحب المخطوطة ، وأن المؤلف الحقيقى هو أبو المكارم المؤرخ القبطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر أيضاً .

ورغم هذه المخلفات التي تركها لنا هذا الفنان الذي حظى بكرامة الأسقفية فإننا نجهل سيرته : فلا توجد إشارة إلى تاريخ ميلاده ولا أين ترهب ولا متى نال الأسقفية « فهو جدير حقاً بالكنيسة التي خدمها »^(١).

١٧٨ - ومرة أخرى نجد الحيرة تستولى علينا . فهناك كاتب ذا نزعة فكاهية اسمه الأسعد بن مماتي عاش في عهد صلاح الدين وكانت له مكانة ممتازة جعلته منافساً لقراقوش وزير هذا الملك الكبير . وقد يدهش البعض من أن قراقوش كان وزيراً بالفعل لأن الكثيرين يتصورون أنه من الشخصيات التي ابتكرها الخيال المصري . ولكنه كان وزيراً أضفى عليه الخيال العدد الوفير من النوادر والفكاهات . ومن أبرز الذين ساعدوا على نشر هذه النوادر كاتب جيش صلاح الدين واسمه الأسعد بن مماتي الذي وضع عنه كتاباً بعنوان « الفاشوش في حكم قراقوش »^(٢) وقد نال الأسعد بن مماتي حظوة لدى السلطان إلى حد أنه منحه رياسة بيت المال بالإضافة إلى وظيفته الأصلية وهي كاتب الجيش^(٣) .

وهناك رجل آخر سبق كلا من الأسعد وزكريا في حمل لقب « ماماتي » وعاش في عصر الخليفة المستعلى . فهل هذان الرجلان من سلالة أم أنه مجرد تشابه في الأسماء ؟ على أن هناك فرقاً بسيطاً في هذا التشابه وهو أن الأول نال لقب « ماماتي »^(٤) لأعماله ، وهذان لقبهما . « ابن مماتي » على أية حال لقد أدى كل منهم واجبه نحو الوطن .



(١) ذكر رينودو (الفرنسي) الأتيا ميخائيل هنا وتحدث عن تصويره للبشائر الأربع بهذه الكلمات .

(٢) يصف دكتور عبد العزيز مرزوق هذا الكتاب بكلمة « لطيف » في كتابه « الفن الاسلامي في العصر الأيوبي » .

(٣) رينودو ص ٣٦ - ٣٧ .

(٤) وردت سيرته في نهاية سيرة الأتيا مكاري الأول البابا الاسكندري التاسع والخمسين بين أراخنة ذلك العصر .

ضيف منصف

١٧٩ - كانت مصر على مر العصور محط الأنظار : فكما جاءها هيرودوت وغيره فى العصور القديمة جاءها ضيوف كثيرون فى العصور الوسطى . ومن أبرز الذين جاءوها فى هذه الفترة الطيب العالم الرحالة موفق الدين عبد اللطيف البغدادى الذى ترك لنا وصفاً مسهباً لبلادنا كما شاهدها حوالى سنة ١٢٢٠م فى كتابه « الاقادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وما جاء فى هذا الكتاب أن المصريين « يحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الديار والقناة باقية ، ويحفرون الكتف ... وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومخبراً ... يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطاً فيه جرى منه إلى الحوض الكبير ... وفى وسطه (الحمام) بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون أهدأ أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج ، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ... » ومن طريف ما نقرأه فى هذا الكتاب وصف البغدادى لأهم الأطعمة فقال إن القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق أو الجوز أو الخشخاش ويسمون الفستقية أو الجوزية أو الخشخاشية . أما الحلوى فكثيرة ولهم مهارة فى صناعة المربى ^(١) .

وهكذا نجد أن عدداً كبيراً من الضيوف الذين آتسوا إلى أبناء مصر قد شهدوا بمهارتهم وتتقدمهم فى مختلف الصناعات .



(١) راجع تفصيلات هذا الوصف فى كتاب « القاهرة ... » للدكتور عبد الرحمن زكى ص ٨٨ - ٩٢ .

مياه معكرة

- ١٨٠- الانسان والطبيعة مصدر فزع
للمصريين .
- ١٨١- الحرب الصليبية الصليبية .
- ١٨٢- اهمية مصر .
- ١٨٣- سقوط دهمياط ونهاية الملك العادل
- ١٨٤- غرور الفرنجة .
- ١٨٥- نصر مبین لابناء النيل .
- ١٨٦- خلو الكرسي المرقسى عشرين عاماً
- ١٨٧- استتباب السلام وانتخاب البابا
المرقسى .
- ١٨٨- رسامة اساقفة ممتازين .
- ١٨٩- المحافظة على مودة الكنيسة
الانطاكية .
- ١٩٠- زيارة بزية شيهيت .
- ١٩١- السهونية .
- ١٩٢- عناية البابا الاسكندري بالحيشة
- ١٩٣- وباء بئانه المقيمين فى دمشق .
- ١٩٤- رسامة مطران للكرسى
الاورشليمى .
- ١٩٥- عقد المجمع المقدس فى القلعة .
- ١٩٦- حرص الملك الكامل على سلامة
شعبه .
- ١٩٧- غزوة المطارنة .
- ١٩٨- حرص الانبا كيرلس على
تعاليم الكنيسة .
- ١٩٩- مطران غزوة .
- ٢٠٠- كتابة الانبا كيرلس الثالث صورة
لعصره .
- ٢٠١- تياس الحياة بما فيها من جهد .

١٨٠ - حينما انتقل الأنبا يؤنس السادس إلى مساكن النور كانت مصر على رأس الامبراطورية المترامية الأطراف التى أحرزها البطل صلاح الدين ، وكانت عشيرته متفردة بالحكم إذ قد سقط هذا العاهل النزيه فى خطأ أودى فى النهاية بأسرته . وهذا الخطأ هو أنه أقام من أولاده وإخوته وأبناء أعمامه حكماً على جميع بلاد هذه الامبراطورية الشاسعة التى استطاع أن يخضعها لسلطانه والتى امتدت من ليبيا إلى بلا العرب . وقد اعترفت جميع هذه البلاد بزعامة مصر ولو أن الزعامة ليست درعاً واقياً ضد المحن والأهوال . فقد جاء الفيضان ناقصاً فنقص المحصول ، وأعقبه فيضان شحيح فانتشرت المجاعة . وكان الطبيب الكبير عبد اللطيف البغدادي فى مصر آنذاك ليستمع إلى بعض المحاضرات فى الأزهر ، فوصف الأهوال التى شاهدها وصفاً دقيقاً وأوضح كيف أن آلام الجوع والمرض تضاعفت بما أحدثه الأشرار من ذعر واضطراب وكان قسوة الإنسان على أخيه الإنسان لم تكن بكافية فجاءت الصقور والضباع وبنات أوى لتتلا كبل

الأوجاع والمخاوف . وانضمت الأرض نفسها إلى القوى المدمرة المفزعة فتزلزلت زلزالاً أسقط العدد العديد من البيوت إلى حد أنه دك مدناً بأكملها وازداد الاضطراب إذ بدأ رجال الدولة الأيوبية يتشاجرون على حق الأولوية . على أنه كان بينهم رجل ثاقب البصيرة هو العادل أخو صلاح الدين الذى بذل قصارى جهده فى توحيد الصفوف وجمع الكلمة خوفاً من أن يخرق الفرنجة الهدنة . وبالفعل خرقوها ظناً منهم أنهم قد يصلون إلى هدفهم ، ولكنهم لم يحرزوا أى نصر فعقدوا الهدنة من جديد . وكان العادل سياسياً محنكاً بالفطرة يفضل المفاوضات على القتال فحظى بحليف قوى بأن منح البندقيين حق التجارة فى الاسكندرية وتسيير سفنهم فى النيل .

١٨١ - وفى سنة ١٢١٢م قرع ابنوشنسيوس الثالث (الأسقف الرومانى طبول الحرب مرة أخرى . على أن رجع صداها لم يكن سوى حملة هزيلة تعرف فى التاريخ باسم « حملة الصبية » لم تكن لها من نتيجة غير ازدحام مصر بالأسرى من الفتيان . وقد استشارت هذه الحملة التاعسة الفضب فهب عدد من الأشراف إلى الميدان وقاموا بمعارك ثلاث فشلت جميعها : أولاها كانت ضد مدينة بيسان بالأردن ، وثانيها ضد الحصن الذى أقامه السلطان العادل فوق جبل طابور ، وثالثها ضد بوفور . وراقب السلطان العادل هذه المعارك عن كثب ولكنه لم ينزل إلى الميدان .

١٨٢ - وبينما كان الصليبيون يقومون بهذه المحاولات الفاشلة أدركوا حقيقة عظيمة : هى أنهم إن أرادوا النصر فعليهم أن يضرهوا القلب - وأن قلب هذا الشرق هو مصر ، فلو أنهم نجحوا فى اخضاع مصر لسلطانهم لاستطاعوا أن يسيطروا على فلسطين من جديد ولامتد نفوذهم منها إلى جيرانها . فوطدوا العزم على مهاجمتها وقذفوا بقواتهم على دمياط سنة ١٢١٨ م^(١) . وكان هذا الميناء المصرى محاطاً بسور منيع وبقلعة منيفة - ومركزه الجغرافى الطبيعى إذ أنه يقع على لسان وسط المياه . وكان الكامل يشارك أباه العادل والسلطنة فاتخذ مكانه على الضفة الشرقية للنيل، بينما

(١) يؤكد هذه الحقيقة جميع من أرخوا للحملات الصليبية فقد جاء فى كتاب « لوس التاسع فى الشرق الأوسط » لجوزيف نسيم يوسف ص ٢٤ ما نصه : « ساد الاعتقاد بين أهل الغرب أنه لا يمكن امتلاك بيت المقدس والمحافظة على كيان اللاتين بالشرق العربى إلا بالاستيلاء على مصر زعيمة العالم الإسلامى ومركز امداده ومعتقه المنيع » .

رابط الفرنجة على الضفة الغربية - وأعاد التاريخ نفسه إذ ربضت القوتان المتنازعتان على ضفتي النهر الخالد : تبقى كل منهما الظفر بأرض الفراغة وانتصر المصريون في بادئ الأمر . ولكن الامدادات المتعاقبة التي ظلت تتوالى على جيش الفرنجة أدت في النهاية إلى سقوط دمياط في أيدي الغزاة .

١٨٣ - وكان سقوط هذا الميناء ضربة قاصمة كسرت قلب الملك العادل فمات حزناً وكمداً . وكان قد عرف معنى المجد ، وقضى خمسين عاماً في جهاد مستمر : نصفها مع أخيه العظيم صلاح الدين والنصف الثاني بعد أن اعتلى عرش مصر . وقد منحه الله تحقيق معظم أحلامه إذ دانت له امبراطورية أخيه (ماعدا شمال سوريا) . وكانت همته عالية وشخصيته جذابة فتغنى به الشاعر بهاء الدين زهير . ولما انتقل إلى رحمة مولاه ترك عبء القتال لابنه الكامل الذي ورث عنه قدرته الحربية ولباقتة السياسية .

وفي الفترة التي استولى الصليبيون أثناءها على دمياط لم يسيثوا إلى القبط وينكروا عليهم حقوقهم فحسب بل زادوا على ذلك بأن عينوا أيضاً مطراناً من رجال كنيسة رومية اللاتينية الغربية عن مصر جنساً وعقيدة . كذلك استباحوا خطف الأطفال من أحضان أمهاتهم ، كما استباحوا القتل بغير مراعاة لجنس أو لسن : فالشيوخ كالشبان والنساء كالرجال - من سقط منهم في أيدي هؤلاء المنتحلين الصليب لقي حتفه . ولهذا كله يقول دكتور عبد العزيز مرزوق : « إننا كنا في حرب ضد الصليبيين أو بعبارة أوضح ضد مسيحي أوروبا الذين اتخذوا الصليب شعاراً لهم والدين المسيحي ستاراً استتروا به في اندفاعهم إلى الشرق لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين . في هذه الحرب التي كان ظاهرها الدين وباطنها الدنيا والرغبة في السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط في مصر ^(١) .

١٨٤ - ولما تسلم الكامل مقاليد الحكم ، بدأ الفريقان يعززان مراكزهما

(١) في كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ - راجع أيضاً « الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ١٥ - ١٦ ، السنكسار الأثيوبي ... ترجمة واليس بودج ج ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦ .

ويزودان جيوشهما بالامدادات العديدة . وبدا كأن جيوش الفرنجة عرمرما من الصعب القضاء عليها إلى حد أن الكامل بدأ يقارضهم في الصلح وعرض عليهم أن يعطيهم مملكة القدس ثمناً لمغادرة دمياط . وامتلاً الفرنجة غروراً وخيلاً لهذا العرض ، وازدادوا تيباً لشعورهم بأنهم سادة البحر وأن في مقدورهم مضاعفة عددهم وعتادهم . فتوهما - بهذا التيه - أنهم أصبحوا سادة هذا البلد العريق بالفعل . ودفع بهم هذا الغرور إلى رفض شروط الكامل . وعندما لم يجد أمامه من سبيل غير القتال ، وكان لسان حاله يقول : « إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً » . واتخذ لفوره خطتين حاسمتين : أولاها هدم الحصون المحيطة بأورشليم وغيرها من مدن فلسطين كي لا يتحصن الفرنجة خلفها ، وثانيتهما إقامة المتاريس حول قرية جنوبى دمياط لم تلبث أن أصبحت مدينة ذات شأن عظيم هي مدينة المنصورة .

١٨٥ - وقد تهيأت الفرصة أمام الكامل لتنفيذ خطته لأن الفرنجة بدأوا يتشاجرون ويناصر كل فريق منهم رئيساً مختلفاً . ولما وجدهم الملك الأيوبي لا يزالون في تحزباتهم وانقساماتهم بعث برسله إلى أقاربه الحكام في مختلف البلاد ليهيب بهم أن يتعاونوا جميعاً ويضربوا الصفوف في وجه الخصم المشترك . وقد استجابوا بالاجماع لندائه وسارعوا إلى تدعيم الجيش المصرى بجيوشهم . وكان المصريون يقاتلون فوق أرضهم الحبيبة ومن أجلها ، وكانوا يعرفون طبيعة هذه الأرض التى عاش فيها أجدادهم منذ عصور سحيقة فى القدم ضاع التاريخ فى متاهاتها . وكان النيل قد بدأ فى الارتفاع . ففتحوا الجسور والسدود ، وهياوا الفرصة لنهرهم الخالد للاشتراك معهم فى الدفاع عن واديه . فلما انتبه الفرنجة من مشاجراتهم وجدوا أنفسهم محاطين بأراض قد غمرتها المياه وبخصم ساهر خلفها . ولكنهم كانوا قد رفضوا الصلح فى صلف فلم يبق أمامهم غير القتال . فلما بدأوا المعركة انقض عليهم المصريون من كل ركن وكل زاوية . ودارت الدائرة على الفرنجة الذين أدركوا بعد مضى يومين فقط على الحرب أنهم هالكون لا محالة فجاء دورهم للمطالبة بالصلح . ومع أن الكامل كان سيد الموقف فقد رأى أن التسامح خير من التشدد ، وأنه إن تعنت مع خصومه فقد يعاودون القتال للثأر . فلم يشترط عليهم غير الاجلاء التام عن مصر وتسليم دمياط لأهلها

والوعد باحترام السلام مدة ثمانى سنين . وفى أسبوع نفذ الفرنجة مطالب الكامل ورحلوا عن مصر . وتبخرت أحلامهم كالفقايع ، وكالزبد الطافى على سطح المياه الذى لا تلبث الأمواج أن تبتلعها . وانتهى الصراع هذه المرة ببقاء النيل فى أيدي أبنائه ^(١) .

وهذه النهاية أبهجت القبط . « ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن إليهم وقربهم ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم . يدل على ذلك أن بعض الأمراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم مبلغاً من المال بحجة أنهم تأخروا فى دفع الجزية السنوية . وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان فشكوه للملك الكامل فنظر فى دعواهم وأمر بإرجاع المال إليهم ^(٢) .

١٨٦ - وبينما كانت كل هذه العوامل تتصارع لتفوز بالسيطرة على وادى النيل الرحيب كان القبط فى هم وألم . بل أن وجعهم كان أضعاف وجع مواطنيهم إذ لم يكن مجرد التوجع لما يحقق بيلادهم من خطر داهم بل امتلأت نفوسهم حسرة فوق ذلك لأن المعتدين الفاشمين كانوا يحملون على صدورهم وعلى بيارقهم شارة الصليب زوراً وبهتاناً . واستبدت بهم الهواجس إلى حد نسوا معه أن يجتمعوا للتشاور فى أمر انتخاب الخليفة المرقسى . وانصرفوا إلى الصوم ليتدارك الآب السماوى بلادهم سريعاً ويرفع الغمة عن قلوبهم . وهكذا ظل الكرسي المرقسى شاغراً زهاء عشرين عاماً .

وكان الأنبا يؤنس السادس قد تنبأ قبل نياحته بأن أوجاعاً وضيقاً كثيرة ستحل بالبلاد وبالكنييسة « حتى يقيم لكم المسيح رجلاً يأتى به من حيث لا تعرفون وتكون أيامه هادية وروح الله تكون فيه » ^(٣) .

وكان الملك الكامل بعد أن اطمأن إلى نتيجة المعارك قد خرج ذات يوم للصيد فعبر الترعة عند ابيار ورأى هناك صومعة حبيس وعندها وقف

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاهن پول ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

(٢) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سليمان ص ١٦ .

(٣) تاريخ بطاركة ... لساووس بن المتفح أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره وترجمته أنطون خاطر وأرولد هورمستر على نفقة جمعية الآثار القبطية ص ١٢٢ .

ونادى على رجل الله وشكا إليه من وجع فى فؤاده . فصلى الحبيس على زيت وأعطاه له قائلاً « ادهن به موضع الوجع والله هو الشافى » . فلما أطاع زال وجعه لساعته فقدم له منحة وأصبحت له مكانة فى نفسه .

١٨٧ - وكان فى ديوان الملك الكامل قبلى يلقب بابن المقياط كما كان لديه قبلى آخر اسمه الاسعد بن صدقة جعله ضامناً لدار التفاح . فلما استتب السلام وبدأ المصريون جميعاً يتنسمون عبير الحرية والهدوء النفسى أدرك القبط القبط أنهم عاشوا سنوات كثيرة من غير راع مسئول عن رئاسة الكنيسة مديراً لأمرها . على أنهم رغم طول المدة التى شغل فيها الكرسي المرقسى اختلفوا فيما بينهم عمن ينتخبون فزكى ابن المقياط الراهب داود بن لقلق وأيده بنفوذه فى الديوان السلطانى بينما رأى الأسعد بن صدقة أن حبيس ابيار أولى بهذه الكرامة العظمى . وكان الملك الكامل من مؤيدى الحبيس إلا أن ابن المقياط أفهمه بأن رجل الله لا يريد عن وحدته بديلاً . ولما كان هذا الملك لا يميل الى فرض سيطرته فى هذه الأمور اقتنع بكلام كاتبه وترك الأمر للقبط ^(١) . وهكذا انتهى الاختلاف إلى التركيز على داود بن لقلق وبخاصة لأن السنوات الطويلة أدت إلى أن يصبح عدد من الابرشيات بغير أساقفة يسوسونها . فقرر المسئولون الاسراع فى انتخاب البابا تعويضاً للوقت ولكى يرسم الأساقفة اللازمين للكنيسة حرصاً على الخلافة الرسولية التى تسلمها الآباء عن مرقس البشير وصوناً للشعب المحتاج إلى الرعاية ليرشدوه ويكونوا مفزعةً له ساعة المخاوف والشدائد . وبدأوا يتشاورون فى الموضوع فاقترح بعضهم الراهب داود بن لقلق المترهب بدير القديس بقطر خارج مدينة الفيوم والمعروف بسعيد وراء المعرفة وبتفتيشه الكتب بلا فتور . وقد صادف اقتراحهم قبولاً ومن ثم ساروا به إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الروحية التى رفعتة إلى الكرسي المرقسى باسم كيرلس الثالث وجعلت منه البابا الخامس والسبعين فى سلسلة خلفاء كاروز الديار المصرية فى الثانى والعشرين من شهر يؤونه المبارك سنة ٩٤٢ ش (١٦ يونيو سنة ١٢٢٦ م) .

(١) شرحه ص ١٢٣ - ١٢٥ . تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزير سوربال عطية ص ١٩٥ .

وما أن تمت رسامته حتى ذهب لزيارة دير نهيا . وبعد هذه الزيارة قصد إلى قصر الشمع (بمصر العتيقة) فألف له شعبه موكباً فخماً تقدمه الكهنة والشمامسة في صفوف منتظمة : كل صف يتألف من خمسين شخصاً وهم يترغمون بالمدائح والتسابيح . وقد سار معهم نائب والى مصر وسار أمامهم جميعاً حاملو الطبول والأهواق - حتى إذا ما أشرفوا على القاهرة دقوا طبولهم ونفخوا أهواقهم ايذاناً باقتراب الموكب من القاهرة . ومما زاد الموكب رونقاً الشموع الموقدة والصلبان المرفوعة على عيدان والأناجيل الملفوفة في الأبروسقاريات المحمولة على أيدي الكهنة . وهكذا شارك الوالى الشعب القبطى فى احتفائه بالبابا الجديد .

١٨٨ - وكان من الطبيعى أن يستهل الأنبا كيرلس الثالث باباويته برسامة أساقفة للكراسى الشاغرة ، وقد تخير إذ ذاك الممتازين من الرهبان لهذه الكرامة التى هى خدمة فى أسمى معانيها . وأبرز هؤلاء الآباء الأنبا بولس البوشى أسقف باهلون ، الأنبا خريستودولس أسقف دمياط ، الأنبا يوساب أسقف فوه وكاتب سير باباوات الاسكندرية ، الأنبا يونس أسقف سمند المعروف بالكبير .

١٨٩ - ثم رأى أن يحافظ على صلات المودة التى استمرت على مدى الأجيال بين كنيسة والأنطاكية ، فبعث لبطريركها مار أغناطيوس برسالة الشركة - حياً فيها ثم أعلن له عن اغتباطه بوحده الايمان التى ترتبط بين الكنيستين وعن رغبته فى دوام هذه الوحدة . ثم قال لذلك رأيت أن أستعرض معك الإيمان الذى تتمسك به كنيسة الاسكندرية وأعرف منك إن كانت كنيسة أنطاكية تقره . أما الإيمان الذى تسلمناه من الآباء فهو الذى أعلنه مجمع نيقية المسكونى الأول البالغ عدد آبائه ثلاثمائة وثمانية عشر والذى صادق عليه آباء مجمع القسطنطينية المئة والخمسون المؤلفون للمجمع المسكونى الثانى وآباء مجمع أفسس المائتان وعلى رأسهم كيرلس الكبير فيلسوف المسيحية الذى رأس المجمع المسكونى الثالث . وهذا الإيمان بعينه هو الإيمان الذى جهر به بطل الأرثوذكسية الأنبا ديستقورس فى مجمع خلقيدون اللاتينى اليونانى وبهمنا أن نذكر لكم أن سلفكم العظيم البطريك ساويرس قد جهر بهذا الإيمان بعينه . وتحمل النفى فى سبيله ، وقد علمنا هؤلاء الآباء أن الله واحد (وحدانية الله) فى أقانيم

ثلاثة ، وأنه - تعالى - خلق البرية بحكمته وهو الذى يدير شئوننا وقد منحنا تمام الحرية لأنه لا يستبد بنا . ونحن نتمسك بهذا الإيمان ونلقنه أولادنا مغطسين إياهم فى جرن المعمودية ثلاثاً باسم الأب والإبن والروح القدس الإله الواحد . ونجد اشارة لوحدة الله المثلث الأقانيم فى الاصحاح الأول من سفر التكوين حيث يقول « لنصنع الانسان على صورتنا كشبهنا »^(١) وهذه الآية وردت فى أثرها الآية القائلة : « هوذا الانسان قد صار كواحد منا »^(٢) . وفى الآيتين نجد ضمير المتكلم فى صيغة الجمع . بينما يوجه ابراهيم الحديث إلى الثلاثة الذين قابلهم عند بلوطة ممراً بقوله : « ياسيدى إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك »^(٣) . مخاطباً الثلاثة بصيغة المفرد . وهناك أمثلة عديدة وردت فى أسفار العهد القديم تشير إلى وحدة الثالوث ولكننا نكتفى بما أوردنا . أما العهد الجديد فلا يشير فحسب إلى حقيقة الله الواحد المثلث الأقانيم ولكنه يعلنها صراحة . فحينما اعتمد المخلص من يوحنا المعمدان^(٤) وكان صاعداً من الماء ظهر الروح القدس فى شكل حمامة ورن صوت الأب من السماء قائلاً : « هذا هو ابنى الحبيب » وهذه هى التعاليم التى تسلمها أبائنا من رب المجد وسلموها إلينا بدورهم . لذلك يجب علينا أن نتمسك بها ونلود عنها . ومنها نعرف أن الله الأب قد أرسل ابنه الوحيد ليخلص به بنى آدم ، كما انبثق منه الروح القدس الناطق فى الأنبياء والمعلم للرسول والتلاميذ مذكراً إياهم بكل ما قاله لهم المخلص^(٥) . وهذا الإيمان بثالوث الأقانيم ووحدة الجوهر المقترن بما نؤمن به من تجسد الكلمة وانبثاق الروح القدس من الأب هو الذى به نتمسك هاتفين مع الأنبا ألكسندروس (البابا الاسكندرى الـ ١٩) : يا لعمق السر الذى يفوق الادراك البشرى ، الذى يقف أمامه الملائكة مبهوتين ويرتعد من عظمته الشياطين ، وتنزل من رهبته الأرض . هذا السر العجيب هو أن القاضى حوكم وظل صامتاً ، والتقدير قبض عليه ولم يبد حراكاً ، ورب الحياة ذاق الموت ودفن ليلاً الموت بموته وقيم الموتى معه ، والهيولى اتخذ جسداً وتحمل فى جسده هذا صنوف العذاب فى صمت دون أن يجازى معذبيه ، وغير المرئى أصبح مرئياً على هذه الأرض . هذا السر العظيم

(٣) تك ١٨ : ٣ .

(٢) تك ٣ : ٢٢ .

(١) تك ١ : ٢٦ .

(٥) يو ١٤ : ٢٦ .

(٤) لو ٣ : ٢٣ .

هو التجسد الإلهي الذي به بدا رب المجد في صورة العبد ، فهو إذن إله متأنس جمع بين اللاهوت والناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . لذلك نؤمن بأنه إله حق من إله حق ، وأنه نور من نور ، وهو الابن الأزلي خالق كل الأشياء وصانع العجائب ، وهو في الوقت عينه قد ولد من السيدة العذراء وغما تدريجياً ، وعرف معنى الجوع والشبع والراحة والتعب . وهذه هي التعاليم التي نتمسك بها ونعيش بمقتضاها ونصل عن طريقها إلى عرش النعمة » .

« وإنا ندعو الله أن يسعدنا بصلواتكم ، ونعرفكم أن عيون أبنائنا متشوقة إلى قراءة ردكم وقلوبهم متعطشة إلى معرفة ما سيتضمنه . ونرفع جميعاً المجد والتسبيح لإلهنا - الأب والابن والروح القدس - من الآن وإلى الأبد آمين » (١) .

وقد حمل هذه الرسالة البابوية إلى أنطاكية نفر من أساقفة الكرازة المرقسية . فقبلوا بكل مظاهر المودة والاحكام . وقد أبدى مار أغناطيوس فرحه لاستلام رسالة الشركة بأن جعلها تقرأ في جميع الكنائس الخاضعة لكرسيه الرسولي . ثم بحث برده مبيناً فيه أن الكنيسة الأنطاكية تتمسك بالإيمان عينه وتعيش بمقتضاه فتاهلت قلوب المصريين والأنطاكيين لدوام الألفة التي يدعمها الإيمان المشترك (٢) .

١٩٠ - ثم ذهب الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى برية شيهيت للتبرك بزيارة دير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقليد الذي سار عليه أسلافه . وقد قام هناك برسامة عدد من الكهنة والشمامسة . ثم غادر دير هذا القديس الجليل وقضى يومين في كل من أديرة هذه المنطقة المقدسة عاد بعدها إلى القاهرة .

١٩١ - ومن المؤلم أن هذا البابا الضليع في العلوم والقوانين الكنسية

(١) مجلة صهيون عدد ٦ سنة ١٩٤٩ (يونيو) ص ١٦٢ - ١٧٦ نقلًا عن مكاتبات كيرلس بن لقلق - مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت محفوظ بمكتبة الدار البطريركية بالقاهرة ص ٤٨ - ٦٠ .

(٢) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه بمطبعة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥١ ص ٢٣ .

قد تناسى فجأة ما يعتمد عليه هذا التبهر وما تقتضيه الكرامة الكهنوتية العليا من وجوب المحافظة على الرديعة التي ائتمن عليها . فاندفع في رسامة الأساقفة وغيرهم من رجال الكهنوت بالسيمونية بدلاً من اختيارهم لفضلهم وصلاتهم . وامتلات القلوب دهشة وأسى ولكن الألسنة ظلت صامتة أملاً في أن يكون الصمت أبلغ من الكلام فيرجع الأنبا كيرلس الثالث عن هذا التصرف الخاطئ . ولكن الصمت لم يجد نفعاً إذا استمر هذا البابا في سياسته السيمونية . بل لقد أضعف فيها إذ أخذ يطالب بمبالغ متزايدة كلما منحت له الفرصة لرسامة أى شخص .

١٩٢ - على أن السيمونية لم تشغل البابا الاسكندري عن واجباته الراعوية ، فبعث برسالة إلى ملك الحبشة اختتمها ببركته الرسولية ، ورسالة أخرى إلى مطران الحبشة . وهذه الرسالة الثانية لها قيمة عظيمة إذ تبين مدى تبهر الأنبا كيرلس الثالث من العلوم الكنسية ومن ادراكه الواجبات الراعوية . فبعد التحية وطلب البركات الإلهية للشعب الحبشى قال للمطران : « ليحميك الله من شرين هما حب السلطة وحب المال . وليفرح قلبك بشعبك وقلوب أبنائك بك ، لكي تقف معهم أمام عرش النعمة في يوم الديتونة بوجه ساطع ونفس وادعة وتقول في ملء الثقة « هوذا الأولاد الذين أعطيتنى » . ولهذا الغرض رأيت أن أكتب لك لأذكرك بما أنت عالم - أى لأذكرك بالمواظبة على تعليم شعبك وبمحبتهم محبة الأب لأولاده وبمعاملتهم برفق وحنان وتواضع ورحمة لأن الرجل الجدير برياسة الناس هو الرجل الذى يحبهم إلى حد الاستعداد للموت عنهم » ^(١) .

١٩٣ - ولم ينصب اهتمام الأنبا كيرلس الثالث على الأحباش وحدهم إذ قد بعث برسالة إلى أبنائه المقيمين في دمشق أيضاً ، قال لهم فيها : « لتمتلى قلوبكم بسلام الله الذى يفوق كل عقل ، وليضى عقولكم ويكللكم بالبهجة ، وليحل عليكم ذلك السلام الذى منحه رب المجد لتلاميذه حين قال لهم : سلامى أترك لكم . سلامى أعطيكم » ^(٢) وليملأكم قوة وتهليلاً . يا أولادى اذكروا على الدوام أنكم أبناء الله ثم استرسل في خطابه واعظاً

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة - المرجع السابق

ص ٣٢ - ٣٩ .

(٢) يو ١٤ : ٢٧ .

ومرشداً ومعلماً . فلما وصلت الرسالة البابوية قرئت في الكتدرائية ليسمعها كل المؤمنين . وقد قدم لها القارئ بهذه الكلمات : « إليكم رسالة نبيلة من القلاية المقدسة العامرة ، فاصفوا إليها بعقول واعية وقلوب صاحبة ، فهي رسالة من خليفة مارمرقس لتثبيتكم في الايمان . وقد وصلتنا من قداسته بنعمة الله فانتبهوا لها لتعملوا بما فيها كأطفال مطيعين لنصائح أبيهم . لأنه الوكيل الأمين الذى هيا لنا الطعام السماوى ، لذلك أنعشوا نفوسكم به لتزدادوا رسوخاً في المبادئ المسيحية . والله تعالى يجعلكم عاملين بالكلمة لا سامعين إياها فقط ... » وقد انتبه المؤمنون إلى هذه الرسالة بقلوبهم وبعثوا إلى البابا المرقسى بالرد التالى : « ليحفظ الله كرامة القلاية الأرثوذكسية التى لمعلمنا الموقر وراعينا الساهر ، كرسى القديس مرقس الذى ملأت تعاليمه القلوب لأنها سراج موضوع على منارة ... لقد وصلتنا رسالتكم الكريمة وقولت بما يليق من التبجيل . وحينما قرئت على مسامعنا قرر أبنائكم العمل بما فيها لأنها تهيئ للوصول إلى السعادة الأبدية ... وأن تلاميذ قلايتكم المباركة يرجون منكم أن تؤازروهم بصلواتكم ليجدوا بواسطتها الرحمة . وهم يطلبون إليكم أن تكتبوا إليهم ثانية وثالثة لكى يمنحهم الله تعالى الحكمة لأنكم كنتم الوسيلة لقيادتهم فى طريق الحق والحياة بما قدمتم لهم من ارشاد فى رسالتكم . وليجعل الله كلمتكم مثمرة إلى انقضاء الدهور ^(١) .

١٩٤ - ثم رأى الأنبا كيرلس الثالث أن واجبه لا يقتصر على الكتابة ، كما رأى أن القبط المقيمين فى فلسطين وإلى حدود الفرات فى حاجة إلى راع يسهر عليهم ويعلمهم ويثبت قلوبهم فى الشدة وفى الرخاء . فعزم بنعمة الله أن يرسم لهم أسقفاً . وقد عارضه فريق من أبنائه فى مصر بحجة أن أحداً من أسلافه لم يسبقه إلى هذا العمل . ولكنه أقنعهم بقوله إنه مادام عدد أبنائه فى الخارج يتزايد باستمرار وهو لا يستطيع اقتقادهم لبعده المسافة بينه وبينهم فلا بد من رسالة مطران لهم ليفتقدوهم ويرعى شئونهم . فاختار لهم راهباً ممتازاً ورسمه باسم باسيليوس وأشار عليه بأن يجعل أورشليم مقر كرسيه ^(٢) .

(١) البابا كيرلس الثالث ... ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) مجلة النهضة المرقسية للأقباط الأرثوذكس بالقدس السنة الأولى العدد الخامس (مايو ١٩٥٢) ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وبعد ذلك بشهور قليلة حل الصوم الكبير . فقصده مار أغناطيوس بطريرك أنطاكية ومعه البطريرك الأرمني إلى أورشليم لقضاء هذه الفترة المقدسة هناك . وقد استاء كلاهما في بادئ الأمر لوجود المطران القبطي وبخاصة لأن البطريرك الأنطاكي كان حتى ذلك الوقت مسئولاً عن رعاية الأقباط في البلاد المقدسة ، ولم يخفيا استياءهما . وكان الأنبا كيرلس الثالث قد توقع هذا الغضب فبعث بخطاب وهدايا نفيسة إلى البطريرك الأرمني الذي رفض كليهما رفضاً باتاً ، وبعث بخطاب إلى مار أغناطيوس الذي قبله بمودة وسرور . وقد قال البابا الاسكندري في خطابه إلى البطريرك الأنطاكي : « كيرلس - عبد يسوع المسيح وخدام الكرسي الجليل الذي للقديس مرقس - يجدد عهد المودة المسيحية مع الأب الوقور والوكيل الأمين والعامل الكامل ... رئيس كهنة السريان القديس أغناطيوس بطريرك المدينة العظيمة أنطاكية وكل الكرازة السريانية ... يا أخى أنكم تعرفون أن الآباء قد قرروا - منذ العصور الأولى - أن تكون أورشليم مستقلة . وليس من شك في أن الروح القدس أوحى إليهم بهذا القرار إذ رأوا بعين الايمان أورشليم وقد أصبحت محط أنظار المسيحيين جميعاً ، يتلاقى فيها اليونان والسريان والقبط . وغيرهم . وأنه لا يليق - في هذه المدينة المقدسة - أن يتسلط شعب على آخر . كذلك تعرفون أن الراعى الحق لا يتسلط على أراض وممتلكات بل هو مرشد للنفوس . وقد حدث في السنوات الأخيرة أن اجتاحت المجاعات مصر مما اضطر بعض القبط إلى هجرة وطنهم للسكنى في فلسطين حيث استقروا ومارسوا تجارتهم وصناعاتهم . وإذا قبلوا بالترحيب والاكرام وريحت تجارتهم قرروا الاقامة نهائياً في هذا البلد الشقيق . وبنوا كنائس جديدة لم تكن موجودة من قبل فاحتاجوا إلى رعاية روحيين لأنه لم يكن في استطاعة أحدهم أن يقام كاهن خارج حدود سلطة البابا المرقسى . وقد وقفت من أبنائى هؤلاء على جليلة الأمر وأدركت أنهم في أشد الحاجة إلى رعاية ، فلم يسعنى - بوصفى المسئول الأول عنهم - أن أصم أذنى عن طلبهم ورسمت لهم مطراناً لكى يرسم لهم الكهنة بدوره حرصاً على سلامتهم الروحية . وليس عملى هذا بغريب ، فأنتم لكم مطران فى مصر يرعى الشعب السريانى المقيم بيننا مع أننا جميعاً أرثوذكس ، وهذا ما يفعله البطريرك الأرمني أيضاً ، كذلك تعرفون يا أخى أن كل راع مسئول عن رعيته أمام الله ، وأنكم لن تجيبوا عن القبط يوم أن تقفوا

أمام عرش الديان لأنهم ليسوا رعيّتكم . ولما كنت مسئولاً عنهم فإنتى رأيت أن أبرئ ذمتى أمام البارى فى هذا الأمر الخطير هاتفاً نحوه تعالى « يا الله أعنى واغفر لى أثمى ... » ولقد اقتنع بطربك أنطاكية بوجهة نظر الأنبا كيرلس الثالث ومد يد الصداقة إليه . ولكى يؤكد هذه الصداقة لشعبه وللشعب القبطى بعث برسالة إلى أبنائه أعلن لهم فيها وحدة الإيمان الذى يربط بين الكرسيين الرسولين : الاسكندرية وأنطاكية ^(١) .

ولقد تمت رسامة باسيليوس مطراناً على أورشليم فى مستهل سنة ٩٤٧ ش (١٢٣١ م) . وملاك يتعاقب المطارنة القبط على هذه المدينة المقدسة وتتضمن رعايتهم فلسطين والأردن وسوريا وغيرها من بلاد الشرق الأوسط (أو ما يعبر عنها بكلمة « الشرق ») .

١٩٥ - وهذه الأعمال كلها تبين أن الأنبا كيرلس الثالث كان راعياً صاحباً . ولكنه رغم هذا استمر فى سياسة السيمونية . ومن العجيب أن يدعو للمطران المرسوم على الحبشة بأن يحفظه الله من حب المال ولا يدعو لنفسه بذلك ! فحق عليه قول الشاعر :

« يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم »

بل كيف استساغ هذا البابا المدرك لمسئوليته تفضيل صاحب المال على صاحب الصلاح والفضل ؟ هذه أسئلة حيرت المؤمنين - وما زالت تحيرهم - إذ لم يجدوا لها رداً قاطعاً . وقد حاول أصدقاء الأنبا كيرلس الثالث أن يلتسموا له المَعذرة بحجة أن الضرائب المفروضة عليه من الولاة كانت باهظة . ولكن اعتذارهم هذا واه لأن وسائل جمع المال متعددة . ولم يقتنع ضمير المسئولين من القبط بهذا العذر ، وأحسوا بالغيظ يتسرب إلى نفوسهم . فحاول الأساقفة أن يقنعوه بالعدول عن هذا الطريق المعوج ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وحينما رأوا الغضب الشعبى يتزايد بذلوا قصارى جهدهم فى تهدئة الخواطر صوناً للكرامة البابوية . وعلى ذلك استحسنوا أن يعقدوا مجمعاً جرياً على التقاليد القبطية التى قامت منذ العصر الرسولى

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ٨٢ - ٩٠ . قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة لبيتري رزق ص ٢٨ - ٢٩ .

والتي تحتتم أن يكون الحكم للجماعة لا للفرد . فانعقد هذا المجمع فى شهر توت ٩٤٧ ش فى القلعة (التى كان صلاح الدين قد بناها) ، وفى حضرة الوزير معز الدين . وقد حضر الأراخنة مع الأساقفة كما حضر بعض المسلمين من أصدقاء الوزير . وبعد التداول فى مسلك الأتبا كيرلس الثالث أصدر المجمع قراراً بتعيين الأتبا يؤنس البوشى أسقف بابلون وأحد أساقفة الدلتا مستشارين له ومديرين لأموال البطركية (١) .

١٩٦ - وكان صاحب السلطة إذ ذاك السلطان الكامل الذى أطلق حرية العبادة للمصريين جميعاً ، فسرى الشعور بالاطمئنان إلى قلوبهم . كذلك أنشأ هيئة من رجال الضبط لحراسة الطرق والموانى حرصاً على سلامة المسافرين والتجار . كما عنى بحفر القنوات وإقامة الجسور لتحسين حالة الزراعة فى البلاد . وفوق هذا كله فقد بنى مدرسة ضخمة أطلق عليها اسم « المدرسة الكاملية » وجرباً على تقاليد أسرته جمع حوله عدداً من العلماء والأدباء يجتمعون به فى قصره مساء كل خميس للمناظرة العلمية والأدبية (٢) .

وحدث أن الملك الكامل كان فى الاسكندرية . وفى طريق عودته إلى القاهرة ذهب إلى برية شيهيت وزار أديرة الأتبا مكارى الكبير هو وحاشيته . ورحب بهم الرهبان واستضافوهم عدة أيام بمودة وإكرام . ولقد سر الملك الكامل من كل ما رأى وأحس ، فرغب فى أن يكرم الرهبان بدوره ، وعلى ذلك منحهم ثلاثمائة أردب من القمح والشعير ومائة من الفول ومائة من الترمس . وفوق ذلك فقد أعطاهم مرسوماً يتضمن إعفائهم من كل ضريبة وأيلولة تركة الراهب بعد وفاته إلى الدير الذى ينتمى إليه (٣) .

وفى مثل هذه الفترة من التقدير والاستقرار سادت المودة المتبادلة بين القبط والمسلمين حتى أنهم كانوا يساهمون فى حياة المسلمين الاجتماعية . ومن أروع الأمثلة على هذه المساهمة أن المسلمين فى اسنا وأسوان اعتادوا دعوة القبط فى أفراحهم وأعراسهم . فكان القبط يسىرون أمام موكب

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة - ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) تاريخ مصر ... (بالانجليزية) لستانلى لاین پول ص ٢٣٠ .

(٣) أديرة وادى النظرون (رسالة مارمينا السادسة) للدكتور منير شكرى ص ٢٨٦ .

العروس فى الشوارع والأسواق وهم يوصلونها من بيت أبيها إلى بيت عريسها وفى سيرهم كانوا يغنون باللغة القبطية الصعيدية ^(١). ولا يستبعد أن هذه الأغاني التى كانوا يترغنون بها كانت تتضمن ألحاناً كنسية .

كذلك أبدى المسلمون تقديرهم للعظيم للأطباء النصارى ، فكانوا يطلقون على حنين بن اسحق لقب « رأس أطباء عصره » فى حين أن وهبة الله بن تلميذ كان فى رأيهم « أبو قراط عصره وجالينوس دهره » ^(٢) .

١٩٧ - ومن المؤلم جد الألم أن الملك الكامل كان كالنار التى لا تخلف غير الرماد لأن ابنه العادل كان شاباً مستهتراً لا يقدر المسئولية إلى حد أن الشعب ثار عليه واضطره إلى التنازل عن الملك بعد سنتين من ارتقائه . فخلفه أخوه الصالح أيوب . وكانت الستتان اللتان حكم ليهما العادل فترة من القلاقل ، ومع قصرها فقد وجد فيها الأنبا كيرلس الثالث فرصة للخروج على حكم المجمع والعودة إلى سياسته الخاطئة وهى السيمونية . فعاتبه المطارنة ورجوا منه احترام القوانين الكنسية . ولكنه لم يصغ إليهم ، فثار الشعب ثورة جارفة بقيادة راهب نزيه اسمه بطرس ابن التعبان كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى القبط والمسلمين على السواء . فقام بحملة علنية ضد البابا كيرلس متهماً إياه بانتقضة عهده . وكانت كلماته ملتهبة فاستثارت الشعب كله كما اهتز لها حكام البلاد حتى أنهم أرادوا أن يحاكموه . ولكن المطارنة أقاموا من أنفسهم سياجاً حوله ورفضوا أن يسمحوا بوقوفه أمام المحاكم المدنيين حرصاً منهم على استقلال الكنيسة ^(٣) . واجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ^(٤) حيث تشاوروا معاً . وبعد التداول غصد الأنبا بولس البوشى إلى باباه ورجا منه الاعتزال فى أحد الأديرة ريثما تهدأ العاصفة فاستمع له وقصد إلى دير الشمع .

١٩٨ - على أن الذى لا مرأ فيه هو أن الأنبا كيرلس الثالث كان

(١) « أهل الامة فى الاسلام » ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ١٧٠ .

(٢) شرحه ص ١٨٢ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٥٦٠ .

(٤) الكنائس القبطية الأثرية فى مصر لبطلر (بالانجليزية) ج ١ ص ٢٨٣ .

شخصية عجيبة ، لأنه رغم نزعته إلى السيمونية ورغم خروجه على حكم المجمع ، قد رأى أن واجبه يحتم عليه تعليم الشعب . فوضع كتاباً عن سر الاعتراف أطلق عليه اسم « المعلم والتلميذ » يتألف من اثنين وعشرين فصلاً في قالب السؤال والجواب ، بين فيه القيمة الروحية للاعتراف مما جعل الكنيسة تضعه ضمن أسرارها .

ولم يكتف الأنبا كيرلس الثالث بهذا الكتاب ولكنه جمع كل ما تسنى له جمعه من القوانين الكنسية الخاصة بالأسرار السبعة إذ لاحظ أن الشعب القبطي كاد أن ينسى قوانين كنيسته وأسرارها . وقد استهل غبطته هذه القوانين بالمقدمة التالية : « باسم الآب والابن والروح القدس : الله الموحد الجوهر المثلث الأقانيم ، مبدع السماوات والأرض . هذه القوانين تستهدف تثبيت المؤمنين لما يجب أن يتبعوه برعاية باهاهم وأساقفتهم وكهنتهم من آباء الكنيسة المصرية . باركهم الله هم وشعبهم وكراسيهم ، وألهمهم العمل بمقتضى هذه القوانين الأبوية حفظاً للإيمان الأرثوذكسى وتقاليد الكنيسة المقدسة . وكل من يخالف هذه القوانين أو يحيد عنها فليكن محروماً من الكنيسة الجامعة مقطوعاً من جسمها بفم الثالث الأقدس : الآب والابن والروح القدس ، وبفم الثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بنيقية - بطريركاً كان أو أسقفاً ، شخصى (أنا) أو أحد أساقفتى . حمانا الله جميعاً من هذا المصير آمين ولربنا التسبيح والشكر دائماً » .

« ولقد رأيت أنا كيرلس الحقير بين رؤساء الكهنة ، المدعو بنعمة الله وتزكية السيد المسيح بطريركاً للكرسى المرقسى ، أن أوضح الواجبات الملقاة على عاتقى وعاتق الأساقفة - شركائى فى الخدمة الرسولية . فإنا جميعاً مسئولون عن التمسك بالعقيدة المقدسة التى تسلمناها من الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين بنيقية بتأييد الآباء فى مجمعى القسطنطينية وأفسس إذ أنها من وحى الروح القدس . ونحن نعبر عن مسئوليتنا هذه فيما نتلوه من قداسات وشعائر ... وعقيدتنا هذه هى : أن المسيح هو الكلمة المتجسد الذى وحد بين اللاهوت والناسوت وحدة بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ، وأنه أقنوم واحد بمشيئة واحدة . لذلك نستطيع أن نصفه بكل الصفات الإلهية وكل المميزات الانسانية . هذا ملخص عقيدتنا وحجر زاويتها . وكل من حاد عنه أصبح غريباً عن الكنيسة الأرثوذكسية » .

وبعد هذا التمهيد قسم البابا الاسكندري كتابه عن القوانين الكنسية إلى اثني عشر فصلاً عن انتخاب الأساقفة وتكريسهم ورسامة الكهنة ، ثم عن ترتيب الأصوام ، وعما يجب اجراؤه عند محاكمة الاكليروس وحقوق الاكليروس وواجباته .

١٩٩ - ومن النقاط الشيقة في هذا الكتاب ما جاء في الفصل الخامس إذ يتعلق بمطران غزة . فقد استهل الأنبا كيرلس الثالث هذا الفصل بقوله : « إن توقيع مطران غزة ضروري مع توقيع الكهنة الخاضعين لرياسته ، إذ أن التوقيع اعلان منهم بأنهم موافقون على ما قرره الكنيسة الأرثوذكسية ، وهم ملتزمون بقانون إيمانهم ، ويرفض ما لم تقبله مجامعها . فإن لم يقبل مطران غزة وكهنته هذا الوضع القانوني كانوا مقطوعين من جسم الكنيسة » . وإن حديث البابا الاسكندري بهذه الصيغة يثبت لنا أن غزة كان لها أسقف محدود ضمن أساقفة الكرازة المرقسية (١) .

٢٠٠ - وانتقل الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى الحديث عن واجبات الأساقفة وصلاتهم ببعضهم البعض . ثم تحدث عن الصيغة المقدسة (المعمودية) ، فالزواج والميراث والوصايا . وكان حديثه عن هذه الموضوعات مفصلاً ، فهو - والحالة هذه - صورة صادقة للعادات التي كانت شائعة وقتذاك . ثم استكمل البابا المرقسي حديثه بالكلام عن الكهنة والشمامسة ، فبين شروط انتخابهم والسلوك المثالي الذي يجب أن يسلكوه ، وصلاتهم ببعضهم البعض وبالأساقفة والشعب .

وفي النهاية لخص الأنبا كيرلس الثالث الغرض من كتاباته بقوله : « لقد جاء هذا الكتاب تلبية لرغبة الشعب وحرصاً عليه . وأن الراجب على كل مؤمن أن يطيع ما جاء فيه . ولا حق لبطريك أو مطران أو كاهن أو

(١) كان مطران الكرسي الأورشليمي يقال له : « مطران غزة » في أول سني الرسامة التي بدأها الأنبا كيرلس الثالث - راجع « تاريخ الكرسي الأورشليمي » للشماس كامل صالح نخلة في سلسلة مقالات نشرها بمجلة النهضة المرقسية التي كانت تصدر في عهد نيافة الأنبا ياكوبوس (١٩٤٧ - ١٩٥٧) والنقطة المشار إليها وردت في العدد السادس من السنة الأولى الصادر في القدس في يونيو ١٩٥٢ ص ١٨٩ .

علمانى أن يحيد عنه لآى سبب . وكل من خالفه تعرض للعقاب . وإننا نضرع إلى إلهنا الذى وعد أن يكون معنا إلى الانتضاء وأعلن أنه فى وسط اثنين أو ثلاثة مجتمعين باسمه ، وأعطى رسله السلطان أن يحلوا ويربطوا ، نسأله أن يعيتنا ويهدى خطراتنا وينير بصائرنا - جميعاً - رعاة ورعية . له المجد الدائم من الآن وإلى دهر الداهرين . آمين « ^(١) .

« نقلت هذه النسخة عن القوانين التى وضعها لنا الرسل المباركون والآباء الأبرار ، وعن التعليمات التى أذيعت من حين إلى حين بنياناً للمؤمنين والله يبارك المطارنة والكهنة والمؤمنين الخاضعين لرياستهم » .

« ولقد وافق إخوتنا المطارنة على هذه النسخة ووقعوا عليها فى العشرين من شهر توت المبارك سنة ٩٥٥ للشهداء الأظهار ، لتحل علينا بركاتهم بنعمة الله ، والمجد لربنا الذى يمنحنا الفهم » .

٢.١ - ولقد دامت باباوية الأنبا كيرلس الثالث سبع سنين وتسعة شهور أثبت فيها أن الحياة لا تقاس بالدقائق والساعات ، ولا حتى بالشهور والسنوات . وإنما تقاس بالجهد والعمل . لأنه رغم سياسة السيمونية قد أنتج فى هذه السنوات القصيرة ما لا يتتجد غيره فى ضعف هذه المدة ^(٢) .



(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) « تاريخ البطارقة » مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهراموسى ... ج ٢ ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

حملة الشعلة

(أ) شخصية مغناطيسية

- | | |
|--------------------------------------|-----------------------------------|
| ٢٠٢- عصر مثير . | ٢٠٧- المسير المحتوم أو الحرية . |
| ٢٠٣- بولس البوشي ومميزاته . | ٢٠٨- تفسير سفر الرؤيا . |
| ٢٠٤- رسالته أسقفًا . | ٢٠٩- الاهتمام بالمواضيع الدينية . |
| ٢٠٥- اشتغاله بالتأليف وهو في الدير . | ٢١٠- ميامر خاصة بالأعياد السيديّة |
| ٢٠٦- تساؤل يحتاج الى الاجابة . | ٢١١- جهلنا بسيرته . |

٢٠٢ - كان السلام مستتباً في القرن الثالث عشر . فاستمتع القبط بما ساد من طمأنينة واستقرار ، واستطاعوا أن ينتجوا في العلوم والفنون . فظهر في هذا القرن عدد غير قليل من العلماء والفنانين الذين وجدوا الفرصة سانحة للتعبير عما في نفوسهم من ملكات . ذلك لأن النفس الآمنة من الخوف والاضطهاد والحرب تستطيع أن تسعى وأن تعبر دون قلق . لذلك استرسل القبط في التعبير عما يحسون من اندفاعات فنية وعلمية وسبروا غور الأبحاث الروحية والفلسفية ^(١) .

٢٠٣ - ومن أبرز المفكرين في هذا العصر الأنبا بولس البوشي أسقف بابلون الذي ترهب في أحد الأديرة الواقعة بمنطقة الفيوم واشتهر بين الجميع بالعفاف والاخلاص للكنيسة العريقة والتفوق في البحث العلمي . وكان متوقد الغيرة متفانياً في الخدمة ، فصبغت غيرته كتاباته بالقوة حتى أن خطبه كانت تلهب الأفئدة فتفعل فيها فعل السحر كذلك كان راهباً حكيماً

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ١٣ ، أما الأب يعقوب موزر (الهولندي) فيصفه كما يلي : « رجل نزيه ، محب لشعبه ، بعيد عن الأهواء الحزنية ، لا يعرف غير مصلحة الكنيسة ورفع شأنها ، عالم جليل طويل الباع في المعارف الدينية ... كاهن تتقد في قلبه غيرة الرسول بولس ، منسرقدير على شرح الأقوال الإلهية والتعليق عليها ، كاشفاً غوامضها ومفصلاً لمشكلاتها ، خطيب ديني مصتق يرفع القلوب النافرة إلى المعالي ويلهبها ، مجادل ماهر ذو ذهن وقاد ، قوى المنهج ، وردوده أشبه بالخمسة الحجارة المكساة في جراب داود الغلام عند مبارزته جليات الجهار راجع « صور من تاريخ القبط » مطبوعات جمعية مارميثا العجايبى - الإسكندرية ١٩٥٠ ص ٢١٣ .

متزناً عرف كيف يصارع نفسه ويخضعها لإرادته . فلما خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا يؤنس السادس كان ضمن المرشحين لها . على أنه أثر أن ينزل ويترك الميدان لحرصة على كرامته الكهنوتية وعلى هدوئه النفسى اللازم لتأملاته وصلواته .

ويجهل التاريخ كل شئ عن طفولته وشبابه كما يجهل يوم انتظامه فى سلك الرهبنة . والمتداول بين معاصريه أنه رسم قساً فى الدير الذى ترهب فيه . وفى الفترة التى كانت المشاورات دائرة حول من يستحق أن يكون خليفة لمارمرقس ظل متزواً فى دير مشغلاً بالعلم والصلاة ، زاهداً فى كل رياسة . فبرهن بمسلكه هذا على حرصه على سلام الكنيسة . وكان صديقاً صدوقاً للراهب داود بن لقلق ، وظل على صداقته بعد ارتقاء صديقه السدة المرقسية . بل إن ولاء لهذا البابا الاسكندرى كان خالصاً إلى حد أنه كان يناصره حتى فى الآونة التى كان الشعب يثور فيها عليه كما كان يقف إلى جانبه ليسدى إليه النصع ويذود عن كرامته بالعمل على تهدئة خواطر الثائرين من الشعب .

٢٠٤ - وكان تقدير الأنبا كيرلس الثالث لصديقه بالغاً دفعه إلى أن يرسمه أسقفاً على بابلون ليكون إلى جانبه . ولقد أدرك الأنبا بولس البوشى عظيم الأمانة التى استودعها إياه باباءه ، فجاهد لحفظ كرامة الكهنوت فى كل المناسبات ، كما عكف على تعليم الشعب ورعايته فى تواضع . وقد عرف الشعب فضائله . فلما انعقد المجمع للتداول فيما يجب اتخاذه بإزاء سيمونية الأنبا كيرلس الثالث ، اختار الأنبا بولس البوشى واحداً من المطرانين المسئولين عن الشئون الادارية فى الكنيسة .

٢٠٥ - ولقد انشغل الأنبا بولس البوشى أيام أن كان راهباً فى الدير بتأليف الكتب ومن حسن الحظ أن كتبه لا تزال جميعها موجودة ، ولو أنها لا تزال مخطوطة مع الأسف الشديد لم يطبع منها واحد للآن ، وبعض هذه الكتب يعالج فيها الموضوعات اللاهوتية : ١ - رسالة عن « الأدلة العقلية التى توصل إلى معرفة الإله المتأنس » ، وقد استهدف من هذه الرسالة توضيح سر التجسد فقال « إن هذا السر وإن يكن فوق الادراك إلا أنه من الممكن أن يلمح العقل قبساً منه عن طريق التأمل والتفكير العميق والمنطق المسلسل » . لذلك جند كل الحجاج التى تعلمها عن الآباء ونظمها بشكل

منطقى متتابع تدعيماً للإيمان بتجسد ابن الله من السيدة العذراء . وهذا البحث لا يزال محفوظاً فى مكتبة بودليان بجامعة أوكسفورد رقم ٣٨/٥ . وهناك مجموعة من المخطوطات محفوظة بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة بعنوان « مجموعة الابحاث الدينية » تحوى مقالاً موضوعه « كتاب التجسد » وقد يكون هذا الكتاب ملخصاً للنسخة الأولى ، إذ أن المخطوطين مهملتان لم يتناولهما البحث لأن ١ وهذه المجموعة الموجودة فى القاهرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر مما يدل على أنها منقولة عن الأصل ، ولو أن ناقلها مجهول . فالتقول بأنها ملخص للمخطوطة المحفوظة بأكسفورد إنما هو مجرد استنتاج . ٢ - كتاب عن العلوم الروحية - والنسخة المتضمنة لهذا البحث محفوظة بمكتبة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان هوادى النطرون رقم ٣٧ / ٤ . وهذه المخطوطة تتألف من ٣٤٧ ورقة ، والتاريخ المكتوب عليها هو سنة ١٥٦٧ ش - (١٨٦٠ م) . ومعنى هذا أن القبط عنوا بكتابات الأنبا بولس البوشى حتى القرن التاسع عشر - أى بعد انتقاله من هذا العالم بستة قرون على الرغم من أنه لم يكن لديهم مطبعة حتى ذلك الوقت . أما الآن والمطابع متوفرة لديهم فلا توجد نسخ متداولة من كتابات هذا الأسقف البحاثة !

ولم يكتب الأنبا بولس بما وضع من كتب ، بل أراد أن يدعم مكانة ، الأنبا كيرلس الثالث بأن أزره فى السهر على تعليم الشعب وذلك بمعاونته فى وضع كتابه : « المعلم والتلميذ » . وكانت مساهمة الأنبا بولس هى أنه جمع كل ما كتبه آباء الكنيسة القبطية عن سر الاعتراف ووضع ملخصاً لها . وقد أوضح هذا الملخص أن الاعتراف بالخطايا - على من منحهم المسيح له المجد سلطان الحل والربط - إنما هو طب روحى ، وأن آبا الاعتراف طيب روحى هدفه ابراء النفوس العليلة مما تشكو من أسقام وإعادة الصحة لها . لذلك سن الآباء أن يعرف الأب الروحى شخصية المعترف ليقدّم له الدواء الذى يفيد شخصياً والذى قد لا يفيد غيره . ولقد صادف هذا الكتاب من الرواج ما جعله ينتشر بين جميع طبقات القبط : كذلك عنى كل دير ينقل نسخة منه والاحتفاظ بها لخير الرهبان . وجميع هذه النسخ المنقولة محفوظة فى الأديرة ، كما أن المكتبة البطريركية تحوى نسخة أيضاً . على أنه رغم وجود نسخ مخطوطة متعددة من هذا الكتاب فلا توجد نسخة مطبوعة إطلاقاً !

٢.٦ - وهنا يحق لنا أن نتساءل عن السبب فى هذا الإهمال - فإن كان القبط لا يزالون يتصفون بالميل إلى الروحيات كأسلافهم - فلماذا لا يطبعون كتب آباءهم ؟ لقد عنوا بنشر كتب الأنبا بولس البوشى حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتداولوها فى وقت لم تكن لهم مطبعة . أما الآن وعندهم المطابع العديدة فإنهم لا يتناقلونها . ومثل هذا الوضع يستدعى التساؤل ... أما أن القبط لا يزالون ذوى نزعة روحية فهذه حقيقة لا شك فيها تبدو لكل من يرقبهم فى نواحي نشاطهم المتعددة . فالقوى الداخلية لم تتغير وإنما تغيرت المؤثرات الخارجية . ذلك أن الدعايات التى روج لها الغرب بينهم والتى سرت فيهم سريان السموم حولتهم عما كتبه آباؤهم ليكتفوا بقراءة الكتب الدخيلة زعماء منهم أنها أحدث عهداً وأقوى منطقاً فهى التى تروى ظاهراً . على أنه رغم ما فعلته هذه الدعايات المفرضة المضللة فى بعض الأحيان فإن فجراً جديداً قد انبثق على الكنيسة العتيقة ، إذ قد استيقظ الوعي القومى واستيقظ معه الاعتزاز بتراث الآباء والأجداد وبوجوب المحافظة عليه .

أما كتاب « المعلم والتلميذ » التى انشغل البابا كيرلس الثالث والأنبا بولس البوشى بوضعه فهو مأخوذ عن كتاب « الرؤوس » الذى لا تزال فجهل واضعه . ويبين هذا الكتاب أهمية « المعلم الروحى » أو « مرشد الضمير » الذى يقود تلميذه بعيداً عن الأمواج المتلاطمة والتيارات العنيفة ويصل به إلى ميناء السلام والاستقرار .

٢.٧ - ومن الموضوعات التى شغلت القبط خاصة والشرقيين عامة موضوع المصير المحتوم والحرية الإنسانية ، وكان هذا الموضوع الشغل الشاغل للمفكرين - وعلى وجه التحديد - المفكرين الذين عاشوا ما بين القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر . ولما كان الأنبا بولس البوشى مرشداً للنفوس ، فقد رأى أن يدرس هذا الموضوع درساً وافياً من الناحيتين : العقلية والوجدانية . ثم وضع كتاباً ضمنه بحثه هنا ، وانتهى فيه إلى أن الله تعالى هو الذى منح الإنسان الحرية ، فحق على الإنسان أن يعمل بهذه الحرية التى هى منحة إلهية متوخياً رضى الله الذى منحه هذا الحق .

٢.٨ - وإلى جانب هذه المؤلفات اللاهوتية والفلسفية فقد وضع الأنبا بولس تفسيراً لسفر الرؤيا فإن هذا السفر كان - ولا يزال - مثيراً للفكر .

فحاول الآباء فى مختلف العصور أن يسبروا غور تشبيهاته واستعارته ، وأن يستشفوا المعانى الكامنة خلفها . ومن أقدم المخطوطات التى تعالج هذا الموضوع مخطوطة باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية رقم ٢٨ محفوظة بمتحف بيير بونت مورجان بنيويورك (ورقمها فى الدليل هو ٥٩١) يرجح أن كاتبها هو الأنبا كيرلس الكبير (البابا الاسكندرى ال ٢٤) . وتدل هذه المخطوطة على مدى اهتمام آباء الكنيسة المصرية بسفر الرؤيا . فالأنبا كيرلس الكبير قد عاش فى القرن الخامس ، بينما عاش الأنبا بولس البوشى فى القرن الثالث عشر ، وخلال القرون الثمانية التى تفصل بين هذين الحبرين فى الزمن لا فى الفكر حاول غيرهما أن يوضح سفر الرؤيا الذى يبدو أنه خلب ألباب المفكرين من الآباء على مدى الأجيال . والتفسير الذى قدمه بولس البوشى لهذا السفر الساحر يضعه فى مرتبة أعظم المفكرين من آباء الكنيسة المصرية . فحافظ بذلك على صيت الكنيسة ومكانتها العلمية فى عصر يصفه المؤرخون ضمن العصور المظلمة .

٢٠٩- وهناك موضوع آخر لا يزال أرضاً بكرّاً للمشتغلين بالدراسات القبطية ، وهذا الموضوع هو الاهتمام البالغ الذى كان يبديه القبط والمسلمون على السواء بالأمور الدينية . ولعظم عنايتهم بهذه الأمور كانوا يجتمعون معاً ليتناقشوا ويتناظروا . كذلك كتبوا الرسائل العديدة فى الروحيات . وفى هذه الرسائل نجد المسلم يلقب « بالسائل » لأنه يطرح الأسئلة وإذا لم يقتنع برد من الردود اتخذ منه سؤالاً جديداً . بينما يوصف القبطى « بالمجيب » إذ عليه أن يعطى اجابة صريحة واضحة . ومن الطريف أن المناظرات كانت تقام دائماً بأمر السلطان وفى حضرته . وإلى جانب هذه الاجتماعات الرسمية التى يدعو إليها صاحب الحكم فى مصر ، كانت هناك مداورات ودية ، إذ كان المتصوفة من المسلمين يسألون إخوانهم القبط عن أسرار إيمانهم ، فيسارع القبط إلى الاجابة عليهم . وإن الاطلاع على ما كتب فى هذه الموضوعات ليشبع النفس إذ يعرف القارئ مدى تعمق القبط فى دراسة دينهم وحسن دفاعهم عنه . ولقد كان بولس البوشى من أبرز « المجيبين » الذين أنجبتهم القرن الثالث عشر . وما يروى عن هذا الاسقف أنه دعى ذات يوم هو والأنبا كيرلس الثالث للمناظرة أمام السلطان الكامل بن العادل أيوب . وقد أعجب هذا السلطان بما قاله كل من البابا والأسقف

فقامت بيته وبيتهما صلات متينة من المودة ولقد استجاب الأنبا بولس البوشي لرغبة الشعب فوضع كتاباً بعنوان « كتاب المناقشات » لا تزال نسخة واحدة منه باقية للآن . ويتضمن هذا الكتاب أبرز الأسئلة التي وجهها إليه المسلمون والأجوبة عليها .

٢١ - على أن الأنبا بولس لم يكتف بهذه الأبحاث إذ قد وضع ميامر خاصة بالأعياد السيديّة ^(١) ومن حسن الحظ أنه يوجد عدد غير قليل من النسخ لكل ميمر ولكنها جميعاً محفوظة في الأديرة . وقد نشر القس منقريوس عوض الله هذه الميامر السيديّة في سلسلة مقالات في مجلة تعاليم الكنيسة التي كان يصدرها ثم جمعها كلها في كتاب قائم بذاته . ولكي يرى القارئ كيف أن آباء القرون الوسطى سبروا عمق الروحانيات بنفس الأغوار التي سبرها آباء القرون الأولى ، ولكي يدرك بهذه الرؤيا أن الكنيسة القبطية ألحقت المفكرين الروحانيين في مختلف العصور سواء منها العصور التي يصفها العالم بأنها « عصور ذهبية » أو تلك التي يقولون عنها بأنها « عصور مظلمة » نورد للقارئ بعض سطور من ميمر البشارة (وهو أول عيد سيدي كبير) ثم من ميمر العنصرة (وهو سابع الأعياد السيديّة الكبرى وآخرها) . قال بولس البوشي : « نؤمن أن الكلمة مولود من الآب ميلاً أزلياً لا بدء له ، وقد شاء أن يتجسد من القديسة البتول مريم من بيت داود من سبط يهوذا من زرع ابراهيم لكيما يستطيع العالم مشاهدته ولكي يخلص الشبه بشبهه ^(٢) ، فأرسل أمامه رئيس ملائكة مقدس للبشارة منذراً بأن المتجسد هو الرب لأنه حيث يكون السيد الملك السماوي هناك يكون خدامه العلويون الروحانيون » تفسير اسم جبرائيل في اللغة العبرانية رجل الله ، وهو سر التجسد لأن الإله متحد بالإنسان بالتجسد العجيب ^(٣) . « لما دخل عليها الملاك قال لها افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك . أعطاه الملاك سلاماً من الله مملوفاً فرحاً

(١) هي الأعياد الخاصة بالسيد المسيح له المجد كعيد الغطاس مثلاً - راجع ص ٥١ - ٥١١ من الجزء الثاني لهذا الكتاب .

(٢) علق جناب القس منقريوس على هذا التعبير بقوله : « أي أن أقتوم الابن اتخذ شكل الإنسان بتجسده لكي يخلص الإنسان بالآلام وهو حامل شكل الإنسان » .

(٣) أي أن معنى اسم جبرائيل « رجل الله » يشير صراحة إلى التجسد الذي جمع بين اللاهوت والناسوت

ليزيل حزن حواء ... » قال لما سمعته اضطربت من كلامه وفكرت قائلة ما هذا السلام ، أعنى أنها لم يكن لها مخاطبة أحد لأنها تربت في الهيكل في ستر وسكون عابدة الله ليلاً ونهاراً . ثم أن الانجيل أظهر فضلها في كونها لما اضطربت من صوت الملاك لم تدع عنها التحفظ الذي ألقته والسكون الذي تربت فيه . ولم تصرخ ولم تدفع كلامها بالجملة بل فكرت في نفسها لا غير ... » فصرقت أشواقها للرب . وتاقت للقول الذي أخبرها به الملاك ... وأجابته قائلة هأنذا أمة للرب فليكن لى كقولك ، وعند قولها هذا للتو حل فيها شمس البر . لأنه لم يرد أن يفضب الطبيعة التى أعطاهها تخيير الإرادة وسلطة الحرية منذ البدء حتى طلبت هى ذلك أولاً بشهوة من الله من تلقاء الروح ... » (١)

هذه مقتطفات عابرة من الميمر الخاص بالبشارة أما عن العنصرة فقد جاء في الميمر ما يلى : « ... وهكذا نؤمن أن الثالوث الأقدس لاهوت واحد لأن الله موجود ناطق حى سرمداً . فإذا قلنا الله فإنما نقول الأب والابن والروح القدس لأن الخواص لا تزيد عن ذلك ولا تنضم أقل من هذا ... وقد شبهوا هذا الاتجاه بنار وحرارة متولدة منها ونور منبعث . فالنار واحدة والخواص ثلاثة لجوهر النار الواحد ... وحيثما يوجد اللهيب يوجد معه دائماً الحرارة والنور ، وإن كان القياس ليس هو كالمقاس به فى كل أنحاء وإنما يراد به وجه واحد لا غير . لأنه لو كان القياس لا يخرج عن المقاس بشئ فى كل أنحاء كان إذن هو الشئ نفسه الذى يراد به القياس . فالثالوث يتعالى عن كل التشبيهات لكمال خواصه ... وإن قال قائل لما أثبتتم أن الله متكلم حى والكلمة والحياة قديمان معه فأوجبتم لكل صفة اقترماً فهو إذن سميع عليم بصير ، فى حالة الأزلية والقدم فأوجبوا لهذه الصفات أقانيم زد عليه قائلين إنما الكلمة والحياة صفتان ذاتيتان وأما غيرها فهى أفعال صادرة عن الصفات لأنه لا يكون واضح الناموس إلا متكلم ولا يأمر وينهى إلا ناطق ولا سميع عليم إلا حى . فيصد عنه لهذه الصفات وغيرها لافتعالها منه ... » .

(١) علم الآباء منذ العصور الأولى بأن التجسد تم فى اللحظة التى سلمت فيها العذراء تسليماً كاملاً للبشرى الإلهية ووافقت بفرح وشوق روحى على حلول الكلمة المتجسد فى أحشائها : فالتجسد إذن لم يتم غصباً فى الطاهرة مريم بل تحقق برغبتها وحررتها .

وبعد أن تحدث الأتبا بولس البوشى عن عمل الروح فى الأنبياء أشار إلى ما قيل من أن « الروح القدس الذى كان على ايليا تضاعف دفعتين على أليشع تلميذه » ^(١) ثم تسأل : « كيف يفسر ذلك وايليا إلى اليوم الأكبر من اليشع ؟ فاعلم إذن أن الكتاب لم يقل شيئاً باطلاً وإنما تضاعف الروح فى فعل الآيات . ذلك أن ايليا صنع سبع آيات مشهورة وصنع اليشع أربع عشرة آية معلومة . وقد أقام ايليا بصلاته ميتاً واحداً وأقام اليشع اثنين . إلا أن فعل الآيات ليس كما يشاء النبى بل كما يشاء الروح الفاعل فيه » ^(٢) .

« ولنتخسر الآن فى فعل الأنبياء ونتكلم فى فعل الروح القدس مع الرسل الأطهار ونبين ما هو التفاضل الذى بينهم وبين الأنبياء . فتقول إن أولئك كانوا يتكلمون حين حلول الروح القدس عليهم بما هو مزعم أن يكون ، وأما الرسل فكان الروح حالاً فيهم دائماً مستمراً ، ذلك لأنهم تقلدوا تدبير كل المسكونة بالبشرى الانجيلية والتعليم والتعمير ووضع يد الرئاسة وفعل الآيات » . « ... والروح القدس هو المتكلم عن الآب الآخذ بما للابن المرشد إلى الحق الناطق فى التاموس والأنبياء والرسل والقديسين جيلاً بعد جيل بلا انقضاء ... هو فصاحة الرسل الأطهار فى النداء بالبشرى ... فقال عنهم خرجت أصواتهم فى كل الأرض وبلغ كلامهم أقطار المسكونة » ^(٣) .

« هؤلاء الرسل الجميلون فى انذارهم بالخيرات العتيلة كما تنبأ أشعيا . قائلاً : ما أجمل أقدام المبشرين بالخيرات . البنابيع الحلوة التى أخبرنا بها موسى أول الأنبياء قائلاً أنهم لما عبروا بحر سوف نزلوا على اثنى عشر عين

(١) ٢ ملوك ٢ : ٩ .

(٢) أورد الأتبا بولس البوشى مختلف الآيات المعبرة عن عمل الروح القدس ، وإليك بعضها : تك ٢: ١-٢ ، ٢: ٦٠ ، ٢٨: ٤١ ، خر ٢: ٢١-٥ ، عد ٢٩: ١١ ، تث ٩: ٢٤ ، اصم ٦: ١٠ ، ١٤: ١٣ ، ١٦: ١١ ، أش ٢: ١١ ، ١٦: ٤٨ ، ٢١: ٥٩ ، ١: ٦١ ، حز ٢٤: ١١ ، ٢٦-٢٥: ٣٦ ، ٤: ٣٧ ، ٢٨-٢٧: ٢ ، ٤٥: ١٣ ، ميخا ٨: ٣ ، حج ٥: ٢ ، مت ١١: ٢٧ ، ٢: ١٥ ، ١٧: ١٦ ، يو ٦: ٢٧ ، ٤٤ ، ٦: ١٤ ، ١٦ ، ١٥ : ١٦ ، ٥ : ١٣ ، ١٢: ١٧ ، ٨: ٣ ، ١٥: ٩ ، ٢: ١٣ ، رو ٦: ١ ، ٢٣: ٨ ، ١ كو ٢: ١١ ، ٢: ١٢ ، غلا ١: ١٥ ، أف ٢: ٢-١٤ ، تي ١: ٦ ، عب ١٢: ٤ .

(٣) مز ١٩ : ٤ .

ماء وسبعين نخلة ^(١) ، إشارة إلى الاثنى عشر رسولاً والسبعين تلميذاً الذين منهم استقى العالم التعاليم الروحانية ... نجاهم فلاحين لأنهم نقوا أرض قلوبنا وزرعوا فيها الزرع الإلهي . نجاهم سقاء للمسيح الملك لأنهم سقوا نفوسنا من ماء ينبوع الروح القدس . نجاهم كرامين لأنهم تعبوا وعملوا في كرم نفوسنا . نجاهم خاطبين لأنهم خطبوا نفوسنا تقية للختن السمائي المسيح . نجاهم شفعاء عنا عند المسيح . نجاهم الذين أعطوا الحياة للبشر في بشرى الإيمان وصيغة المعمودية ... قد سر الرب الإله أن لا يكون المبشرون باسمه فلاسفة من حكماء هذا العالم لأنهم لو كانوا كذلك لكانت أقوالهم متناقضة بعضها من بعض . كما نجد أقوال الفلاسفة الواحد يبطل قول الآخر ويزدري به ويعظم نفسه ... » .

كذلك قام بعض آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان (بواي النظرون) بطبع سلسلة من ميامر الآباء ، من بينها الميمر الذي كتبه هذا الأب الساهر عن القيامة المجيدة ... ولقد قسم الآباء ميمره هذا إلى قسمين : ١- تأملات في القيامة ، ب - شرح حوادثها . أما القسم الأول فيتضمن : ١ - أعطنى فهماً ونطقاً ، ٢ - لأقول ، ٣ - آدم ونسله ماتا موتين ، ٤ - الخلاص ، ٥ - بكر الراقدين ، ٦ - فلنسرع مع هؤلاء فرحين . أما الجزء الثاني فيشمل : ١ - الزلزلة والحجر المختوم ، ٢ - الملك المخيف المفرج ، ٣ - تدرج معقول ، ٤ - إخوتى ، ٥ - متى أولاً ثم يوحنا ، ٦ - ثم لوقا ومرقس ، ٧ - تلخيص ، ٨ - لماذا أكل المسيح بعد قيامته ، ٩ - حنان الأم ، ١٠ - لمن ظهر الرب أولاً بعد قيامته ؟ ، ١١ - وقدس الرب هذا اليوم المبكر ، ١٢ - ما معنى « استراح الرب » في السبت ؟ ١٣ - كيف نحفظ هذا اليوم ، ١٤ - تعب صومكم ^(٢) .

٢١١ - ورغم هذه المؤلفات كلها فإننا نجهل سيرة هذا الأسقف العظيم جهلاً تاماً ، فهو أيضاً ضمن جمهرة الجنود المجهولين . ولكن ما الذى يهم ؟ ألا يكفي فخراً أنه حمل الشعلة أمام الجميع ؟

(١) خر ١٥ : ٢٧ . ولعل في هذه المقتطفات القصيرة ما يستثير القارئ إلى المزيد فوسارع إلى اقتناء هذه الميامر وغيرها في نصها الكامل كي تمتلئ روحه نشوة من هذه التعاليم الروحية العميقة .

(٢) ميمر القيامة نقلها آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان باختصار عن الميمر العاشر (مخطوطة رقم ٢١٤ - ميامر وعظية) تم طبعه بمطبعة الدير في أبريل سنة ١٩٥٦ .



قطعة من الخزف الاسلامى عليها رسم من صلب السيد المسيح

(بدار الآثار العربية رقم ١٣١٧٤)

الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية - وهي
محاضرة ألقيت فى قاعة الجمعية الجغرافية فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٧ ونشرت بعد ذلك
فى مجلة جمعية محبى الفنون القبطية (الآثار القبطية حالياً) لنفس السنة (المجلد
الثالث ١ ص ١٩-١) (من القرن الثالث عشر)

(ب) صانع السلام

٢١٢ - جندى مجهول آخر

٢١٢ - وثمة أسقف آخر حمل عبء المسئولية مع الأنبا كيرلس الثالث والأنبا بولس البوشى هو الأنبا يوساب أسقف فوه الملقب بابن المبارك وهو أيضاً واحد من أولئك الجنود المجهولين - المعروفين لأنه معروف بكتاباتهِ وبأسقفيتهِ . ولكن متى ولد ؟ وأين ؟ ومن أبواه ؟ وما هى البيئة التى شب وترعرع فيها ؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير لا نعرف الاجابة عنها حتى الآن وإلى متى سيظل مجهولاً ؟ لا نعرف ذلك أيضاً . أما ما نعرفه فهو أنه قضى سنين رهبنته فى دير الأنبا يؤنس بيرية شيهيت وأنه كرس نفسه خلالها للتعبد والدراسة ولخدمة إخوته الرهبان فأحبوه وانتخبوه وكيلاً لديرهم ، وأنه كان يشغل هذه الوكالة حينما ذهب الأنبا كيرلس الثالث ليكرس الميرون فى دير الأنبا مكارى الكبير . وقد أغضب هذا البابا مجمع الرهبان يومذاك لأنه أضاف إلى القداس جملة لم تكن موجودة فى الأصل . فسعى وكيل الدير إلى تهلئة خواطرهم ونجح فى احلال الصفاء بينهم وبينه . وقد أعجب به الأنبا كيرلس يومذاك وقدره إلى حد أنه رسمه أسقفاً عندما خلا كرسي فوه . وبعد سنوات - لما اجتمع المجمع لينظر فى أمر البابا كيرلس الثالث لاتباعه خطة السيمونية - كان الأنبا يوساب ضمن من حضروا المجمع وكان مناصراً للشعب فرجا البابا أن يعدل عن خطته .

كذلك كان الأنبا يوساب ضمن من ساهموا فى انتخاب الأنبا أثناسيوس الثالث .

هذا كل ما نعرفه عن حياة هذا الأسقف الذى كتب سير البطارقة الاسكندريين وغيره من الكتب التى تبحث فى تعاليم الكنيسة . ولا تزال مؤلفاته متداولة بين القبط . وأن كتابه عن البطارقة لسفير قدير إلى قومه ينبئهم بمجد تراثهم الكنسى القومى ويستحثهم على السعى ليكونوا جديرين به ^(١) .

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نبغة . ص ١١٩ - ١٢٠ .

(ج) قادة الفكر

- ٢١٣ - عمل الانسان يساوى اسمه
ويعرفنا بشخصه .
٢١٤ - خدام امناء .
٢١٥ - الجهود لحفظ اللغة القبطية .
٢١٦ - اخوة اربعة .
٢١٧ - مؤلف ما بين القرنين الثالث
والرابع عشر .

٢١٣ - كان الأتبا بولس البوشى واحداً من المفكرين العديدين الذين ازدان بهم القرن الثالث عشر : أدركوا مسئولياتهم الجسام ، فلم يرضوا أن يحفظوا معلوماتهم لأنفسهم بل أرادوا أن ينشروها لفائدة الأجيال الآتية من بعدهم . وقد عالجوا مواضيع متباينة كالتنحو والقانون والأدب ، والعلوم واللاهوت . ولكنهم - هم أيضاً - ينتظمون فى سلك الجنود المجهولين إذ أن مؤلفاتهم باقية فى حين أن تاريخهم مجهول - اللهم إلا بعض شذرات لا تطفى غلة . فيمكن تشبيههم بيوحنا المعداد حينما أجاب سائليه عن اسمه بقوله « أنا صوت صارخ فى البرية - أعدوا طريق الرب » ^(١) فهم - لكونهم مجهولون - يعلنون لنا جهاراً أن عمل الانسان ، يكفى ليدلنا على شخصه فالذى يزرع نخلة يهيئ ثمرها للعديد من الناس فيخدمهم بعمله وإن يكن مجهولاً منهم . هكذا الحال مع هؤلاء الخدام الأمناء للكنيسة وللبلاد . ويمكن لمن يقرأ كتاباتهم أن يترك لخياله العنان فيصورهم كما يشاء له خياله وبذلك يكون تاريخهم رحلة من المغامرة فى أغوار الماضى . ولقد أثار هؤلاء المفكرون الطريق أمام رجال القرن الرابع عشر الذين جاهدوا بدورهم فحفظوا الشعلة متقدة .

٢١٤ - ومن حملة الشعلة خلال العصر الأيوبي عدد غير قليل وصلتنا أسماؤهم ولو أنه لم تصلنا سوى لمحات عنهم مع أن الكثير منهم شغل مناصب هامة فى الدولة ومن هؤلاء . الشيخ ابن أمين الملك بن المذهب أبو سعيد يوحنا الاسكندراني - كان شاعراً رقيق التعبير سلس المعانى ، وكان معاصراً للأسعد صليب بن ميخائيل الذى كان بهائة كما كان يعمل بلا هواة فرمم دير مارمينا بقم الخليج بعد حريق القسطنطينية ونسب إلى جانبه مدرسة ومنتدى علمي ، وإلى جانبه وقف أمين الدولة ابن المصوف الذى كان

(١) مت ٣ : ٣ .

أميناً على أموال الحكومة فى أيام صلاح الدين كما كان أميناً لكنيسته فأنفق المال الوفير على تجديد كنيسة الأمير ثيودورس (تادرس) وعلى ترميم عدد من الأديرة التى وقف عليها بعض الأراضى أيضاً ، الشيخ الثقة جبريل - كان من كبار القبط واشتهر بتجديد جملة كنائس كان الأكراد قد خربوها ، والشيخ شرف الرياسة سعيد بن هبلان ، كان كاتب الجيش فى خلافة العاضد وتولى الكتابة فى حكم صلاح الدين . وقد رهم بيعة أبى السيفين بمصر القديمة وجعلها بناًماً باذخاً ، الأسعد ابن أبى سعيد الملقب بشرف الدين أبى المكارم الذى كان من أبرز الكتاب نظماً ونثراً والمعروف عنه أنه وضع ما يروى على عشرين مؤلفاً من بينهم كتاب التاريخ الذى نسب خطأ إلى أبى الصالح الأرمنى . وقد ذكر البعض عنه أنه لما توفيت زوجته ترهب فى أحد الأديرة ، أبو اليمن بن البزار اهتم بتجديد الكثير من البيع والأديرة فى منطقة الجيزة ، أبو الفتح ابن الأقمص المعروف بالحوفى الذى كان مصوراً ماهراً زين جدران كنيسة الزهرى (التى تلاشت) بأيقونات لمختلف القديسين ، أبو الفتح الصعيدى القس العالم نسخ الكثير من الكتب ووقفها على الكنائس والأديرة التى ساهم فى ترميمها أو تجديدها أبو الفرج بن ميخائيل كان رئيس الديوان أيام الملك العادل ، أبو الفضائل بن أبى الليث جدد عدداً من الكنائس والأديرة ووجه عناية خاصة بترميم المنطرة العجيبة المشيدة فى دير يوحنا المعمدان ، أبو الفضل بن فروج أنفق المال الوفير على تجديد الكنائس وتزيينها حتى لقد جعل كنيسة أبى جرج (مارجرس) آية فى الجمال وعامرة بالمصلين ، أبو الفرج بن أبى اليمن كان كاتباً لوالى القاهرة أيام الملك العادل وقد وجه عناية خاصة إلى كنيسة السيدة العذراء التى كانت بجهة العدوية ، وكانت هذه الكنيسة آية فى الجمال تحوى أيقونات بديعة كذلك اهتم بكنيسة أبى قلته ووسعها وزينها إلى حد أنها أصبحت بطريركية . بل لقد هدم بعض أملاكه المجاورة لها ليجعل أمامها ساحة فسيحة . أبو مشكور وأبو منصور - وهما المهندسان اللذان وضعاً تصميمات قلعة صلاح الدين وشيذاها كما حفر البئر الملحقة بها المعروفة ببئر يوسف وقاما ببناء الجسور وحفر الخللجان والترع . ولقد كافأهما السلطان على ما أديا من خدمات فصرفا المال على ترميم الكنائس والأديرة ، أبو المنصور بن بولس انشغل برفع شأن مدرسة القاهرة فازدهرت وتخرج منها الكثير ممن اشتغلوا كتبة فى بلاط السلاطين . وكانت

هناك منطقة بالقاهرة تعرف بأرض الحبش بها دير كان أصلاً للنسطوريين فلما تسلمه القبط وجه أبو المنصور هنا عناية خاصة إليه . وقد شاركه في هذه العناية الشيخ المكين أبو البركات المعروف بابن كثامة الذي وقف أرضاً واسعة على الدير عينه ، الخطير بن أبي قدامة كان من أبرز العلماء وأرق الشعراء حتى لقد ذكره الأصفهاني وذكر الكثير من شعره ، ومن أجل ما ذكره الأبيات التي كتبها الخطير في كتمان السروهي :

وأكتم السر حتى عن أعادته إلى المسير من غير نسيان
وذاك أن لساني ليس يعلمه سمى بسر الذي قد كان ناجاني

ابن أبي يوسف اشتهر بعلمه وفضله وتقلد المناصب العالية حتى لقد لقب بالشيخ مصطفى الملك وقد اهتم بترميم الأديرة وبناء الكنائس ، الأسعد بن صدقة : كان كاتباً لدار التفاح في عهد الملك العادل ، الشيخ أبو سعيد بن جبرائيل : المعروف بابن الأعرج كان واسع النفوذ في ديوان السلطان ، الشيخ علم الرياسة ابن الصغر : من أبرز الذين خدموا السلطان الأيوبي وقد أنفق كل ثروته على الكنائس والأديرة ، فلما انتقل إلى دار البقاء دفنه السلطان على نفقته الخاصة ورتب معاشاً لأرملته ، الشيخ السديد أبو الفضائل المعروف بابن ستمائة : كان كاتب الأمير علي بن أحمد الكردي وأميناً على خزانته وأمواله وقد جدد بناء كنيسة أبي السيفين والعمارة المقامة إلى جانبها لتصلح أن تكون مقراً باباويًا كما عمر كنيسة الملاك ميخائيل بمصر القديمة وجدد غيره من كنائس المنطقة ، الشيخ أبو سعيد بن أندونه : كان مستوفياً بالديوان العادلي الخاص كما كان كاتباً ماهراً ورجلاً خيراً وقد جدد ما تهدم من كنيسة الملاك غبريال بمصر القديمة واشترى الساحة التي أمامها وفتح الطريق الموصل إليها ، الشيخ الأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل كان صاحب ديوان الملك الصالح القس بطرس السندمنتي الذي ترك لنا كتاباً يبحث في أعماق الروحيات عنوانه : « التصحيح في آلام السيد المسيح » . وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٥٨٨ ش (١٨٧٢ م) وقد جاء في آخره ما يلي : « تم طبع هذا الكتاب الجليل بأمر غبطة السيد الأب كيريو كيرلس الخامس بطريرك الكرازة المرقسية المائة والثاني عشر وبتصحيح سيادة أبينا الفاضل الأغومانس محب الله فيلوثاوس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية . (الحمد لله دائماً) » .

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وبابين . والباب الأول يشتمل على : « مفهوم كتاب التصحيح » وهو عشرة أمور أحدها إيراد النص الانجيلي ، وثانيها حل النص بما يمكن من أقسام التفسير ، وثالثها احضار الأدلة الشرعية الموافقة لاثبات ما ادعى من التفسير ، ورابعها تلخيص جملة الأقسام في قسم واحد ، وخامسها إيراد ما يمكن الخصم إirاده من الأشكال والاعتراضات بما يمكن وردها بالقياس إلى مقدم التأويل ، وسادسها وسابعها تعنيف الخصوم ودحض دعواهم ، وثامنها إثبات الحق اثباتاً لا يشوبه خلل ، وتاسعها ترجيح بعض الأدلة على بعض بالقياس إلى كونه أنسب إلى النص ، وعاشرها إيراد ما يليق إirاده من التهذيب الموافق لمتقدم النص والتأويل . أما الباب الثاني فتتممه للأول ويبدأ بالحديث عن مخلصنا الحبيب حينما أوصى تلاميذه الثلاثة بأن يصلوا في البستان ثم ابتعد عنهم قليلاً وجثا على ركبتيه وأخذ يصلى - ثم كرر عمله ثلاث مرات وفي كل مرة عاد إلى تلاميذه وجددهم نياماً . وينتهي بالحديث عن عدد المرات التي ظهر فيها رب المجد لتلاميذه بعد قيامته وقبل صعوده ^(١) .



رسالة دكتوراه أمام جامعة ليون عن القس بطرس السدمنتى

بطرس السدمنتى هو أحد الكتاب والمؤلفين الذين زودوا مكتبتنا الدينية والكنسية فى القرن الثالث عشر بالعديد من النفائس وكان راهباً فى دير مارجرس بسدمنت الجبل بمحافظة الفيوم ، وهو واضع كتاب (التصحيح فى آلام السيد المسيح) . والفضل فى معرفتنا بهذا الكتاب يرجع إلى المطبعة التى أحضرها أبو الاصلاح القبطى الأنبا كيرلس الرابع ، فكان بين المخطوطات القليلة التى طبعت بها وما يدعو إلى الأسف أننا ما زلنا نجهل الشئ الكثير من تراث آبائنا والقس بطرس السدمنتى له أربعة عشر مؤلفاً . وهذه المؤلفات مبعثرة بين

(١) النسخة التى هبات لى النعمة الإلهية قراعتها موجودة بمكتبة كنيسة مارمرقس بهدائق شبرا وهذه الكنيسة تابعة لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس .

المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة الفاتيكان ومكتبات بعض
أديرة لبنان أما الذى عنى بالبحث عنها والتنقل بين هذه
المكتبات وهذه البلدان ليخرج تلك الكنوز إلى عالم النور فهو
أحد المستشرقين (الراهب الجزويتى بطرس فان أكبرج) جزاء
الله خيراً .

ولعل مجهوده هذا ، يحفز أبناء الكنيسة القبطية على
البحث عن الحلقات الأخرى فى سلسلة كتابنا فى هذا القرن
(الثالث عشر) ، وخصوصاً الرهبان الذين قد تسمح ظروفهم
بالاطلاع على مكتبات الأديرة ، ولهم أن يتقدموا بنتيجة
أبحاثهم إلى المعهد العالى للدراسات القبطية ، فنسمع عن
رسالات دكتوراه فى ذلك تقدم إليه ، ويتبع ذلك طبع هذه
الرسالات فنقرأ عن كنوز كثيرة فى تراثنا الروحى ، هى غذاء
دسم للتنفوس ، لا يعلم جيلنا المتعطش إلى الروحيات شيئاً
عنها ، وهى كتب يجد فى بطونها حياة » .

دكتور منير شكرى

عن جريدة وطنى الصادرة فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٦٩ .

بطرس بن الشعبان الراهب - وكان يلقب بالشيخ السنى . تهرب وعاش
بكنيسة السيدة العذراء بالمعلقة (بمصر القديمة) . وقد اشتغل بالكتابة
وكان أستاذاً لأولاد العسال^(١) ، أبو البشر يوحنا الذى اشتغل بالكتابة هو
أيضاً وكان رئيساً على بيت أولاد العسال ، أبو المعالى ابن شرافى من كبار
رجال الحكومة فى أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وسليل عائلة
نبغ عدد من رجالها . وقد اتخذ صلاح الدين ابن أبى المعالى كاتب سر له
وأمنه على أسرار وقدره حتى أنه منحه لقب الرياسة والشرف فصار معروفاً
باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى^(٢) أبو الخير الطيب الذى
كان كاهناً وطبيباً معاً . ثم عين كاتب سر للأمير القاضى الفاضل وزير

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٤٥، ٥٩ .

٦٠، ٦٥، ٦٩، ٧٤ .

(٢) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٣ - ١٨٦ .

السلطان عثمان صلاح الدين . وقد كتب هذا العلامة الذى جمع بين كرامة الكهنوت والطب وخدمة الدولة عدداً من المؤلفات منها « تنوير العقول » و « خلاصة معتقد الملة المسيحية » و « الرد على طائفتى الاسلام واليهودية من موضوعاتهم وأصول مذاهبهم » و « رسالة البيان الأظهر فى رد من يقول بالقضاء والقدر »^(١) .

وفى هذه السطور القصيرة تتلخص حياة رجل كان من غير شك ذا شأن عظيم فى عصره إذ قد ختم فى ميادين اللاهوت والعلم والسياسة . فى حين أن غيره ممن خدموا تتلخص حياتهم فى سطر واحد . ومن يدري كم من الخدام الأتباء لم يذكرهم التاريخ حتى بهل السطر الواحد ؟

٢١٥ - كذلك بدأت المجهودات فى سبيل المحافظة على اللغة القبطية ابتداء من القرن العاشر ولكنها كانت وقتذاك مجهودات فردية لم يتردد صداها ولم يتجاوبها التردد لأن اللغة كانت حتى ذلك القرن لا تزال متداولة ولم تكن العربية قد حلت محلها ، كما لم يكن ليدور فى خلد أحد أن التداول باللغة القبطية سينتهى بعد قرون قصيرة . على أن اللغة العربية أخذت تتسرب إلى الأوساط القبطية تدريجياً حتى كادت تفرقها . وعند ذاك خشى المفكرون أن تضيق نهائياً . فأخذ عدد من أراخنة القرن الثالث عشر يفكرون فى وضع المعاجم والكتب الخاصة بقواعدها . وكانوا فى تلك الفترة يكتبون العربية بالحروف القبطية إذ قد بدأوا يحلون بها محلها . والكتب التى وضعها هؤلاء الأراخنة تعرف بالمقدمات . أما معاجمهم فاسمها « السلام » . ومع أنه قد انقضت سبعة قرون منذ أن ظهرت هذه المقدمات والسلام إلا أنها ما زالت المرجع الذى يعتمد عليه المشتغلون باللغة القبطية ويدرسونها حتى الآن .

أما كتب القواعد التى وصلت إلينا عن رجال القرن الثالث عشر فهى :

١ - « مقدمة » للأبنا يونس السمنودى - وكان فى طليعة الأساقفة الذين رسمهم الأتبا كيرلس الثالث .

٢ - « مقدمة » لابن كاتب قيصر الذى نال أبوه لقب « الأمير علم

(١) دائرة المعارف القبطية - لرمزى تادرس - ج ١ ص ٧٤ .

الدين» لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى . أما عنوان المقدمة التى وضعها فهو « التبصرة » إذ كانت تتضمن تفسيراً تفصيلياً لقواعد اللغة القبطية . وتوجد نسخ عديدة من هذه المقدمة ، وأقدم هذه النسخ موجود فى مختلف المكتبات الأوروبية كالمكتبة الأهلية بباريس - ولقد صاغ ابن كاتب قيصر اللغة القبطية التى كتب بها فى قالب صحيح فصيح يبين للقارئ أنه متبحر فى كل من القبطية والعربية .

ولم يكتف ابن كاتب قيصر بالكتابة عن اللغة القبطية بل وجه انتباهه أيضاً نحو العلوم الدينية فوضع تفسيراً للإنجيل متى ، أعمال الرسل ، رسائل بولس ، الكاثوليكون (أى رسائل بقية الرسل) ، ثم سفر الرؤيا .

كذلك توجد بدار الكتب (بالقاهرة) نسخة هى الترجمة العربية للبشائر الأربعة وهى مخطوطة ومقيدة تحت رقم ٩٧ لاهوت كتب عليها : « أنها منقولة من نسخة الرئيس الفاضل ابن كاتب قيصر » (١) .

٣ - الأسعد أبو الفرج بن العسال - وهو أحد أربعة إخوة (٢) - أنتجوا العدد الوفير من الكتب العربية . ولا تزال ميامرهم تقرأ فى المواسم والأعياد . وقد وضع أبو الفرج « مقدمة » ثم ألهم قلب صديقه الراهب القليوبى ليكتب هو أيضاً . وكان القليوبى هذا أبناً لكاهن وحفيداً لكاهن . فلم يكتف بكتابة « مقدمة » عن اللغة القبطية بل ترجم المزامير أيضاً من القبطية إلى العربية ونشرها باللغتين ، كذلك شجع أولاد العسال الكثير من الكتاب ، ومن الأدلة على هذا التشجيع نسخة محفوظة بمكتبة المتحف القبطى تتضمن البشائر الأربعة باللغة القبطية ، تزين أول كل بشارة رسوم هندسية رائعة ملونة بماء الذهب . وقد جاء فى آخر هذه النسخة عبارات قبطية وترجمتها هى « كتبه الناسخ الراهب القس غبريال فى بيت

(١) كتاب تفسير رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قيصر - عنى بمراجعته ووضع حواشيه القمص أرمانىوس حمشى شتا الهرماوى المترهب بدير السيدة العنراء الشهير بالسريان . نشرته جمعية المحبة القبطية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ - المقدمة .

(٢) كتب دكتور جراف المستشرق الألمانى مقالاً ضافياً عن هؤلاء الاخوة نشره فى « اوربونتاليا روما » سنة ١٩٣٢ ج ١ نهلة ١ ، ٢ ، ٣ .

الأرخن المكرم الأمجد ابن العسال الذى أقام به عشر سنوات فى سوريا وبابلون - وقف على الكنيسة المعلقة ^(١) .

٤ - كتاب يتضمن نقداً وتكملة للكتب السالفة كلها وضعه أسقف دمياط الذى كان ضمن من حضروا المجمع المقدس للنظر فى أمر الأنبا كيرلس الثالث .

٥ - الأنبا أثناسيوس أسقف قوص ^(٢) الذى جاء من بعدهم مباشرة ورأى أن يحلو حلوهم فى سبيل الاحتفاظ باللغة القبطية فوضع «مقدمة» باللهجتين البحيرية والصعيدية جعل عنوانها « قلادة التحرير فى علم التفسير » ، على أنه لما كان رجل دين فإنه وجه اهتماماً خاصاً نحو التعاليم الكنسية ، فوضع كتاباً عن الأحوال الشخصية وآخر عن تقديس الميرون . ومن الشيق أن كتابه هذا غير قاصر على الشعائر الدينية ، إذ قد تضمن وصفاً تفصيلياً للرحلة من القاهرة إلى وادى النطرون لأنه كان قد اشترك مع باباء فى تأدية هذه الشعائر بدير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقاليد الكنسية القديمة . ومن حسن الحظ أن كتابه لا يزال موجوداً وهو محفوظ بالمكتبة الباباوية القبطية بالقاهرة ^(٣) .

٦ - وقد عاصر الأنبا أثناسيوس أسقف قوص مؤلف واسع المعرفة عميق التفكير والبحث هو أبو شاكرون الراهب أبو الكرم بطرس بن المهذب شماس كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . كتب كتاباً مستفيضاً بعنوان « الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى » . ونظرة - ولو عابرة - تكفى للدلالة على عمق أبحاث هذا الشماس ومدى تأملاته . فلقد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة أصول : الأصل الأول يتضمن نبوات الأنبياء ، الفاتحة من بولس الرسول ، رؤى ثمانية : الأولى رؤيا أشعيا ، النبى ، الثانية رؤيا حزقيال النبى ، الثالثة رؤيا دانيال النبى ، الرابعة رؤيا ابراهيم الخليل ، الخامسة رؤيا يعقوب ، السادسة رؤيا موسى النبى فى

(١) دليل المتحف القبطى لمقرس سمبكة ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ ، وراجع أيضاً « مرشد

المتحف القبطى » لوديع شنودة ص ٨١ حيث أورد النص القبطى تليه ترجمته .

(٢) كان هذا الأسقف ابناً لتسبيس غرب قمولة ، وقد ترهب قبل رسامته أسقفاً بدير

الشهيد مار بقطر السحروانى - أنظر دائرة المعارف القبطية لرمزى تادوس ج ١ ص ٩٥ .

(٣) مخطوط رقم ١٠٦ طقس .

حوريب ، السابعة رؤيا شعب إسرائيل على الجبل ، الثامنة رؤيا موسى
كليم الله عند أخذ ألواح الجواهر المكتوبة باصبع الله ، النتيجة تصريح الأنبياء
بأن الله يظهر بين الناس ويمشى علانية ، ونبوتهم بحقيقة أزلية لاهوت
سيدنا المسيح وحقيقة بشريته . ثمراتها تسع وعشرون ثمرة ، عدد فصولها
مائة وستة وخمسون فصلاً ؛ الأصل الثانى يتضمن الأقوال الانجيلية ،
الفاتحة من الانجيل المقدس ، الرؤى خمسة : الأولى التجلى ، الثانية العماد ،
الثالثة المشى على المياه ، الرابعة الصلب ، الخامسة القيامة ، السادسة
اظهار ألوهية المسيح وحقيقة بشريته المتحدة بلاهوته ، ثمراتها ستة عشر
ثمرة ، فصولها ستة وتسعون فصلاً ؛ الأصل الثالث يتضمن الأقوال الرسولية ،
الحواريون الأطهار وتلاميذ ربنا يسوع المسيح له المجد ، الفاتحة قول الرسول
بولس الرؤى خمسة : الأولى الصعود ، الثانية انتخاب سيدنا لشاول ،
الثالثة صعود بولس إلى السماء الثالثة ، الرابعة رؤيا اسطفانوس ، الخامسة
شهادة يوحنا والنتيجة حقيقة ألوهية سيدنا المسيح وحقيقة بشريته ،
ثمراتها ست عشرة ثمرة ، فصولها مائة وتسعة وثلاثون فصلاً ، الخاتمة
الأولى اثبات حدوث القديم فى المحدث ، أربعة فصول . الثانية الاستدلال
على سبب التجسد وهو اثنا عشر دليلاً وأيضاً شرح المزمور الرابع
والأربعين . وقد مهد أبو شاعر لكتابه بمقدمة فى سر التوحيد والتثليث .

ونورد هنا بعض ما جاء فى الكتاب للدلالة على عمق الروحيات التى
سبها هذا المفكر الروحانى . فمثلاً قال : « ... ومن أشعياء النبى -
هوذا ينزل من سمائه على سحابة مسرعة فيدخل إلى مصر ويضرب أوثنان
مصر ... هذه النبوة تمت على مصر وسقوط الأوثان بدخول سيدنا المسيح
إلى أرض مصر مع مريم أمه ويوسف فأبطل الأوثان منها » ... « صلاة
حبقوق النبى على مجئ مسيح الله - يارب سمعت صوتك فخفت . تأملت
أعمالك فبهت ... التفسير اليهود يظنون أن هذه النبوة تدل على خلاصهم
من بابل لكنها تدل على أحوال المسيح سيدنا وعلى هلاكهم بعده من ملوك
الروم والدليل على ذلك قول النبى لأن الله قد أنبأنى وأرأى يوم النصر
الذى يقبل على الشعب ... وقول النبى سمعت صوتك فخفت أشار إلى
صوت المسيح سيدنا على عود الصليب ، وقوله تأملت أعمالك فبهت أشار
إلى تدبيرات الصلب والآلام والموت والقيامة والصعود التى تفوق كل عقل

وتدبير ... وقوله يعلمونك فيما بين حيوانين دل على رفعته على عود الصليب بين اللصين . فبقوله يا رب اعترف بلاهوته الأزلى وقوله بين حيوانين اعترف ببشريته المتحدة به وقول داود ^(١) ارتجت الشعوب وهزت الأمم بالأباطيل - نبوة على شعب اليهود والأمم الذين قاموا على سيدنا المسيح وقاوموه لأنه الرب ومسيحه : فهو الرب من حيث هو الإله كلمة الله وهو مسيحه من حيث مسح ^(٢) لاهوته لناسوته ... وقوله أنت ابني أنا اليوم ولدتك دل بهذا على أزلية الوالد لأن يوم الرب ليس له ابتداء ولا انتهاء ... ، وقول ملاخى ها أنذا أرسل ملاكى ويسهل الطريق أمامى ويفتد يأتى إلى هيكلك الرب - أنظر وتأمل أن النبى لما فرغ من ذكر الرسول وتسهيل الطريق أمامه ذكر مجئ ملك العهد الجديد الذى هو سيدنا المسيح ... ، « لأشعيا النبى فى ظهور المعمودية ^(٣) ... وحسن ها أنذا صانع مغوثة جديدة تظهر ولا تعلموها ... ويكرمنى وحش الصحراء - أشار بالمغوثة الجديدة إلى المعمودية وبالوحش إلى الأمم الخارجة ... ^(٤) » .

هذه أمثلة قليلة جداً من هذا الكتاب الروحى العظيم . ومع ضخامة الجهد الذى بذله أبو شاكرو فإننا نجهد كل ما يتعلق بحياته . كذلك وضع كتاباً عن حساب الأبطى أوضع فيه القواعد التى قامت عليها مواعيد الأعياد القبطية والتاريخ المسيحى ، وله - عدا هذين الكتابين - كتاب التواريخ ويشتمل على تاريخ الآباء الأولين والقضاة والملوك وميلاد السيد المسيح و خراب أورشليم ، وتاريخ الخلفاء الراشدين وبنى أمية والعباسيين والفاطميين والأيوبيين ، ثم تاريخ بطاركة الاسكندرية من مارمرقس إلى البطريك السادس والسبعين . وتوجد نسخة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان

(١) المزمور الثانى .

(٢) المعنى هنا من المسحة المقدسة التى كانت تستعمل قديماً لمسح الملوك والأنبياء والكهنة ثم تحولت فى العهد الجديد إلى مسحة لها صلواتها وشعائرها .

(٣) الإصحاح الثانى عشر .

(٤) هذا الكتاب طبع على نفقة القمص جرجس بمطرانية بنى سويف والراهب بدير القديس أبو يحنس كامل الشهير بالسريان - طبع بمطبعة ومسييس بالقجالة بمصر فى أيام الأنبا إيساك مطران كرسى البهنسا وبنى سويف وبابارية الأنبا كيرلس الخامس . ومع أن هذه الطبعة قد نفذت فإن أحداً لم يعدها مع الأسف لأن هذا الكتاب ثمين للغاية يوضح الكثير من النبوات الخاصة برب المجد .

مع ترجمتها اللاتينية . وقد نشر المستشرق الفرنسى شاپيا النص العربى
الأصلى مع ترجمته اللاتينية ^(١) . وله أيضاً كتاب فى قواعد اللغة
القبطية قال فى التمهيد له أنه استقاه من أربعة وعشرين مصدراً من بينها
مصدران هما « مقدمة » أسقف سخا وأخرى لابن الرجال . ومما يؤسف له
جد الأسف أن التاريخ يجهل كل شئ عن هذين المؤلفين كما يجهل من هو
ابن الراهب هذا . على أنه يوجد بالمتحف القبطى كتاب مخطوط يتضمن
أعمال الرسل والرسائل فى نهرين : عربى وقبطى ، والصفحة الأولى من كل
رسالة مزينة برسوم هندسية ومحلاة بماء الذهب . وفى أول الكتاب هذه
العبارة : « اهتم به شاكر بن الراهب ، كتبه غبريال الراهب ... » والجزء
الأول لهذا الكتاب - وهو البشائر الأربعة - محفوظ بمكتبة المعهد
الكاثوليكي بباريس ^(٢) .

٢١٦ - أما المعاجم فقد ظهر منها فى ذلك العصر مخطوطان أولهما
للأبنا يونس الذى سبق ذكره فى الحديث عن المقدمات ، وثانيهما لأبى اسحق
بن العسال بعنوان : « السلم المقفى والذهب المصفى » اتبع فيه خطة منظمة
بأن راعى تسلسل الحروف الأبجدية كما راعى مع هذا التسلسل تقارب
النطق اللفظى ، فمثلاً وضع كلمات ناديت (AĠĠOYT) ، والهاوية
(AĠĠENT) دودة (AĠĠNT) وضعا متتالياً .

وأبو اسحق هو واحد من ثلاثة أخوة هم أبناء فخر الدولة أبى الفضل ابن
أبى اليسر يوحنا العسال ، ويقف بعدهم رابعهم وهو حفيد لهذا الرجل
الكبير . وقد تفوق الجميع فى الخدمة والكتابة ومازالت مؤلفاتهم للآن تحفاً
رائعة . والأخوة الثلاثة هم : الشيخ الرئيس مؤتمن الدولة أبو اسحق ،
الشيخ الحكيم الأسعد أبو الفرج هبة الله ، الشيخ الصفى أبو الفضائل
الأمجد . أما الحفيد فهو أبو شاكر بن أبى الفرج أى أنه ابن للأخ الأوسط
بين الثلاثة . والألقاب المقترنة بأسمائهم إنما هى مما أضفاها عليهم السلاطين
الأيوبيون تقديراً لخدماتهم الممتازة . ولا نعرف بالضبط ما هى الوظيفة
التي كان يشغلها كل من الأخوين الكبيرين ولكن أصغرهم كان كاتب

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٢٤ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٢٤ .

ديوان الجيش كما أنه اختير ليكود كاتب سر للمجمع الاكليريكي الذي اتعقد للنظر في موقف البابا كيرلس الثالث (بن لقلق) . وقد تمكن الجميع من اللغة العربية إلى حد أن كتاباتهم ما زالت تهز القلوب حتى الآن . كذلك برعوا في القبطية والسريانية واليونانية وتبحروا في الرياضة والفلك والتاريخ والطبيعة والتركيبات الكيميائية . إلا أنهم تفوقوا فوق هذا كله في العلوم الدينية العقيدية والقوانين الشرعية .

أما مؤلفاتهم الباقية بين أيدينا فهي :

أولاً - للمؤمن أبي اسحق : مجموع أصول الدين ومسموع محصل اليقين ، التبصرة المختصرة في اللغة القبطية ، آداب الكنيسة ، خطب الأعياد السيديّة ، مقدمة في رسائل بولس - هذه إلى جانب المعجم المذكور في اللغة القبطية .

ثانياً - للاسعد أبي الفرج : مقدمة في اللغة القبطية ، مقابلة بين ترجمات الأنجيل الأربعة ، رسالة عن مقدمة رسائل بولس التي كتبها أخوه ، كتاب عن الحساب الأبقطي يشتمل على بعض القواعد الفلكية والتاريخية وجدول للبطاركة ، أرجوزة في هذا الحساب ، رسائل عن الأنفس بعد مفارقتها للأجساد .

ثالثاً - للصفي أبي الفضائل : الصعائع في الرد على النصائح ، نهج السبيل في الرد على من قدح في الانجيل ، المجموع الصفوي وهو موسوعة قانونية ، الكتاب الأوسط فصول مختصرة عن التوحيد والتثليث ، حواشي متنوعة على مناظرات الشيخ عيسى الوراق العالم المسلم مع الشيخ يحيى ابن عدى العالم اللاهوتي السرياني وأجوبة قاطعة على اعتراضات الشيخ عبد الله الناشئ والامام فخر الدين بن الخطيب ، فصول في العماد والزواج والوصية والميراث ، نبذة عن الأوقاف ، كفاية المبتدئين في علم القوانين - وقد ضاع هذا الكتاب إذ لم يعثر عليه للآن .

رابعاً - لأبي شاكز بن أبي الفرج : مختصر في الأبقطيات تاريخه سنة ١٠٥٢ ش . وهناك كتاب روي يختص بتفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي كتبه أحد الإخوة . وهذا التفسير حلقة ضمن السلسلة غير المنقطعة لما كتبه

القبط عن هذا السفر الملى بالقموض والذى استثار عقول المفكرين والساعين نحو معرفة كنه الأسفار الإلهية فى مختلف العصور .

ومع أن العديد من كتاباتهم محفوظة فى مختلف المكتبات الأوروبية ، ومع أن المستشرق الألمانى جراف قد كتب عنهم وذكر مؤلفاتهم كما كتب عنهم المستشرق الفرنسى مالون إلا أن سيرتهم ومؤلفاتهم ما زالت أرضاً بكرأ يجدر بالباحثين القبط الساعين إلى التعرف على تراثهم الروحى أن يبدأوا بتفليحها ^(١) .

ومن الكتب التى عشر عليها المستشرقون كتاب عنوانه : « قصة عجائب رئيس الملائكة ميخائيل فى أرض فلسطين » ، وهو يتضمن أربع عشرة أعجوبة لهذا الملك العظيم بالاضافة إلى ثلاثة عشر مقالاً تسرد أحداها سيرة القديس تكللا هيمنوت كبير قديسى أثيوبيا بينما تسرد المقالات الأخرى قصصاً لمختلف القديسين . وقد نشر هذا الكتاب كرتشنوفسكى المستشرق الروسى سنة ١٩٠٩ . ويغلب الظن على أنه من مؤلفات ابن الراهب ولو أن البعض يرجع أنه لأحد أولاد العسال ^(٢) .

٢١٧ - وما يحز فى النفس أن هذه المؤلفات جميعها لم تقو على حفظ اللغة القبطية ، فقد طفت عليها اللغة العربية حتى لم تعد تسمع فى غير طقوس الكنيسة . ومنذ القرن التاسع عشر زحف على مصر رهط من الأجانب الذين فتحوا المدارس واستتروا وراء العلم لبلوغ الغرض المذهبى الذى هجروا بلادهم من أجله . فكان من أبرز آثار هذه المدارس تحول بعض

(١) « مدرسة لعلماء من القبط » (بالفرنسية) لأكسيس مالون - المبحث الثانى - طبع بمطبعة سان جوزيف ببيروت سنة ١٩٠٧ ص ٢١٢ - ٢١٥ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٥ ، تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزیز سورمال عطية ص ٩٦ ، تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية - لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١٢٤ - ١٢٨ ، دائرة المعارف ... ص ٥٣ ، ٦١ ، ٧٤ . كذلك جاء فى كتاب ترياق العقول فى علم الأصول ص ٥١ ما يلى : « السيد الفاضل عرف بابن العسال سبط الأب المكرم الحسن الشيخوخة الأب بطرس المعروف بالسدمتى وتبين لنا هذه الجملة أن القس بطرس السدمتى كان معلماً لأولاد العسال .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٧٤ .

القبط عن عقيدتهم وتراثهم الفكرى المصرى العريق إلى ما يشد فى نفوسهم أصحاب تلك المدارس من ثقافة غريبة باعدت بينهم وبين بيتهم الروحية .

ومما زاد الطين بلة أن بعض رجال الدين - نزولاً على رغبة أبنائهم الذين استقوا علومهم فى تلك المدارس الأجنبية - أصبحوا يؤدون معظم الشعائر الدينية باللغة العربية بدلاً من القبطية . فلم يعد ما بقى منها غير صدى خافت لما كانت عليه .

على أنه رغم هذه العوامل الهدامة ، فقد أخذ بعض المفكرين فى هذا العصر يشعرون بضرورة احياء تراث الآباء روحياً ولغوياً . ومن أقوى الوسائل التى تذرعوها بها الكلية الاكليريكية والمعهد العالى للدراسات القبطية . وهذه الجهود - وإن تبدو ضئيلة الآن - تبشر بانبثاق فجر جديد : فجر شبیه بفجر القيامة المجيدة .

وإلى جانب هؤلاء الكتاب نقرأ عن أراخنة كانوا ذوى مكانة ممتازة فى عصرهم منهم : أبو المكارم بن أبى الطيب جد العلامة بن المكين الذى كان يمتلك المزارع الواسعة وله فيها خلايا النحل ، تزوج من أخت سمعان ابن كليل وأنجب منها ثلاثة أولاد هم التجيب أبو الفضل والعميد أبو الياس وأبو المكارم الكاتب المعروف . وقد عاصرهم المعلم يوحنا الشهير بأبى المصرى الذى كان رئيساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فصرف الكثير من المال على نسخ الكتب ووقفها على هذه الكنيسة ^(١) .



(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٧٤ .

(د) زعيم روحى

٢١٨- اخوان متباينان

٢١٩- مؤلفات ابن المكين

٢١٨ - كان جرجس بن العميد الملقب بابن المكين من أرخنة الفكر كما كان أخصاً لرئيس فى العالم : فقد كان بتولاً بحاثاً بينما كان أخوه الأسعد ابراهيم كاتب الجيوش فى عهد الملك العادل . وقد كان قلب ابن المكين ملتهباً بحب الكنيسة فترك الجاه العالمى ليعيش فى دير الأنبا يؤنس القصير بطرة (جنوبى القاهرة) حيث كرس نفسه للبحث والدراسة والصلاة والتأمل فى عظام الله . وقد تضرع فى القبطية والعربية واليونانية والمنطق والفلك والتاريخ ، كما أثبت جدارته فى التقوى والتقىف والمحبة . فألبسه رئيس الدير الاسكيم المقدس . وقد راقب ابن المكين شعبه فوجد غالبية تائهة فى ظلمة الجهل ، ورأى أن يتدارك هذا الجهل قدر امكانه فانشغل بالكتابة فى العقيدة الأرثوذكسية مبيناً أنها هى العقيدة التى زاد عنها الشهداء بدمائهم والمعتزون بالآباء بكل جهودهم الفكرية والروحية .

٢١٩ - وابن المكين شبيه بعدد كبير من أمثاله الذين حملوا الشعلة فى كونه جندي مجهول - ولا نعرف عن سيرته إلا الأمر الضئيل . ولكنه ترك لنا أربعة مؤلفات لها قيمتها هى :

١ - « المستفاد من بديهة الاجتهاد » الذى امتدح فيه المجدين الكادحين .

٢ - تاريخ مدنى عنوانه « المجموع المبارك » ويقع فى جزئين ترجم الجزء الثانى منه إلى الفرنسية ^(١) .

٣ - بعد أن فرغ من وضع كتابه التاريخى وجد أن المؤرخ المعروف - الطبرى - قد انتقل إلى دار البقاء من غير أن يكمل كتابه فأخذ على عاتقه تكملته .

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٦ ، ويقول عزيز سوربال عطية فى كتابه « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية) ص ٩٦ بأنه ترجم إلى عدة لغات مختلفة منذ القرن السابع عشر كما كان مرجعاً موثوقاً به إستند إليه المقرئى .

٤ - أما كتابه الرابع فعنوانه « مختصر البيان فى تحقيق الإيمان الموسوم بالحوى » ويقع فى جزئين أيضاً ، وقد قال فى مقدمته : « لما كانت هناك أهوية فاسدة لاتوافق قواعد البيئة الأرثوذكسية وبنائها فى حقيقة التجسد المجد ... وهو مما كان الآباء النجباء عمد البيعة الأرثوذكسية المؤيدون باليد المنية قد اجتهدوا وجاهدوا فى محو أثره من أذهان المؤمنين وأزالوا ذكره من السنة الأرثوذكسين كمثل مقالة أريوس الملحد الذى كان يعتقد أن يسوع المسيح ابن الله مخلوق من حيث حقيقته ، ومقدونيوس القائل بأن روح القدس مخلوق كسائر المخلوقات وأوطاخى القائل بأن الجسد المأخوذ من مريم العذراء ليس كأجسادنا الآدمية بل مخالفاً فى جوهره ... ثم تلبلت الآراء فى الاعتقادات . فلما اجتمع بهى بعض من يجب على حقه .. فأطلعنى على ما عنده من الحيرة والتقسيم ... واستعفيت من الكلام لعلمى بتقصيرى وضعفى ... فلما كلفنى اتباع غرضه وبغيته . وبعد أن ظهر لى أن طاعتى إياه تزيل مرضه وتفيد صحته أطعته طاعة المستفيد الرابع ... قدمت له فتات موائد السادات ... » ^(١) وهكذا ارتضى أن يكتب فى العقيدة مستلهماً الآباء مستعيناً بمؤازرة الروح القدس .



(١) « مختصر البيان .. » لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك خادم الكنيسة المرقسية الكهنى (البطريركية) بالقاهرة سنة ١٩٠٦ ص ٣ - ٩ .

الفصل الثالث *

ويحتوى على :

- * ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر .
- * ما ينبغى فهمه من قول الرسول (أم ليس للفاخورى سلطان على الطين رو ٩ : ٢١)

(١) ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر

نقول أنه من أمس الضرورات وأشدّها احتياجاً الكلام فى هذه المسألة وتحقيقتها لأن الكلام من أبناء البيعة والأمم الخارجة كثيراً ما يقع فيها البحث لتحقيقتها وخصوصاً هذه المسألة . ولأن هذه القضية من القضايا العويصة فيجب أن نذكر حلها من جهتي النقل والعقل لأن القضايا إذا تحققت من هاتين الوجهتين كانت من الأمور المتيقنة فى الطرف الأقصى .

رأى الخارجين عن معتقدنا :

أنهم يرون أن كل شئ مما يقع فى الوجود ويظهر من خير وشر هو من عند الله تعالى . وهذا الكلام يلزم منه أن البارى عز وجل هو علة الشرور ابتداء . ويلزم من هذا أيضاً عدة شفاعات منهم أن ارساله الأنبياء وتكليفهم بالتبشير عبث لا ضرورة له ولا فائدة فيه . وذلك أن البارى سبحانه يعلم المطيع الصالح قبل ارساله النبى له أنه مطيع صالح ومن أهل الطاعة فقول النبى له وأمره بالصالح لا فائدة فيه ولا يجدى له نفعاً ، لأنه لو قال له لا تعمل صالحاً لا يمكنه أن لا يعمل صالحاً لأن الخروج عن المقدور غير مستطاع لأن المقدور لابد من وقوعه حتماً . وكذلك قوله للطالح .

* صفحة ١٤١ من كتاب «مختصر البيان فى تحقيق البيان الموسوم بالحواوى » لابن المكين - نقده وهويه وعنى بنشره القمص تاوضروس شحات وثيس الدير المحرق وقؤاد باسبلى الأستاذ بالكلية الاكليريكية (باكورة انتاج دار النشر القبطية بشبرا)

ومن نعمة الله أن أطاع ابن المكين ^(١) رغبته ورغبة أصدقائه لأن الكتاب الذى تركه لنا عن الإيمان يشهد بتعمقه فى فهم حقيقة هذا الإيمان الأرثوذكسى كما يشهد بجدارته فى أن يحمل الشعلة التى حملها علماء المدرسة الاسكندرية فى العصور الأولى ^(٢) . ونظرة واحدة الى الموضوعات التى عالجها تبين هذه الحقيقة ولو أن من يطالع الكتاب يزداد اقتناعاً - لأن العنوان وإن دل على الموضوع إلا أنه مقتضب بحكم الضرورة . فبعد المقدمة عالج ابن المكين الموضوعات الآتية فى الجزء الأول من كتابه : الباب الأول - الفصل الأول : ١ - الكلام على الاجتهاد فى طلب علم الشريعة المسيحية وأنه من الفروض الواجبة ، ٢ - الرد على من يتأول قول الرسول . وعندما ظنوا أنهم حكماء صاروا جهلاء (رو ١ : ٢٢) تأويلاً ردياً ، ٣ - القول على أن العالم هو الذى يمكنه فى الحقيقة إقامة الموتى ، ٤ - الرد على من يعتذر كون سيدنا اختار رسلاً جهالاً ، ٥ - الخاتمة .

الفصل الثانى : ١ - ما يجب فهمه من قول الزمور « أنا قلت فى تحيرى أن كل انسان كاذب » ، ٢ - وجوب إقامة المعلمين فى البيعة المسيحية وما يجب عليهم ، وتحقيق أن الأعمار ليست بمحدودة ولا مقدرة بالدليل النقلي .

الفصل الثالث : ١ - ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر، ويتضمن فوائد أخرى ، ٢ - ما ينبغى فهمه من قول الرسول « أم ليس للفاحورى سلطان على الطين » رو ٩ : ١٢ . وبقية هذا الفصل .

الباب الثانى - الفصل الأول : ١ - ما ينبغى أن نعتقد فى الوقائع الحادثة بالمؤمنين صالحة كانت أو طالحة ، ٢ - الكلام على واقعة داود النبى مع شمعى الذى سبه وما فيها من التأويل وحله وغير ذلك .

الفصل الثانى : ١ - ما ينبغى فهمه من قول الرسول بولس « أن قبل ما تأتى الشريعة كانت الخطيئة ميتة وكنت أنا حى . ولما جاءت الشريعة

(١) مما يجدر ذكره أن ابن المكين هذا هو ابن أخت سمعان بن كليل الذى وردت لمحة عنه على ص ٤٩ - فيكون هو وخاله ضمن حملة الشعلة المشاهير .

(٢) تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير للقصص ميصائيل بحر ص ٦٣ - ٦٦ .

عاشت الخطيئة ومت أنا « رو ٧ : ٩ . وفيه ما ينبغى فهمه من قول متى الرسول « ادخلوا من الباب الضيق الخ » مت ٧ : ١٣ . ومن قوله أيضاً « ما أكثر المدعوين وأقل المتتخين » مت ١٦:٢ ، ١٤:٢٢ - ٢ - ما ينبغى فهمه من قول بطرس الرسول « إن كل أمة تعمل البر فهي مقبولة قدام الله » أع ١:٣٥ . ٣ - قول لوقا البشير « قليلون هم الذين يجدون الحياة » لو ١٣ : ٢٤ . الفصل الثالث : ١ - لِمَ أتت الشريعة الثقيلة أولاً لبني اسرائيل خاصة دون غيرهم من الموجودين في وقتهم ؟ ولِمَ لم تعم الناس جميعاً عند ظهورها ؟ ولِمَ أهمل الناس بغير شريعة ثقيلة إلى أيام موسى ؟ ولِمَ ظهر التجسد المجيد من أمة اسرائيل دون غيرها ؟ ٢ - الرد على من هكت أهل الشريعة الكتابية بقولهم « أن تأخير الخير والجود الذي هو الشريعة من وقت إلى آخر قدح في حق الجواد » الرد على من يعتقد أن الشريعة المسيحية يصح عليها النسخ والتهديل والتغيير في الأناجيل . وفيه ما يتعلق بنسخ الشريعة الموسوية بالشريعة المسيحية .

الباب الثالث - الفصل الأول : ١ - سرد ذكر صليب رب المجد وكونه كان ضروري الوقوع وفيما يترتب عليه من النعم والفوائد الجزيلة . وفيه بأن تسليمه كان ارادياً اختيارياً . وفيه أن الشريعة المسيحية لا تقبل النسخ ولا التغيير ، ٢ - ان التعريف والتهديل مستحيل في الأناجيل .

الفصل الثاني : ١ - لم أرسل سيدنا تلاميذه بعد قيامته ليكرزوا بدعوته قال لهم « امضوا وتعلموا كل الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » مت ٢٨:١٩ . و لِمَ يقل في جملة أمره لهم بهذا التعليم (الإله الواحد) ؟ ٢ - لِمَ سمى سيدنا له المجد « كلمة الله وابن الله » من فم الأنبياء قبل ظهوره وبعد ظهوره ؟ ٣ - ظهر الروح القدس على التلاميذ في عليّة صهيون ظاهراً للحس شبه ألسنة نارية و لِمَ يظهر فيما بعد على المؤمنين عند العماد كذلك ؟ ٤ - هل يجوز أن يقسم الله بغير ذاته تعالى أم لا يجوز ؟

الفصل الثالث : القول على الذين وقعوا في سقطّة الجحود ووافقوا الخارجين عن الإيمان على رأيهم واصطلاحهم - كيف ينبغى أن تفهم قول

ربنا له المجد « من أنكرنى قدام الناس ... الخ » مت ٢٣: ١٠ . ما ينبغي عليهم فى كيف يكون التنصل من هذه الواقعة - ما هو دواؤهم وكيف يتمكن الطبيب فى استعمال الدواء معهم .

على أن المؤمنين الآن فى حاجة إلى الاطلاع على ما كتبه هذا الراهب العلامة توضيحاً للعقيدة الأرثوذكسية لذلك نقتطف ما يلى :

« لأن كل ما له لحم و عظم فهو فى جملة المركبات . وكل مركب فهو كائن بعد إن لم يكن . وكل ما اندرج تحت الكينونة فهو محدث لا محالة . والرسول لوقا قد صرح فى بشارته قائلاً : « وأما الصبى فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة » فأطلق عليه اسم الصبا فى وقت واسم الولادة الزمنية فى وقت آخر ليس إلا لتحقيق صحة القول بأن ناسوته ينمو ويتزايد فى أقطاره الثلاثة وينشأ تدريجياً . ليعلمنا أنه بعد اتحاده بالأزلى لم يتغير جوهره . بل كان واحد من الأزلى والزمنى حافظ لجوهره وخاصته . فهو واحد من أزلى وزمنى ، مات بانسانيته بقوة لاهوته . فهو فاعل فى ذاته بذاته ... ففيه الإله الكلمة المعبّر عنه بالابن الأزلى وفيه الابن الزمنى المأخوذ من الطبيعة المريمية . فهو واحد متقوم من اثنين . فاعل بوجه ومتفعل بوجه آخر . وهذا الأمر قد حققه وأظهره فى أقواله وأفعاله . فمنها قوله تعالى لليهود . انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه وقد شهد البشير أنه إنما عني به هيكل جسده فإن كان الذى اتخذه من السر المرمى وهو جسده المجد قد صار بالتحاده الأزلى أزلياً وتغير عن حقيقته فما هو الذى ينقض ؟ وما هو الذى يقيمه بعد موته ؟ ... » .

« ... وليس يردع المخالفين للأصول المسيحية إلا قولنا بأن المفهوم من اسم يسوع المسيح أنه الكلمة الأزلى ظهر متحداً بانسان زمنى مخلوق محدث . حتى إذا قالوا : إن الهكم صلب ومات ، نقول - نعم الأمر كذلك . ولكنه صلب ومات بما له من الجوهر المحدث المخلوق . ولهذا نقول إنه جوهر من جوهرين أزلى وزمنى . صار منهما حقيقة واحدة ... وله ولادتان : ولادة أزلية من الأب قبل كل الدهور ، ولادة زمنية كائنة بعد أن لم تكن . وظهر تجاهنا بولادته الزمنية . وتصرف بيتنا تصرف الإله المتأنس . ولذلك تلا الرسول هذا الكلام بقوله وحل بيتنا ورأينا مجده .

« أى أنه اتحد بجسد مخلوق من الأحشاء المريمية وحل بيتنا به ، وظهر لنا منه ظهوراً ورأينا منه مجده الذى حقق لنا به أن ابن الله تعالى وابن البشر وأنه إله العالمين وديانهم يوم الدين ... » .

« ... فيسوع المسيح تعالى أقنوم واحد صار عن أقنومين : أزلى خالق وزمنى مخلوق . ففیه الولادة الأزلية والولادة الزمنية . فلذلك قال علماء البيعة المسيحية ان اسم يسوع المسيح له المجد يتضمن جوهرأ من جوهرين . أحد الجوهرين هو الذى لا يقبل الأعراض ولا يشغل حيزاً ، والآخر هو الجوهر الزمنى المحدث الذى يقبل الأعراض ويشغل حيزاً . ولهذا كان جوهره الزمنى المحدث هو الذى يصع عليه الصلب والموت والقيامة من القبر ... (١) » .



(١) مختصر البيان ... ص ١٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ - ٣٩ .



أيقونة للسيدة العذراء

موجودة عن يمين الداخل الى الكنيسة المشيدة على اسمها ، الشهيرة بالكنيسة
« المعلقة » لكونها مبنية فوق أحد أبراج حصن هابلون (مصر العتيقة) .

وهذه الأيقونة رمز رائع لوحدة التاريخ التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا
الكتاب لان صورة السيدة العذراء والى يسارها ابنها الإلهى من انتاج القرن التاسع ،
فى حين أن يوحنا المعمدان الراكع يقبل احدى قدمى المخلص من انتاج القرن الحادى
عشر . ويحيط بالأيقونة اطار من الخشب المحفور والملون من انتاج القرن الثالث عشر .
ولا يستطيع أى شخص أن يدرك هذه الفوارق الزمنية من مجرد النظر إلى الأيقونة -
إلا الاخصائيون بالطبع والأيقونة بأطارها تؤلف وحدة متجانسة منسجمة بتلاشى الزمن
أمام تجانسها وانسجامها

القرعة الهيكلية

٢٢٠- تجاوب الاصداء

٢٢٣- تكريس الميزون .

٢٢١- الاستقرار اخيرا

٢٢٤- حزن البابا الاسكندري فانتقاله الى

٢٢٢- العودة الى القيم الروحية .

دار النعيم .

٢٢. - فى سنة ٩٥٢ ش. خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا كيرلس الثالث إلى الأخدار السماوية . وكان السأم مخيماً على القلوب من أثر السيمونية التى كان البابا الراحل قد تمادى فيها . فاتفق الاكليروس والشعب فيما بينهم على أن يرجعوا التشاور فى موضوع انتخاب الخليفة المرقسى إلى أن تهدأ النفوس عما أصابها من قنوط . وعلى ذلك ظلت السدة المرقسية خالية سبع سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً . « ولم يعد بعد ذلك أحد يتحدث فى أمر اقامة بطريرك لا كبير ولا صغير ولا من عظماء الأمة ولا من عامة الشعب ولا سراً ولا جهرأ » (١) . ولقد رأى الملكيون (٢) الفرصة مواتية فقصدوا إلى السلطان نجم الدين أبى الفتوح أيوب الذى اشتهر بالتسامح الدينى وطلبوا إليه أن يأذن لهم بأن يقيموا من بينهم بطريركاً . فأذن لهم متجاوزاً عن مطالبتهم بأداء المال المفروض فى مثل هذه الحالات . فاختاروا راهباً طيباً يلقب بالحكيم المصرى ورسموه باسم غريغوريوس الأول معتبرين إياه خليفة لمارمرقس . وكأنما كانت هذه الرسامة ناقوساً أيقظ القبط فنبههم إلى وجوب الاسراع فى انتخاب البابا الاسكندري الشرعى . على أن الأراخنة حينما انتبهوا لهذا الأمر الخطير اجتمعوا للتشاور وحدهم فى كنيسة الأنبا شتودة بباهلون (مصر القديمة) . وقد رأس هذا الاجتماع ابن صاعد وزير السلطان المعز أيبك (الذى خلف نجم الدين) وابن صاعد هذا كان ابن أخت الراهب ابن التعبان (الذى كان قد تزعم الثائرين على الأنبا كيرلس الثالث) ، وكان سياسياً .

(١) تاريخ البطارقة للأنبا يوساب أسقف فوه ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) نسبة إلى الملك مرقيانوس الذى رأس الجلسة الأولى لمجمع خلقيدون المشنوم سنة ٤٥١ م ، وقد أطلق المصريون هذه التسمية على مشايخ خلقيدون الذين ردوا عليهم بتسميتهم « يعاقبه » .

ذا دهاء فأصدر قراراً بأن يدفع التجار والصيادلة وغيرهم من رجال المهن والثروات ضريبة سنوية محددة للدولة ^(١) وفى هذا الاجتماع رأى الأراخنة أن أسهل وسيلة يستعينون بها فى اختيارهم هى الاحتكام إلى القرعة الهيكلية حسماً لما قد يحدث من نزاع وبخاصة لأنهم لم يستشيروا الأساقفة مع أن الأنبا خريستودولس الملقب باهن الدهيرى أسقف دمياط كان موجوداً بالقاهرة إذ ذاك . وقد نفذ الأراخنة رأيهم بسرعة فأسفرت عن فوز الراهب ابن كليل المصرى المترهب بدير الأنبا أنطونى .

غير أن الأخبار ما لبثت أن وصلت مسامع الأنبا خريستودولس الذى ثار لمجانبة الأراخنة التقليد الكنسى القبطى الذى ينص على « وجوب انتخاب البابا من سينودس - الأساقفة وجماعة الأكليروس والشعب كمسرة الروح القدس » فلما سمع الأراخنة بشورة أسقف دمياط اجتمعوا بالراهب ابن التعبان وبالوزير ابن صاعد وبأرخن اسمه الشيخ الحكيم الرشيد بن خليفة واتفقوا معهم على الاستنجاذ بالأنبا يوساب أسقف فوه ورجائه بأن يوافقهم إلى القاهرة وبصحبه أسقف دمنهور عميد الأساقفة وأسقف سمند أو من رسمهم البابا كيرلس الثالث . ولقد استجاب الأنبا يوساب لرغبتهم بسرعة واهتمام . وكان بعض العربان المقيمين فى مديرية البحيرة ثائرين على الأهالى فى تلك الأونة مما أحدث اختلالاً فى الأمن . على أن الأنبا يوساب نجح فى توصيل رسالته إلى شريكه فى الخدمة الرسولية بدمنهور رغم هذه القلاقل كما نجح فى توصيلها إلى أسقف سمند . ومن الطريف أن الأنبا يوساب قد جاء من فوه إلى القاهرة فى مركب صغير عن طريق النيل . وقد وصل الأساقفة الثلاثة سالمين .

٢٢١ - وفى تلك الأثناء وصل إلى القاهرة من دمشق راهب مصرى اسمه غبريال كان صديقاً للأمجدين العسال كما كان معلماً لابنه فخر الدولة . وقد رغب الأمجد فى اكرام معلم ولده إلى حد أنه لم يتراجع عن محاولة استغلال منصبه لتجليس الراهب غبريال على السدة المرقسية بدلاً من الراهب ابن كليل المصرى الذى أنجحته القرعة الهيكلية بعد أن - يضيفوا اسم

(١) المخطط للمقريزى ج ٣ ص ٣٨٦ ، تاريخ مصر الحديث لزبدان ج ٢ ص ١٠ ، تاريخ البطارقة لأسقف فوه ص ١٦٤ .

الراهب غبريال إلى من يقتربون عليهم . إلا أن الأنبا يوساب استطاع أن يتفاهم بسرعة ولباقة مع الأنبا خريستودولس بن الدهيرى ومع أسقفى دمنهور وسمنود فقررُوا جميعاً أنه ما دامت القرعة الهيكلية قد أجريت فلا يليق إعادتها ثانية . وكان هناك أُوخن اسمه مخلص بن أندونه جاء مع جماعة من أصحابه وتفاهم مع الأساقفة واستطاع أن يوفق بين مؤيدى الراهب ابن كليل المصرى ومؤيدى الراهب غبريال إلى حد أن الجميع اتفقوا على مقدمة الأول .

ونتيجة لهذا الاتفاق السليم قام الأساقفة برسامة ابن كليل المصرى قمصاً بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فى احتفال يفوق عن الوصف إذ قد ازدحمت الكنيسة بجماهير الشعب من باب الهيكل حتى سلاّم الباب الكبير . وبعد هذا الاحتفال الرائع استصحب الأساقفة هذا القمص المكرم إلى الأسكندرية . وما أن بلغوا مشارف المدينة العظيمة حتى هرع الجميع لاستقبالهم وألفوا موكباً فخماً سار فى الشوارع حتى وصل الكنيسة المرقسية حيث تمت المراسيم الدينية المجيدة التى جعلت من ابن كليل المصرى البابا الأسكندرى السادس والسبعين باسم أثناسيوس الثالث سنة ١٢٤٢ م .

٢٢٢- وحالما تمت رسامته قام بتكريس عدد من الهياكل ورسامة الكهنة اللازمين لخدمتها فى الشجر الاسكندرى . وبعد ذلك ذهب لزيارة أديرة وادى النطرون لتسعد روحه ببركة القديسين الذين ترددت أنفاسهم فى تلك المنطقة المقدسة .

ولما عاد من هذه الزيارة المباركة ليباشر مهام كرامته الكهنوتية العظمى امتلأت القلوب هدوء لأن البابا قضى على السيمونية تماماً ، فلم يلتفت إلا إلى ما يتميز به المرشحون للكهنة من روحانية وفضل . كذلك وضع جميع الذين كانوا قد نالوا هذه الكرامة بالسيمونية تحت رقابته الخاصة وطالبهم بأن يقدموا له شخصياً تقارير عن كل ما هو حادث فى كنائسهم وعن أعمالهم من أسبوع لأسبوع . فساد الاستقرار كل مرافق الكنيسة حتى لقد شمل فروعها الممتدة شرقاً لأن هذا البابا الساهر الأمين نجح فى الحصول على تعهد من السلطان الظاهر بيبرس على حماية المقدسات التابعة له فى القدس الشريف وغيره من مدن البلاد المقدسة ^(١) .

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتفرى بردى ج ٧ ص ١٩٤ .

٢٢٣- وفى أثناء تفقده للكنائس لاحظ الأنبا أنثاسيوس حاجتها إلى مزيد من الميرون . فدعا الأساقفة لكي يذهبوا فى صحبته إلى دير الأنبا مكارى الكبير ويشاركوا معه فى إقامة الشعائر المقدسة اللازمة لعمل الميرون . وقد لبي دعوته اثنا عشر أسقفاً وذهبوا جميعاً إلى برية شيهيت حيث قضوا بضعة أيام أدوا فى أثنائها الشعائر المقدسة فى فرح وروحى شامل . وقد زاد هذا الفرح وجودهم فى دير الأنبا مكارى أبى برية شيهيت الذى فاضت محبته على الجميع حتى وهو بعد فى الجسد - فكم بالحري تغمرهم هذه المحبة بعد أن سما فوق الجسد .

٢٢٤ - وساد السلام البلاد المصرية وجاراتها فترة من الزمن استقرت خلالها القلوب ، ولكن السلام لم يحل إلا ليضع سنوات قصيرة تبدد من بعدها . ذلك لأن ابن صاعد القبطى الأصل استمر قابضاً على زمام الأمور لأنه أتكر المسيح . ولما كان مثل هؤلاء الجاحدين أكثر الناس تعسفاً فقد استبد هذا الوزير بالشعب عامة وبالقبط خاصة ففرض عليهم الحوالى (وهى جزية معينة) وتشدد فى جبايتها . كذلك استثار الرعاع فى كل من مصر وسوريا . وعلى الرغم من أن هذا الوزير كان قد تنكر لدين المسيح وللمؤمنين بالمسيح فإن الرعاع فى ثورتهم أضرموا النار فى عدد من الكنائس وقتلوا الكثير من القبط . بل إنه استنز عوام دمشق فخربوا كنيسة على اسم السيدة العذراء ونهبوا كل ما فيها ثم أضرموا فيها النيران . فطفى الحزن على قلب الأنبا أنثاسيوس الثالث حينما رأى كل ما أصاب الناس من شر على يدى هذا الجاحد ، واستبد به الحزن إلى أن انتقل إلى بيعة الأبهكار . فاحتفل بدفنه الاحتفال المهيّب الذى يقام لخلفاء مارمرقس فى كنيسة أبى السيفين بياهلون (مصر القديمة) بعد أن قاد دفنة الكنيسة إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً وثمانية عشر يوماً . ومع قصر هذه المدة - نسيباً - فإنه عاصر خمسة من حكام مصر هم : شجرة الدر وموسى الأشرف و خليل والملك المعز والمتصور والمظفر والظاهر بيبرس (١) .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمع الشماس كامل صالح نخلة . طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥٢ ص ٦ - ١٥ .

فترة كلها فوضى

أ - تغير الدولة

- | | |
|------------------------------------|------------------------------|
| ٢٢٥- نهاية الحكم الأيوبي والمخلفات | ٢٢٧- اضطراب في الحبشة . |
| الروحية عنه . | ٢٢٨- التعامل مع النبوة . |
| ٢٢٦- الفوضى تتسرب الى كيفية انتخاب | ٢٢٩- تصرف شاذ . |
| البابا المرقسى . | ٢٣٠- الأثر الفكري الروحي على |

الاضطراب

٢٢٥ - شهدت السنوات الأخيرة من باباوية الأنبا أثناسيوس الثالث أحداثاً جسيمة انتهت بانتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى أيدي المماليك . وأول من أفسح المجال للمماليك هو صلاح الدين بالذات : فقد أراد أن يحيط نفسه بحاشية تكون طوع بديه وتقف سداً منيعاً في وجه أية ثورة قد تقوم ضده . فابتاع عدداً من الشباب الأقوياء الأغراب وجعل منهم حرسه الخاص . ولما كان شراء الأيوبيين لهؤلاء المماليك سنوياً فقد أخذ عددهم يتزايد على مر السنين ويتزايد معه سلطانهم إلى أن أصبحوا هم أصحاب السلطة الحقيقية رغم وجود السلاطين الأيوبيين ^(١) . فكانوا يعزلون السلطان الذي يغيظون عليه ويقيمون مكانه من يرضون عنه . ولم يكتفوا بالعزل في بعض الأحيان بل كانوا يذهبون إلى حد قتل السلطان الغاضبين عليه .

ولقد كان الأيوبيون في غالبيتهم على جانب كبير من العدالة والعمل على خير الرعية رغم اصابتهم بشهرة الحكم . ولقد عمل الملك الكامل على راحة القبط فأذن لهم باصلاح الكنائس المتصدعة وبناء كنائس جديدة ، فلم يصلحوا ولم يبنوا فقط بل زينوا الكنائس بما يلائمهم من الفنون - وهناك عدد من الأيقونات يرجح أنها رسمت في هذه الفترة الآمنة - تنطق كلها

(١) « مختصر تزيخ مصر » (بالفرنسية) ج ٢ البحث الثاني : « مصر الاسلامية ... » ج ٢٢٨ - ٢٥٥ .



أيقونة السيدة العذراء العجائبية

بكنيستها الأثرية الكبرى بحارة زويلة من القرن الثالث عشر الميلادي

بالدقة وعمق الروحانية . ومن أبدعها تلك الأيقونة الفريدة فى اخراجها وفى عظمتها إذ تمثل يسى أبا داود الملك وقد تفرعت منه شجرة والسيدة العذراء جالسة فى وسطها تحمل على ذراعيها المباركتين الطفل الألهى . وهذه الشجرة ترمز إلى شجرة الحياة ، ويحيط بها ست عشر نبياً يمسك كل منهم بكتاب متضمناً للنبوة التى نطق بها عن تجسد الابن الكلمة من العذراء القديسة مريم ، ولا تزال هذه الأيقونة تزين المقصورة القبلية الشرقية الملاصقة لهيكل كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ^(١) .

ثم أن هناك أيقونة ضمن عدد غير قليل من الأيقونات التى تزين كنيسة مارمينا بقم الخليج - هذه الأيقونة تمثل شخصين متشابهين إلى حد بعيد حتى لكانهما توأمان . فكل منهما واقف فى مواجهة الناظر إليه وفى عينيه نظرة متأملة بعيدة ، ونصفه الأعلى عار بينما تغطى حقويه منطقة من وبر الإبل . ولحيته البيضاء الطويلة تكاد تصل إلى قدميه ، وشعر رأسه وشواربه طويل ناصع البياض ، وهو يحمل صليبا فى يده اليسرى بينما ارتفعت يمينه بالبركة . وخلفه نخلة واحدة تحمل بلحا أصفرا . هذان الصنوان هما أبو نفر السايح والأنبا برسوم العريان ^(٢) .

والتشابه البادى فى الأيقونات قد يعده بعض المعاصرين تقصيراً من الفنان أو تغاضياً منه عن واقعية الشكل . ولكن الذى يجب أن نذكره هنا هو أن الأيقونة ليست صورة فتوغرافية ولا تصويراً واقعياً مادياً من نموذج جسمى محدد بل هى مستوحاة من الروح للتعبير عن الحقائق الروحية وعن اللازمية ويجب أن تصدر عن بصيرة روحية وتفهم روحى متمازج مع مصدره الذى يعلو على الماديات المحدودة . وإلى جانب هذا كله فالأيقونة يجب أن تترابط مع محيطها العضوى للبناء الروحى الذى تؤلف جزء منه فلا كيان لها إلا داخل إطار العقيدة والعبادة حتى متى وضعت فى بيت خاص . لذلك فالخطوة الأولى اللازمة لتفهمنا الأيقونة هى تفهمنا للوقائع

(١) عن نشرة أصدرها مترى خريستو ناظر كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة خاصة بهذه الكنيسة الأثرية فى أول توت سنة ١٦٦٦ ش (١١ سبتمبر سنة ١٩٤٩) القاهرة

(٢) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطر ج ١

الروحانية التي يصدر عنها القداس الإلهي . وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون الأيقونة مجرد نقل حرفي للوقائع العالمية المادية لأنها تسعى إلى تجسيد الأفكار وتستهدف توصيل صورة للنظام الإلهي المقصود من العالم - أي أنها صورة للأشياء كما هي في حالتها الحقيقية الأصيلة « في عيني الله » وليست صورة لهذه الأشياء كما تبدو لنا من وجهة نظرنا المحدودة . ثم أن الأيقونة محاولة لتذكير الإنسان بمعنى كرامته الحقّة وما يمكن أن يكونه فتذكره بأنه ساكن في الأبدية وشريك للحياة الملائكية إلى جانب كونه مخلوق من هذه الأرض محدود بالزمن . فالفنان لكي يصل إلى رسم أيقونة بمعناها الصحيح عليه أن يرفع رؤيته من الأرضيات إلى السماويات بالمدي الذي يصبح فيه قادراً عقلياً أن يستضيف الشكل الذي سينقله وإلى أن « يعيش » هذا الشكل في أعماقه بحيرته الداخلية الخاصة ^(١) .

وكل من الأيقونة والصليب لا يستهدف توجيه خيالنا أثناء صلواتنا فقط بل أن الأيقونة والصليب هما في واقع الأمر مركز مادي ينبعث منه نشاط وتستقر فيه قوة إلهية توحد نفسها مع الفن الإنساني . وعلى هذا النحو أيضاً فرسم علامة الصليب والماء المقدس وكلمات الأسفار الإلهية المقروءة أثناء الشعائر المقدسة والعرنم الكهنوتي وزخارف الكنيسة والبخور والشموع الموقدة - كلها هي رموز بالمعنى الواقعي للكلمة : إنها إشارات مادية لوجود العالم الروحي وحضوره أمامنا ^(٢) .

ومن أبداع الأمثلة على هذا التصوير للأفكار اللازمية اللامادية أيقونة للقديس يوحنا الحبيب بمارمينا أيضاً . فهذا البشير يتمشى وحده وعيناه ممتدتان إلى الأمام في تأمل عميق ، وقد أمسك في يسراه الجيل مفتوحاً وفي يمينه ريشة للكتابة وجسمه مائل قليلاً لأن الساق اليسرى مثناه قليلاً

(١) « فن الأيقونة » (بالإنجليزية) لفيليب شيرارد - مقال نشره في كتاب « السر والصورة » الذي أصدرته جمعية سانت ألان وسانت سرجيوس الروسية في لندن سنة ١٩٦٧ - ص ٥٧ - ٦٧ .

(٢) لوسكي : « روحانية اللاهوت في الكنيسة الشرقية » (بالإنجليزية) ص ١٨٩ .

عند الركبة ، والقدم على شكل التأهب للمسير إذ أن طرفها الأمامى مازال مرتكناً على صخرة منخفضة خلفها . والعينان الواسعتان بنظرتيها البعيدة الغور تعبران عن حقيقة الأيقونة - فهما عينا رجل استوقفته أفكاره وذكرياته فبدأ كأنه يقوص فى أعماق روجه حيث يجد الوحي الإلهي (١) .

وثمة أيقونة أخرى بلغت هذا التعبير الروحي الجميل هي صورة للقديس قلته بكنيسة أبى السيفين بمصر القديمة . فقد كان هذا القديس طبيياً معروفاً . وهو واقف محسكاً يمينه عصا صغيرة يشير بها إلى صندوق مرفوع الغطاء مقسم داخله إلى ستة أقسام يحوى كل منها نوعاً من العقار الطبى . وعن اليمين وكأنه فى الهواء صليب دقيق الصنع مذهب اللون ، وعن اليسار عصا للرعاية . فالكثير من البطارقة اشتهر بمهارته الطبية (٢) .

وما يحسن ذكره أن هناك طشتاً من النحاس المكفت (٣) بالفضة يرجع إلى عهد الملك الصالح . وهذا الطشت محفوظ بمتحف فرير للفن بواشنطن ، وهو آية من آيات الفن : فهو مزين بزخارف متباينة منسجمة رغم تباينها تشتمل على كتابات كوفية ونباتات تنتهى بعض فروعها برؤوس آدمية والبعض الآخر برؤوس حيوانية ومناظر تمثل لعبة البولو . على أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الزخارف المناظر المأخوذة عن المسيحية أهمها البشارة ، العذراء والطفل ، الهروب إلى مصر ، إبراء الأبرص ، الدخول إلى أورشليم ، العشاء الربانى .

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطر ج ١ ص ٥٧ - ٥٨
(٢) شرحه ج ١ ص ٨١ ولقد ذكر أبو المكارم أن الذى رسم أيقونات الأعياد السيدية الكبرى بكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم هو الرسام أبو اليسرى من مليج . كذلك ذكر فى كتابه عن الديارات والكنائس أنه كان بجبل الطير حتى القرن الثانى عشر ثلاث كنائس اثنتان فيها باسم السيدة العذراء والثالثة باسم أنبا مكارى الكبير صاحب الدير المعروف الكائن فى برية شيهيت .

(٣) أن فن التكفيت يتلخص فى حفر الزخارف على سطح الاتاء حفرأ عميقاً ثم ملء الجزء المحفور بالذهب أو الفضة أو غيرها من المعادن .

ويتساءل البعض : ترى هل صنع هذا الطشت صناعاً قبط أم أن صناعاً مسلمين رسموا المناظر المسيحية لاهدائه إلى أمير مسيحي ممن يتعاملون مع مصر ، إن كتابة اسم الملك الصالح عليه تدل على أنه صنع لاستعماله في مصر في قصر الملك الصالح نفسه أو في قصر أحد الأمراء . لأن العادة التي كان معمولاً بها وقتذاك في المنتجات المصنوعة للهدية هي أن تكتب عليها ورقة عليها العبارة التالية « بركة لصاحبه » ولا ينقش اسم السلطان عليها . فأغلب الظن أن هذا الطشت أنتجه صانع قبطي ليستعمله الملك الصالح أو أحد أمرائه (١) .

وفى الواقع أن القبط سعدوا بما نالوه من انصاف فاستجابوا لثقة الملك الكامل بهم وحده عليهم بأن أخلصوا له الولاء في رضى وطمانينة (٢) . وما يؤثر عنه أن طبيبه الخاص كان قبطياً اسمه علم الدين أبو النصر جرجس بن أبي حليقة ، سأل أثناء مرضه ذات يوم : كيف نوم السلطان ؟ فأجابه منشداً بيتاً من الشعر :

يا خليلي خبراني بصدق كيف طعم الكرى فإنى نسيت (٣)

ويوصف هذا الطبيب بأنه « كان متفتناً في العلم والأدب ، حسن المعاملة ، لطيف المداواة رؤوفاً بالمرضى ومحباً لفعل الخير » . وكان الملك الكامل قد رآه وهو صبي ولح الذكاء في عينيه فقال لأبيه : « ولدك هذا ذكى فلا تعلمه التجنيد لأن الجنود عندنا كثير وأنتم بيت مبارك فعلمه الطب » . وابتهج أبوه بهذه الملحوظة الصادرة عن الملك فعلم ابنه الطب فعلاً . وقد خدم أبو حليقة الملك الكامل فالملك الصالح نجم الدين أيوب فالملك المعظم وأخيراً خدم الظاهر ركن الدين بيبرس الذي أكرمه وأجزل له العطاء . وبعد هذه الخدمة الطويلة اعتزل مهنة الطب لكي يخلو إلى العبادة والانصراف إلى الروحانيات . وخلال جهاده في سبيل المحافظة على الأجسام سليمة كتب مقاليتين أحدهما عن « ضرورة الموت » وثانيتهما عن « حفظ

(١) الفن الاسلامي في العصر الأيوبي لعبد العزيز مرزوق ص ٨٧ - ٩٠ .

(٢) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٥ - ١٨٣ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٨٨ .

الصحة » ، كما كتب كتابين : الأول عن الأدوية المفردة سماه « المختار فى الألف عقار » والثانى عن الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة « (١) .

ويبدو أن وصف السلطان الكامل لعائلة هذا الطبيب « بالبيت المبارك » كان تعبيراً صادقاً لأن ابن علم الدين ابن النصر جرجس كان طبيباً هو أيضاً بدوره مشهوراً له بأنه « أحاط » بعلوم الحكمة وقد بلغ منزلة كبرى عند الظاهر بيبرس وكان اسمه مهذب الدين وقد وضع كتاباً فى الطب . أما أخوه موفق الدين أبو الخير فقد برع فى صناعة الكحل حتى لقد صنف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتاباً فى الكحل . كذلك بلغ أخوه الأصغر مصاف العلماء الحاذقين فى الطب (٢) .

على أن فن الرسم لم يكن بالفن الوحيد الذى لاقى عناية كبرى من المصريين - قبطاً ومسلمين - فى العهد الأيوبي بل إن فن العمارة الذى لا يزال البعض من منتجاته باقياً للآن يشهد بأن البناء المصرى كان محتفظاً حتى ذاك ببراعته القديمة . ومن أبرع الأدلة على هذه البراعة تلك السلسلة المتناسكة من الأبنية ذات القباب الرشيقة المزخرفة زخرفاً مبتكراً يعرف بالقرنص لا مثيل له فى أى فن سابق على العصر الأيوبي .

والى جانب هذه الفنون المختلفة برز فن التجارة - فقد كان التجارون فى العصر الأيوبي يزخرفون متاجرتهم بحشوات محفور عليها زخارف نباتية رائعة من بينها عناقيد العنب وآيات بالخط الكوفى والخط النسخ وبالتلوين والحفر والتطعيم . والقطع الخشبية الباقية من هذا العصر « تتجلى فيها الدقة فى الحفر والرقعة فى الزخرفة والروعة فى الخط » (٣) .

وثمة فن آخر برع فيه المصريون فى ظل الأيوبيين هو التفنن فى صناعة الأوانى الزجاجية . ذلك أنهم كانوا يعنون عناية كبرى بالعطور الزكية وبالعلوم الكيماوية فكانوا فى حاجة إلى القدور الزجاجية . ومع أن صناعة

(١) تراث القاهرة السلفى والفنى فى العصر الإسلامى لعبد الرحمن زكى ص ٤٤ .

(٢) شرحه ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي ص ٥٠ .

الزجاج فى مصر كانت سابقة على العصر الأيوبي إلا أن زخرفته بالتذهيب ظهرت فى العصر الفاطمي بينما برع فنانون الأيوبيين فى ترصيعه بالمينا . وقد تمشى فن الخزف جنباً إلى جنب مع فن الزجاج وامتاز بالرقّة والجمال والحياة^(١) .

ولقد برع هؤلاء الفنانين والمفكرين فى العصر الأيوبي نتيجة لاستقرارهم النفسى . فلما دالت دولة الأيوبيين أحسوا جميعاً بالأسى يدب إلى نفوسهم متساكين عما عساه أن يكون نصيبهم فى ظل الدولة الجديدة : دولة المماليك الذين لا يعرفون غير الحرب والنزال والاستئثار بالحكم والتحزب المرير . ذلك لأن المماليك كانوا الوسيلة التى استعان بها كل سلطان شاء أن يقضى على منافسيه . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا عبيداً فى قصور الحكام كما كانوا فى الوقت عينه من بلاد مختلفة ونزعات متباينة . صحيح أن غالبيتهم كانت من الجراكمة والتركمان والأكراد ولكن كان بينهم الصقليون والأسبان . بل إن بعض الأسرى من الصليبيين الوافدين من الشمال الأقصى (كالبلاد الأسكندرية) ضموا إلى هؤلاء المماليك . وهذا التباين الشاسع بين الجنسيات سبب كاف لشيوع الاضطرابات فكيف يكون الحال إذا أضيف إليه أن بعض هؤلاء الناس كانوا من المغامرين الذين باعوا الأهل والوطن بينما البعض الآخر سقط فى الأسر أو بيع رغماً عنه فامتلات نفسه مرارة وحقدًا ؟ لقد أقضوا مضجع التاريخ نفسه ! ويبدو لنا هؤلاء المماليك أشخاصاً أشبه بأبطال الأساطير : فقد كان الرضى والحقد والجرائم الشنعاء والنزعة الروحانية تمتزج فيهم امتزاجاً غريباً . فهم عبيد لا صلة بهذه الأرض الطيبة وليس هناك من حرمة يرعونها للأهل والوطن ومع ذلك فقد أقاموا من مصر امبراطورية مترامية الأطراف ونوا روائع المساجد والمدارس والمستشفيات ما لم يبنه غيرهم !

وكان تورانشاه آخر الأيوبيين لأن المماليك تأمروا عليه وقتلوه . ولم يلبثوا أن قتلوا ابنته فأرملته شجر الدر وبهذه الاغتيالات الثلاثة استهلوا حكمهم ولكنهم سرعان ما اغتالوا قطر الذى كانوا قد أولوه السلطنة

(١) شرحه ص ١٦ - ١٧ و ٢١ و ٢٦ و ٢٨ - ٢٩ و ٥٠ و ١٠٦ - ١٠٨ .

واختاروا بيبرس مكانه . على أن هذه الوسيلة لم تكن فى الاستهلال فقط بل استمرت الوسيلة الوحيدة المستساغة لدى الممالك طيلة مدة حكمهم إلا أنها فى بداية الأمر كانت التعبير عن تصميم الممالك على تصفية الحكم الأيوبي والقبض على زمام السلطة « وهنا يثور على الفور السؤال الهام : وأين كان الشعب المصرى من ذلك كله ؟ الواقع إنه لم يكن غائباً عن كل ما يجرى . ولكن وجوده كان يتخذ أشكالاً متعددة تتفق وطبيعة الشعب نفسه ، وصراع القوى الذى يحدث ، وامكانيات التحرك المتاحة ^(١) » .

وأول الممالك وأقواهم سطوة هو الظاهر بيبرس الذى أقام دولة الممالك البحرين ^(٢) . وقد وصفه أحد الكتاب بقوله أنه « شاهه يوليوس قبصر فى شجاعته ونيرون فى خبثه وحقده ومع ذلك فقد كان عاقلاً عفيفاً عادلاً أحسن معاملة رعاياه حتى لقد شملت عدالته المسلمين والقبط على السواء ^(٣) . بينما نقرأ أيضاً أنه كان « من القبط رجل اسمه التاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يؤمئذ فى خدمة الأمير بيبرس وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره . كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها ^(٤) » .

٢٢٦ - على أنه فى فترة انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى أيدي

(١) عن مقال للدكتور وليم سليمان بعنوان « القاهرة فى مصر المملوكية » نشر فى مجلة الطليعة « العدد الثانى - السنة الخامسة - فبراير سنة ١٩٦٩ ص ٤٨ .

(٢) كان الصالح أيوب قد بنى للممالك ثكنات على البحر « النيل » ومن هنا كانت تسميتهم بالبحريين على أن هناك من يقول بأن هذه التسمية ترجع إلى كونهم جاؤا من وراء البحار - « راجع تاريخ مصر الإسلامية : العصران الأيوبي والمملوكى » للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ٢٦٣ .

(٤) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ٢١٦ . المخطوط للمقرئ ج ١ ص ٦٩ - ويلاحظ القارىء أن تطور اللغة لا يمتد إلى استعمال ألفاظ جديدة فقط بل يشمل التعبير فى معنى اللفظ أيضاً . فالمقرئ استعمال كلمة « يعانى » بمعنى « يمارس » خلافاً للمعنى الشائع الآن لكلمة « يعانى »

الماليك رأى المصريون جميعاً (قبط ومسلمون) أن القتل والغدر كانا الوسيلة التى وصلت بها الدولة الجديدة إلى الحكم . فامتلات القلوب مخاوفاً .

وفى وسط هذا الضيق الجاثم على صدور المصريين تبادل الأنبا يونس السابع والأنبا غبريال الثالث السدة المرقسية بطريقة غير مألوفة وغير لائقة . فقد حدث فى « سنة ١٢٦١ م - وهى السنة التى انتقل فيها الأنبا أثناسيوس الثالث إلى الأخدار السماوية - أن كان الشعب يقدر راهبين تقديرأ متساوياً : أحدهما يونس السكرى وثانيهما غبريال ابن اخت الأنبا بطرس أسقف طنيدى وتساوت الأصوات التى نالها كل منهما فرأى المسئولون أن يلجأوا للقرعة الهيكلية . وعلى ذلك اجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) حيث اقاموا صلاة القداس ثم سحبوا القرعة فوقع على الراهب يونس السكرى . على أن الخصام دب ديبه بين الفريقين لأن أنصار الراهب غبريال لم تعجبهم النتيجة مع أنهم كانوا موافقين على مبدأ الاحتكام إلى القرعة الهيكلية فأخذوا يجدون السعى لتجليس مرشحهم على الكرسي البابوى . ولكن أنصار يونس كانوا أقوى نفوذاً إذ كان بينهم عدد من كبار رجال الدولة فنجحوا فى رسامة مرشحهم خليفة للقديس مرقس فى الثامن من شهر طوبى المبارك سنة ٩٨٧ ش باسم يونس السابع .

٢٢٧ - وفى تلك الأثناء استطاع « يكونو أملك » ملك الحبشة أن يستعيد العرش السليمانى من أسرة مفتصبة له . فأرسل إلى مصر - عن طريق صاحب اليمن - يرجو من البابا الاسكندرى أن يرسم لهم مطراناً . إلا أن الظاهر ببيرس لم يأذن للرسول الآتى من اليمن بحمل رسالة الملك الحبشى بالدخول إلى مصر . ولما كان يكونو أملك فى حاجة إلى مطران يمسحه ملكاً ليدين له الشعب بالولاء ، إرسل إلى بطريرك أنطاكية يرجو منه رسامة مطران لبلاد - فتم له ما أراد وبذلك حدثت جفوة بين مصر والحبشة . وكان هذه الجفوة لم تكن كافية لأن تقلق القلوب فقد أراد السلطان الظاهر ببيرس أن يحرق القبط كلهم ، إلا أنه كان هناك من تشفع فيهم من مواطنيهم فلم ينفذ السلطان رغبته التخريبية واكتفى بأن أخذ منهم خمسين

٢٢٨ - ثم حدث أن تأخر داود ملك النوبة عن دفع البقط (٢). فرأى بيبرس بدهائه أن يهد لنفسه السبيل قبل مقابله. وعلى ذلك سعى إلى استمالة شيكتندا ابن أخى الملك داود ونجح فعلاً فى ضمه إلى صفوفه. ثم حارب بيبرس داود وانتصر عليه وقتله. وعندها أقام شيكتندا ملكاً على النوبة. ومن حسن حظ بيبرس أن شيكتندا الذى خان عمه حفظ العهد الذى أخذه على نفسه بعد توليه الملك وهو أنه أقسم بأن يؤدى البقط من جديد كما أقسم بأن يدفع سنوياً نصف دخله لمصر مرفقاً به ثلاثة فيلة وثلاث زرافات وخمس نمور ومئة هجين وأربعمائة ثور (٣).

كذلك نجح بيبرس فى ضم السودان إلى مصر كما استولى أسطوله على قبرص. بل أنه قبيل وفاته كان سلطانه ممتداً من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب مشتملاً شلال النيل الرابع (٤).

٢٢٩ - وقد تولى الأنبا يونس السابع مهام بابويته مدة ست سنوات وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان الفريق الآخر قد تمكن بعدها بما بذل من جهود من خلع الأنبا يونس وتجليس مرشحهم باسم الأنبا غبريال الثالث الذى لم يتح له الجلوس على السدة المرقسية غير ستين وشهرين انزوى الأنبا يونس خلالها فى ديره. ولما كانت نياحة الأنبا غبريال الثالث سابقة على نياحة الأنبا يونس السابع فقد عده المؤرخون الكنسيون فى سلسلة الباباوات الاسكندريين السابع والسبعين ووضعوا الانبا يونس من بعده فى هذه السلسلة.

(١) المخطوط للمقريزى ج ٢ ص ٣٠٢ طبعه روفائيل عبيد - القاهرة سنة ١٨٩٠. قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديمتري رزق ص ٢٠.

(٢) البقط هو العدد المعين من العبيد الذى كان مفروضاً عليه أن يقدمه لمصر سنوياً.

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ٢٦٢ - ٢٧٥ موجز تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى (بالفرنسية) لجاستون فيبت ص ٢١٢ - ٢٣٤.

(٤) القاهرة ... نلذكثور عبد الرحمن زكى ص ١٠٥.

ورغم قصر المدة التى قضاها الأتبا غبريال على الكرسي المرقسى فإنه قام بتكريس الميرون المقدس .

٢٣- على أن المطران الأنطاكي الذى كان قد رسم بناء على رغبة يكونو أملك كان محباً للمال ، وفى الوقت عينه كان الشعب الحبشى على ولائه للبابا المرقسى فكان يتطلع إلى مطران مرسوم منه . فكانت النتيجة أن ثار الأحباش على المطران الأنطاكي ثورة جعلت يجيبا سيون بن يكونو أملك يرسل إلى الأتبا يؤنس السابح رسالة قال له فيها : « أتوسل للبطرک - بطرك الاسكندرية - أبو يحنس ... اسمع كلامى واقض حاجتى وابعث لى مطران جيد صالح يعلمنى كل شىء جيد ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم ... ولأجل محبتنا فى بطريركية مصر ما خليناهم ... وما كانوا قعدوا عندنا إلا هوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . سير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح . واذكر مرقس (الرسول) لا تخلينا بخطيتنا ... ولا تخلى هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت اطردهم ، وإن قلت خلوهم خليناهم ، وإن أنكرت علينا بسببهم فاغفر لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطية واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة وفى الموت » . كلام آخر « السلام لك يا منصور . اسمع ياسلطان مصر نصرك الله أعط البطرک الدستور يبعث لى أسقفاً فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم . والرسم الذى لك والتقدمة أنا اغطيه إذا سيرت لى أسقفاً . وإذا سيرته أنا انقضى منه عن رسمك ومهما قال فعلته (١) .

ولقد وهب يكونو أملك للكنيسة ثلث ايرادات الدولة للصرف منها على احتياجاتها (٢) . وكانت اللغة العربية قد أصبحت لسان القبط المتداول بينهم والذى يكتبون به آدابهم وعلومهم فبدأ فى مصر مذاك أدب مسيحي عربى وكان الأحباش يستقون معلوماتهم الدينية والأدبية من إخوتهم القبط . ولما

(١) « قصة الأقباط فى الأرض المقدسة » لديترى رزق هامش ص ٣١ - ٣٢ ويذكر المؤلف أن يجيبا سيون أرسل أيضاً خطاباً منفرداً إلى السلطان . وما تجدر الإشارة إليه بساطة التعبير والألفة الهادية فى كلمات الخطاب الخالى من كل تنميق .

(٢) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص ٩٥ .

كان يكونو أملك صاحياً قوياً حث شعبه على طلب العلم فسرت في بلاده حيوية نبعت من مصر . ذلك لأنه قامت وقتذاك حركة واسعة النطاق لترجمة ما كتبه الآباء المصريين إلى اللغة الأمهرية أولاً . وقد بدأت هذه الحركة في القرن الثالث عشر الذي نحن بصددده . فكما أن الأحباش أخذوا ما كتبه الآباء الأولون بالقبطية كذلك أخذوا ما كتبوه ابتداء من هذه الفترة بالعربية . وابتداء من القرن الرابع عشر لم يكتف المترجمون بنقل كتب الآباء إلى الأمهرية بل ترجموها إلى الجعزية التي ذاعت عن خلالها أغلب الكتب اللاهوتية والكنسية . وقد رأس حركة الترجمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر المطران القبطي . وقد عبر الأحباش عن تقديرهم لمجهوداته بأن أطلقوا عليه لقب « الأب تراجوامانا » . وقد بدأ بمراجعة الترجمة الموجودة باللغة الحبشية القديمة للكتاب المقدس ومقارنتها بالنص العربي . ثم نشر طبعة جديدة لهذا الكتاب الذي هو قاعدة التعاليم الروحية لدى المسيحيين جميعاً . كذلك ترجمت قوانين الرسل (الدسقولية) والقصص الخاصة بآدم وحواء وأعمال الرسل ، ثم الليتورجيات (القداسات) والميامر وسير القديسين والشهداء والسنكسار ، تبعثها ميامر أخرى وعجائب السيدة العذراء ، وعجائب مارجرجس الذي من اللد وسيرته .

ومن نعمة الله أن تمت هذه الترجمات وانتشرت لأن هناك كتباً كثيرة ضاعت في الأصل (القبطي أو العربي) ولكنها بقيت في الترجمة الحبشية مما يضاعف قيمتها طبعاً . ومن أشهر الكتب التي ضاعت كتاب التاريخ الذي وضعه يونس النيقيموس وترجمه شماس قبطي وزميل حبشي له ، فقد جاء في ختامه : « لقد عنيت أنا الحقير بين الناس والشماس غبريال الابن الروحي ليونس القصير بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الحبشية القديمة بمنتهى الدقة ، وقد أدينا هذه الترجمة نزولاً على إرادة الملكة مريم سنا وأثناسيوس قائد الجيش الحبشي » ^(١) .

وهناك كتابان في التاريخ أولهما كتبه جرجس بن العميد الملقب بابن المكين وثانيهما وضعه أبو شاكر بن الراهب أبو الكرم بطرس بن المهذب

(١) قصة الكنيسة القبطية . الكتاب الثاني ص ٢٨٤ - ٢٨٨ .

شماس كنيسة المعلقة ، وكلاهما عن تاريخ العالم بصفة عامة وعن تاريخ مصر بالتفصيل والتدقيق . وقد ترجم كلاهما أيضاً ^(١) .

والكتب وإن كانت أعظم ما قدمته الكنيسة القبطية لأبنائها من الأحباش أن هناك تقدمات أخرى إلى جانبها . ومن بين الأعمال المعمارية الضخمة سلسلة من الكنائس شيدت في حكم الملك لاليبالا (في أوائل القرن الثالث عشر) . والمخطوطات الباقية من هذا العهد تصل بنا إلى أن بنائهم كانوا من القبط . فالمخطوطة المعروفة بمخطوطة رافراي تقول بأن الملك التقى لاليبالا أمر باستحضار أربعمائة أو خمسمائة عامل من أورشليم ومن الأسكندرية وتشمل هذه المخطوطة على صفحة عجيبة مكتوبة بثلاث لغات هي القبطية والعربية والجمزية . وكاتب هذه الصفحة رجل اسمه سيدي مستقل الذي يبدو أنه المهندس والبانى لهذه الكنائس . والتصف الأول من اسمه عربى في حين أن النصف الثانى هو الكلمة الأمهرية لكلمة « صليب » فمن الواضح أنه كان قبطياً اتخذ اسماً أمهرياً حين ذهب إلى الحبشة . والعجيب أن أهل المنطقة إذا ما سئلوا عن بنى هذه الكنائس يجيبون بأنهم « أشخاص بيض » ساعدتهم الملائكة فكان هؤلاء البيض يبنون في النهار بينما يبنى الملائكة في الليل . ومن المعروف أنه في العصر الذى شيدت فيه كنائس لاليبالا كان القبط يعانون الإضطهاد فتزح بعض منهم إلى الحبشة واستوطنوها كذلك يرى الاختصاصيون أن هذه الكنائس المنحوتة في الصخور لا يمكن أن تكون من عمل بنائين محليين ، ولها نظائر في البلاد المصرية سواء منها ما شيد في عهد الفراعنة أو خلال القرون الوسطى فالمصريون من عهود قديمة بنوا معابدهم منحوتة في الصخر ، وهم جيران الأحباش ، وليسوا جيراناً فقط بل هم جيران مترابطون ، والتاريخ ينبئنا عن الأعمال المعمارية التى قام بها الصناع والفنانون القبط في تونس وفي فلسطين وفي غيرها من بلاد هذا الشرق القديم . فمن الطبيعى أن يتجه الأحباش بأبصارهم إلى المصريين ، ومن الطبيعى أيضاً أن يلجئ المصريون طلب إخوتهم الأحباش . خصوصاً إذا تذكرنا أنه فى تلك العصور لم تكن أوربا

(١) ترجمات من العربية إلى الأدب الاثيوبي (بالانجليزية) مقال للدكتور مراد كامل نشره في مجلة جمعية الآثار القبطية العدد السابع (سنة ١٩٤١) ص ٦١ - ٧١ .

(وبالتالي أمريكا) لها وجود فى القارة الأفريقية . فلم يكن غير الأفريقيين مع بعضهم البعض . فإذا ما تأملنا كل هذه الوقائع وصلنا إلى أن القبط لا محالة هم الذين قاموا ببناء كنائس لاليبالا (١) .

ولما انتقل الأنبا غبريال إلى بيعة الأهكار أعيد الأنبا يؤنس السابع إلى السدة المرقسية . ومن أرق ما قيل عن انسان تلك الكلمات التى وصف بها هذا البابا الاسكندرى وهى : « كان رجلا جليل القدر وقوراً واسع العلم والمعرفة . فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على إزالة الوحشة من بين الأحزاب وبالحق فى التلطف مع الحزم فجاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر . فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه » (٢) .

على أن الحالة السياسية إذ ذاك كانت عصيبة بسبب ما ساد مصر من الفتن والقلق . وكان الدافع لهذه الفتن فداحة الضرائب المتزايدة والتشدد فى فرض ملابس خاصة على القبط وترك العامة يتهاجمون عليهم بلا رادع (٣) . فبذل الأنبا يؤنس جهوداً عنيفة فى سبيل شعبه إذ قد راعه أن يجد الكثيرين منهم يخورون فيجحدون المسيح .

ولقد ظلت مدة رياسته - عدا السنين الست الأولى - اثنين وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً انتقل بعدها إلى الأخدار السماوية فامتلات القلوب حزناً لفقده إذ قد أحس الجميع بما يشبه لوعة اليتيم لأنهم كانوا قد وجدوا فى هذا الراعى الأمين أباً واساهم فى شدائدكم ونكباتهم وعرف أن يسكب الهدوء والطمأنينة على نفوسهم (٤) .

(١) كنائس لاليبالا الضخمة (بالانجليزية) مقال للويس فيندلاى نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد التاسع سنة ١٩٤٣ ص ٢١ - ٢٣ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاخر رياض ص ٩٨ - ٩٩ - وقد سبقت الإشارة إلى هذه الروائع المعمارية فى ف ٥٦ .

(٢) الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث « لميخائيل شاروويم » ج ٢ ص ٤٩٥ .

(٣) المخطط للمقرىزى ج ٤ ص ٤٠٢ - ٤٠٤ (طبعة أهلية) .

(٤) تاريخ بطاركة الاسكندرية - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ١٦ - ٢٢ .

ب - الأنبا برسوم العريان

٢٢٤- الأنبا برسوم ومعلم الاطفال .

٢٢١- الاضطراب الناتج عن الحروب .

٢٢٥- الضيق يعقبه الفرج .

٢٢٢- الوجيه مفضل .

٢٢٣- (هد برسوم العريان .

٢٣١ - كان تورانشاه آخر الملوك الأيوبيين . وكان الشرق الأوسط في عهده وعهد أبيه الملك الصالح يسوده الاضطراب الناشء عن الحروب الصليبية ولما كانت الحروب التي قام بها الصليبيون لم تنته بانتصار حاسم فقد ظلت نيرانها تصلى الشرق فترة طويلة .

وفي سنة ١٢٦٠ م انتصر الملك الصالح على الصليبيين انتصاراً أتاح له أن يسيطر على المنطقة الواقعة من غزة جنوباً إلى القدس شمالاً ، فحفزه هذا الانتصار على الزحف نحو حمص ولكنه اضطر إلى البقاء في دمشق لمرضه . وبينما هو هناك بلغه أن امدادات جديدة في طريقها إلى الشرق ، وأن خمسين ألفاً من الجنود الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع يزحفون على دمياط . فغضب الملك الصالح مرضه وبدأ يستعد للمعركة . ولم يلبث أن وصل إلى دمياط وقام بتحصين المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم مدينة المنصورة للنصر الذي تم فيها على لويس التاسع غير أن المنية عاجلت الملك الصالح قبل أن يصطدم فتولى ابنه تورانشاه - المعركة . وبعد جزر ومد انتصر المصريون انتصاراً ساحقاً وأسروا الملك لويس التاسع والضابط الذي يليه في القيادة وهو السنيور دي جوانفيل وسجنوهما في دار بن لقمان ثم اضطروا الفرنسيين إلى دفع فدية عن ملكهم مقدارها مئة ألف جنيه ^(١) ، وإلى الاجلاء تماماً عن الأراضي المصرية بلا قيد ولا شرط . وكان هذا النصر المبين نهاية الحروب الصليبية في مصر .

وفي فترة المفاوضات مع الجيوش المغيرة تأمر الماليك البحريون على الملك تورانشاه وقتلوه بالاتفاق مع زوجته شجر الدر . فأخفت خبير مقتله

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاي ن بول ص ٢٣٩ .

وأتمت المفاوضات وبعد انسحاب الفرنسيين أعلنت النبا وتولت الملك بنفسها .

٢٣٢ - وبين الرجال الذين ائتمنهم شجر الدر على خدمتها قبطى اسمه الوجيه مفضل الذى اتخذته كاتماً لأسرارها (سكرتيراً) وكان الوجيه مفضل وزوجته يتقيان الله ويحفظان وصاياه ، فكانا يوزعان المال الوفير على المعوزين والمسجونين . وكان لهما ولد وحيد اسمه برسوم .

٢٣٣ - ولما بلغ برسوم سن الشباب فقد والديه . ولاحظ أن خاله طامع فى الثروة التى خلفها له لتنازل له عنها وعاش فى مغارة خارج القسطنطين مدة خمس سنين قضاها فى النسك والعبادة . ولتشفه لم يستتر بغير منطقة من جلد الماعز حول حقويه فأطلق عليه مواطنوه لقب « العريان » ثم ترك المغارة وقصد إلى كنيسة القديس مرقوريوس (المعروف بأبى السيفين) لأن بها حجرة مربعة أشبه بالمغارة واقعة عن شمال الداخل إلى الكنيسة وهى منخفضة عن سطح الكنيسة يصلها الزائر بهبوط خمسة عشر درجة . وحينما دخلها الأنبا برسوم لأول مرة وجد بها شعباناً ضخماً . فرسم بعلامة الصليب المقدس وهتف مع داود النبى : « على الأقصى وملك الحيات تطأ وتسحق الأسد والتنين ... الرب نورى وخلصى من أخاف »^(١) ولید الشعبان فى ركنه فى سكون تام وعندها وجه القديس إليه الخطاب قائلاً : « من الآن تكف عن إيذاء الناس وتخضع لى للسلطان الذى منعه إياى ربي عليك » وقد خضع الشعبان له بالفعل وعاش مع القديس فى المغارة عينها عشرين سنة . ولقد أقيم مذبح فى هذه المغارة بعد حياة الأنبا برسوم ، وتقام عليه شعائر القداس الإلهى مرة فى السنة فى يوم ذكرى نياحة القديس . ويحضر هذا القداس المرضى والمقعدون وكل من يكون لدغه شعبان أو عقرب . وينال العدد الكبير منهم الشفاء ببركة شفاعته رجل الله الذى استطاع أن يقهر طبيعة الشعبان حتى وهو بعد فى الجسد .

٢٣٤ - ولقد ذاع صيت برسوم العريان فى كل الأرجاء فقصد إليه المصريون - قبطاً ومسلمين - لينالوا بركته وليسترشدوا بحكمته الروحية

(١) مزمور ٩٠ فى الأجيّة (٩١ / ١٣ فى الكتاب المقدس) ، ٢٦ فى الأجيّة (١: ٢٧ فى الكتاب المقدس)

فى أمورهم الخاصة . ومن بين الذين جاؤا إلى المغارة طلباً لنصحه وتوجيهاته معلم أطفال اسمه مكين . وكان هذا المعلم قد سثم مهنة التدريس لما فيها من عناء ولما يتعرض له القائم بها من مضايقات تأتيه من أولياء الأمور أكثر مما تأتيه من تلاميذه . ولما سثمها فكر فى أن يستبدلها بمهنة أخرى . ولكنه قرر أن يستشير القديس قبل أن يتفد رغبته فعلاً . فلما وصل إليه وجلس بين يديه تفرس فيه القديس فى هدوء وابتسام وابتدوه بالحديث قائلاً : « حضورك فى هذه الساعة من قبل الله » وشعر مكين بشيء من الدهشة وتعلقت عيناه بوجه القديس الذى استطرده يقول : « انسان يبتغى أن يبنى كنيسة مثل هذه البيعة التى للشهيد العظيم أبى السيفين - ترى كم من المال والجهد يتبغى عليه أن يصرف فى هذا السبيل ؟ » أجابه مكين : « لا ياسيدى الأب - أنها تحتاج إلى مال كثير ولا يستطيع أن ينهض واحد بمفرده باقامتها » . فكرر الأنبا برسوم العريان السؤال عينه على مكين مرتين أخرتين وهو يجيبه نفس الأجابة . وبعد ذلك قال له القديس : « إذا حفظ طفل « أجىوس » التى تفسيرها قدوس الله إلى آخرها وسبح بها وبغيرها من الألحان الكنسية فى البيعة المقدسة كان معلمه عند السيد المسيح أهر وأكثر قبولاً ممن يصرف الأموال الجزيلة على عمارة الكنائس . لأن صناعة التعليم والمداومة على تلاوة كتب الله وأغانى الروح أفضل من سائر الصنائع » . ولقد تعزى قلب المعلم مكين بهذه الكلمات . فنهض وضرب « المطانوة » ^(١) للأنبا برسوم العريان ثم عاد إلى تدريسه هانىء النفس ^(٢) .

٢٣٥ - ثم اشتعلت إذ ذاك فتنة أثارها بين الرعاع مغربى كان ماراً بمصر فى طريقه إلى الحج . ونتج عن هذه الفتنة أن قبض الوالى على عدد كبير من القبط ممن بينهم برسوم العريان الذى ما أن وجد نفسه داخل

(١) المطانوة كلمة يونانية الأصل ، قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار مع الاتحاء حتى تمس الجبهة الارض .

(٢) عن الكتاب المقدس من أخبار السادات الآباء القديسين مخطوط رقم ٥١ تاريخ محفوظ بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة ص ١٥٧ .

السجن حتى أخذ يضرع إلى الله لكي يرفع عن شعبه ما حل بهم من بلاء . فاستجاب الآب السماوى إذ صدر الأمر بالافراج عنه وعمن معه من المسجونين القبط ، كما صدر أمر بالكف عن مضايقة القبط ، وتأمينهم على أعمالهم .

ولما خرج القديس من السجن قصد إلى دير شهران حيث عاش فوق سطحه مداوماً على نسكه وتأملاته واستشفاعه فى شعبه . ثم انتقل إلى بيعة الأبهكار فى الستين من عمره .

وقد بنى القبط كنيسة على اسم الأنبا برسوم العريان فى المعصرة - حوالى منتصف الطريق بين القاهرة وحلوان . ولا تزال هذه الكنيسة قائمة حتى الآن يذهب إليها مئات الزائرين فى أيام تذكار هذا القديس (١) .

ومن الملاحظ أن هذا القديس يذكر اسمه على المذبح المقدس وقت رفع الذبيحة مع زميل له هو القديس رويس الملقب « تيجى » وهما لم ينالا أى رتبة كنسية ولا قبلا الطقس الرهبانى ولا نالا الشهادة ، ولكن سيرة حياتهما وزهدهما الشديد وجهما للتجرد من مظاهر الدين والدنيا معاً أهلتهما لدى الكنيسة الواعية اليقظة لينالا كرامة كأعظم القديسين .



وبمناسبة تذكار نياحة القديس أنبا برسوم العريان كتبت مرثا منصور مقالا عنه فى جريدة « وطنى » الصادرة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧٠ تقتطف منها الإعجوبة التالية :

وقد ظهر على يدى هذا القديس عجائب كثيرة نذكر منها فقط : كان كاتب قد أراد السفر إلى جهة معينة فقصده دير القديس لكى يأخذ منه البركة فلما رآه القديس صرخ فى وجهه قائلاً له : « الأحسن لك أن تعود إلى منزلك ولا تسافر قبل أن تطفأ النار التى بلغ عجاجها أطراف السماء

(١) السنكسار الأثيووى ... ترجمة واليس هودج ج ٤ ص ١٢٨٣ - ١٢٨٦ .

وهذا لا يكلفك أكثر من ألفى جنيه « فلما سمع الرجل ذلك قبل يديه وقال له استخلفك بالله أن تخبرنى عن كيفية حصول هذا الحريق وفى أى مكان ، فقال له : أذهب إلى الباب الشرقى تجد بيتاً . اطرق بابه وأدخل سريعاً تجد النار تلتهب فأسرع باطفائها ثم سافر بعد ذلك أينما تريد « . فلما توجه الرجل إلى ذلك البيت تذكر أنه بيت أحد أصدقائه الذى عينه وصياً على أهله قبل وفاته وقد نهب جميع ماله ، فلما طرق الباب ودخل وجد للنساء عراة الجسد يبكين لما حل بهن من الجوع والفقر فقال لهن « لماذا أنتن بهذه الحالة السيئة ؟ » فأجابته احداهن وقالت له « لماذا تسأل وأنت أدرى منا بحاجة . ألم نتوسل إليك مرات كثيرة أن تعطينا شيئاً نقتات به فلم تقبل ؛ وأخذت كل أموالنا التى أئتمنتك عليها فقيدنا وهانحن الآن لنا ثلاثة أيام لم نتذوق فيها الطعام وصرنا نتضرع إلى أب الأيتام أن يجازيك عما جنت يداك « . فبكى الرجل كثيراً وندم وطلب منهم الصفع عنه وأعطاهم ألفى جنيه وعرفهن أنه مستعد لقضاء كل مصالحهن مادام حياً ثم رجع إلى القديس وأخبره بما حصل فقال له القديس الآن قد أخذت لهيباً كان دخانه صاعداً إلى السماء نحو كرسى الحق ، فاذهب كما تريد ولتكن نعمة الرب معك مادام قد رفع غضبه عنك .



ج - التفكك الأليم

- ٢٣٦- الاستقرار فرسامة البابا التاسع والسبعين .
٢٣٧- خيمة اهل قاسية .
٢٣٨- ضيقات متنوعة .
٢٣٩- تكريس الميرون .
٢٤٠- انتقال الاتبا لينودوسيوس الى مساكن النور .
٢٤١- تطور في وجهات النظر .

٢٣٦ - وهذأت العاصفة السياسية التى كانت قد اجتاحت مصر : ذلك لأن بيبس رغم الممارك التى خاضها على حدود مصر وفى البلاد السورية قد استطاع أن يقر الأمن فى البلاد . فهو قد بسط العدالة من جانب ، ومن الجانب الآخر حفظ التوازن فى الإدارات المدنية وعهد لعدد من القبط بهذه الإدارات^(١) .

ثم قام بزيارة مفاجئة لمديرية الغربية ووصل إلى دمياط فالاسكندرية . ثم سافر فى طريق الصحراء وقضى بعضاً من الوقت فى أديرة وادى النطرون حيث بادل الآباء الكرم والمودة^(٢) .

كذلك أنشأ بيبس مركزاً للاسعاف فى خيمة جمع فيها شتى العقاقير وعهد بها إلى عدد من الأطباء والجراحين^(٣) . ثم أنشأ بربداً منتظماً بين القاهرة ودمشق إذ أقام مراكز على مسافات متساوية ، وفى كل مركز جياذ مطمئة وفرسان مدربون وفيه أيضاً الحمام الزاجل المهيأ لحمل الرسائل ، وكان البريد يتم مرتين أسبوعياً من القاهرة إلى دمشق وبالعكس . وإلى جانب كل مركز للبريد أقيم خان به عدد من الغرف تتوسطه نافورة إلى جانبها بئر لكى يجد الناس والخيول والحمام مكاناً للأكل والراحة . وكان المقيمون فى مراكز البريد لا يقدمون الخيول إلا لمن يبرز لهم الأوراق الرسمية التى تثبت أنه يعمل فعلاً فى هذه المهنة^(٤) .

(١) « تاريخ الأمة المصرية ... » المبحث الثانى لجاستون فبيت ص ٣٩٩ .

(٢) شرحه ص ٤١٥

(٣) شرحه ص ٤١٦

(٤) شرحه ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

على أنه لما كانت شيمة الممالك القدر والتحاسد فإن الظاهر بيبرس رغم بطولته وانتصاراته المتوالية على فلول الصليبيين وعلى المغول ، ورغم المعاهدات التي أبرمها مع امبراطور القسطنطينية وغيره من الحكام المسيحيين لتأمين حدود بلاده - رغم هذا كله فقد مات مسموماً . وبموته انتقلت السلطنة بعد أقل من ثلاث سنين إلى قلاوون ^(١) .

وتنفس المصريون الصعداء حينما استتب السلام . على أن الأتبا يؤنس السابح لم ينعم بهذا الهدوء إذ قد انتقل إلى العالم الباقي قبل استقراره . وانقضت خمسة عشر شهراً دون أن يفكر أولو الأمر في حاجة الكنيسة إلى الراعى الأول . وبعد هذه المدة اجتمع الاساقفة وتشاوروا معاً من غير أن يرسلوا في طلب الأراخنة للتشاور معهم خلافاً لما تقتضى به التقاليد ، واستقر رأيهم على الراهب عبد المسيح ابن المكين من دير أبى فانا ^(٢) . فرسموه البابا المرقسى التاسع والسبعين باسم ثيودوسيوس الثانى سنة ١٢٨٦ م .

٢٣٧ - على أن الأساقفة أصابتهم خيبة أمل قاسية لأن الشخص الذى أولوه ثقتهم - متغاضين فى ذلك عن رغبة الشعب - كان محباً للمال فنهج منهج السيمونية كما رفض أن يصغى إلى نصيح الناصحين واشتد الشعور

(١) شرحه ص ٤٢٦ ، تاريخ مصر الاسلامية : العصران الأيوبي والملوكى للدكتور جمال الدين الشيال ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

(٢) أحد الأديرة التى لم يعد لها أثر. وكان فى وسطه أبنية عديدة وحديقة وبرج منيع ، ولم يبق من هذا كله غير سور مربع تتداعى جدرانه . أما الكنيسة فباقية الى اليوم ، وهى مقسمة الى ثلاث أسواق يفصل بينها اثنا عشر عاموداً ، والسوق الوسطى تنتهى بحنفية على شكل نصف دائرة ، ولها معبدان هما كجناحيها على شكل عارضتى الصليب . أما المعبدان القائمان على جانبي الحنفية على خط واحد والقباب التى تعلو جناحي الصليب والمدخل المبنى على جانب الكنيسة فكل ذلك من الطراز القبطى . وقد أكثر المصور الذى نقش هذه الكنيسة الأثرية الجميلة - من رسم علامة الصليب فى كل نواحيها . وهذه الرسوم أعجب ما يرى فى الكنيسة وهى ناصعة الألوان منظمة على طرائق شتى بصناعة بالغة حد الاتقان والاحكام . أنظر دائرة المعارف القبطية رمزى تادرس ج ١ ص ٦٠ .

بالخيبة إلى حد الثورة الجامعة مما جعل بعض الأساقفة يمتنعون من ذكر اسم
الأنبا ثيودوسيوس الثانى فى القداسات وغيرها من الصلوات الكنسية .
وفى هذا المسلك أيضاً شذ هؤلاء الآباء عن التقليد الكنسى الذى يقضى
بالصلاة من أجل البابا الاسكندرى . ولكنهم لم يلبثوا أن استعادوا هدوئهم
النفسى فعادوا الصلاة من أجل باباهم .

وفى تلك الفترة بعث يجيباسيون ملك الحبشة إلى السلطان محمد بن
قلاوون برسالة يخبره فيها بأنه يعامل المسلمين فى بلاده بكل تسامح
ويطالبه - مقابل هذه المعاملة - وأن يبدى التسامح الدينى مع القبط لكى
تتدعم بذلك علاقات الود والألفة بين البلدين .

أما داود ملك النوبة فلم يجد للكتابة نفعا فسار على نصيح الشاعر
القائل بأن « السيف أصدق أنباء من الكتب » بأن غزا الصعيد بجيشه .
واستنجد السلطان بالبابا المرقسى الذى بادر بالكتابة إلى ملك النوبة
يطمئنه إلى حالة القبط فى مصر ويرجو منه سحب قواته . إلا أن الملك
النوبى لم يسحب جيشه فعلاً إلا حينما وصله تعهد من السلطان بحسن
معاملة القبط .

٢٣٨ - ولكن متاعب أخرى كانت بالمرصاد إذ قد جاء الفيضان ناقصاً
للفتنة فتضايل الحصاد وارتفعت الأسعار ارتفاعاً لم يسبق له مثيل فمات
مئات من الناس جوعاً . وعندها ارتفعت القلوب إلى الله تعالى وكأن لسان
حالتها قد استبقى ذلك البيت الشعرى الذى قاله أمير الشعراء مخاطباً
المخالق :

ففى أى وجود غير جودك أطمع ولأى باب غير بابك أقرع
سدت على مذاهبى ومسالكى إلا إليك فما عساي أصنع

وترددت هذه الابتهالات وتجاوبتها الأصدا فاستجاب لها الأب السماوى
برحمته إذ قد جاء الفيضان التالى وافياً ، وبدا كأن ميزان الحياة سيستعيد
استقامته . ولكن قبل أن يتركز على عاموده فعلاً صدر أمر من السلطان
محمد بن قلاوون بعمل سجلات لكل الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة
واحضارها إلى « ديوان الأحباس »^(١) فلما تم تسجيلها اتضح أنها تبلغ

(١) أى ديوان الأوقاف .

خمسة وعشرين ألفاً من الأفدنه فتقرر فى الحال توزيعها على الأمراء .
(الماليك) بالاضافة إلى اقطاعاتهم . وكأن الكيل لم يطفح بهذا الاستيلاء .
إذ قد خرج والى القاهرة مع حاجب القصر ناحية شبرا الخيام وهدما كنيسة
كانت هناك (١) .

٢٣٩ - ثم وجد البابا الاسكندرى أن كمية الميرون لم تعد كافية لحاجات
الكنائس فدعا الأساقفة لكى يشتركوا معه فى اقامة الصلوات الخاصة
بتكريسه . وقد لبي دعوته سبعة من أساقفة الصعيد وخمسة من الدلتا
 واجتمعوا معه فى كنيسة أبى السيفين ببابلون حيث بدىء بالشعائر المقدسة
يوم اثنين البصخة وتمت يوم خميس العهد .

٢٤٠ - وبعد أن قاد الأنبا ثيودوسيوس الثانى دفعة الكنيسة مدى خمس
سنوات وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً إنتقل إلى الدار الباقية (٢)

٢٤١ - من العجب أنه رغم التنافس العنيف بين الأمراء الماليك فقد
تمكنوا من الانتصار على أعداء مصر الخارجين بمهارة فائقة ويرجع ذلك إلى
أنهم كانوا قد اعتادوا عيشة المخاطر والإدراك بأن الواحد منهم إن لم يكن
أكلاً فسيكون مأكولاً . كذلك كان جلداهم على القتال والتجاؤهم إلى المكر
والخدعة من مميزاتهم التى هيات لهم الانتصار . ولقد انتصر الجيش المصرى
بقيادة الماليك على التتار (المغول) أربع مرات أولاً بقيادة بيبرس ثم
بقيادة قلاوون وفرح الشعب بهذه الانتصارات المتتالية فرحاً عظيماً وحيث
أعلن نأ الانتصار الأخير أضيئت الأنوار وخرج الناس إلى الشوارع وعلى
النيل يغنون ويقرعون الطبول حتى ساعات متأخرة من الليل . بل لقد بالغ
المصريون فى التعبير عن فرحهم مهالفة قصوى ولم يوقفهم غير هزة أرضية
عنيفة اجتاحت البلاد من الاسكندرية حتى حدود النوبة .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الانتصارات أن اتسع نفوذ مصر وخطبت
الشعوب ودها فقامت بينها وبينهم اتفاقات تجارية عديدة، وجاء إلى القاهرة

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة ورفيلة ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة . طبع بدير
السيدة العلراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥٢ ص ٢٣ - ٢٥ .

سفراء من أسبانيا غرباً إلى الهند شرقاً ، ومن ثم عم الرخاء . ومن نعم الله أن رواج التجارة دعمته الزراعة أيضاً . ونتج عن هذا كله أن قامت في مصر امبراطورية واسعة النفوذ والثراء ازدهرت فيها مختلف الفنون والصناعات . وأكبر شاهد على ذلك تلك المخلقات الفنية المتبقية لنا من هذا العصر ؟ أليسوا هم أبناء مصر الذين حلقوا الصناعة وابتكروا الفن منذ عهد سحيقة ؟ فبناء المساجد سلالة بناء الكنائس وبناء المعابد الفرعونية - جميعهم أبناء مصر الذين شادوا أمجادها وأحبوها وتفانوا فيها فرضوا في سبيلها بكل ما أصابهم من عذاب وتكليل منتظرين يوم الفرج من الرب الرؤوف الذي وإن أمهل فهو تعالى لا يهمل .

ولقد حدث إذ ذاك تطور عجيب في وجهات النظر لدى كل من الفرنجة والمصريين : فلقد خمدت عند الفرنجة النعرة الصليبية الداعية إلى الحرب لتخليص قبر المسيح له المجد من أيدي المسلمين وحلت محلها الرغبة في التجارة والكسب المادي فتسابقوا إلى عقد المحالفات مع السلطان قلاوون ، كذلك رأى حكام مصر (بيبرس أولاً وقلاوون ثانياً) أن المفاوضات والمحالقات أجدى وأنفع من الحرب وبخاصة لأن آخر جندي صليبي قد غادر الشرق نهائياً . وبهذا التطور الجديد حل عهد من الرخاء في مصر واعترف الأوروبيون بسلطانها كما اعترفت به شعوب الشرق حتى الهند ^(١) .

غير أنه كانت هناك نعمة من النشاز : هي النعمة الصادرة عن العلاقة بالنوبة . ذلك أنه حدث (كما حدث مراراً وتكراراً من قبل) أن امتنع النوبيون من دفع الضريبة المفروضة عليهم . ومع أن قلاوون لم ينجح في الانتصار انتصاراً حاسماً عليهم إلا أنه خرب بلادهم تخريباً واسعاً واستولى على الكثير من الأسرى الذين باعهم كالعبيد كما أخذ الكثير من الأسلاب والغنائم ^(٢) .

(١) تاريخ الأمة المصرية - المبحث الثاني « مصر الاسلامية ... » (بالفرنسية) لجاستون فيبيت ص ٤٥٢-٤٥٦ ، تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ٢٦٢ - ٢٧٥ .

(٢) « تاريخ الأمة » (شرحه) ص ٤٥٧ .

النار في الهشيم

أ - الأنبا يونس الثامن

٢٤٥ - الترابط بين البابا والاساقفة

والشعب

٢٤٦ - الحصاد الشحيح يلين القلوب

٢٤٢ - رفع الراهب يونس بن قديس الى

الباباوية .

٢٤٣ - انفصال معاودة الاتحاد .

٢٤٤ - اضطهاد وزلازل وفيضان نالص

٢٤٢ - ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الأساقفة والأراخنة هذه المرة إذ قد أجمعوا على انتخاب الراهب يونس بن قديس رئيس دير شهران ^(١) الذي كان كامل الرأي صائب الفكر حسن التدبير محبوباً معظماً ^(٢) . ولقد نشأ هذا الراهب في منية خصيب ^(٣) بالمنيا ثم ترك بيت أبيه وهو بعد يافع ليعيش في الدير . وهناك قضى أيامه في نسك ودعة مكرساً نفسه لخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه وانتخبوه رئيساً لهم . فضاعف هذا الانتخاب حبه لهم ورعايته إياهم . فلما شغرت السدة المرقسية زكوه للناخين واتحدت أصوات الجميع . ومن ثم أصبح البابا الثمانين في سلسلة خلفاء مارمرقس الرسول باسم يونس الثامن وتمت رسامته في ١٤ فبراير سنة ١٢٩٢ .

٢٤٣ - وفي هذه الفترة أرسل لينادنجول امبراطور الحبشة إلى ايمانويل الثانى ملك البرتغال يستنجد به ضد الامام أحمد إبراهيم صاحب اليمن الذى

(١) هو الدير المعروف الآن بدير الأنبا برسوم العريان .

(٢) الكافى ... ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) روى الشيخ المؤتمن أبو المكارم في كتابه عن الديورة والكنائس أن ابن خصيب اسم رجل من أغنياء القبط أنشأ البلدة المسماة بمنية ابن خصيب وبنى بها الدور والقصور وسكن فيها مع جماعة من أهله وأتباعه - راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٤ . ويقول القمص ميصائيل بحر أنه كان بها أربع عشرة كنيسة : أشهرها اثنتان باسم السيدة العذراء واثنتان باسم الملك ميخائيل وواحدة باسم مارجرجس ومرقوريوس وأبى قيس - راجع مقاله « اقليم المنيا في العصر القبطى » نشره في مجلة صوت الشهداء - السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٧ .

كان قد ثار هو وقومه على الأحباش ، وتقدمت جيوش اليمينيين إلى حد أن الامبراطور اضطر إلى الهرب والتنقل من بلد إلى آخر في أطراف امبراطوريته . وقد تعهد لينادنجل ملك البرتغال أن ينضم إلى الكنيسة الكاثوليكية ويقطع علاقته بمصر إن هو أسعفه . فقبل ايمانويل الثانى استغاثة الامبراطور الحبشى الذى طرد المطران المصرى تمهيداً للاتضمام إلى مذهب الملك البرتغالى . على أن الشعب الحبشى غضب غضبة جامعة بأزاء تصرف امبراطوره ورفض أن يتفصل عن كنيسة مارمرقس التى بعدها الكنيسة الأم . وكان من نتائج هذه الثورة الشعبية أن الامبراطور جلاوديوس ابن لينادنجل طرد بعثة الرهبان الكاثوليك حالما أعتلى العرش وبعث برسول عاجل إلى البابا الاسكندري يستعطفه ليرسم لهم مطراناً ويعيد العلاقات إلى ما كانت عليه من قبل . وقد فرح الأنبا يونس الثامن بهذا الطلب وبأدر بإرسال الأنبا سلامة الثانى إلى الحبشة ، فبدأ عصر انتعاش أدبى لا يزال الأحباش يستمتعون بشماره حتى الآن (١) .

٢٤٤ - وحدث فى السنة الأولى لبابوية الأنبا يونس الثامن أن مر مغربى بمصر فى طريقه إلى أداء فريضة الحج . وفيما هو سائر فى أحد شوارع القاهرة رأى رجلاً وجيهاً مرتدياً الحرير المزركش وممتطياً صهوة جواد رشيق فسأل عن من يكون ، ولما علم أنه قبطى غضب غضبة حمقاء أدت إلى استشارة الدهماء ليحرقوا الكنائس . وقد بلغ بهم الهياج مبلغاً جعلهم يتجهون نحو بابلون بقصد اضطهاد القبط المقيمين هناك فأصبح من المجازفة لأى قبطى أن يظهر فى الشوارع بل إن التعرض للخطر بلغ البابا نفسه فاضطر إلى البقاء داخل مقره . ولقد استمر هذا الغليان الشعبى مدة سنتين بلا انقطاع لأن الأمراء أنفسهم عجزوا عن قمعه مع أن المغربى الذى استشاره كان قد غادر مصر . ولما وجد القبط أن العزاء والطمأنينة لا يمكن الحصول عليهما من الناس اتجهوا نحو مصدر العزاء والطمأنينة راجين إياه تعالى أن يتداركهم بمراحمه . وفى تلك الفترة ورغم الخطر سعى بعض القبط لدى الأمراء ليضمنوا لهم الوصول إلى الكنائس للصلاة فيها لأن الغوغاء كانوا

(١) السياسة النازية فى أثيوبيا - مقال للدكتور زاهر رياض نشره فى مجلة نهضة أفريقيا العدد الثالث عشر (يناير سنة ١٩٥٩) ص ٢٤ - ٢٥ .

يسدون عليهم الطرق إليها فأصبحت مغلقة . ونتيجة لهذه الوساطة قبل الأمراء فتح كنيسة واحدة . على أنهم لم يستطيعوا حراسة الشعب الذاهب إلى الكنيسة مما اضطّرهم إلى إعادة اغلاقها . فظلت الكنائس مغلقة خلال السنتين اللتين استمر فيهما الغليان الشعبى .

ووصلت أنباء هذه الضائقة إلى مسامع امبراطور القسطنطينية كما بلغت ملك أراجون (بأسبانيا) وكانت مصر إذ ذاك تتبادل التجارة مع هاتين الدولتين وغيرهما من الدول المسيحية . وكانت تجارتها رائجة وفيرة الريح . فرأى الامبراطور القسطنطينى والملك الأرجوانى أن يتوسّطا فى الأمر ولو أن وساطتهما كانت منصبة على رعاياهم المقيمين فى مصر . ولقد أرسل ملك أرجوان الهدايا النفسية للسلطان وللأمراء الا أن الاستجابة للهدايا وللوساطة كانت هزيلة للغاية إذ لم يصدر الأمر إلا بفتح كنيستين : إحداها كنيسة القديس نيقولا للروم وثانيتهما كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة للقبط . ذلك لأن المستولين فى البلاد رأوا أنه من عدم اللياقة أن يؤمنوا الروم للذهاب إلى الكنيسة ولا يمنحوا هذا الأمان للقبط الذين هم من رعاياهم ^(١) . ولهذا السبب أصبحت كنيسة العذراء بحارة زويلة المقر البهاوى ، واستمرت كذلك نحو قرن من الزمان .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص. ٣ ، تاريخ الامة ... المبحث الثانى « مصر الإسلامية » لجاستون فييت ص ٤٧٣ ، المخطوط للمقرزى ج ٢ ص ٣٩٩ حيث يقول ما نصه : « ... فقام المغربى فى هدم الكنائس فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العبد من ذلك وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما استجد بناؤه فغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها فنارت العامة ووقفوا للنائب (عن السلطان) والأمراء فنودى فى القاهرة ومصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمام الزرق . ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحل دمه ومنعوا جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا فتسلط القوغاء عليهم وتبعوهم فمن رأوه يغير الزى الذى رسم ضربه . فبعث ملك برشلونة هدية جليلة زائدة عن عادته عم بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان وكتب يسأله فى فتح الكنائس فاتفق رأى على فتح كنيسة حارة زويلة للبعاقبه (القبط) وفتح كنيسة الهندقانيين (الروم) من القاهرة راجع أيضاً الكافى ... ج ٢ ص ٥٠٨ .

ولم يكتف السلطان بهذه القسوة بل فرض ديناراً على كل قبطن بالاضافة إلى الجزية المفروضة . وإلى ما كان يؤخذ منهم والمسلمين سواء بسواء . كذلك استمع الى تحريض الجاشنكير ببيرس فعمل بقوله وهو ابعاد القبط من دواوين الحكومة واضطرارهم إلى لبس العمائم الزرقاء ومنعهم من ركوب الخيل وغيرها من الدواب . بل لقد غالى السلطان في اصدار أوامره المستقاه من تحريض ببيرس فقال بأن من قتل قبطياً فله ماله ! وعلى الرغم من هذا كله فإن العامة ظلت ساخطة على ببيرس وتعالص صيحاتهم في الشوارع والأزقة وهم يصرخون « لا نريد المظفر »^(١) وخلال هذه الفترة الحالكة اضطر القبط الى الاتزواء داخل بيوتهم وعدم الخروج الا للضرورة القصوى .

ولقد حدث زلزال عظيم في تلك الآونة - فكأنما شامت الطبيعة أن تعبر عن مشاركتها القبط بهذه الحركة المزعجة !

على أن الواقع أن ببيرس لم يكن وحده في تحريض السلطان على القبط بل كان معه جمهرة من المماليك الذين خشوا على نفوذهم من تأثير القبط إذ رأوه ينبغي انصافهم ويحميهم من بطش الفوغاء وترجع رغبته في انصافهم أنه كان يقدر مهارتهم الفنية وولاءهم له ، كما أنه كان واثقاً بأنه لن يكون منهم من يناقضه في الحكم^(٢) .

٢٤٥ - وامتلاً قلب الأنبا يؤنس الثامن جسة ، ولم يسعه الا أن ينتقل للسكنى بجوار كنيسة السيدة العلراء بحارة زويلة ليسهل عليه تأدية الشعائر الدينية دون اعتراض ولا مقاومة . وعلى الرغم من الوجوم الذي خيم على النفوس فإن البابا الاسكندري ظل محتفظاً بالصلة المتينة بينه وبين أساقفته وشعبه ، ثم وجد أن الكنائس في حاجة إلى الميرون فيبادر إلى دعوة الأساقفة للاشتراك معه في تأدية الشعائر المقدسة الخاصة بتكريسه . وقد لبى دعوته ثمانية عشر أسقفاً وذهبوا معه إلى دير الأنبا

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية ... لكامل صالح نخلة ص ٢٦ - ٢٥ .

(٢) تاريخ دولة المماليك في مصر للسير ولیم سوير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن

ص ٨٤ .

مكارى الكبير حيث كرسوا الميرون فى يوم الاثنين من أسبوع البسخة
المقدسة سنة ١٠١٣ ش .

٢٤٦ - ثم انشغل الأمراء فى حروب خارجية عديدة وانشغل معهم
الشعب . وكان لهذا الانشغال أثره فى تخفيف حدة الهياج الذى كان قد
أشعله المغربى فتناسى الشعب ما حدث وتشاغل بأحداث أخرى مما أدى إلى
أن تفتح الكنائس تدريجياً وفى هدوء فسعد القبط من جديد باقامة
شعائهم المقدسة داخلها . ثم حدث أيضاً أن سلسلة من الفيضانات
المنخفضة والمحصاد الشحيح كان لها أثر واضح فى تليين القلوب فعاد
الأتبا يؤنس إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) بياهلون وهو مطمئن
النفس . وعاود الاستقرار للوب القبط فكانوا يزعمون الكنائس شكراً
وتسبيحاً له .

ومن الشيق أن البابا الاسكندرى وجد نفسه مضطراً إلى تكريس الميرون
مرة أخرى - لأن مثل هذه الحاجة ليست سوى دليل على تزايد عدد الذين
ينالون بركة هذا السر المقدس . وقد رأى الأتبا يؤنس الثامن أن يؤدى
الشعائر المقدسة الخاصة به فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . وقد
اشترك معه هذه المرة خمسة وعشرون أسقفاً أحدهم أسقف كولما بالنوبة الذى
كان قد رسمه هذا البابا بنفسه (١) .

وكان تكريس الميرون للمرة الثانية آخر خدمة أداها الأتبا يؤنس الثامن إذ
قد انتقل بعدها إلى مساكن النور . وكان مدة بابويته عشرين سنة وثلاثة
أشهر وخمسة عشر يوماً .

ولقد عاش فى تلك الفترة مؤرخ ذو مواهب ممتازة اسمه ابن أبى الفضائل
وضع كتاباً بعنوان « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن
العميد » وقد علق فى كتابه هذا على « المجموع المبارك » الذى وضعه
ابن العميد ثم بدأ تاريخه حيث انتهى سلفه وتدرج فى الكتابة من عصر
الظاهر بيبرس إلى عصر محمد بن قلاوون مسجلاً تراجم السلاطين أيضاً
بالإضافة إلى التاريخ العام (٢) .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٢٦ - ٣٥ .

(٢) عصر سلاطين المماليك وتواجه العلم والأدب لمحمود رزق سليم ج ٣ ص ١١٧ =

ب - ما أجمل الدين والعلم إذا اجتمعا

٢٤٧ - خادم أمين للدولة يكرس مواهبه لله

٢٤٧ - عاش فى أيام الملك المظفر - بيبرس الدوبدار - رجل اسنه الشيخ الأجل شمس الرياسة ابن الشيخ الأكمل الأسعد المسمى بأبى البركات . اشتغل هذا الرجل كاتباً للملك حتى وهو بعد أمير وأخلص له الولاء إذ قد عاونته على تأليف كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً مع أنه معروف فى أوربا هو كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » . ويظن بعض الناس أنه كان طبيباً أيضاً لما بدا فى كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور . على أن علم هذا الرجل وخدماته للعالم لتتضام أمام خدماته الروحية إذ لم يلبث أن ترك الخدمة فى ديوان الملك لينال كرامة الكهنوت ويصبح كاهناً لكنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة باسم « ابن كبر »

ولم تقتصر خدمته الكهنوتية على ما أداه من خدمات روحية لأولاده الذين عاشوا تحت رعايته بل امتدت لتشمل الأجيال الآتية من بعده . فقد وضع عدداً غير قليل من الكتب التى مازالت تعتبر مراجع أساسية للباحثين

= ويعلق المؤرخ نفسه على تزايد عدد المؤرخين فى العصر المملوكى بقوله : « فى عصر المماليك يمكن القول أن فكرة الكتابة المستقلة عن مصر وقاهرته قد اختمرت وبدأت على المؤرخين المصريين أعراض هذا الحب الخالد الذى تثمره مصر دائماً فى قلوب أبنائها بدوراً رائعا حتى وكأنهم آلوا على أنفسهم أن ينقلوا تاريخهم من يد النسيان » أنظر ص ١٠٧ - ١٠٨ من نفس الكتاب . وقد ترجع استشارة هذا الحب الخالد إلى الحالة النفسية التى سادت الشعب إذ ذاك . وفى ذلك يقول الدكتور وليم سليمان نقلاً عن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مايلى : « أن الذى ضاعف من كمد المصريين فى هذا القرن احساسهم بالخضوع لنوع جديد من الحكام هم المماليك ... فان الحقيقة المرة التى كان يصعب على المصريين أن يتناسوها فى سهولة هى أن المماليك أغراب عن البلاد وأهلها وأنهم جميعاً كانوا رقيقاً فى يوم ما ، وأنهم حكموا مصر وأهلها بوصفهم ارستقراطية متعالية فصلتها فجوة واسعة عن أهل البلاد وأنهم استحوذوا على أرض البلاد وثرواتها ... » راجع مجلة الطليعة عدد فبراير سنة ١٩٦٩ : مقال الدكتور وليم سليمان عن القاهرة فى مصر المملوكية ص ٥٧ .

وأول ما كتب هو كتاب عن الميرون وصف فيه المواد التى يتألف منها وكيفية طبخه ^(١) بدقة متناهية . ثم وضع كتاباً أسماه « جلاء العقول فى علم الأصول الملقب بكشف الأسرار الخفية فى أسباب المسيحية » . ويتضمن هذا الكتاب ثمانية عشر فصلاً فى وحدانية الله وتثليث أقانيمه وتجسد ابنه الإلهى . وتوجد نسخة من هذا الكتاب مكتوبة سنة ١٢٣٣ م محفوظة بمكتبة الفاتيكان ، كما أن هناك نسختين أخريين من عهد المؤلف أحدهما فى دمشق . وثمة كتاب ثالث عنوانه « مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » يوضح العقيدة المسيحية وأخبار الرسل والتلاميذ وقوانين البيعة والمجامع . ومن هذا الكتاب نسخة فى مكتبة الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٣٣ أيضاً ، ونسخة فى مكتبة برلين موصوفة وصفاً واسعاً ، وثالثة فى المكتبة الأهلية بباريس . وإلى جانب هذه الكتب الجامعة فقد وضع رسالتين فى الردود على المسلمين واليهود ، ورسالة عنوانها « البيان الأظهر فى الرد على من يقول بالقضاء والقدر » . وهذه الرسالة تبين استمرار الاهتمام بموضوع الحرية الإنسانية مقابل من ينادون بالقضاء والقدر . وقد استهدف الأباء من كتاباتهم فى هذا الموضوع توضيح المسؤولية الملقاة على الإنسان عما يعمل فهو بلا عذر فى إقرار الشر ولا يستطيع تبرير أخطائه بحجة أنه « قسمة ونصيب » كذلك وضع كتاباً ضمنه خطبه فى مواقف مشهورة ومواقع خطيرة .

على أن ابن كير لم يكتف بالكتابة فى الموضوعات الروحية والأدبية فقط بل وجه اهتمامه إلى اللغة القبطية فوضع فيها معجماً مفصلاً أسماه « السلم الكبير » وهناك خمس من هذا الكتاب معروف مكانها هى : نسخة بدير الأنبا أنطونيوس بالصحراء الشرقية ، نسخة محفوظة بمكتبة الكاتدرائية المرقسية بالاسكندرية ، نسخة فى كنيسة برما (قرب طنطا) وتحتوى على :

- ١ - مقدمة السلم المعروف بالسمنودى
- ٢ - مقدمة الشيخ العالم ابن كاتب قيصر وتسمى « التبصرة » .
- ٣ - مقدمة الرجيح القليوبى وتسمى « الكفاية » .

(١) هذا هو التعبير الكنسى لمزج المواد المختلفة التى يتألف منها الميرون أثناء الشعائر الدينية التى تتم خلال عملية المزج .

٤ - مقدمة الشيخ الأسعد أبى الفرج بن العسال .

٥ - مقدمة الشيخ الأجل الثقة ابن الدهيرى (الذى صار مطراناً
لدمياط باسم خريستوذولس) ، نسخة بمكتبة جرجس فيلوثاوس عوض
الخاصة ، نسخة مطبوعة فى رومية سنة ١٣٦١ ش . ولقد قسم ابن كبر
هذا المعجم إلى ثلاثين فصلاً كل منها لموضوع معين : ففصل يختص بأسماء
الله تعالى وصفاته ، وآخر يختص بالأمور العائلية والمنزلية ، وثالث
بالاصطلاحات الجغرافية ... إلى غير ذلك وقد ذيل هذا المعجم بكشف
ضاف لجميع الكلمات العبرية التى اقتبسها القبط من أسفار العهد القديم
وأدخلوها ضمن لغتهم القبطية . كذلك وضع ابن كبر قائمة بأسماء المدن
والقرى المصرية ^(١)

ويبرز تواضع هذا الكاهن العلامة من كتابته إذ قد قال فى مقدمة كتابه
« مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » ما يلى : « على أننى لست من
العارفين بهذه الوظيفة ولا من القائمين ببعض حقوقها الشريفة ، لكننى
جمعت ذلك من الكتب المقبولة والفرائد المنقولة ، والعرف المتداول فى عصرنا
والوضع المستعمل فى مصرنا ، بحسب ما انتهت إليه القدرة واستوت عليه
الفكرة ، مستعيناً بأبى الأنوار ومنير البصائر والأبصار ، وأنا أتضرع إلى
كل من تأمله أن يسد خلله ويتدارك زلله ، ويصلح ما لعله وقع فيه من
السهو والتقصير واعترضه التقديم والتأخير ، فليس يخلو من ذلك الماهر
الفاضل والعالم والعامل والمحصل الكامل ، فكيف من هو عرى من هذه
الخلل ، خلى من حلى العلم ملء بالخطأ والزلل ... » ^(٢)

وابن كبر عرف أن يحمل الشعلة بهجراً فى عصر طغت عليه ظلمات
الأحقاد والقسوة فملأت القلوب جبناً وتخاذلاً - فهو بحق بطل روحانى
ينتظم فى سلسلة الآباء الذين استعذبوا الجهاد . فحق لنا أن نهتف أكباراً له

(١) « ابن كبر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة
١٩٣٠ .

(٢) « ابن كبر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة
١٩٣٠ .

بذلك البيت الشعرى الجميل ونقول :

أن الذى جعل الحقيقة علقماً لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً^(١)

ولقد ذكر ابو البركات بانه حين صدر الأمر باغلاق الكنائس بمناسبة
الاضطهادات التى وقعت على القبط ظلت الكنائس القائمة فى أديرة برية
أبى مقار (الآتيا مكارى) مفتوحة فأصبحت قلعة الكنيسة القبطية ومنارة
تتجه إليها الأبصار (٢).



(١) من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء عن العلم والتعليم مطلعها :

قف للمعلم وقفه التهجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

(٢) أديرة وادى النظرون (بالانجليزية) لايفلين. وايت ج ٢ ص ٣٩٤ .

ج - الأنبا يونس التاسع

٢٤٨ - انتخاب البابا الاسكندري

٢٤٩ - تخريب وانتقام .

الحادي والثمانين .

٢٥٠ - امتداد الذهب .

٢٤٨ - لم يبق الكرسي المرقسي شاغراً غير شهر واحد ، اجتمع بعده الأساقفة والأراخنة للتداول في أمر الانتخاب ، واتفقوا بنعمة الآب السماوي على راهب متوحد اسمه يونس النقادي . فأقيمت حفلة الرسامة في هدوء وألفة في اليوم الأول من شهر بابه سنة ١٠٢٨ ش (١٣١٢) في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة وقد احتفظ واسموه باسمه فأصبح الأنبا يونس التاسع الخليفة المرقسي الحادي والثمانين

٢٤٩ - وكانت بابهوته مليئة بالأحداث والمتاعب لأن أحد العامة استشار الغوغاء ضد القبط قدموا عدداً من الكنائس في القاهرة ومن المؤلم أن عمل التخريب امتد إلى الدلتا والصعيد . وكان كريم الدين ناظر ديوان السلطان يقيم وقتئذ في الاسكندرية فما أن بلغه أخبار التدمير حتى سارع إلى القاهرة وقد وجد السلطان محمد بن قلاوون في حدة الغضب على أولئك الغوغاء وكان يرغب في معاقبتهم . ولكن الأمراء المماليك هدأوا من حدة ثورته بادعائهم أن هذا التخريب بأمر الله ^(١) .

(١) يقدم الدكتور وليم سليمان تعليلاً لهذه الواقعة فيقول : « ولقد حدث في عهد الناصر أن قامت فتنة دينية ، تبادل فيها المسلمون والمسيحيون هدم الكنائس والمساجد وحرقتها . ولم يحدث هذا في القاهرة وحسب بل حدث في مختلف أنحاء البلاد في يوم واحد من قوص إلى البحيرة إلى الاسكندرية . واشتد غضب الناصر ، واتخذ اجراءات عنيفة لقمع الفتنة . وكان الأمراء يدافعون عن المخربين . ويبدو أن الفتنة كلها كانت من الأمراء اضعافاً للتأييد الشعبي الذي أحيط به الناصر . ويتأكد ذلك من أن الأمراء كانوا موزعين في أنحاء البلاد ، بحيث أصبح تنفيذ الفتنة في يوم واحد أمراً ميسوراً ، لأن توزيع الاقطاع جعل للأمير الواحد نفوذاً في أماكن متعددة . وينسب المقرئى إلى الأقباط بحكم خبرتهم أنهم هم الذين قاموا بهذا التوزيع لكل اقطاع وليس من الغريب أن ينقم الأمراء على الأقباط خاصة ، وأن يستغلوا الفرصة لضرب التجمع الشعبي الذي كان سند الناصر في مواجهتهم ولقد رأينا من قبل أن الأمراء اشتد سخطهم على العامة ، وبدأوا يتدهرون الأمر فيما بينهم ، ولقد دهش المقرئى من توافق حدوث التخريب في اقليم مصر كله ، ونسب ذلك إلى أن المصريين يتحدثون بالاشياء قبل كونها ويخبرون بما يكون ويندرون بالأمور المستقبلية ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة .

ولم يكتف المماليك بتهديئة السلطان كى لا يوقع العقاب على المذنبين ، كما لم يكتفوا بما هدم من الكنائس بل طمعوا فى أوقاف القبط التى كانت تبلغ إذ ذاك خمسة وعشرين ألفاً من الأقدنة اقتسمها ثلاثة منهم فيما بينهم هم الأمير شيخو والأمير صرغتمش والأمير طاز . ثم أمعنوا بعد ذلك فى اضطهادهم للقبط فحولوا عدداً كبيراً من الكنائس فى الوجهين القبلى والبحرى إلى جوامع .

ولم يمض على هذا الحادث غير شهر حتى اندلعت النار فى ضاحية من ضواحي القاهرة . وكان اندلاعها فى يوم عاصف فأمتدت اللهب إلى عدة ضواحي مما أضطر أربعة وعشرين مملوكاً إلى أن يتنضموا إلى البحارة وغيرهم لاختاد النيران . وقد اتهم بعضهم القبط باضرار هذه النار انتقاماً منهم لما تهدم من الكنائس . وقبض رجال الأمن على ثلاثة من القبط اعترفوا بأنهم أشعلوها فعلاً . فأتقد غضب السلطان وأراد أن يتزل بهم أشد العقوبات . غير أن كريم الدين ناظر الديوان السلطاني أعلن بأن المسئول الوحيد عن القبط هو البابا المرقسى . فاستدعاه إلى القصر ليلاً يحيط به الجند لحمايته من الرعاع . فلما تقابلا قدم كريم الدين إلى قداسه الثلاثة المقبوض عليهم لاضرامهم النار فاعترفوا للمرة الثانية بجرمهم . وحين سمع الأنبا يونس التاسع هذا الاعتراف بكى بكاء مرّاً وقال : « ان المسيحية تأمرنا بالمحبة والتسامح ، وما فعله هؤلاء مضاد لتعاليمنا تماماً . فليسوا سوى رعاع تصرفوا تصرفاً انتقامياً مقابل رعاع المسلمين . فالمسيحية براء من هذا العمل » وأدرك كريم الدين صدق البابا الاسكندري واخلاصه فأمر رجاله بمرافقته إلى المقر البابوي كما قدم له حصاناً أبيضاً ليركبه عند عودته (١) .

(١) يعلق جاستون فييت على هذه الواقعة بقوله ما نصه :

Les Chrétiens n'ignorent pas l'attitude du sultan , l'envoi de la troupe , executé sansdélai , avait arrêté l'emeute ... En admettant que , sous le coupde l'exasperations , les coptes aient voulu user de représailles , ils l'auraient fait séance tenante . Quoiqu'il en soit , un moi plustard , les incendies eclaiéret ... dans les mosquées ... on serait bien tenté de soupçonner , dans =

٢٥٠ - على أن هذه المقابلة - وإن دلت على ما كان من صفاء بين البابا وكريم الدين - لم تضع حداً للاضطرابات التي ظلت مستمرة بضع شهور . ورغم قصر هذه المدة فقد تهدم خلالها العدد العديد من الكنائس واستشهد مئات الناس .

وقد طغى الحزن والتوجع على قلب الأنبا يؤنس التاسع إذ لم يكن في استطاعته أن يذهب إلى دير الأنبا مكارى الكبير لتكريس الميرون ، ولا أن يقوم برحلة راعوية لتفقد شعبه الجريح ، لأن تهور الفوغاء بلغ حداً جعل الظهور في الأماكن العامة خطراً على رجل من رجال الدين المسيحى مهما بلغت منزلته . فلم يستطع أسقف ولا كاهن أن يخرج من مقره إلا بعد مغيب الشمس . فاعتصموا في بيوتهم وكنائسهم وانصرفوا بكليتهم إلى الزراعة مركزين جهودهم على الصوم والصلاة التي بهما يستطيع الإنسان أن يخرج الشياطين وأن ينقل الجبال . فلما هدأت العاصفة أخيراً كانت صحة الأنبا يؤنس التاسع قد ساءت إلى حد أنه لم يعيش طويلاً لينعم بالسلام

= cette vengeance a retardement , l'action de musulmans provocateurs, desireux de faire pression sur le sultan .

وترجمته ما يلى : « أن المسيحيين لم يكونوا يجهلون موقف السلطان . فارسل الجند بغير توان أوقف المصادمة ... ولو سلمنا بأن القبط تحت ضغط حنقهم أرادوا أن يأخذوا بالثأر لكانوا فعلوا ذلك على الفور . ومهما يكن الأمر فقد اندلعت النيران بعد شهر ... فى الجوامع . وأغلب الظن أن هذا الانتقام المتأخر كان عمل المسلمين المهيجين الراغبين فى الضغط على السلطان » راجع كتاب « تاريخ الأمة المصرية (بالفرنسية) - المجلد الرابع من الفتح العربى الى الفتح التركى - الفصل الخامس عشر الخاص بمحمد بن قلاوون ص ٤٨٦ . ونرى فى تدليل وليم سليمان على أن الماليك هم المحرضون تصويراً أقرب الى الاحتمال من زعم جاستون فيبيت من أن المسلمين المهيجين هم الدافعون اليه . على أن هناك من يرى أن شدة التعذيب التي وقعت على القبط هى التي دفعت بهم الى القول بأنهم هم الفاعلون - أنظر تاريخ دولة الماليك فى مصر للسير وليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - ص ٨٤ أما كتاب « سلسلة تاريخ البهاوات بطاركة الكرسي الاسكندري » فقد جاء فيه « ولكن الله أظهر براءة قبط مصر من هذه التهم الباطلة إذ قد ثبت أن المتسببين فى الحريق هم الرهبان الملكيون (الخلقيدونيون) المقيمون فى دير البغل بجهة المعصرة على جبل المقطم » ص ٤٤ - ٤٥ .

الذى تضرع من أجله . فطارت روحه نحو ذلك العالم الفياض بالنور حيث السلام الدائم بعد أن تحمل مسئولية الكنيسة ست سنين وخمسة أشهر (١) .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ٣٦ - ١٥٠ أما الحوادث الأليمة التى وقعت فقد ذكرها المقرئى وغيره من المؤرخين المسلمين المتصفين . فقد جاء فى كتاب « أهل الذمة فى الإسلام » الذى ترجمه دكتور حسن حبشى الى العربية سنة ١٩٦٧ على ص ٦٧ ما نصه : « فى ٩ ربيع الثانى سنة ٧٢١ عم تخريب الكنائس بدرجة مروعة » ويعطينا المقرئى صور مفصلة لتلك الحوادث نقتطف منها ما يلى « ... فغلقت عدة كنائس بمصر والقاهرة مدة أيام فسمى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها فثارت العامة ... ومنعوا (القبط) جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا فتسلطت الفوغاء عليهم وتتهوهم ... ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة ... واتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة وهو راكب نجف ومهراز وبقباء اسكندى طرح على رأسه . وقدامه طرادون يمتعون الناس من مزاحمته وخلفه عدة عبيد بشباب سرية على أكاديش فارهة فشق ذلك على جماعة المسلمين وأنزلوه عن فرسه وقصدوا قتله قد اجتمع عالم كبر ثم خلوا عنه ... فتسلطت العامة عليهم وتتهوهم آثارهم وأخذوهم فى الطرقات وقطعوا ما عليهم من الثياب وأوجعوهم ضرباً ولم يتركوهم حتى يسلموا وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها ... ورسم السلطان (محمد بن قلاوون) يركوب وإلى القاهرة فلم تتمهل العامة ومرت بسرعة فخرت كنيسة بجوار قناطر السباع ... ودير فيها بالجيزة وكنيسة بناحية بولاق الدكروى ... ونهبوا حواصل ما خروء من ذلك وكانت كثيرة وأخذوا أخشابها وورخامها ... ومن أسلم منهم لا يمكن من العبور الى بيته ولا من معايشة أهله الا أن يسلموا وأن من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع وان مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته ان كان له وارث والا فهى لبيت المال ... » واختتم المقرئى وصفه لما اسماه « يوم الهول للنصارى » بتلك الكلمات : « وكانت هذه المخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وغرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرة » عن كتاب « المخطوط » ج ٢ ص ٤٩٨ - ٥١٧ .

ولنعد الى كتاب الدكتور حسن حبشى السابق ذكره لنقرأ ما يقوله على ص ٧٨ : « حينذاك صدر الأمر (من السلطان قلاوون) بأن يلبس النصارى العمائم الزرقاء . وحرم عليهم ركوب الخيل والبال . أما من يركب منهم حماره فيركبه مقلوباً ، ولا يدخل نصرانى حماء الا وفى عنقه جرس ... والا يستعمل الأمراء كتاباً من النصارى وطرده منهم من=

د - نور وظلال

٢٥١ - الإراعى يتفقد رعيته .

٢٥١ - انتخاب ناسك متوحد .

٢٥٥ - الشهيد بسطوروس .

٢٥٢ - فترة من السلام .

٢٥٣ - مد وجزر .

٢٥١ - لم تبق السدة المرقسية شاغرة غير شهر وأحد عشر يوماً لأن القلوب كانت متآلفة فاجتمع الآباء والأبناء (الأساقفة والأراخنة) فى الدار الباباوية ليتشاوروا معاً مرتكنين إلى مؤازرة الروح القدس . فكان أن اتفقت كلمتهم على أن الرجل الذى ينشدونه هو الناسك بنيامين المتوحد بجبل طرة . وكان بنيامين هذا من بلدة ديمقراط بأعلى الصعيد ، وبدأ حياة العزلة فى الصحراء القريبة من بلدته . ولكن اضطرام قلبه بالخلوة مع الله دفعه إلى ترك الصعيد والالتجاء إلى مغارة قرب طرة ظناً منه أن المسافة البعيدة التى تفصل بينه وبين أهله وعارفيه ستمكنه من التوحد الذى يبتغيه . وكان إلى جانب ذلك تبتله وتقشفه مصوراً ماهراً ، إلا أن

= كان فى خدمة السلطان الذى كتب الى سائر الأعمال بأمرها بفصل جميع المباشرين المسيحيين ، وقام المسلمون بعدة هجمات على النصارى حتى اضطروهم الى علم الخروج فى الشوارع . وأسلم الكثيرون منهم » ثم ذكر بعد ذلك ان الكنائس التى هدمت فى « يوم الهول » بلغ عددها تسعة وخمسين كنيسة . ويستطرد الحديث بعد ذلك على ص ١١٩ فيقول : « ... وكانت جنازة زوجة أبى النصر ابن اسرائيل النصرانى سنة ٤٠٣ هـ سبباً فى اشعال الفتنة وحدث الاضطراب اذ خرج النعش فى رابعة النهار وأمامه الصليبان والمشاعل والقسوس والرهبان يصلون ، والنساء يبكين وينحن ، مما انزعج له خاطر أحد المسلمين فتناول حجراً وقذف به النعش على الرغم من احاطة غلمان الأمير به وقيامهم على حراسته ، فما كان من أحدهم الا وان همز المسلم بهد سيفه فاضطرب الناس وهاجوا وكثر القتل فى المسلمين والنصارى على السواء . ففر أبو نصر الى بيت مناصح (الأمير المملوكى) وظلت الفتنة مشتعلة الأوزار حتى سلموه الى الثوار حيث أخذوه الى قصر الخليفة فبقى سجينه فترة من الزمن ، ثم أطلقوا سراحه ففرح النصارى . وظاهر هذه القصة أن العلاقات بين مناصح وبين تابعه كانت علاقات مودة اذ كان حاميه الطبيعى ولم يخيب له رجاء . »

راجع أيضاً « تاريخ الأمة المصرية » ... ص ٥٠٥ .

النور لا بد أن يسطع ، ومتى سطع فلا يمكن تغطيته . لهذا شاعت فضائل بنيامين الناسك رغم اشتهاه العزلة . وما تجدر الإشارة إليه أن الأنبا برسوم العريان حين رآه تنبأ له بأنه سيجلس على كرسي مارمرقس . فحدث بعد نياحة الأنبا يؤنس التاسع أن اتفقت كلمة الجميع على اختياره وتمت رسامته في الخامس عشر من شهر بشنس سنة ١٠٣٥ ش باسم بنيامين الثاني فأصبح البابا الاسكندري الثاني والثمانين .

٢٥٢ - على أنه لم يكد يتسلم مهام رياسته الراحوية حتى هبت ثورة عارمة أثارها الوالى شرف الدين بن التاج . وفى هذه الثورة خرب عدد من الكنائس والأديرة وذاق الرهبان والراهبات أقصى التعذيب . بل أن الأساقفة أنفسهم أصيبوا بالتنكيل رغم كرامتهم الكهنوتية . على أن المراحم الإلهية شامت أن تفتقد الآباء والأبناء فلم تدم ولاية شرف الدين غير سنة واحدة وافته المنية بعدها ، وزادت رحمة الله وضوحاً فى تنصيب وال جديد كان حليماً منصفاً شديد العطف على الشعب سواء فى ذلك المسلم والقبطى . وفى هذا الهدوء الذى جاء بعد العاصفة وجه الأنبا بنيامين عنايته إلى إعادة بناء الكنائس المنهارة وتجديد أديرة برية شهيت التى كانت قد تخرت وأقمرت من الرهبان . ذلك لأن البدو عندما أغاروا عليها قتلوا كل من فيها من الرهبان ولم ينج من قتلهم غير الذين تمكنوا من الهرب . وقد بدأ البابا بنيامين عمله بتجديد دير الأنبا بيشوى الذى كان الخراب قد فعل فعله فيه أكثر من بقية الأديرة . فأنفق عليه من ماله الخاص . وبعد أن جددّه جمع فيه عدداً من الرهبان لاعادة تعميره .

٢٥٣ - وفى السنة الثالثة لباهوته وجد أن ما تبقى من الميرون لا يفى بحاجة الكنائس فبادر إلى دعوة الأساقفة للاجتماع به فى دير الأنبا مكارى وليشتركوا معه فى اقامة الشعائر الخاصة « بطبخة » الميرون . وقد لبي دعوته عشرون أسقفاً . ولما كان اجتماعهم معاً أثناء الصوم الأربعينى المقدس (الكبير) فقد وجدوا الفرصة مواتية ليستعيدوا ذكريات رهبنتهم ويعيشوا فى تأمل وخشوع وفى ألفة روحية تليق بالصوم الذى حافظت عليه الكنيسة منذ أن صامه فاديها الحبيب^(١) . وكانت هذه الخلوة نعمة سماوية هياها لهم الآب السماوى ليستعدوا بما نالوه من قوة روحية لملاقاة

(١) لو ٤ : ١ - ٣ .

الأحداث التى ستقابلهم . ذلك أنهم ما كادوا يبلغون ايبارشياتهم حتى هبت عاصفة الاضطهاد من جديد ^(١) .

ووصلت أخبار التضيق والتعذيب إلى مسامع امبراطور الحبشة فكتب خطاباً إلى والى مصر يطالبه بحسن معاملة القبط مقابل حسن معاملته للمسلمين الخاضعين لسلطانه ، وكان قبل ذلك أن تعاون سلطان عدن مع تجار الرقيق المسلمين فبذل الامبراطور الحبشى جهداً كبيراً فى القضاء على هذه التجارة المهيئة للكرامة الانسانية . فكتب صاحب اليمن خطاباً استفزازياً لوالى مصر زعم فيه بأن عاهل الحبشة إنما يحاربهم حرباً دينية مستهدفاً إبادة المسلمين . فكان خطاب امبراطور اثيوبيا ذا هدفين : أولهما التشفع فى القبط وثانيهما توضيح حقيقة موقفه من تجارة الرقيق وبسط حالة المسلمين فى بلاده وكيف أنهم يعيشون فى سلام يزاوون أعمالهم المختلفة دون أن يتعرض لهم أحد حتى أصبح بينهم عدد من الأغنياء ، وقد بنوا المساجد والمدارس وهم فى أمن واستقرار . وقد نجح الامبراطور فى الوصول إلى هدفه إذ قد هدأ الاضطهاد فى مصر كما استقر السلام فى اثيوبيا استقراراً شمل عهود الأباطرة الثلاثة الذين تولوا العرش من بعده ^(٢) كذلك استطاع القبط فى ظل الهدوء أن يعيدوا ما تهدم من كنائسهم .

(١) ولقد قسا السلطان قلاوون قسوة جعلته ذات مرة يذلن نصرانياً حياً لتزوجه من امرأة مسلمة ويأمر فى الوقت عينه بنجدة أنف المرأة - راجع « تاريخ دولة المماليك فى مصر » ترجمه عن الانجليزية إلى العربية محمود عابدين وسليم حسن ص ٦٠ ، على أنه مما يجدر ذكره أنه على الرغم مما ساد عصر السلطان قلاوون من ظلم واستبداد بالقبط فقد استطاع هذا السلطان أن يجعل من مصر امبراطورية مترامية الأطراف . وكانت القصور التى عاش فيها هو وأمرأؤه آية فى الفن والترف فقد كانت ... من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجواهر المولفة فى العقود ، وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض وتشرف النور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن راجع المخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢١٠ ، مختصر « تاريخ مصر ... » لجاستون فيبيت ص ٤٩٩ .

(٢) موجز تاريخ بطارقة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس واشرف عليه زاهر رياض هاشم ص ٦٠ .

ومقابل هذا المد والجزر في حياة الكنيسة كانت الحياة المدنية المصرية في ازدهار : فقد وصلت المنسوجات المصرية إلى الهند كما أن أسماك دمياط كانت تصدر إلى سوريا وآسيا الصغرى . بل أن المراكب الراسية في ميناء بولاق أيام الحصاد كانت تزيد على الألف ^(١) . كذلك امتلأت الأسواق بالسلع المختلفة . أما وصف الخانات فيبين مدى الذوق الفني المصري : فقد كان الخان واسعاً وجدرانها من الرخام المزخرف بالموزايكو ، وكان بناء مربعاً يحيط بحديقة داخلية جميلة التنسيق . أما غرف الخان فكانت تفتح على هذه الحديقة وكانت أشبه بغرف الرهبان ^(٢) .

٢٥٤ - على أن استمرار السلام لم يكن من حظ القبط الذين عاشوا في ذلك العصر ، لأن السلام والخصام كانا يتعاقبان بلا انقطاع . لهذا السبب ساد القلق على القلوب . وقد لاحظ الأنبا بنيامين ما يساور شعبه من حيرة واضطهاد فبذل جهده في تهدئته . ولكي يصل إلى هذا الهدف قام برحلة راعوية في أنحاء البلاد المصرية . فتسريت الطمأنينة إلى القلوب مكتسحة ما فيها من مخاوف . وكما كانت الزيارات الراعوية قديماً سبباً في تثبيت الإيمان وفي ملء النفوس سكينة هكذا كانت زيارة البابا المرقسى إذ ذاك لأن لقاء الأب بأولاده من شأنه أن يفرح قلوب الأبناء بأبيهم والأب بأولاده . وخلال هذه الزيارة الراعوية داوم البابا المرقسى على الضراعة إلى رب الكنيسة ليتداركها بمراحمه ويجعل السلام يحل محل الخصام .

على أن باباويته لم تدم غير إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر . فامتلاً الشعب حزناً لفقده راعياً صاحباً عطوفاً . وقد أقيمت الشعائر الجنائزية على جثمانه الطاهر في دير شهران حيث دفن باحتفال مهيب ^(٣) .



(١) تاريخ مصر ... (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٤٩٨ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٤٩٢ .

(٣) سلسلة تاريخ الباباوات.. الحلقة الثانية - جمعه كامل صالح نخلة ص ٥ - ٥٣ .

الشهيد بسطوروس

٢٥٥ - وفى فترة القلق والاضطراب التى نحن بصددھا نال إكليل الشهادة عدد من الناس غالبيتهم مجهولة . ولكن من بين المعروفين من شهداء هذا العصر رجل اسمه بسطوروس ^(١) فقد حدث أن جحدت أمه الإيمان المسيحى ولكن بسطوروس ظل مع أبيه على ولائهما للمخلص ، وبعد سنين طويلة قام رجل قاس واشتكى بسطوروس إلى الوالى بحجة أن من كان أحد والديه مسلماً يجب أن يكون هو أيضاً مسلماً . فاستدعاه الوالى وحاول استمالتة إلى انكار إيمانه فلم يفلح . فأمر بتكبيله والقائه فى السجن ، وبينما هو مسجون جاءت حمامة بيضاء ووقفت على رأسه . وسمع حارس السجن بالأمر فأبلغ الوالى به . وعندها استحضره الوالى أمامه وهدده بالحرق إن هو أصر على التمسك بإيمانه . فقال له بسطوروس : « أفعل بهى ما شئت فسلطانك على جسدى فقط » . فأخرجوه إلى ساحة عامة حيث سمحوا لمن يشاء أن يضربه ويشتمه . فتحمل كل ما أذيق من عذاب بصبر وهدوء . وفى النهاية قطعوا رأسه بالسيف . وهكذا نال إكليل الشهادة . وقد شاء الله تعالى أن يكرم شهيدہ فجرت آيات وعجائب عن طريق جسده الذى ذاق أشكال العذاب : ^(٢) .



(١) المعنى الحرفى لكلمة بسطوروس هو « الصليب »

(٢) السنكسار الأثيووى ... ترجمة واليس بودج ج ١ ص ٨٤٢ .

الهدوء بعد العاصفة

- ٢٥٦- السير الى الامام رغم الضيقات .
٢٥٧- القسوة تمتد الى نبش القبور
٢٥٨- الالتقاء في دير الأنبا مكاري الكبير .
٢٥٩- اندلاع النار من جديد .
٢٦٠- الكتب العديدة ضد القبط .
٢٦١- جحود ولز تداد .
٢٦٢- السلطان يقر السلام .
٢٦٣- اسقف مليج .

٢٥٦ - كانت القلوب في اضطراب حينما انتقل البابا الاسكندري من دار الظلمة والظلم إلى دار النور والاتصاف . لذلك ظل الكرسي المرقسي شاغراً سنة تنقصها أربعة أيام إذ لم يكن في وسع الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا معاً للتداول والتشاور . على أنهم استجمعوا شتات أفكارهم ورأوا أن المؤمن الذي يلتقي همه على ربه يجب أن يسير في حياته مؤدياً واجبه حاملاً مسئوليته رغم كل ضيق . فاجتمع الأراخنة والأساقفة بالكنيسة التي أصبحت المقر الباهوي وهي كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ودعوا الآباء والأساقفة ليجتمعوا معهم كي يتشاوروا واياهم في أمر من يتولى رعايتهم .

وكان بين من استعرضوا من الرهبان ناسك وديع وروع يتميز بالتقوى والعلم اسمه بطرس ، بدأ حياته الرهبانية في دير الأنبا مكاري الكبير بيرية شهيت ثم اختير رئيساً لدير شهران الذي ذاع صيته بذيوع فضائل الأنبا بروسوم العريان . فلما تناقش المجتمعون في ما امتاز به بطرس من الحصال استقر رأيهم بالاجماع على انتخابه . وبهذا الانتخاب الاجماعي أصبح بطرس الخامس البابا المرقسي الثالث والثمانين سنة ١٣٣٢م ش^(١) .

٢٥٧ - وقد حدث في بداية باهويته أن بعض المسلمين في الريف اشتكوا رجلاً إلى القاضي بدعوى أنه قبطي مع أن جده كان مسلماً . واستمع القاضي إلى المشتكين وأصدر حكمه بهوجب اعتناق هذا القبطي الدين الإسلامي . ولكنه رفض أن يخضع لهذا الحكم . وعند ذاك أمر القاضي بالقائه في السجن . وفي الليلة الأولى من سجنه ذهب القبط

(١) أي ١٣٤٠ ميلادية غربية .

فى جنح الظلام وأخرجوه منه . وحين رأى المسلمون هذه الجرأة قرروا اعدام كل من يستطيعون القبض عليه من الأقباط الذين حاولوا بدورهم أن يهربوا . إلا أن عدداً كبيراً منهم نال إكليل الشهادة بعد أن ذاق العذابات الأليمة . ويبدو أن الدم المهرق زاد المعتدين رغبة فى الشر فاعتدوا على الكنيسة وسرقوا ما بها من ذخائر وهدموها . ثم شيدوا مسجداً مقابل المكان الذى كانت الكنيسة مشيدة عليه . وكلما اقتربوا اثماً إزدادوا قسوة بعد ذلك بالتنكيل بالأحياء بل نبشوا القبور وأخرجوا الجثث وأحرقوها . وكان من الطبيعى أن ترتبك الأمور فرفع الحاكم تقريراً إلى السلطان محمد بن قلاوون (فى مدة حكمه الثالث) شكاً فيه من سوء تصرف القاضى واستشارته الجماهير . فكان هذا التقرير حافزاً للقبض ليتقدموا هم أيضاً بالشكوى مطالبين بإعادة بناء كنيستهم . وعندها أمر السلطان باستقدام القاضى إليه لمحاكمته . فأحتج بعض المسلمين قائلين بأنه من العيب محاكمة قاض مسلم لأنه اضطهد القبط . على أن السلطان لم يعبأ باحتجاجهم وحكم بعزل القاضى فبدأت فترة من السلام ^(١) .

٢٥٨ - ومن مراحم الله أن فترات السلام كانت فى ذلك القرن العصيب فرصاً مواتية . وهنا العجب - لأن القرن الرابع عشر كان يفيض بالضيقات والاضطهادات العنيفة . ومع ذلك فإن الآباء كانوا يجدون الحاجة ماسة لعمل الميرون دليلاً على أن صمود الكنيسة أمام الضيق لم يكن مستمراً فحسب بل كان مشمراً أيضاً . وقد تمت الشعائر المقدسة فى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت كالمعتاد . وقد لبى الدعوة الباهرة اثنا عشر أسقفاً والتقوا جميعاً فى رحاب أبى برية شيهيت حيث استمتعوا بالخلوة مع الله فى هدوء نفسى شامل وبخاصة لأن الشعائر المقدسة اقيمت أثناء الصوم الأربعينى المقدس . واشترك بعض الكهنة مع البابا والأساقفة منهم الأسعد فرج الله بن القس الأكرم كاهن كنيسة السيدة العنواء (الشهيرة بالمعلقة) ومعه الشيخ المعلم يوحنا ابن شقيق الأنبا يونس (البابا المتنبح) . ثم انه لما احتفى الجميع بعيد القيامة المجيد عادوا إلى كراسيهم يحمل كل منهم ما يحتاج إليه من الميرون المقدس .

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٥٥ .

٢٥٩ - على أنهم ما كادوا يستقرون فى ايبارشياتهم حتى اندلعت نيران الاضطهاد مرة أخرى . فقام الغوغاء بهدم بيوت القبط القائمة أمام مساكن المسلمين ، واستمرأوا الاعتداء فأخذوا يتعقبون القبط فى الطرق ويمزقون لهم ثيابهم ويضربونهم ، ومن وجدوه راكباً دابة أنزلوه عنها عنوة ، بل أنهم ذهبوا إلى حد أنهم كانوا يلقون عليهم أحياناً اللهب المشتعلة ، فأدت كل هذه الاعتداءات المستمرة إلى اعتصام القبط ببيوتهم والامتناع من الظهور فى الشوارع حتى لقد خيل للرائى أنهم انقرضوا تماماً^(١) .

٢٦٠ - وفى هذه الساعات العصيبة لم ينصب الضيق على الأشخاص فحسب بل ظهرت إلى جانبه كتب عديدة ضد القبط^(٢) أبرزها « منهاج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب » وبعد أن أعلن المؤلف سخطه على القبط أورد الأدلة التى قدمها المماليك تبريراً لاستخدامهم فى دواوينهم إذ يقولون « لكن الضرورات تبيح المحظورات ولولا ضرورتهم ما قدمناهم ولكن للحاجة إليهم استكتبناهم » . والواضح أن مبتغى النفوذ كانوا يتخوفون من الأثر النفسى البعيد الذى كان للكاتب القبطى على الأمير الذى يعمل فى ديوانه . فقد كان كاتب المنهاج أيضاً : « ونجد الأمير مع ذلك يفوض إليه أمره ويطلعه على سره ويرجع إلى قوله فى اقطاعه وغلمانه وحاشيته حتى أن عدو الله تكون حرمة عند حاشية الأمير والفلاحين أكثر من حرمة الأمير : يقبلون يده ويقفون على رأسه إذا جلس لا يخالفه الأمير فيما يقول ولا يفعل إلا ما يشير به^(٣) . وهذه الكلمات وغيرها تبين أن مهارة القبط كانت المير الوحيد لاستخدامهم إذ يستمر كاتب المنهاج فيقول : « فمن الواضح للقبى الجاهل أن هؤلاء يكونون للأموال أكثر استخراجاً ويكون

(١) أهل اللمة فى الإسلام » ترجمه عن الانجليزية دكتور حسن حبشى ص ٧٨ .

(٢) ومنها « الكلمات المهمة فى مباشرات أهل اللمة » للأستاذى ، اللمة فى استعمال أهل اللمة - دار الكتب مخطوط رقم ١٦٩٣ .

(٣) البيروقراطية القبطية فى عصر المماليك (بالانجليزية) لريتشاردز . ألقاها فى أحاديث ألفية القاهرة ص ٨ .

الاقطاع بمباشرتهم أكثر خراجاً ^(١) . وليس ذلك فحسب بل ان مهارتهم الادارية قد دعمتها مهارتهم فى الطب والعمارة .

٢٦١ - ومن المحزن ان استمرار الضغط والتضييق قد جعل عدداً كبيراً من أعيان القبط يتنكرون لدينهم ويتحولون عنه إلى الإسلام . وفى هذا يقول النويرى « ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية أسلم جماعة كبيرة من أعيانهم لأجل مناصبهم فاستمروا بعد اسلامهم على ما كانوا عليه » ^(٢) ولهذا السبب كان القبط المعتنقون للإسلام موضع احتقار المسلمين وتشككهم إلى حد أنه صدر الأمر بعدم استخدام القبطى حتى بعد اشهاره الإسلام لأنه على حد قول المقرئى إنما أسلم طمعاً فى الاحتفاظ بوظيفته وجاذه . بل أن المسلمين اتهموهم بأنهم أسلموا فى الظاهر فقط وأنهم استمروا على حياتهم المسيحية فى بيوتهم ^(٣) .

(١) البيروقراطية القبطية ... ص ٧ ، ويقول هذا الكتاب نفسه بأنه يمكن اعتبار الهياج على القبط بأعمال العنف ضدهم أعراض مرض اجتماعى وتنفيس عن المرارة ضد حكومة غريبة متعالية . لأن مثل هذه الأعمال كانت تشكل خطراً على نظام الحكم القائم قد يودى به فى نهاية الأمر . وكانت الحكومة تتخذ خطوات حاسمة للقضاء على الفوضى والاضطراب حرصاً على سلامتها كما كانت أحياناً تطلق العنان للقوغاء ليعبروا عن ضيقهم النفسى ضد القبط بدلاً من التعبير عنه ضدها . إلا أنه فى كثير من الأحيان كانت الخواطر تهدأ لمجرد فصل الموظفين البارزين وبعد الهدوء يعاد استخدامهم . أما تفرى بردى - وهو من الكتاب المتزین وكان على صلة بالحكام المماليك - فإنه رغم معارضته فى اطلاق كلمة « قاضى » على القبطى الذى أسلم حديثاً هرباً من الاضطهاد قد أقر بالحاجة اليهم لخدماتهم اذ قال :

« أنا لا ألوم الحكام لترقية هؤلاء الرجال لأنهم محتاجون اليهم بسبب معرفتهم لكل أمور الإدارة - راجع « البيروقراطية القبطية » ... ص ٧ حيث يورد الكاتب اقوال بردى نقلاً عن كتابه النجوم الزاهرة ، كما يستشهد بكتاب السلوك للسقاوى » .

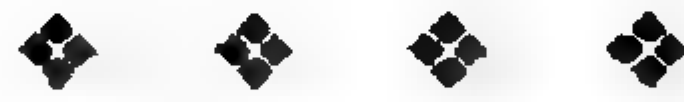
(٢) البيروقراطية القبطية ... ص ١٥ .

(٣) يقول المقرئى عن اسرة بنى مكائس الذين اسلموا سنة ١٢٧٩ فى سياق حديثه ... وبقاء نساتهم على النصرانية واستخفاف رجالهم بكتاب الله ورسوله ... المخطوط ج ٢ ص ٥١١ . كذلك ظلت السجلات الحكومية تضيف كلمة « القبطى » بعد اسم من أسلم حتى بعد الجيل الثالث والرابع من اسلامهم .

٢٦٢ - إلا أن المثل القائل بأن التاريخ يعيد نفسه لا يعبر عن حقيقة واقعية من تسلسل الحوادث في بلادنا فحسب وإنما هو يؤكد لنا استمرار رعاية الله ومراحمة . وقد بدأت هذه الحقيقة في تلك الحقبة إذ قد تغلبت في النهاية رغبة السلطان قلاوون في استقرار الأمن وفي تنصيب العدالة مرة أخرى . فحل الهدوء محل الاستبداد وبدأ القبط يتنفسون في شيء من الحرية من جديد .

وما أن اطمأن البابا المرقسى على شعبه وأحست نفسه بالسكينة حتى انتقل إلى عالم النور والعدالة المستقرة ^(١) .

ولقد ساند الأنبا بطرس الخامس في صلواته سميد أسقف القيس المعروف بأنبا بطرس المسكين . فلقد اشتهر هذا الراعي بكونه رجل صلاة إذ كان مداوماً عليها ضارعاً إلى الأب السماوى أن يترفق بشعبه المعذب . ولقد استجيب صلواته إذ عاش ليرى السلام والأمن مستقرين ^(٢) .



(١) سلسلة تاريخ لكامل صالح نخله .

(٢) عن مجلة « صوت الشهداء » السنة الرابعة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٦٢ مقال للقمص ميصائيل بحر عن « اقليم المنيا فى العصر القبطى » ص ٣٨ .

الأنبا بطرس الملقب بالجميل أسقف مليج

٢٦٣ - و نقف كما سبق أن وقفنا مراراً أمام جندي مجهول ضمن العدد العديد من الجنود المجهولين الذين ذادوا عن كنيستنا المحبوبة ، وهذا الجندي المجهول هو الأنبا بطرس ... ومن العجيب أن الأساقفة يكوّنون جزءاً كبيراً من مئات المجهولين الذين لا نعرف أسمائهم أو غير أعمالهم . وكل ما نعرفه عن الجندي الذي نحن بصددده هو أنه كان أسقفاً على كرسي مليج في باهوية الأنبا بطرس الخامس إذ كان ضمن الأساقفة الذين اشتركوا معه في تأدية شعائر الميرون المقدس . وقد كان يلقب بالجميل ، ولا نعرف إن كان هذا اللقب لقب عائلتد أو أنه أطلق عليه شخصياً . وسواء أكان جميلاً في شكله أم لا فإن الذي نعرفه هو أنه كان جميلاً في عمله . فقد وضع ثلاثة كتب استهدف منها كلها غاية واحدة هي اثبات صحة العقيدة الأرثوذكسية وتوضيح غوامضها وهذه الكتب هي :

- ١ - كتاب البيان : وضعه في خمسة فصول رداً منه على جمال الدين بن محمد المصري ليثبت له حقيقة الدين المسيحي .
- ٢ - كتاب في بدع البطوائف : قدم فيه الأدلة على العقيدة الأرثوذكسية مقابل التعاليم المغايرة لها .
- ٣ - كتاب الاشرار الذي رد به على الأرمن .

وبما يؤسف له أن هذه الكتب لم تطبع على الرغم من أن الحاجة إلى استيعاب حقائق العقيدة الأرثوذكسية حاجة ماسة للغاية في عصرنا الحالي .

ومن المتواتر أيضاً أنه تم سير الشهداء والقديسين الواجب اضافتها إلى السنكسار (١) .



(١) سلسلة تاريخ الحلقة الثانية ص ٦٧ تتلأ عن المخطوطات العربية ص ٦٢ .

الظلم يرفع رأسه من جديد

١ - الأنبا مرقس الرابع

- ٢٦٤ - الاجتماع على الراهب غبريال .
- ٢٦٥ - مساهمة السلطان لسائح انجليزى .
- ٢٦٦ - يازد الشبيه بالسراقيم .
- ٢٦٧ - حادث لم يكن فى الحساب .
- ٢٦٨ - صوت نذير .
- ٢٦٩ - تعسف شامل .
- ٢٧٠ - التجيز يمتد الى الجاحدين .
- ٢٧١ - خلق السلطان .
- ٢٧٢ - انذار من ملك النوبة .
- ٢٧٣ - انتقال البابا الاسكندرى الى دار النعيم .

٢٦٤ - انقضى شهر وسبعة وعشرون يوماً على انتقال الأنبا بطرس الخامس إلى دار الخلد . ثم رأى الأساقفة والأراخنة وجوب الهدء فى التشاور لانتخاب راعيهم الأول وبخاصة لأن فترة الهدوء . كانت لا تزال سائدة .

وحينما اجتمعوا تذكروا انهم التقوا براهب من دير شهران يوم أن اجتمعوا لعمل الميرون فى دير الأنبا مكارى الكبير تلبية لدعوة البابا المتنيح . وهذا الراهب كان ابن كاهن كنيسة السيدة العذراء . المعروفة بالمعلقة واسمه الأسعد فرج الله ابن القس الأكرم .

وحين تذكروه تذكروا أيضاً أنه حين تهرب اتخذ اسم الملاك المبشر اسماً له فأصبح الراهب غبريال .

وحين استشارت الذكرى هذه الصورة التى للراهب غبريال لما كان بينهم رأوه الشخص الذى ينشدونه فأجمعوا على انتخابه .

وبذلك أصبح الأنبا مرقس الرابع البابا الاسكندرى الرابع والثمانين سنة ١٣٤٢ م ش^(١) . وقد تمت رسامته فى أواخر أيام الناصر محمد بن قلاوون - وهى الأيام التى استقر فيها السلام .

٢٦٥ - ومن الطريف أنه جاء إلى مصر فى تلك الفترة سائح انجليزى أسعده الحظ بمقابلة السلطان وفيما الاثنان يتسامران قال السلطان لضيفه بأن هناك اعتقاداً سائداً بين المسلمين بأن التصارى قد خسروا مصر وسوريا بسبب معاصيهم وابتعادهم عن الله، وأنه سيأتى وقت يتوبون فيه ويعودون

(١) أو سنة ١٣٥٠ ميلادية غربية

بنية خالصة إلى طاعة الله والعمل بوصاياه . وعند ذلك سيسودون على أرض مصر كلها ^(١) .

٢٦٦ - وفى تلك الحقبة عاش فى أثيوبيا رجل اسمه يارد حياه الله مواهب عظيمة ويصفه السنكسار الأثيوبى بأنه شاعر وكاتب مزامير ومرتل شبيه بالسيرافيم وكان يارد هذا من عائلة كاهن معروف اسمه جدعون - كاهن كنيسة السيدة العذراء والدة الإله فى أكسوم التى كانت أول كنيسة شيدت فى البلاد الحبشية . وقد تولى الكاهن جدعون أمر تعليم يارد دينياً . ولكن التلميذ كان كسولاً فضربه معلمه . وعند ذاك هرب خارج المدينة وأقام تحت شجرة باسقة . وذات يوم رأى دودة تحاول أن تتسلق الشجرة فتسقط وتعاود التسلق . فلما تكرر سقوطها ومعاودتها السعى اتخذ منها يارد عبرة فعاد إلى معلمه وقال له : « اغفر لى يا أبى وافعل بى ما يحلو لك » ولما كان معلمه رجلاً روحانياً فقد قبله فرحاً وصلى بحرارة الى الأب السماوى ليفتح بصيرته . فاستجاب الله ضراعتة إذ قد استطاع يارد أن يتعلم ما لقنه إياه معلمه فى فترة قصيرة . ولم يكن الأثيوبيون حتى ذلك الوقت يصلون شعائرهم بالحنان مسموعة محبذة موزونة بل كانوا يرددونها بأصوات هامسة . لكن الله هيا ليارد سبيل المعرفة بأن اختطفه الى اورشليم السمائية كما فعل ببولس قديماً . وهناك تعلم الحان الأربعة والعشرين قسيساً المحيطين بالعرش . فلما عاد الى وطنه تذكّر تلك الرؤيا الخلافة فذهب الى كنيسة السيدة العذراء بأكسوم وبدأ يرتل بصوت عال قائلاً : « هلوليا للأب . هلوليا للأبن . هلوليا للروح القدس » وقد جعل من هلوليا الأولى الأساس الذى رتب عليه الحان الصلوات اليومية ودعاها « الحان صهيون » وجعل من هلوليا الثانية الوسيلة للتعبير عن بناء هيكل الرب ودعاها « لحن العلياء » ومنها نظم الألحان التى تقال فى الأصوام وفى الأحزان ، أما هلوليا الثالثة فاستخدمها لوضع الحان الأعياد العظمى . وحين كان يارد يرتل هذه الألحان كان الناس يتزاحمون عليه لأن صوته كان ملائكياً فى علويته . وحدث ذات يوم أن جلس الملك

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

جبرامسكال يصفى إليه فاهتز نشوه لاتغامه وفي نشوته وشروده النفسى غرس سيفه فى قدم يارد دون أن يدري . وكان يارد بدوره مأخوذاً بالألحان التى ينشدّها إلى حد أنه لم يحس بالسيف المغروس فى قدمه . فلما انتهى من ترغمه التفت إليه الملك مذعوراً مما فعله به وقال له : « اطلب منى ما شئت تعريضاً عن هذا الدم الذى سال منك بسببى وأنا غير واع » . قال له يارد : « عدنى أنك تقضى لى طلبى مهما يكن » فوعده . وعندها طُلب إليه أن يسمح له بالترهين فحزن الملك ولكنه لم يستطع أن يتراجع عن وعده . وقد تأسف الجميع لمغادرته مدينتهم ولكنهم تعزوا بالألحان التى علمهم إياها . من ثم ذهب يارد أولاً إلى كنيسة العنراء والدة الإله باكسوم حيث صلى بحرارة متزايدة . وبعد أن أنتهى من الصلاة ذهب جنوباً إلى الصحراء وهناك قضى بقية عمره فى الزهد والتعبد ^(١) .

٢٦٧ - وحدث حادث لم يكن فى الحسبان أدى بدوره الى معاودة اضطهاد القبط ، وهذا الحادث يتلخص فى أن حكومة أراجوان (بأسبانيا) أرسلت وفداً إلى السلطان ترجو منه أن يصدر الأمر بفتح بعض الكنائس الخاصة بالملكيين وبفك أسر أسباني محتجز فى بلادنا . وقد وافق السلطان على الطلبين . إلا أنه حينما كان وفد الوساطة عائداً إلى الاسكندرية ليبحر منها إلى بلاده رأى السلطان أن يجعله يدفع فدية عن الأسير الذى أطلقه والا أعاده إلى الأمير . فلم يكتف الوفد الأسباني برفض طلب السلطان بل حملوا رسله قسراً إلى أسبانيا . فأوغر هذا العمل صدور المستوليين فى مصر ضد القبط وعادوا البطش بهم مع أنه لا ذنب لهم إطلاقاً . وهذا الغضب كان بالطبع نتيجة لكون الأسبان مسيحيين فهم فى نظر المسلمين مشاركون للقبط فى إيمانهم . لهذا السبب وحده حرّض الأمراء المماليك الشعب على مضاعفة بطشهم بالقبط كما حملوا السلطان على اخراجهم من الوظائف الحكومية ^(٢) . فأنبت هذا الحادث صدق المثل الشائع : « كل هم فى البلد ييجى على قلبى ويسند » .

(١) السنكسار الاثيووى ... ترجمة واليس بودج ج ٣ ص ٨٧٥ - ٨٧٧ .

(٢) تاريخ دولة المماليك .. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٧٤ ، المماليك فى مصر لأنور زقلمة ص ٧ .

٢٦٨ - ثم مات الناصر محمد بن قلاوون فخلفه على عرش السلطنة ابنه الملك الصالح الثانى الذى كانت أفعاله أبعد ما تكون عن اسمه وفى بداية حكمه انتشر الطاعون بشكل مزعج فأهلك الآلاف من الناس . وبينما هذا الوباء يحصد المئات يومياً جاء إلى القاهرة رجل قبضى من الريف وأخذ يتنقل فى الشوارع منذراً الناس بالويل إن لم يتوبوا عن شرورهم . وعندها قبض عليه وسيق إلى قاضى الأسلام . فوقف أمام القاضى وأعلن فى شجاعة تامة بأنه إنما جاء ليوبخ القبط الجاحدين ويهيب بهم أن يعودوا إلى دين آبائهم . فهدده القاضى بالتعذيب فلم يرهب التهديد وأعلن أنه ليس مستعداً لأن يتحمل صنوف العذاب التى يمكن أن تكال له فقط بل أنه على أتم استعداد لأن يلقى الموت أيضاً . فاستثارت شجاعته غضب القاضى والمحيطين به ومن ثم صدر الأمر بتعذيبه . واستمر التعذيب أسبوعاً كاملاً . فتحمله الرجل الباسل بصبر وهدوء . إلا أن بسالته وصبره لم يشفعا فيه أمام جلاديه إذ قد صدر الأمر بقتله . فقطعوا رأسه ثم أحرقوا جثته . وهكذا نال إكليل الشهادة على أننا لا نعرف اسم هذا الشهيد الصبور ولا البلد الذى كان يعيش فيه قبل مجيئه إلى القاهرة . فهو بدوره جندي مجهول .

وكأنما كانت هذه الحادثة الشرارة التى أوقدت نار الاضطهاد من جديد وأول شرارة التهمت كنيسة بناحية شبرا إذ قد خرج والى القاهرة إلى هناك وأمر بهدم الكنيسة أمام عينيه .

٢٦٩ - ولم ينصب تعسف الملك الصالح على القبط الأوفياء لمسيحياتهم فقط بل شمل المارقين منهم أيضاً . ذلك أنه كان قد استوزر صاحب علاء الدين ابن زنبور من عائلة زنبور التى أسلم جميع أفرادها . على أن أحد رجال البلاط تقدم إلى الملك يتهم وزيره بأن اسلامه فى المظهر فقط أما فى الواقع فهو ما زال على دينه ، فاشتد غضب الملك على ابن زنبور إلى حد أنه لم يكتف بتعذيبه وحده بل أنزل العذاب بكل أفراد عائلته وبجميع خدمه إلى أن أرشدوه إلى مكان مال وزيره فاستولى عليه وبعد أن أذيق ابن زنبور مختلف العذابات صدر الأمر بنفيه إلى قوص .

ثم أمتد التعسف إلى الأموال فصودرت أوقاف القبط وهدم عدد كبير من كنائسهم وبعض من أديرتهم . وكانت إحدى هذه الكنائس تلك التي هدمها والى القاهرة بشبرا الخيمة . وكانت تضم أنبوية بداخلها أصبح لشهيد . وكان يحتفل فيها سنوياً بصلوات تسبق الفيزان استعطافاً لله لأن يجعل الفيزان واقياً . وبعد الصلوات يحملون الأنبوية الحاوية لأصبح الشهيد إلى ضفاف النهر الخالد حيث يترغنون بصلوات أخرى . فلما أصبحت الكنيسة أنقاضاً حمل الوالى أصبح الشهيد بأنبويته إلى الملك الذى أمر بحرقها فى الميدان الرئيسى وذر رمادها فى النيل . ومذاك أبطلت الصلوات الاحتفالية التى كانت تقام سنوياً بتلك الضاحية .

ولقد اتفق ذات يوم أن مر قبطى على الطريق الممتد أمام الجامعة الأزهرية وهو لابس الحرير المزركش وراكب حصاناً وحوله عبيده وخدامه فاستثارت وجاهته غضب بعض الغوغاء وهجموا عليه وأنزلوه من على حصانه ومزقوا ثيابه وكادوا يقتلونه لولا تدخل بعض من عقلاء المسلمين فى أمره (١) .

ولكن هذا الحادث لم يمر بهدوء لأن الثائرين تقدموا إلى الأمير طاز يشتكون إليه وجاهة القبط . فأمر باستدعاء البابا المرقسى وقرأ له العهدة المكتوبة بين المسلمين وبين أهل الذمة الخاصة بالملابس . ومع أن الأنبا مرقس أعلن استعداداه لأن يلتزم هو وشعبه بما جاء فى العهدة إلا أنه أذيق صنوف العذاب وألقى فى السجن فترة من الزمن دون مراعاة لكرامته (٢) .

٢٧- كذلك بعث السلطان برسالة إلى جميع ولايته يفرض عليهم فيها أن لا يستخدموا قبطياً فى دواوين الحكومة . فلو أن أحد القبط أعلن إسلامه بمنعونه من العودة إلى منزله ومن مقابلة أهله إلا أن أسلموا هم بدورهم . وعلى كل من يشهر إسلامه أن يلازم المساجد والزوايا ، وأن يجلس عند أقدام الفقهاء ويستمع إلى ما يقوله شيوخ الإسلام . أما متى

(١) الخطط للمقريزى ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٦٠ . تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٥٨٠ .

مات أحد القبط فيتولى المسلمون تقسيم تركته . فإن لم يكن له وارث دخلت التركة بيت المال^(١) .

٢٧١ - ثم حدث أن تنازع وزيران مرتدان وانضم إلى كل منهما فريق يسانده فأدى هذا النزاع إلى خلع الملك الصالح واحلال أخيه الناصر حسن محله . .

٢٧٢ - وبعد هذا كله وصل إلى مسامع ملك النوبة خبر تعذيب البابا المرقسى والقائه فى السجن كما وصلت أخبار البطش بالقبط والتشكك فيمن يسلم منهم فأصدر أمره بالقبض على التجار المسلمين من رعاياه وسجنهم ليكونوا رهائن لديه إلى أن يصدر الأمر بالأفراج عن الأنبا مرقس الرابع . وبهذه الوسيلة نجح ملك النوبة فى بلوغ هدفه إذ قد خرج البابا الاسكندرى من السجن .

٢٧٣ - وقد جاز الأنبا مرقس الرابع كل هذه الشدائد بصبر واتزان ملقياً همه على الرب الذى اتتمنه على رئاسة الكهنوت وعاملاً على مواساة شعبه . ثم رأى الآب السماوى أن يريحه من كل هذا الظلم والبطش فنقله إلى دار النعيم بعد أن قاد دفنة الكنيسة أربع عشرة سنة وأربعة شهور وستة وعشرين يوماً^(٢) .



(١) الخطط ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٥٧ - ٦٣ .

ب - الأتبا يؤنس العاشر

٢٧٤ - الملائقن الشامى .

٢٧٦ - معاودة البطش .

٢٧٥ - حصاد شحيح .

٢٧٧ - المحن تزيد القوة على الاحتمال .

٢٧٤ - وخلال الظلم السائد ظل الكرسي المرقسى شاغراً ثلاثة شهور وستة أيام . ثم المحلى الظلام قليلاً فتوافد الأساقفة من الأقاليم على القاهرة وأرسلوا يدعون الأراخنة ليجتمعوا معهم . ومن مراحم الله أن الأمير يلبغا سهل لهم أمر التلاقى معاً للتداول فى موضوع انتخاب البابا . ويبدو أن البطش الخارجى جعلهم أكثر ألفة وأقوى تماسكاً فتفاهموا فى هدوء وانسجام وانتهوا إلى الاجماع على راهب عالم قديس أصله من دمشق الشام ثم جاء إلى بلادنا وعاش فيها متبعاً نظام نساكها المتبتلين . ونتيجة لهذا الاجماع الرائع تمت شعائر الرسامة المقدسة التى ارتفع بها الراهب يؤنس الملقب بالمؤمن الشامى إلى كرامة رئاسة الكهنوت العليا فأصبح البابا المرقسى الخامس والثمانين فى أيام السلطان شعبان بن حسن الأشرف سنة ١٣٥٦ م ش (أو سنة ١٣٦٤ م غ) .

٢٧٥ - ومن المؤلم أن الطبيعة هى التى قست فى بداية باهوية الأتبا يؤنس العاشر إذ قد شع الحصاد فانتشرت المجاعة وأدت إلى موت الآلاف من الناس لأنها استمرت ثلاث سنوات متتالية .

٢٧٦ - وتلين قسوة الطبيعة ولم تلين قلب الانسان الذى عاد إلى بطشه بأخيه الانسان كانه فى مامن من غدر الأيام . ذلك أن السلطان « عزم على قطع دابر الأقباط ... فولى عدة وظائف كانت بيد الأقباط إلى جماعة من الفقهاء » (١) .

٢٧٧ - على أنه رغم كل قسوة وكل بطش ورغم العدد الكبير الذى ارتد عن دينه فى تلك الفترة المدلهمة فإن البابا المرقسى وجد الحاجة ملحة

(١) التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسغاوى - مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس سنة ١٧٢٧ ورقة ٣٥ ب . تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٨١ .

إلى تقديس الميرون . وهذا هو العجب فى الكنيسة القبطية : فلقد زادت
المحن قوة على الاحتمال إذ قد منحها الله تعالى حيوية كفلت لها البقاء فى
وجه كل ضيق وكل اضطهاد . وحينما لمس الأنبا يؤنس هذا الاحتياج بعث
بدعوة إلى الأساقفة ليوافقوه إلى دير الأنبا مكارى الكبير . فلبى دعوته
عشرون أسقفًا . ولما اكتمل عددهم اشتركوا جميعاً فى الشعائر التى بها
يتقدس الميرون .

ولكن رئاسة الأنبا يؤنس الشهير بالمؤمن لم تدم غير ست سنوات وشهرين
وثمانية أيام كانت عصيبة من بدايتها حتى النهاية ^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة .

ج - الأنبا غبريال الرابع

٢٧٨ - استقرار الراى على انتخاب رئيس

٢٨٠ - الحاجة الى مزيد من الميزون .

الدير المحرق .

٢٨١ - سفينة مغيرة .

٢٧٩ - حرب أهلية مملوكية .

٢٨٢ - شئ من الاستقرار .

٢٧٨ - ومرت ستة شهور والكرسى المرقسى مازال شاغراً إذ كانت الضيقات الجاثمة على الصدور تقوم حائلاً دون الاجتماع للتشاور . إلا أن خالق الكون فى شامل رحمته قد جعل للإنسان المقدرة على الاحتمال وعلى السير فى الحياة رغم ما يعتريها من محن وآلام . ولولا هذه المنحة الإلهية ما استمر الكون عامراً يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل . لأن بطش القوى بالضعيف لم يفتر منذ بداية الخليقة . وخلال السحب القائمة الحاجة لضوء الشمس رأى الأساقفة أن واجبهم الراعى يحتم عليهم دعوة الأراخنة للتداول معهم فى أمر الخليفة المرقسى . ففعلاً اتخذوا الخطوات العملية بأن اجتمعوا هم والأراخنة . وبعد البحث وموازنة الأمور استقر الراى على رئيس الدير المحرق واسمه غبريال لأنه كان فاضلاً جليلاً عالماً عابداً ناسكاً مهيب الجانب^(١) . فأخذوه وساروا به إلى الاسكندرية إلى كنيسة باسم القديسين سرجيوس وواخس^(٢) حيث تمت رسامته يوم عيد الظهور الالهى^(٣) . وقد ظل محتفظاً باسمه الرهبانى فأصبح الأنبا غبريال الرابع البابا الاسكندرى السادس والثمانين سنة ١٣٦٢ م ش (سنة ١٣٧٠ م غ) .

٢٧٩ - وما أن بدأ مباشرة رياسة كهنوته حتى قامت حرب أهلية بين الماليك الموالين للسلطان والماليك المشايعين ليلبغا . وانتصر السلطان

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين . المجلد الثالث - الجزء الثالث - قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ١٣٦ .

(٢) كنيسة لم يعد لها أثر ولا تعرف لها مكان .

(٣) أو عيد الفطاس ويعرف بهذا الأسم لأن الثالوث الأقدس ظهر فى لحظة واحدة فالله الآب ظهر بصوته القاتل هنا هو ابنى المحبيب الذى به سررت (متى ٣ : ١٧) والله الروح القدس ظهر فى شكل حمامة ، والله الابن كان صاعداً من نهر الأردن .

وأعوانه وطاردوا خصومهم إلى أن أغرقوهم فى النيل . الا أن الدائرة لم تلبث أن دارت على السلطان فلقى حتفه . وكان هذا التطاحن فى شوارع القاهرة لم يكن كافياً إذ قد شب فيها حريق مزعج التهم خمسمائة دار . ولولا أن سور القاهرة كان حاجزاً منيعاً لأنت النار على نصفها . وكانت هذه الكوارث سبباً فى هدوء التضيق على القبط إذ شغلت الممالك عنهم .

٢٨ - ومرة أخرى وجد البابا المرقسى أن الحاجة ماسة لمزيد من الميرون فأرسل يدعو الأساقفة للاجتماع به فى دير الأنبا مكارى الكبير ليشاركوه اقامة شعائر الميرون المقدسة . وقد لبى دعوته عشرة من الأساقفة فقط للصعوبات التى كانت قائمة وقتذاك . وكان سبعة من الأساقفة من الصعيد وثلاثة من الدلتا . ولقد تمت هذه الشعائر المقدسة فى ذلك الدير العريق الذى يلقب صاحبه بأبى البطارقة للمرة الأخيرة يومذاك . لأن الباباوات الاسكندريين أصبحوا يؤدونها بعد ذلك فى الكنيسة التى تكون المقر البابوى ساعة اقامة هذه الشعائر .

٢٨١ - ثم حدث أن رست سفينة بالاسكندرية حاملة جنوداً صليبيين - نزلوا بالمدينة وعاثوا بها فساداً ونهبوا كل ما وصلت إليه أيادهم . ثم استطاعوا بعد ذلك أن يأخذوا خمسمائة أسير ويقلعوا بهم إلى بلادهم . فثارت ثائرة الممالك المستولين فى القاهرة والاسكندرية ولم يجدوا من يصبون عليهم جام هذه الغضبة إلا القبط ففرضوا عليهم ضرائب فادحة ^(١) . وهكذا نجد أنه كلما هبط الصليبيون بلادنا وأوقعوا الأذى بأهلها استفزوا بعملهم النفوس ضد القبط ، فكان الضيق الذى يصيبهم ضيق مزدوج : ما يقع عليهم من بطش الصليبيين ومن كون هؤلاء الباطشين يحملون شارة المحبة والرحمة فى عمليات القتل والغدر ، ثم ما يصيبهم من جهال مواطنيهم الذين كان يختلط عليهم الأمر حين يرون الصليب على صدور المغيرين على بلادهم .

٢٨٢ - على أن مضاعفة الضرائب (أو بالحرى الجزية) كانت النوع الوحيد من الاضطهاد الذى انصب على القبط فى تلك الفترة فذاقوا طعم

(١) تاريخ دولة المماليك ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٠٧ .

السلام والاستقرار ولكن هذا السلام الذي سعد به الأنبا غبريال الرابع
وشعبه آنذاك لم يكن السبب الكافي لاطالة مدة رئاسة كهنته إذ قد انتقل
إلى عالم الروح بعد توليه الكرسي المرقسي بثمانى سنوات وثلاثة شهور
واثنين وعشرون يوماً^(١).



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة الحلقة الثانية ص ٦٤ - ٦٦ .

كنيستى أم ولود (١)

الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين

- ٢٨٣ - خصب الكنيسة القبطية
- ٢٨٤ - ترهب متاوس فى الرابعة عشرة من عمره
- ٢٨٥ - التحاقه بدير الأنبا انطوني .
- ٢٨٦ - الفرنجة يتسبيون فى استتارة الأمير يلغازد القبط
- ٢٨٧ - متاوس ينضم الى الدير المحرق .
- ٢٨٨ - انتخابه للسدة المرقسية .
- ٢٨٩ - استمراره على تواضعه ونسكه .
- ٢٩٠ - الحنان الطاغى على قلبه .
- ٢٩١ - توزيعه كل ما لديه .
- ٢٩٢ - مشاركته شعبه فى مختلف اشغاله .
- ٢٩٣ - السعيد بركة بن وجه المهر .
- ٢٩٤ - اثر غضبة البابا على الكاذبين .
- ٢٩٥ - حكمته فى القضاء .
- ٢٩٦ - برقوق يستشير فى قبول السلطنة .
- ٢٩٧ - استشفافه ما سيحدث بالحبة .
- ٢٩٨ - سلواته تؤدى بجاحد الى الاستشهاد .
- ٢٩٩ - بعض الاشرار يعيئون فسادا .
- ٣٠٠ - بسالة الانبا متاوس
- ٣٠١ - سلسلة من الاضطهادات
- ٣٠٢ - عودة السلطان برقوق .
- ٣٠٣ - الله يتمجد فى قديسيه .
- ٣٠٤ - سلطان الانبا متاوس على الارواح الشريرة .
- ٣٠٥ - عنايته ببواب فقير .
- ٣٠٦ - اقامته ميتا .
- ٣٠٧ - انقاذه نفسا من الهلاك الابدى .
- ٣٠٨ - سلواته حصن للراغبين فيها
- ٣٠٩ - قوة الصليب .
- ٣١٠ - استبداد الامير سودون .
- ٣١١ - تضاعف البطش .
- ٣١٢ - الملاك ميخائيل يوبخ احد شمامسته .
- ٣١٣ - زيغ بعض القبط .
- ٣١٤ - تأمر الامير جمال الدين على البابا متاوس
- ٣١٥ - وصيته الاخيرة لتلاميذه
- فتيافته
- ٣١٦ - تنبؤه بمن سيخلفه وحضوره شعائر الرسامة .

٢٨٣ - نقف الآن أمام عملاق من عمالقة الكنيسة القبطية : رجل بلغ ذروة القداسة بل بلغ ذروة الكمال فى كافة الفضائل المسيحية . فهو جدير بأن يقف جنبا إلى جنب مع أثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين

(١) مع تقديم وافر الشكر للدكتور راغب عبد النور لاصداره كتابا بهذا العنوان المناسب للغاية .

وديسقورس الشهيد بغير سفك دم ، وأن ينتظم ضمن السلسلة المجيدة التي كان مارمرقس ناظر الإلهيات أول حلقة فيها وما زالت ممتدة الى الآن بقوة النعمة الإلهية . والقديس العملاق الذي نقف أمامه الآن هو الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين . وقد شابه أثناسيوس الرسولي في أنه كان ولوعاً بأن يلعب الشعائر الدينية فيتخذ دور الأسقف ويجعل من التلاميذ زملائه كهنة وشمامسة وشعباً ، كما شابه شنودة رئيس المتوحدين في أنه اشتغل برعى الأغنام وفي توزيع طعامه على الرعاة وانصرافه إلى الصلاة . وقضى في رعاية الغنم أربع سنوات من سن العاشرة إلى الرابع عشرة . ومع صغر سنه كان ذا شجاعة نادرة يحمي قطعانه من اللثاب والضيغان فكانت هذه الوحوش تهرب حالما تراه أو تسمع صوته .

٢٨٤ - ولما بلغ الرابع عشرة قصد إلى دير بالصعيد ^(١) حيث ترهب ولو أنه ظل يشتغل راعياً للغنم . وبدأ يدرب نفسه على الصوم حتى أنه كان في الصيف يأكل مرة كل يومين وفي الشتاء مرة كل ثلاثة أيام . وكان أسقف المنطقة يرقبه باهتمام بالغ فأمسك به وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره وكرسه قساً . ودهش الأب الروحاني القمص ابراهيم

(١) جاء في السنكسار (٧ كيهك) ما نصه : « وأيضاً في هذا اليوم تنبح القديس التقى الروحاني أنها متى . كان من مدينة بشناى . وقد ترهب في كنيسة السيدة العذراء المعروفة باسم مجباهات . وذهب إلى اسنا وأصفون . وكان يتعبد بنسك جميل ... وكانت الوحوش الضارية تأتي عنده في الصحراء الداخلية حيث كانت قلايته فتخر أمامه وتظهر لطفها فكان يخرج لها خبزاً ويطعمها ... » أما المقرئ فقد قال « كان بأصفون دير كبير . وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر ، وأكثر نواحي الصعيد فواكه . وكان رهبان ديرها معروفين بالعلم والمهارة . فخرت أصفون وخرب ديرها . وهذا آخر أديرة الصعيد غرب النيل شمال اسنا » راجع كتاب « القديس متى المسكين » للملكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص ٤ .

ملحوظة : بعد كتابة ما تقدم قرأت في مجلة « صوت الشهداء » السنة الرابعة العدد الخامس (مايو ١٩٦٢) ص ٤١ ما يلي : « ... فلقد حث الرب قلوب الغيورين من أبناء هذا الشعب العظيم . تبرع أحدهم بباب الهيكل وتبرع آخر بعمل منجلية جديدة . وتبرع غيره بكسوة المذبح وأقيمت بوابة كبرى للدير . وباب كبير لكنيسة الدير . وفرش الدير بالحصر . وبد التعمير تعمل على قدم وساق . ولقد أصبح الأمن متوفراً في الدير والراحة مكفولة . صلى فيه شعب المسيح في أسبوع الآلام والأحدين اللذين سبقاه . ويزور الدير الآن عدد كبير من يتوقون إلى التمتع بجلسات هادئة مع الرب .

(الذى كان ملازماً للأسقف) لهذا التكريس وعبر عن دهشته للأسقف الذى وصف له مزايا متاوس وانتهى إلى القول بأنه مستحق لأن يكون بطريكاً . فمجد الأب الروحانى الله العجيب فى قديسيه ^(١) .

٢٨٥- وحالما سمع متاوس بهذا الحديث بين رجلى الله ترك المكان الذى هو فيه فى خفية وذهب إلى دير الأنبا أنطونى أبى الرهبان . ولم يصرح لأحد هناك برتبته الكهنوتية مكتفياً بالخدمة كشماس . إلا أن الله الذى يتمجد فى قديسيه شاء أن يبين حقيقة ما سيكون إذ بينما هذا الشماس يقرأ النجيل القداس خرجت يد إلهية من الهيكل وقدمت له البخور ثلاث دفعات ثم اختفت . فلما رأى شيوخ النساك هذه الظاهرة الروحانية تيقنوا من أن هذا الخادم لابد أن يجلس على الكرسي المرقسى . وحين علم ما يتهامس به هؤلاء النساك تألم لأن اتضاعه كان عظيماً فترك الدير خلصة وقصد إلى بيت المقدس حيث اشتغل بناء يقضى نهاره فى تشييد المباني وليله فى تشييد نفسه . إلا أنه لم يلبث أن اضطر للمرة الثالثة أن يترك المكان المقيم فيه لأن فضائله ذاعت فعاد إلى دير كوكب البرية ثانية .

٢٨٦ - وحدث أن قام الفرنجة بحملة على مدينة الاسكندرية فنهبوا وسلبوا ثم سبوا عدداً من النسوة وهربوا . ولما كان هؤلاء الفرنجة يحملون شارة الصليب على صدورهم فقد أوغروا صدور الأمير يلبغا ورجاله ضد القبط كالمعتاد . وكان هذا الأمير متولياً أمر مصر من قبل السلطان وقتذاك فأمر بالتضييق على القبط إلى حد أنه لم يكتف بالتكيل بساكنى المدن والقرى بل تعداهم إلى ساكنى الصحراء أيضاً . وصب جام غضبه بصفة خاصة على رهبان الدير الأنطونى إذ قد بلغه أن به ذخائر ذات قيمة عظيمة . فألقى القبض على متاوس الذى كان رئيساً وقتذاك وعلى عدد من الآباء منهم شيخ اشتهر بقداسته اسمه مرقس الأنطونى وساقهم أمامه ليذهب بهم إلى القاهرة . وكان يوسمهم ضرباً ورمياً على الأرض أثناء

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبع بإشراف أنطون خاطر وأزولده بورمستر ... ص ١٣٦ - ١٣٧ . وتجدد الإشارة هنا إلى روح الألفة بين الأسقف والقمص مما جعل الثانى يعترض فى ثقة على الأول الذى تقبل منه اعتراضه وفسر له السبب فى تصرفه . كذلك تجدد الإشارة إلى تقدير الآباء للأنبا رغم حداثة سنهم .

السفر . ومنع عنهم الطعام والشراب . وقد استعطفوه ليسمح لهم بقليل من الماء راضين بالجوع ولكنه رفض طلبهم فى قسوة وتشامخ .

وبيئنا هم يستعطفون وهو يزداد صلفاً هطل المطر بغزارة إلى حد أنه اضطر المسافرين إلى البقاء مكانهم تجنباً للسيل الجارف الذى فاجأهم فى الصيف فشرب الجميع وارتووا من يد الله تعالى . ثم كمل الله مراحمه لأنهم حين وصلوا إلى اطفيح صدر الأمر من السلطان بالسماح لهم بالعودة إلى ديرهم فى هدوء واطمئنان . فعادوا وهم يسبحون الأب السماوى على عظيم عنايته بهم .

٢٨٧ - ثم أستاذن متاوس فى مغادرة دير كوكب البرية وذهب إلى الدير المحرق . وهناك كان ينقل الرماد على رأسه ويفسل قدور الطعام وأوانى الطبخ . ويخدم الشيوخ والمرضى ويقوم بواجب الضيافة نحو زوار الدير وضيوفه . ولشدة تقشفه لم تكن له قلاية خاصة . ولم يكن له غير الثوب الذى على جسمه . وكان يقضى معظم لياليه فى مغارة خارج الدير وفى تلك الفترة شابه الأتبا أنطونى فيما أصابه من التجارب الشيطانية إذ كان يأتبه عدو الخير فى زمرة من أعوانه فى أشكال وحوش كاسرة (١) . ولكن هذه الكواسر الخيالية كانت تهرب منه كما سبق أن هربت منه الكواسر الواقعية وهو يرعى الأغنام . بل أن بعضاً من الأمهات الضارية الواقعية حين كانت لا تجد قوتاً لصغارها تأتى بها إليه فيعطىها خبزها . كذلك كانت هذه الوحوش حين تراه سائراً وحده فى الجبل تسير إلى جنبه للاتناس به .

ومن أرق ما حدث بينه وبين هذه الوحوش الكاسرة التى لاصلة بينها وبين الناس غير الفتك بهم أن ضبعة وجدته متوغلاً فى الصحراء فحملت ملاسده فى قمها وسارت أمامه . فتبعها ليعرف ما حاجتها . ومشى الضبعة إلى أن وصلت إلى صخرة تضم مغارة فى داخلها . ودخلت الضبعة إلى المغارة فدخل معها . ووجد أن بالمغارة فجوة عميقة قد سقط فى أسفلها جرو الضبعة وعجز عن الصعود منها . فنزل بنفسه وحمل الجرو على كتفه وأصعده إلى أمه التى أخذت تلعق قدميه فى شكر وخشوع (٢) .

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ - الفصل المعنون « كوكب البرية » .

(٢) « القديس متى المسكين » لليكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص ١٩ .

٢٨٨ - ثم خلت السدة المرقسية . وبعد مرور ثلاثة شهور على خلوها قام الأراخنة بالتشاور مع الأساقفة بحثاً عن يرغبون في اختياره لرعايتهم . واستقر قرارهم على متاوس . وحين سمع بذلك هرب من الدير وركب مركباً اختفى في أسفله إلا أن الآب السماوى الساهر على كنيسته أنطق ولداً صغيراً ضمن راكبى المركب فأرشداهم إلى مكانه . فلما وجد أنهم أمسكوا به حاول أن يهرب من رغبتهم في رسامته بأن أخذ مقصاً وقطع به طرف لسانه نفسه . ولكن الله فاحص القلوب والكلى أبرأه في الحال . فوجد نفسه للمرة الثانية عاجزاً عن الافلات . وعندها رجا من جاعوه أن يسمحوا له بالذهاب إلى دير الأنبا أنطونى لاستشارة الشيوخ المقيمين به فقبلوا طلبه ولكنهم صحبوه إلى هناك خشية أن يهرب منهم للمرة الثالثة . فلما وصل إلى الدير أشار عليه الآباء الروحانيون بأن يقبل هذه الكرامة العظمى خضوعاً لإرادة الله . فأطاعهم وعاد مع صحبه إلى الشعب . فساروا به لساعتهم إلى الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية . وحين بدأت صلوات الرسامة كان حاضراً أحد عشر أسقفاً فاشتبهى من أعماق قلبه أن يكونوا اثنى عشر . ولم تمض غير دقائق معدودة حتى دخل الأسقف الثانى عشر . وهكذا استجاب الرب الإله لرغبة عبده الذى رفعته الشعائر المقدسة إلى كرامة الخلافة المرقسية فأصبح الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين : البابا الاسكندرى السابع و الثمانين . وكان ذلك فى السادس عشر من شهر مسرى المبارك الذى هو عيد تذكّار سيدتنا كلية الطهر والدة الإله . وهى كانت شفيعته وحارسته من بدء حياته وظل محتماً فى حصن صلواتها طيلة حياته .

٢٨٩ - وحين استقر بالدار الباهوية لم يغير من تواضعه ونسكه وسهره وصلواته . ووضع فى منارة القلاية البطريركية بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة جرساً من النحاس لينبه به المؤمنين إلى مواعيد الصلاة . فكان كل من يسمع رنين هذا الجرس ينهض مسرعاً إلى الكنيسة .

٢٩ - كذلك كان عطوفاً رحيماً يحمل الطعام والشراب بنفسه إلى المنقطعين والمستورين . ويتفقد الرهبان ويولى الراهبات عناية خاصة . وكان حنانه قوياً إلى حد أنه كان يوزع ملابسه الخاصة وحتى الملابس الكهنوتية فيكتفى ببذلة واحدة منها ليلبسها ساعة تأدية الشعائر المقدسة .

بل لقد حدث مرة أن رسم أسقفاً فقيراً الحال ، وأراد أن يعطيه برنسه لأنه لم يكن لديه ما يشتري به البرنس . فعارضه تلاميذه بحجة أنه لاستعماله الخاص . وبينما هو يلح عليهم في إعطاء البرنس للأسقف إذ السيدة تحضر وتقدم له برنساً حريزاً ثميناً . فأخذ منها شاكراً وأعطاه لفوره إلى الأسقف ، فندم التلاميذ على معارضتهم إياه .

٢٩١- ولما رأى تلاميذه أنه يوزع كل ما عنده غير مستبق شيئاً لنفسه أخذوا يلحون عليه في أن يحتفظ بستمائة دينار كانت عنده . وتحت المحاحم حبس هذه الدنانير . ولكنه أخذ يلوم نفسه في الليل على حبسها قائلاً : « كيف خالفت وصية السيد ؟ ألا تؤمن بصدق مواعيده ؟ » ، ويدافع ضميره قام في اليوم التالي ليخرج المال المخزون فإذا به قد تضاعف لأنه وجد ألفاً ومئتين من الدنانير بدلاً من الستمائة التي كان قد حبسها . فأخرجها ونادى على تلاميذه وقال لهم : « تأملوا يا أولادى تحتن الله علينا ! » وأمرهم بأن يشتروا غلالاً بالمبلغ لأنه علم بالروح بحدوث مجاعة فاشتروا الغلال واخترنوها ، فلما حلت المجاعة أمر بتوزيع ما في المخزن بغير تفرقة بين مسلم أو يهودى أو مسيحي . وإذا عبر تلاميذه عن خشيتهم من أن تفرغ الغلال قال لهم : « فرقوا يا أولادى ولا تخافوا لأن عندى مخازن أخرى فايضة ملائكة » . وكان يشير بكلماته هذه إلى الفيض السماوى لأنه كان معتاداً أن يعيد عيدى السيدة العذراء ورئيس الملائكة ميخائيل شهرياً : الأول في الحادى والعشرين من كل شهر قبطى والثانى في الثانى عشر منه . وكان بعد الصلاة في هذين العيدين يدخل المخازن ويباركها واثقاً من أن بركة الرب تغنى ولا يزد معها تعب .

٢٩٢ - وحياة متاوس المسكين صورة مثلى للفضائل المسيحية فلم يكن عطفه على شعبه قاصراً على توزيعه المال والملابس والطعام بل امتد إلى معاونتهم في أعمالهم . فكان يعجن مع العجائين ويحمل أدوات البناء مع البنائين ، بل إنه كان يترج المراحيض مع العمال . ومع ذلك فقد كان ذا هيبة ووقار حتى أنه حين كان يقف أمام المذبح ليؤدى الشعائر المقدسة بسطع وجهه بنور سماوى وتلمع عيناه بهريق روحانى ، وكان يقف طوال فترة القداس لأنه كان يرى ابن الله قائماً عن يمين المذبح

٢٩٣ - وحدث أن جاء يوماً أرخن غنى اسمه السعيد بركة بن وجه

المهر وجلس يتأمل محبته وحنانه ثم قال له : « أرجوك يا أبى أن تصلى من أجلى لكى يحسن المسيح قلبى فأوزع أموالى على المحتاجين كما أرجو أن تطلب لكى تكون ساعة انتقالى فى حضرتك » قال له الأنبا متاوس « بحسب إيمانك ليكون لك » . وفى تلك اللحظة فاض الحنان على قلب السعيد بركة فصار يوزع ويعطى كل سائل . وحدث بعد ذلك بفترة أن ذهب هذا المؤمن لزيارة البابا وفيما هو جالس فى حضرته فاضت روحه إلى خالقها . فقام البابا الحنون وكفنه بيده وهو يقول : « سألت فأعطيت . طلبت فوجدت . قرعت ففتح لك » .

٢٩٤ - وكما أن الأب السماوى كان يستمع لصلوات هذا القديس فيما يتعلق بأنقياء القلب كذلك كان يصفى إليه حين يغضب على المرائين . فقد حدث أن شماساً سرق حبة بستان خاص بأطفال يتامى وأخفاها . فسأله عنها فأنكر أنه أخذها وأضاف : « كلمتك تقطعنى يا أبى » فغضب البابا البار وقال له : « من لمك يكون لك » وانصرف الشماس إلى بيته وما أن دخل الباب حتى سقط ميتاً . وعندها أعيدت الحبة التى كان قد سرقها إلى أصحابها .

٢٩٥ - ولفاعلية الروح القدس الحال فيه كان الناس يأتون إليه بقضاياهم وشكاواهم العديدة . فكان يطلب إلى الجميع أن يصلوا الصلاة الربانية . وبعد أن يدعو باسم الأب والابن والروح القدس يقول : « الخلاص للرب » معلناً بذلك اتكاله التام على ارشاد الروح القدس وتوجيهاته فى كل ما يصدر من أحكام فذاع صيته حتى أن الملوك والولاة إذا ما واجهتهم مشكلة عسرة الحل أو قضية شائكة أرسلوا يطلبون إليه الفصل فيها . وكانوا يقبلون ما يحكم به لساعتهم .

٢٩٦ - ولقد بلغت ثقة برقوق فى قداسة هذا البابا فى أنه لم يقبل السلطنة إلا بعد استشارته . فقرر الأنبا متاوس أن يذهب إلى دير الأنبا أنطونى ليستشير شيوخه فى هذا الموضوع . وحين علم الآباء الرهبان باقترابه خرجوا للقاءه حاملين الصليان والأنجيل والشموع والمجامر المثلثة بخوراً متصاعداً نحو السماء . وقد صحب البابا من القاهرة ثمانون شخصاً - انتظموا ضمن موكب الرهبان فألقوا مركباً راتعاً لأبيهم الروحى . وامتلاً الجميع فرحاً وتهليلاً وبخاصة لأن الزيارة كانت قبيل أسبوع الآلام المحيية

التي لمخلصنا الصالح . وأول ما قام به البابا فى الدير كان تكريس الكنيسة التي كان الآباء قد اكملوا بناءها باسم الفتية الثلاثة الذين أنقذهم الرب من أتون النار ^(١) . ثم احتفل الجميع بأسبوع البسخة الكريمة وانتهوا إلى ذروة القيامة المجيدة فامتلات القلوب نعمة وسلاماً .

وقبل أن يغادر الدير رجا من القمص مرقس الأب الروحاني للدير أن يذكره فى صلواته وعرض عليه موضوع برقوق . قال له رجل الله : « اذهب بسلام يا أبانا ولا تخف لأن الرب فى رحمته بك قد جعل أمامك السماء أرضاً والأرض سماء . وانصح برقوق بقبول السلطنة » . فعاد الأنبا متاوس إلى القاهرة وذاق هو وشعبه أياماً من الرخاء . ولقد حفظ السلطان برقوق له الود وأكرمه ورفض أن يقبل أية سعاية أو وشاية فيه .

٢٩٧ - وقد رغب السلطان برقوق فى المحافظة على صلات الصداقة بين مصر والحبشة فرجا من البابا أن يكتب خطاباً إلى ملكها « ويدم أصغر » الذى كان عاتياً شريراً . فلما جلس البابا ليكتب الرسالة الى هذا الملك الظالم نطق الروح القدس على لسانه فوجهها إلى أخيه داود . وعارضه الرسل الذين كانوا سيجملون رسالته خوفاً من بطش ويدم أصغر ولكنه أصر على أن تظل الرسالة باسم أخيه داود . فخضعوا لاصراره وحملوها قاصدين إلى الحبشة . ولما قربوا من حدود تلك البلاد حدث أن قام بعض المسئولين على ويدم أصغر وعزلوه وأجلسوا أخاه داود على كرسى المملكة عوضاً عنه . فلما وصل رسل البابا كان الملك قد آل إلى الشخص الذى وجه إليه البابا رسالته . فلما فك الملك داود ختم الرسالة ووجدها باسمه فرح فرحاً عظيماً وطلب إلى الرسل أن يعطوه الصليب والتمديد المرسلين هدية من البابا إليه . ودهش حاملوا الرسالة وسألوا الملك من أين علم بالهدايا وهم لم يخبروه بها . فأخبرهم بأن البابا نفسه هو الذى أعلمه بأمرها . ثم دعا وزراءه وجنوده وأخته المباركة وقال أمام الجميع : « من قبل أن تجلسونى ملكاً أبصرت هذا الأب البطريرك فى رؤيا وقد أقام أخى من على الكرسى وأجلسنى عوضاً عنه وقال « هكذا يتزع الله الملك ممن لا يسير بالاستقامة ... » وبعد ذلك أعطانى هذا الصليب بيدى ودعا لى لكى يثبت الله كرسى مثل داود أبينا لأقضى بين الشعوب بالعدل . ثم باركنى وانصرف . وكنت أود أن أعلن هذه

(١) دانيال ٣ .

الرؤيا منذ أن شاهدها ولكن أختي المباركة خافت على من بطش أخي ويدم أصغر . وحين سمع الجميع هذه الكلمات مجدوا الله الذي يظهر عجائبه في قديسيه وقد اعلم الخليفة المرقسى وهو في مصر بما سيحدث في الحبشة قبل أن يكون .

وبعد أن قضى رسل البابا بضعة أيام في ضيافة الملك داود عادوا إلى مصر وذهبوا لساعتهم فأخبروا السلطان برقوق بكل ما رأوا وما سمعوا فازداد اكراماً له ومحبة فيه .

٢٩٨ - وكان في أيامه راهب اسمه ابراهيم عائش في دير السريان أغواه الشيطان فترك الدير وتنكر للمسيحية وانضم الى الجيش إذ أصبح جندياً فيه . ثم أمعن في زيفه وأخذ يعاند البابا . وكان يعلم أن بعض الرهبان كانوا قد حادوا عن الإيمان ثم ندموا وتابوا إلا أنهم مع توبتهم صاروا يوصفون بالمجروحين . وإمعاناً في النكاية بالبابا عاد هذا الجاحد إلى البرية مستهدفاً أن يجر هؤلاء الرهبان المجروحين إلى الولاة لكي يقتلوهم . ولكنه لم يجد غير اثنين فقط فجرهما على الرغم منهما وأتى بهما إلى القاهرة . وبالفعل نال هذان الرهبان إكليل الشهادة فضج الشعب من معاندة هذا الجاحد وطلب إلى البابا أن يدعو عليه ليخلصوا منه أجاب : « لا يا أولادى، أنا لا أدعو عليه بل أدعو له لكي يرد الله إلى الإيمان ويمنحه أن ينال إكليل الشهادة » . ولم تنقض بضعة أسابيع على هذا الحديث إلا وامتلاً قلب ذلك الرجل ندماً وحسرة . وطفى عليه ندمه إلى حد جعله يذهب إلى الوالى لساعته ويعلن توبته وعودته إلى السيد المسيح . فما كان من الوالى إلا أن أمر بقتله وهكذا نال إكليل الشهادة بصلاة البابا البار .

٢٩٩ - وبما أن الأنبا متاوس المسكين كان شديد الشغف بتفقد الرهبان فقد كان يزورهم كثيراً . وقصد ذات مرة إلى برية شيهيت للسؤال عن نساكها وللاستجمام الروحى أيضاً . وانتهز بعض الأشرار فرصة غيابه عن القاهرة لأنهم كانوا يخافونه فقصدوا إلى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) مستهدفين احراقها . وسمع السلطان برقوق بالأمر فأرسل لهم قضاة الاسلام الاربعة ليحققوا في دعوتهم بأن هناك مجديداً في تلك البيعة . وقد أثبت القضاة الأربعة بهتان هذه الدعوى وحكموا على الأشرار بالانصراف . ولحده غيظهم من هذا الحكم رموا بجمرة متقدة على أساس

الكنيسة قبل أنصرفهم . إلا أن تلاميذ البابا الذين كانوا قد سارعوا إلى المكان عملوا على اطفائها . وبينما هم منشغلون باطفائها من أسفل أنزل رب الكنيسة المطر عليها فأطفأها من فوق في الحال . فامتلاً الجميع فرحاً وسبحوا الله على عنايته الأبوية .

٣٠٠ - فلما فشل المعاندون في احراق كنيسة السيدة العذراء وجهوا سمومهم إلى دير شهران . وكان البابا قد وصل إلى القاهرة فسارع إلى الدير ووقف بمفرده في مواجهة جمهرة الأشرار وقال لهم : « من منكم له سلطان فليجرد سيفه ويقتلني أولاً لأنني لن أسمح لأحد أن يمس الدير وأنا حي » . وتراجع الكل أمام هذه الشجاعة . وخلال هذا التراجع ذهب البابا الياسل إلى السلطان وأطلعده على حقيقة الموقف . فما كان منه إلا أن أرسل قضاة الاسلام الأربعة إلى دير شهران كما كان قد أرسلهم إلى الكنيسة المعلقة . فحكموا بهوجب ترك الدير ورهبانه في أمان . وهكذا فشلت المحاولة الآتية الثانية كما فشلت الأولى .

٣.١ - ولكن حدث أن قام مملوكان هما الأمير متطاش والأمير يلبغا السالمى على السلطان برقوق وقاوماه وخلعاه ونفياه إلى قلعة الكرك بسوريا . ولما أصبح زمام الأمور في أيديهما بدأ سلسلة من الاضطهادات . وبالطبع كان البابا الشخص الأول الذى صبا عليه جام شرهما . فلقد سمع متطاش بأن لدى رجل الله ذخائر وأموالاً طائلة فأرسل إليه وعذبه ولكنه لم يجد لديه شيئاً بالمرة كما أنه واجه شجاعة نادرة في شخصه فأحس بالتحجل وأطلقه . أما يلبغا فقد وجد من البابا مقاومة عنيفة حين كان يحاول اضطهاد الشعب فاحتدم غيظاً عليه وسجنه ثم جرد عليه سيفه يريد قتله فمد له رجل الله عنقه في هدوء وثبات وقال له : « أضرب سريعاً » فذهل يلبغا إلى حد أنه أطلقه أيضاً . إلا أن هذا التهجم على الأنبا متاوس كان له ثمرته : فإن المملوك الذى نصب يلبغا أميراً غضب عليه وسجنه في أحد سجون الاسكندرية وأوقع به آلاماً مبرحة . وكان بعض من القبط يبذلون مخاوفهم أحياناً لئلا يتمكن يلبغا من الأفلات من سجنه واستعادة سطوته والبطش بهم من جديد فكان رجل الله يطمئنهم قائلاً : « لا تخافوا البتة يا أولادى فلن يخرج من السجن ولن يمس شعرة من رؤوسكم لأنى وكلت بسجنه الأربعة حيوانات غير المتجسدين حاملى العرش الإلهى » . وقد تحققت كلماته بالفعل إذ ظل يلبغا مسجوناً إلى أن مات .

٣.٢ - ثم شاء الله فى شامل رحمته أن يرسخ السلام مرة أخرى فى بلادنا فتهيات الفرصة أمام السلطان برقوق لأن يعود إلى الحكم إذ قد عاد إلى مصر ظافراً وابتهج الشعب كله بعودته فخرج القبط بالمجبلهم واليهود بتوراتهم وحمل الجميع الشموع وساروا فى المركب الذى ألفه المسلمون لاستقبال السلطان .

ولقد أثبت السلطان برقوق جدارته بهذا التقدير الشعبى الشامل لأنه لم يحرص فقط على معاملة الجميع بالانصاف بل عمل على حفظ صلات المودة بينه وبين جيرانه من الدول : فكانت صلاته مع اليمن والحبشة صلات من يستهدف تثبيت السلام . بل أنه حين أنتهز داود بن أرعد ملك الحبشة الفرصة من تطاحن بعض الأمراء وأغار على أسوان لم يجبه برقوق بحد السيف بل رجا من الأنبا متاوس أن يرسل له خطاباً مع رسول خاص يطالبه فيه بالعودة إلى بلاده . وقد استجاب البابا الاسكندرى هذا الرجاء على الفور وبعث برسالته مع أسقف صحبه رسول السلطان وقد استجاب ملك الحبشة على هذه الرسالة بخطاب بعث به إلى السلطان وهدية حملها واحد وعشرون جملاً^(١) .

وحدث فى تلك الفترة عينها أن قصد إلى الحبشة أحد الأراخنة القبط اسمه فخر الدولة فعهد إليه الملك اسحق بن داود بن سيف أرعد بترتيب أمور الدولة فنظم له طريقة تحصيل الضرائب وأنشأ له ديواناً ووضع مختلف القوانين المنظمة لأنشطة الحكومة . كذلك وضع فخر الدولة هذا تصميمات للملابس الملك الرسمية التى يتميز بها عن سائر أمرائه ورجاله . وكان ملوك الحبشة يخرجون عرايا قبل ذلك^(٢) .

٣.٣ - ولما كانت مواعيد الله ثابتة من جيل إلى جيل ، ولما كان قد أعلن أنه يتمجد فى قديسيه ويكرم الذين يكرمونه فقد بدأ مجده وتكرمه بصورة باهرة فى شخص البابا الكبير رغم لقبه بالمسكين . فمنحه مواهب عديدة من مواهب الروح القدس . فقد رأينا كيف أنه عرف بالروح عن خلع

(١) نوابغ الأقباط لتوفيق اسكاروس ص ٤٨ - ٥٨

(٢) قيام دولة الماليك الثانية لحكيم أمين عبد السيد (دار الكتب - القاهرة

سنة ١٩٦٧) - ص ١٦٠

ويدم أصغر وقيام أخيه داود بدلاً عنه ملكاً على الحبشة . لكنه كان ذا مواهب متنوعة الى جانب موهبة التنبؤ هذه . فلقد أجرى الله بصلاته الآيات العديدة من اخراج الأرواح الشريرة وشفاء المرضى واقامة الموتى ولو أن المجال هنا سيقصر على أمثلة قليلة للدلالة على مدى ما اختصه الله من مواهب .

٣.٤ - فقد حدث أن صبية اعتراها روح نجس . فحملها أبوها وأتيا بها إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث يقيم البابا . وحين دخلا بها تركها الروح النجس ووقف خارج الباب . وبدأ البابا يصلى من أجلها . وفى أثناء الصلاة حضر كاهن من الصعيد رغبة منه فى نوال البركة الرسولية فقصده إلى الكنيسة و كان ممن منحهم الله رؤية الأرواح ، فلما وصل إلى باب الكنيسة رأى الروح النجس واقفاً عنده فسأله عن سبب وقوفه وعلم منه أنه خاف يدخل إلى الداخل ولكنه منتظر الصبية ليعاود مضايقتها حالما تخرج . فأسرع الكاهن إلى الداخل وأسر فى أذن البابا بما رأى وما سمع . ثم استكمل حديثه بقوله : « ولكنه حينما رآنى داخلاً وعلم أنى سأبلغك أمره انصرف لساعته خشية أن تحرقه صلاتكم القوية من على الأرض » فتعجب الجميع ومجدوا الله لعظم الآيات التى كانت تحققها السيدة العذراء بصلاته الأتيا متاوس .

٣.٥ - وكان هذا البابا الساهر يتفقد شعبه بلا هوادة . فحدث أن عبر ذات يوم على منزل أحد الأغنياء فوجد الباب مريضاً ملقى على الأرض ضاعفت الأوساخ من وجعه وملأته برائحة كريهة دون أن يجد من يهتم به . فأسرع البابا الرحيم واتزر بمنديله وجلس إلى جانبه يغسل جسمه ووثياهه وفراشه . ولما أحس هذا الباب المسكين بالراحة وباستجمام جسمه الذى أضناه المرض والجوع طلب إلى الله أن يتعطف عليه وينقله فى الحال من عالم الجفاء والاهمال إلى عالم العناية والرعاية . فاستكمل الأتيا متاوس خدمته لهذا الفقير بأن كفنه بيديه الطاهرتين .

٣.٦ - ولما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المقر البابوى آنذاك فقد شاء البابا أن يجدد بعض المباني المحيطة بها . وبينما الفعلة يعملون سقط واحد منهم وهو حامل حجراً ثقيلاً وسقط الحجر عليه فانكسرت

أضلاعه ومات لساعته وامتلاً رفقاؤه خوفاً وأرادوا الهرب . ولكن البابا الساهر علم بالأمر فهدأ من ذعرهم وقال لهم : « اسكتوا ولا تقولوا إن الفاعل مات فهو لم يميت وأنا أضمن لكم بمراحم سيدي ومخلصي أنه حي وعند ذاك حمله أربعة منهم إلى الكنيسة ووضعوه أمام حجاب الهيكل تحت أيقونة السيدة العذراء حسب أمر الأنبا متاوس فغطاه بأزاره من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة من النهار المبارك . ثم طلب قليلاً من الماء الساخن ، ووقف يصلي ، وكلما صلى على عضو ومسحه بالماء الساخن تحرك هذا العضو . ولم يلبث أن قام الرجل معافى بشفاعة صاحبة الشفاعات والدة الإله وبصلوات خادمها الأمين البابا متاوس .

٣.٧ - كذلك حدث أن أرخناً كبيراً اسمه فخر الدولة وصل إلى الموت ووجد نفسه محاطاً بالملائكة يحاسبونه ويبكتونه فامتلات نفسه ذعراً وتلفت يمينه ويسرة أملأ في أن يرى الأنبا متاوس علي مقربة منه . ولما لم يجده ازداد رعباً . وإذا به يراه فجأة واقفاً إلى جانبه يصلي من أجله ويستعطف السيد المسيح في أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى لكي يتوب . وسمع فخر الدولة صوت المخلص يقول لصفيه : « قد سمعت لك في هذا الانسان ووهبته لك . فعرفه أن يرجع عن خطاياہ ويتبع طريق الله » . وما أن انتهى المخلص من كلماته هذه حتى انتبه الرجل المائت وأفاق من غيبوبته ، وحالما أفاق تماماً قصد إلى الدار الباهوية وروى للأنبا متاوس كل ما جرى له . وبكى البابا الحنون فرحاً واشفاقاً على أولاده ووالى هذا الأرخن برعايته حتى استقام تماماً .

٣.٨ - بل أن صلواته كانت حصناً حتى لمن لا يستطيعون الوصول إليه بالفعل وكانت رغبتهم في الاستشفاع به تكفى لأن تحصل لهم هذه الشفاعة . فقد حدث لبعض الأراخنة أن وقعوا في شدة مع الأمراء واضطربوا وأرادوا أن يلتجئوا إلى صلوات البابا . وفيما هم ذاهبون إليه أدركهم الليل فاضطربوا إلى المبيت حيث هم وفي تلك الليلة رأى أحدهم في حلم الأنبا متاوس قائماً أمام أيقونة مارجرجس يستشفع به في أمرهم قائلاً بصوت مسموع : « يا شهيد الله يا مارجرجس أنا لا أعرف لهم خلاصاً إلا بك » . وفي تلك اللحظة أمال الشهيد العظيم رأسه من الأيقونة ثلاث مرات كمن يقول نعم . ولما رأى البابا تواضع البطل انطرح على الأرض

أمامه . فعظم على الشهيد هذا الانطراح وخرج من الإيقونة على هيئة فارس وأقامه ثم تبارك كل منهما من الآخر .

وفى الصباح قص هذا الأرخن حله على زملائه فخامرهم الشك . ولكن لم تمض برهة وجيزة حتى جاعهم الأمر بالعفو عنهم من غير سعى ولا وساطة . فقاموا فى الحال وذهبوا إلى البابا وقدموا له الشكر الوفير لأنه شفّع فيهم من غير أن يطلبوا إليه بشفاههم ولمجرد استشفافه لحاجتهم .

٣.٩ - على أن الناس فى كل مكان وكل جيل كثيراً ما ينسون القوى الروحية الخفية لكونها غير مرئية ويميلون إلى الارتكان على المال زعماء منهم أنه أقوى فعلاً فى النفوس . ومع أن الشعب رأى فى باباه النموذج الأمثل للروحانية وللتسامى على الماديات إلا أنه حدث على الرغم من هذا أن جاء أحد كتبة ديوان السلطان وهو قلق مضطرب وقدم له خمسمائة دينار قائلاً له : « يا رجل الله تقبل منى هذا المال وصلى من أجلى ، لأن السلطان برقوق يريد قتلى اليوم ولا أجد مخرجاً أمامى من هذه الورطة » أجابه البابا العفيف : « احتفظ بذهبك لنفسك لأن الصلاة التى بالذهب لا قيمة لها . وإن أردت أن تخلص أعد الذهب إلى مكانه وخذ صليبي ومنديلى معك . وأدخل بهما إلى حضرة السلطان » . ثم قام وصلى على رأس الرجل وأعطاه الصليب والمنديل وأطاع الكاتب أمر باباه وذهب إلى السلطان الذى كان فى حدة الغضب ولكن ما أن وقعت عيناه على كاتبه حتى هدأت نفسه وأصغى إليه وكأن كلمات الكاتب كانت كالندى على أذنيه وفرح الكاتب بهذا التحول العجيب، وخرج بعد ذلك وأذاع ما حدث بين جميع عارفيه . فمجدوا الله على رحمته وعلى تقبله صلوات قديسه الأنبا متاوس .

ثم حدث أن وقع أحد أولاد الوزراء القبط تحت غضب السلطان وخاف عليه البابا فذهب للورده يستغيث بالشهيد العظيم الأمير ثيودوروس (تادرس) قائلاً له : « إنا أعرف يا شهيد المسيح أنك خلصت أولاد الأرملة من قم التين القاتل بجرأة عظيمة وأنا أربطك بالسلطان الذى منحه لى ربي ومخلصى يسوع المسيح ولن أحلك من هذا الرباط قبل أن تنقذ هذا الشاب بما هو فيه من ضيق » . وكان الأنبا متاوس وقتذاك فى الكنيسة يخاطب الشهيد عن طريق أيقونته بهذه الدالة وهذا النفوذ بينما كان ابن

الوزير في القصر يواجه السلطان الغاضب عليه . وفجأة وجد الشاب أن غضب برقوق قد هدأ إلى حد أنه أعلن له العفو ، وحالما خرج من القصر السلطاني ذهب ليشكر البابا لأنه أدرك بالروح أن مثل هذا التحول الفجائي ما كان ليحدث لولا صلوات الأنبا متاوس من أجله . وقد فرح الشاب وأهله بهذه النجاة غير المنتظرة ومجدوا الآب السماوي الذي يهب قديسيه هذه الدالة وهذه الكرامة في قلوب السلاطين ^(١) .

٣١ - إلا أن دوام الحال من المحال فانتقضت فترة السلام التي رسخها السلطان برقوق بموته وتولى ابنه الناصر فرج السلطنة من بعده واتبع خطة أبيه في انصاف الرعية . إلا أن الأمير سودون ما لبث أن تغلب عليه وأستأثر بالحكم . وكان عاتياً فأخذ يبطش بالرعية . وتآمر ذات يوم مع بعض أعوانه على الفتك بالقبط مستهدفاً القضاء عليهم جميعاً . وعرف الأنبا متاوس بالروح عن هذه المؤامرة فقام لساعته وذهب إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبي السيفين) بمصر القديمة حيث حبس نفسه سبعة أيام متوالية وهو يصلي ناسياً الأكل والشرب والنوم وكل مطالب الجسد في سبيل الذود عن شعبه . وبعد هذا الصراع الروحي المتواصل ظهرت له السيدة العذراء وسط نور ساطع وقالت له : « لقد قبل الله طلبتك وأبطل مؤامرة المعاندين مخلصاً شعبه من أيديهم » . حينئذ ابتهج قلبه وخرج من البيعة ووجهه يسطع كوجه ملاك . ويتدبير من الله أرسل الأمير سودون إلى البابا يدعوه للحضور عنده . فلما ذهب إليه اعترف له بما كان ينويه ضد الشعب القبطي فوبخه البابا الياسل توبيخاً قارصاً وأعلن له أن الله هو الحصن الحصين لشعبه وأن السلطان الأرضي مهما علا نفوذه لن ينال منهم الا بالقدر الذي يسمح به الله . وقد امتلأ قلب الأمير سودون خوفاً من هذه الكلمات كما امتلأ دهشة من شجاعة رجل الله فأطلقه في سلام . وذهب هو وشعبه إلى كنيسة السيدة العذراء حيث قدموا الشكر للآب السماوي وعملوا تمجيذاً للسيدة والدة الإله معينة الملتجئين إليها .

٣١١ - ولقد اشتد الضغط على القبط من أعوان سودون أيضاً فقام أحدهم واسمه أوزيك ويطش بهم فسجن من سجن وقتل من قتل . واحتد

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط - المرجع السابق ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، وتجدر الإشارة هنا إلى جرأة الأنبا متاوس ودالته أمام القديسين وإلى اعتزازه بالسلطان الكهنوتي الممنوح له من رب المجد .

غضب البابا على هذا الأمير الذى لم يلب قلبه لأية ضراعة . فقصده إلى كنيسة الملاك ميخائيل وحبس نفسه فيها ستة أيام بلياليها وهو يصلى ويتوسل إلى الملاك لكى يسارع إلى نجدة الشعب المعذب ، وبعد الأيام الستة أرسل أحد تلاميذه ليستطلع الأمور . ولما وصل التلميذ إلى باب قصر ذلك الأمير وجده محمولاً على نعشه وقيل له بأن فارساً طعنه بحربة منذ ستة أيام ظل خلالها معذباً إلى أن مات متأثراً بجرحه . فعاد التلميذ مسرعاً وأخبر باباه بما سمع . فقام لساعته وعمل تمجيداً لرئيس الملائكة ميخائيل الذى أعانه من غير امهال وأراحه هو وشعبه من فاعل الظلم .

٣١٢ - وفى ذات يوم أتى شاب شماس إلى البابا يستنجد به ويقول : « أدركنى يا أبى لأن فارساً على حصان أبيض قد مر على وضربنى اليوم ضرباً مريعاً لأنى رغم كونى شماساً قد خالفت القوانين خلصة ولم أصم يوم الأربعاء والجمعة مع أنى لم أطلع أحداً على مخالفتى » . أجابه البابا : « لا تخف فأنا أعرف الفارس الذى ضربك وأنا سأأخذك إليه لتتوب أمامه ولا تعود إلى مخالفتك موقناً بأنه لا خفى إلا ويظهر كما قال لنا سيدنا » . قال الشماس : « أنى طوع أمرك يا أبى » . فأخذه البابا إلى كنيسة الملاك ميخائيل وكانت بها أيقونة لشفيعها وهو ممتط ظهر جواد أبيض ، وحالما وقعت عينها الشماس عليها قال : « بالحقيقة يا أبى هذا هو الفارس الذى ضربنى والحق أنى استحق الضرب الذى أوقعه بى لأنى شماس فى كنيسة . وأنى من اليوم نادم وتائب أمامه وبين يديك » . واستقام الشماس فعلاً منذ تلك اللحظة وأعطى المجد لله الذى منح البابا متاوس شفافية روحية وعظفاً أبوياً حتى لقد كان شعبه يقول عنه بأنه يشتري نفوس أولاده الآتين إليه وينجدهم بحرارة صلواته .

٣١٣ - وضاق عدو الخير ذرعاً بهذا القديس الذى استضاءت روحه بالأنوار السمائية وانعكس وهجها على الشعب كله ، فاستشار عليه أولاً بعضاً من أولاده الذين ساروا فى طريق اللهو والعبث ورفضوا أن يصغوا لتعاليمه وتوجيهاته . وكان هو يبكى على غلاظة قلوبهم ويداوم على الصلاة من أجلهم . ولكنهم تمادوا فى غيهم وغرورهم ولم يزدادوا إلا تشامخاً .

٣١٤ - وفى وسط هذه الضيقة التى أقلقته نفس البابا على المعاندين له

من شعبه استشار الشيطان أميراً من الماليك اسمه جمال الدين ، فأخذ هذا الأمير يعذب ويسجن ويقتل كل من استطاع القبض عليه من القبط . وزاد على ذلك بأن أرسل رسلاً إلى الحجاز واليمن خلصة يشيرون على حكامها بأن يكتبوا إلى السلطان خطابات يوجهون فيها إلى الأنبا متاوس تهمة زور مؤداها أنه يحرض ملك الحبشة على تخريب مكة . ولقد كشف الله هذه السعاية للبابا إذ أعلمه مقدماً بها قبل أن تصل الرسائل المملوكة بالشكوى ضده إلى مصر . فقام لفوره يستنجد بأم النور حسب عادته . ورجا منها أن ترحم شعبه حتى لا تتضاعف عليه الشدائد . فاستجابت ذات الشفاعات صلواته بأن أصيب بحمى شديدة اضطرتته إلى ملازمة الفراش . وحين سمع الأمير جمال الدين بمرضه هدأت حدته قليلاً . فسكت عنه بعض السكوت ولكنه استمر يعذب الشعب ثم أرسل يطالب البابا بخمسمائة ألف درهم ويتوعده بالتعذيب رغم مرضه إن لم يرسلها له . وقد جمع الشعب هذا المبلغ حباً في باباه ورغبة منه في حمايته من ذلك الأمير العاتى . إلا أن الأمير ازداد صلفاً بعد أن قبض المال الذى أراده . وأرسل رسله يشدد على البابا بالحضور إليه . فطيب البابا خاطر الرسل ورجا منهم أن يمهلوه إلى اليوم التالى فقط - الذى كان يوم الأحد . أما هو فكان قد علم بالروح أن ساعته قد حانت وأن الآب السماوى سينقله إلى فردوسه قبل أن يتمكن الأمير الظالم من أذيتة . وفعلًا حين وصل الرسل فى اليوم التالى وجدوا أنه قد أصبح فى مأمن من غدر أميرهم إذ قد فاضت روحه إلى خالقها فى الهجعة الأولى من ليلة الاثنين وذهل الأمير وأعوانه مما حدث .

على أن الله تعالى الذى قال « لى النعمة أنا أجازى » لم يدع هذا الطاغية فى أمان بعد استبداده بصفيه . لأنه لم يلبث أن غضب عليه السلطان عبد العزيز ابن برقوق لوشاية وصلت عنه . فأمر بالقبض عليه وعصره ، وأخذ منه أضعاف المال الذى أخذه عنوة من البابا وشعبه . وبعد ذلك أمر الجنود بضربه إلى أن مات .

٣١٥ - وكان الأنبا متاوس قد أرسل إلى تلاميذه ليحضروا إليه فأعلمهم بقرب انتقاله إلى الفردوس وأعطاهم وصيته فيما يتعلق بتكفينه . وطلب إليهم أن يدفنه بدير الخندق ليكون بين أولاده حتى بعد انتقاله وبعد أن أنتهى من وصيته التف بأزاره واستودع روحه بين يدى الآب السماوى .

وقد بلغ من العمر اثنين وسبعين سنة : أربعين منها قبل الرسامة واثنين وثلاثين سنة راعياً لشعب المسيح . وقد اجتمع للصلاة عليه فى جنازته عدد عديد من الأساقفة والكهنة والشمامسة وجماهير الشعب . واجتمع معهم رؤساء الطوائف المسيحية غير القبطية (الروم والأرمن) إلى جانب طائفة اليهود . وشمل الحزن كل القلوب حتى « كادت عمدة البيعة أن تبكيه وهو راقد وصلبيه فى يده . وكانوا يتتحبون لأجل حسن مظهره وهيبته وصدقته وافتقاده المساكين وعلى احتماله وصبره ... ثم حملوه بالأكرام والتبجيل والوقار حتى كان حمله فى تابوته كمثل حمل تابوت العهد^١ . أين ذلك الرجل القوى الذى يستطيع أن يحمل ذلك التابوت من كثرة الخليفة المحيطة به المزدهمة عليه . وكانت الأجناد والعساكر أمام ذلك التابوت تحجبه الى أن مضوا به إلى دير الخندق »^(١) .

وقد حدث ليلة انتقاله أن اضطربت عظام القديسين المدفونين بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت . وسمع صوت مع اضطراب العظام يقول « قوموا افتحوا الباب لأن متاوس قد حضر » . ولما فتح الرهبان الباب ولم يجدوا أحداً أندھشوا ولكنهم لم يعرفوا الحقيقة إلا بعد بضعة أيام حين وافاهم الخبر . فأدركوا أن أرواح القديسين شامت أن تتبارك مع بعضها البعض فعبرت روحه على موضعهم ، وأن الأجساد اضطربت حزناً على الشعب الذى فقد معلماً وأباً وراعياً ساهراً.

وبعد نياحته بأربعين يوماً حدث أن ثلاثة من العريان المجروحين كانوا مارين على دير الخندق وأمسى عليهم الليل فباتوا فيه . وقبيل الفجر قاموا من النوم استعداداً لصلاة باكر فرأوا الأنبا متاوس مرتدياً برنسه وهو سائر بين الموتى متفقداً أيامهم كما كان يفعل وهو ما زال على الأرض حين كان يطوف بالليل ليتفقد أولاده . ولم يعرف هؤلاء الثلاثة من هو هذا الكاهن اليقظ وخافوا من رهبة منظره ومن النور المشع من وجهه فسقطوا على وجوههم ووجدتهم بعض الشمامسة فأقاموهم واستفهموا عن سبب وقوعهم وحين سمعوا وصفهم لذلك الذى كان يبخر قالوا : « إنه الأنبا متاوس الذى مازال يحنو على شعبه » . وأخذوهم إلى المكان المدفون فيه هذا القديس تحت مذبح الكنيسة فتباركوا منه

(١) تاريخ بطاركة للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين أشرف على طبعه أنطون خاطر وأزولده بوزمستر ص ٥٨

٣١٦ - وكان الأنبا متاوس قد تنبأ لتلاميذه قبيل انتقاله بأن الذى سيخلفه على الكرسي المرقسى هو غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلمونى . على أن الناس كانوا قد سهوا عن هذه النبوة . ولكنهم فى بحثهم عن من يخلفه استحضروا هذا الراهب الذى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) ليرسموه قمصاً . وبينما هم يصلون رأى أحد الشيوخ القديسين البابا متاوس واقفاً عند جناح المذبح وهو يضع يده على رأس غبريال مع الآباء الحديسين . ولما رآه هذا الشيخ تقدم اليه طالباً إليه البركة . فباركه ثم قال له : اذكرنى يا أخى لأنى ماض إلى الاسكندرية مع الآباء لأشترك وإياهم فى رسامة البابا غبريال ، فتذكر الجميع نبوته وقتذاك .

وحدث أنهم حين كانوا فى الكتدوانية المرقسية بالاسكندرية لتأدية الشعائر المقدسة لم ير البابا متاوس غير كاهن اسمه يوحنا كان قد أصيب بالخرس . ولما التقى به البابا قال له : « يا يوحنا - من الآن لن تكون أخرساً . فقم وتحدث واخبر المجتمعين أننى حضرت مع جماعة القديسين لأشترك فى تكريس غبريال بابا الاسكندرية » . ورجع القمص يوحنا الى نفسه فإذا بلسانه قد أنطلق . فأخذ يتحدث بعظائم الله وروى لجميع الحاضرين ما حدث له . وجميع الذين سمعوا مجدوا الله على المواهب العليا التى أغدقها الله على الأنبا متاوس فى حياته وبعد نياحته ^(١) .



(١) تاريخ البطارقة... للأنبا ساويرس طبع بإشراف أنطون خاطر وأزولده يورمستر ص ١٣٦ - ١٥٨ . سلسلة تاريخ... لكامل صالح نخلة . الطبعة الأولى ص ٧ - ٦١ .

ب - الشيخ الروحاني مرقس الأنطوني

- | | |
|---------------------------------------|-------------------------------|
| ٣١٧- فاعليه الروح القدس | ٣٢٤- اختياره الرهبنة . |
| الواضحة في الكنيسة . | ٣٢٥- قضاؤه ست سنوات في دير |
| ٣١٨- نشأة مرقس . | الاتيا بولائم عودته الى دير |
| ٣١٩- شدة تمسك أبوي مرقس بالروحانيات . | الاتيا انطوني . |
| ٣٢٠- اضرامه الى العمل منذ طفولته . | ٣٢٦- مرقس طبيب روحاني للجميع |
| ٣٢١- حثائه العميق . | ٣٢٧- حادثته مع الامير يلبغا . |
| ٣٢٢- حبه الصلوات الكنسية . | ٣٢٨- توجيهاته للرهبان . |
| ٣٢٣- مثالية امه . | ٣٢٩- نيافته . |

٣١٧ - لقد قيل عن الأنبا أثناسيوس الرسولي حامى الإيمان القويم بأنه « جمع بين العزة المتشامخة وبين القداسة . وجاز الأحوال وظل مشرأ ، وعرف معنى البؤس وظل مجيداً » (١) . وهذه الكلمات تنطبق على الكنيسة التى زاد عنها أثناسيوس بكل مواهب النادرة وبخاصة فى هذه الحقبة المدهمة من التاريخ . ذلك لأن الكنيسة كانت تجوز الاضطهاد ثم تذوق طعم الراحة على مدى تاريخها الطويل . أما فى هذه الفترة فلم تخرج من ضيقة إلا لتجوز أخرى ، ولم تتج من اضطهاد إلا لتقع فى ثان . ورغم هذه الأحوال المتلاحقة فقد بدت نعمة الله ورحمته فيمن عاش من القديسين ومن نال إكليل الشهادة . ويجب أن نتمعن فى هذه الظاهرة الروحية العجيبة التى يعلنها لنا الله خلال الحجب والظلمات . لأن هناك من لا يتجهون بأبصارهم إلا إلى نواحي الضعف والنقص والجحود . ولكن - ألم يسر الجحود جنباً إلى جنب مع الاخلاص المتفانى منذ أن عاش مخلصنا الصالح على الأرض ؟ ألم يكن بهذا الحائن زميلاً ليوحنا الحبيب الذى لازم فاديه إلى الصليب ونال ثوابه بأن اتحنه رب المجد على أمة ؟ لذلك حينما يحاول المتشائمون ارهابنا بالانحسار ناحية الارتداد علينا أن نقدم لهم هذه الأدلة الرائعة التى تبرز لنا خلف السحب القائمة كالحيط الذهبى الساطع المعلن بها الشمس من وراء تلك السحب . فكنيستنا القبطية المجيدة جسدي

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ الفصل الخاص بحامى الإيمان القويم .

ناطق يؤكد كلمات القادى القائل: «فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا
أنا قد غلبت العالم»

ولئن كان الباباوات أشبه بقمة الهرم فليس من شك فى أن هذه القمة ما
كانت لتعلو نحو السماء فى ثبات لو لم يكن البنيان تحتها متراصاً ، هكذا
كان الشعب بأراختته وكهنته وأساقفته هرمأ متماسكاً ترتفع فوقه قمته
وحتى إن تدحرج حجر منها ظل البنيان قائماً . وهذه هى حقيقة الواقع
للعصر الذى توج قمته الأنبا متاوس الملقب بالمسكين : كان فيه الجاحدون
المرتدون جنباً إلى جنب مع الشهداء البواسل ، وكان فيه قديسون بلغوا
ذروة سامية تضارع ضرواح القداسة فى مختلف العصور كما كان فيه جنباء
وعديدون. وقد تبدت مراحم الله فى أن القديسين هم الذين أحرزوا النصر
ونجحوا فى شحذ الهمم وتقوية العزائم والإبقاء على الإيمان فى بهاته
وسطوعه .

وبما لا شك فيه أن الغالبية العظمى ممن عاشوا بإيمانهم وثبتوا فيه هم
الآلاف المغمورون الذين لا يذكرهم التاريخ اطلاقاً رغم أنهم صانعو التاريخ .
وبما لا شك فيه أيضاً أن هناك أبطالاً عديدين أدوا الأمانة فى حرص
واخلاص ولكنهم مجهولون للآن وقد يظنون مجهولين إلى اليوم الأخير .
وسواء أكان البطل معروفاً أم مغموراً مجهولاً فإن الجميع معروفون لدى
عارف الخفايا الذى لا ينسى كأس ماء بارد . فمثلاً نقرأ فى مخطوطات هذا
العصر اسم الأب القمص الورع أنبا روفائيل النعناعى ولكننا لا نعرف عنه
إلا أنه كان الأب الروحى والمرشد الأمين لقديس برز إذ ذاك هو الشيخ
المتشع بالروحيات مرقس الأنطونى . كما نقرأ اسم الراهب يعقوب القليوبى
الذى من دير شهران والذى ذهب إلى دير الأنبا أنطونى طلباً لبركة البابا
متاوس ولا نعرف عنه إلا أنه كان رئيساً للدير الذى رفع اسمه الأنبا برسوم
البريان . فما أعجب كنيسة الشهداء ! إنها كنيسة الكتائب العديدة من
الجنود المجهولين الذين تعفوا عن مجد هذا العالم سعياً وراء الأمجاد غير
المرئية .

٣١٨ - ولقد نشأ مرقس فى بلدة منشأة النصارى بالصعيد . ولما بلغ
الخامسة من عمره كان سائراً ذات يوم مع أمه فقابلهما الأنبا ساويرس أسقف
أسيوط . فحمله على ذراعه وسأله عن اسمه . وأجابه الولد « مرقس »

فتهلل وجه الأسقف وقال له : « حقاً يا ولدى أنك ستشابه مرقس صاحب كورة مصر » ثم باركه وأرجعه إلى أمه موصياً إياها برعايته . ولقد فرح قلب أمه فرحاً عظيماً ونفذت وصية الأسقف بهمة بالغة وبخاصة لأنها تاملت بعد فترة وجيزة فوجدت نفسها الحارس الوحيد لهذا الولد الذي امتلأت نفسها يقيناً بأنه سيكون من المباركين.

٣١٩ - ولقد اعتاد أبوامرقس أن يطوياً اليوم حتى الساعة التاسعة (١) باستمرار سواء في أيام الصوم المقررة من الكنيسة أو في أيام الأفطار . فشب مرقس على عادة الصوم الانتقاعى يومياً منذ الخامسة من عمره . وكان يرقب والدته باهتمام بالغ بعد أن تيثم من أبيه وبخاصة لأنه كان وحيداً . فكان متى رآها واقفة تصلى يشد وسطه بزئار ويقف إلى جانبها يرفع ضراسته مع ضراعتها ، ويظل واقفاً إلى أن تنتهى هي من صلواتها .

٣٢٠ - وما أنه كان من أبوين فقيرين ... فقد اضطر إلى العمل منذ طفولته . فكان يخرج مع الفلاحين يزرع وقت الزرع ويحصد وقت الحصاد ... وكان بالطبع يخرج مع الصبح ولا يعود إلا عند الغروب . فكانت أمه تعطيه غذاءه . ولكنه كان يوزعه على من يجده أكثر احتياجاً منه ويظل طاوياً إلى أن يعود مساء لأمه .

٣٢١ - ورغم صغر سنه فقد ملأ الحنان قلبه فلم يدفعه إلى توزيع طعامه أو التصديق بشئ من أجره الذي يكسبه بعرق جبينه فقط بل امتد إلى أبعد من ذلك . فقد لاحظ أن امرأة فقيرة تأتي وتسرق نصيبه مما يلتقطه . فصار يجمع لها كل ما يجده ملقى في الغيط ويكومه على ما التقطه بدلاً من توبيخها . وحينما رأت عطفه عليها بالعطاء وبإخفاء تعديها تيقظ ضميرها وتابت عن شرها .

٣٢٢ - وحدث أن كان عليه توصيل بعض الحنطة من جهة إلى أخرى على ظهر حمارة . وبينما هو متجده بالحنطة مر على كنيسة وسمع منها الحان الصلوات . فعز عليه أن يسير في طريقه من غير أن يحضر الصلاة وينال بركتها الروحية . ولصدق إيمانه رسم علامة الصليب على الحمارة وربطها خارج الكنيسة ثم دخل وحضر القداس وتناول من الأسرار الإلهية وخرج فوجد الحمارة مكانها والحنطة على ظهرها دون أن يمسه أحد .

(١) هذه الساعة تبعاً للتوقيت الكنسى الخاص بالصلوات - وهي تقع في حوالى الثالثة بعد الظهر .

ولأن وعيه الروحي كان مرهفاً فإنه كان يقضى ليالى الأعياد طاوياً
مصلياً استعداداً لصلوات العيد فى اليوم التالى . وحدث فى ليلة من
ليالى عيد الأنبا شنودة رئيس المتوحدين أن صارعه عدو الخير بحلم
مخيف . فقام لساعته وضرب ثلاثمائة مطانوه ^(١) وبذلك انتصر فى صراعه
وظفر ببركة الأسرار الإلهية .

٣٢٣ - ولا عجب فى أن يكون مرقس على هذه الدرجة من الحساسية
الروحية لأن أمه كانت نموذجاً مثالياً له . فهى كانت دائمة المراقبة على
حضور الصلوات الكنسية وعلى الصوم الانتقاعى يومياً حتى التاسعة .
وبعد هذا الصوم لا تطبخ غير الحبوب أو البقول . فلم تكن خميرة بركة
لابنها وحده بل إن جيرانها تعلموا بتقوتها فصاروا هم أيضاً يواظبون على
الذهاب للكنيسة وعلى الصوم الانتقاعى إلى التاسعة .

كذلك لاحظ مرقس أن أمه رغم فقرها لم تكن لترد سائلاً عن بابها .
فإن طرق بابها طالب احسان ولم يكن لديها نقود تعطيه ما تجمع لذيها من
بعض الفراخ أو قليلاً من التمع . لذلك كان منزلها المتواضع مأوى للمساكين
والرهبان ومقصداً للمعوزين .

٣٢٤ - ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره اشتاق إلى حياة الرهبنة .
فاستأذن من أمه وقصد إلى أحد الأديرة القريبة من منطقته . ولكنه دهش
حين رأى الرهبان لا يصومون طياً بل ويتهاونون حتى فى الصلوات . ولما لم
يرقه هذا السلوك عاد إلى أمه . وما أن وقعت عينها عليه حتى قالت له
« لقد ظننت أنك مت عن هذا العالم . فما الذى أتى بك ؟ احذر يا بنى
لأن الذى يضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء أبداً لئلا يفشل فى أن
يكون صالحاً لللكوت السماء » ^(٢) . وحالاً سمع كلماتها تركها لساعته
وقصد إلى دير كوكب البرية الأنبا أنطونى . وشامت العناية الإلهية أن

(١) مطانوه أو مطانية كلمة يونانية أصبحت قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار أو
الاسترحام ولتأديتها حسب التعليمات الكنسية يقول المصلى « يارب ارحم » ويسجد إلى
الأرض ثم يقوم مع كل ترديد لكلمة « يا رب ارحم »

(٢) قارن بين موقف هذه الأم الأرملة مع وحيدها وبين موقف بعض الآباء
والأمهات الذين يمارضون فى رهينة أبنائهم وبناتهم وأحياناً يمارضون أبنائهم الراغبين
فى الكهنوت !

يكون القمص روفائيل النعناعى أبوه الروحى فى الدير ساعة وصوله . ففرح فرحاً عظيماً وتولى رعايته بضعة أيام . ثم أخذه إلى دير الأنبا بولا لقلة عدد رهبان ذلك الدير . لأن هذا الأب الروحى الحريص على نمو ابنه فى النعمة أراد له أن يعيش فى شبه عزلة كي لا تعوقه المخالطة عن جهاده الروحى وهو ما زال فى بدايته .

ولم يكتف مرقس بطاعة أبيه الروحى بالذهاب إلى دير الأنبا بولا فقط بل زاد على ذلك أنه حفر لنفسه قبراً بجانب بستان الدير ودرب نفسه على الاختلاء فيه . وأخذ أيضاً يدرب نفسه على الصوم يومين فثلاثة حتى استطاع أن يقضى أسبوعاً بأكمله طاوياً .

ولم يعقه الصوم عن العمل إذ كان يشتغل حملاً للحطب فى بركة الأنبا بولا . وكان إخوته الرهبان يعطونه الطعام اللازم له خلال ساعات العمل رغبة منهم فى أن يقتات منه كي لا يخور من طول الصوم . ولكنه كان يعطيه لجماله سراً ويستمر طاوياً المدة التى قررها لنفسه .

٣٢٥ - وقد عاش فى دير الأنبا بولا ست سنوات على هذا النحو فأنهك جسمه إلى حد أن الرهبان حملوه ذات يوم وذهبوا به إلى دير الأنبا أنطونى ورجوا من رهبانه أن يعتنوا به ويجعلوه يأكل ما يشدد به جسمه . ولكنه مع ذلك أصر على المداومة على الصوم الانقطاعى . وبعد الصوم الطويل لا يأكل غير نوع واحد من الطعام ولا يشبع تماماً . وحين يجلس إلى مائدة الطعام يضع الكتاب المقدس على حجره بينما الدموع تسيل على خديه فإذا سأله الأخوة عن سبب بكائه أجابهم بأنه يبكى عليهم لأنهم لم يفلحوا بعد فى تلجيم معدتهم . وأن الخير لهم فى أن يعملوا للطعام الباقى بدلاً من إشباع بطونهم بالطعام البائد .

٣٢٦ - كذلك تضاعف حنانه على الجميع سواء من الرهبان أو من يقصدون الدير للبركة . فكان يكلمهم بكلام الحياة ويعزى نفوسهم ويجبر بخواطهم فكان الجميع يجلسون حوله لتسرى إليهم نعمة الله الحالة فيه ولتستنير نفوسهم بالنور الروحى المشع من قلبه .

٣٢٧ - وحينما استبد الأمير يلبغا بالأنبا متاوس واقتحم دير الأنبا أنطونى ساق هذا الشيخ الروحانى ضمن من ساقهم أمامه . ولم يحترم

قداسته ولا شيخوخته بل ضربه ورمى به على الأرض ورفض طلبه حين رجا منه أن يعطيه من الماء . وعند ذاك رفع مرقس عينيه نحو السماء وقال للأمير في ثقة تامة : « ما دمت ترفض أن تعطينا ماء فإن الله تعالى سيروينا من يده » وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى نزل سيل جارف من المطر رغم أن الوقت كان صيفاً . ولكن الحنان الإلهي لم يلين قلب الانسان القاسي إذ أمعن يلبغا في قسوته ولم يكف عن أذية هؤلاء القديسين إلا حين وصلوا إلى أطنيج واضطر إلى إطلاقهم بناء على أمر من السلطان .

٣٢٨ - ولقد شاء الأب السماوي أن يمد في أيام هذا القديس فبلغ شيخوخة صالحة . وكان يجمع الرهبان ويوصيهم بالمحبة الأخوية والارشادات المحيية . وذات مرة حين رآهم يبكون لأنه كان يحدثهم عن قرب رحيله قال لهم « لا تبكوا يا أولادى لأننى رأيت الكوكبين الساطعين أنطونى وبولا يسجدان أمام العرش ويطلبان الى السيد المسيح أن يتركنى معكم قليلاً . فاستجاب لهم رب المجد وأعلمهما بأنه سيهينى سنتين أخريتين » وعاش السنتين اللتين تحدث عنهما ولكنه كان ضعيفاً إلى حد أنه قضاها ملازماً الفراش . ولكنه ظل صاحى العقل متيقظ القلب مشحوز الروح .

٣٢٩ - ولقد طارت روحه إلى العالم العلوى في الساعة السادسة من النهار المبارك على وقع رنين أجراس القداس . وانتقل في هدوء تام إذ قد أسند رأسه على كتف تلميذ له في سكينه ودعة .

وحكى أحد نساك الدير بأنه رأى ساعة انتقال القديس جمهوراً من الأجناد السماوية نزلوا إلى الدير وأحاطوا به إلى أن جاءت امرأة حاملة طفلاً يغطى جلالها نور الشمس فجلست إلى جانبه وتقبلت روحه حتى أصدعتها إلى السماء ، بينما الجنود الروحانيون يرمون ويسبحون .

كذلك عرف الأنبا رويس بالروح ساعة نياحة هذا القديس وخاطبه من مكانه بدير الخندق^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ... ص ٧٥ - ٨٥ .

ج - الأنبا رويس

- ٣٣٠ - قيمة الشخصية في حد ذاتها
٣٣١ - نشأة فريج
٣٣٢ - تاجج الاضطهاد .
٣٣٣ - ليس له أين يستد رأسه
٣٣٤ - تواضع فريج الجم
٣٣٥ - شفافيته الروحية .
٣٣٦ - تجمع التلاميذ حوله .
٣٣٧ - اطلاق لقب « ثيوفانيوس » عليه
٣٣٨ - مقدرته على الانتقال إلى أماكن بعيدة
٣٣٩ - بطش الأمير سودون به
٣٤٠ - تلقيه بايوب الجديد .
٣٤١ - تنبؤه بالافراج عن الاتياف متاوس
- ٣٤٢ - منيعه مع جندي عابر
٣٤٣ - حنانه على احد تلاميذه
٣٤٤ - استرجاعه شاباً جاحداً
٣٤٥ - صلواته خلاص لاييه
٣٤٦ - تنبؤه بحدوث مجاعة .
٣٤٧ - رفعه الصليب في جراحة رغم شيخوخته وضعفه .
٣٤٨ - رعايته للناس حتى النهاية .
٣٤٩ - تسليمه الروح في يد السيدة العذراء .
٣٥٠ - محبة عن ارض الاتياف رويس وكنيسته .

٣٣ - وفي وسط ظلام هذه الحقبة يسطع نور خاطف : نور لا نرى فيه فعل النعمة الإلهية فقط بل نرى أيضاً فاعلية هذه النعمة في شخص تنطبق عليه الآية القائلة : « كمجهولين ونحن معروفون ... كفقراء ونحن نغنى كثيرين . كان لا شيء لدينا ونحن نملك كل شيء » ^(١) . كذلك نرى بوضوح تقييم الكنيسة لقديسيها بغير اعتبار لمال أو جاه عالمي . فالأنبا رويس لقبته الكنيسة بكلمة « أنبا » التي لا تطلق إلا على الأساقفة كما نظمت ضمن القديسين الذين تذكر أسماءهم في المجمع أثناء القداس الإلهي ، ومع ذلك فقد كان رجلاً فقيراً من عامة الشعب : أبوه فلاح أجير . وهو شخصياً اضطر لأن يشتغل حتى في طفولته ليقوم بأود نفسه . ولم ينعم في يوم ما برتبة كنسية ولا حتى برتبة قارئ . ولكن الكنيسة وجدت فيه القداسة والسعي المتواصل نحو الكمال المسيحي والشفافية الروحية فوجدت فيه الانسان القدير باحترامها وتقديرها . وذلك درس رائع تقدمه لنا

(١) ٢ كو ٦ : ٩ - ١٠

كنيستنا ضمن الدروس العديدة عن قيمة الشخصية فى حد ذاتها - هذه القيمة التى ستكون وحدها سند الانسان حينما يقف أمام عرش الديان .

والأنبا رويس نفسه درس كله روعة : انه نموذج للكفاح الدائم والمحبة المستميتة فى الله والتواضع المتناهى والتفانى فى سبيل الآخرين . لم يزعجه الاضطهاد ولم يخفه الضرب ولم يزعجه بطش العتاة من الحكام . بل وقف صامداً أمام كل شدة ، ثابتاً فى وجه شتى الآلام . إنه نموذج حى للكنيسة التى نشأ فيها : كنيسة الصمود والثبات .

فلنتأمل حياته فى تواضع لتتسرب إلينا قوته . ولنتأمله فى اجلال ليسرى النور الوضاح الذى غمره إلى نفوسنا فتستضى بدورها وتسير فى طريق الجهاد الموضوع أمامها .

٣٣١ - ولد هذا القديس بقرية منية يمين من قرى العربية . وقد أسماه أبواه فريج . وتربى التربية الحشنة الشظفة التى هى نصيب أولاد الفلاحين فى بلادنا حتى الآن . واضطر فريج إلى الاشتغال منذ نعومة أظافره . فكان أحياناً يعمل مع أبيه فى الفيط وأخرى يبيع الملح على قعود (جمل صغير) يمتلكه . والطريف أن صداقة طبيعية صامتة بين فريج وبين قعوده . لأن هذا الحيوان الأعجم كان يطأطأ رأسه تلبية لنداء صاحبه الذى دعاه رويس لهذا السبب ، كما كان يغطيه إن رآه نائماً مكشوفاً . بل أن القعود كان كثيراً ما يداعب فريج بوضع رأسه بمحاذاة خد صاحبه كمن يقبله . كما أنه ذهب إلى أبعد من هذا لأنه حين كان يجده متأخراً فى النوم يداعب قدميه برأسه إلى أن ييقظه . ولقد أحب فريج قعوده لهذه المداعبات الجذابة وكان يتندر بنوادره ويناديه بقعودى رويس وفى النهاية اتخذ اسمه لنفسه .

٣٣٢ - وفجأة انتقدت نيران الاضطهاد وحى وطيسها إلى حد أن عدداً من القبط جحدوا الإيمان من بينهم والد فريج . أما فريج الذى كان قد بلغ العشرين من عمره فقد هرب من قريته وسافر إلى مصر . وبالطبع سافر على قدميه . فأنهكه التعب فنام فى الطريق . وفى أثناء نومه رأى رؤيا ساطعة : رأى رجلين يلعبان كالبرق بثياب بيض خاطفة قد حملاه إلى السماء وأدخلاه كنيسة بها جمهور من السماويين . ثم سمع صوتاً يقول له : « أنت جائع فتقدم وكل من خبز الحياة » . وقاده الرجلان المضيئان إلى

الهيكل فتناول من الأسرار المقدسة وانتعشت روحه . ثم عاد به صاحبا إلى الأرض ثانية .

٣٣٣ - بعدما استيقظ ترك القاهرة واتجه جنوباً . فطاف الصعيد إلى قوص . وظل ينتقل من بلد إلى آخر لأنه أمعن في انكاره لذاته حتى دعا نفسه باسم قعوده رويس . وكلما ذاعت فضائله في مكان تركه إلى غيره ، كما أنه لم يشأ أن يجعل روابط الدم والصدقة تعوقه عن التصاقه بالله . ولقد تمثل بسيدته في أنه لم يكن له أين يسند رأسه . ورغم تجوله المستمر فإنه حرص على أن يأكل من عمل يديه . فأحياناً يعمل مدرأوى (أى مغربل حنطة) وأخرى حمالاً وغير ذلك ، وكان لا يصرف من أجره على نفسه إلا بقدر ما يسد رمقه ويتصدق بالبعض منه ويرسل الباقي إلى أبيه كذلك كان يكتفى بما يستر عورته من اللباس محتملاً حر الصيف وقر الشتاء متخذاً لنفسه يوحنا المعمدان نموذجاً بل لقد بلغ احتقاره للمال أنه قال ذات يوم لأحد تلاميذه : « إياك أن تطأ برجلك هذا العقرب فيلدغك ويميتك » . والتفت التلميذ إلى الناحية التي يشير إليها القديس فوجد درهماً ذهبياً .

ولشدة تقشفه أخذ يدرّب نفسه على الصوم الانتقاعى فكان يصوم يومين ثم ثلاثة إلى أن تمكن من أن يعيش ستة وعشرين يوماً بغير طعام إطلاقاً كما شهد بذلك الأتبا متأؤس .

٣٣٤ - وبينما هو في الصعيد دخل ذات يوم يفتقد إحدى العائلات ففرحوا به فرحاً عظيماً لسماعهم عنه رغم أنهم لم يكونوا يعرفون اسمه - ولما سأله قال لهم اسمى **Τεχι ερληνοτ** (أوتيجى إفليو - أى تيجى الكاذب) . فتعجب الجميع لمعرفة القبطية رغم أنه لم يتعلم . ولقد ظل اسم تيجى هو الاسم المذكور به في تساييح الكنيسة وصلواتها حتى اليوم . وبارك القديس أفراد العائلة واحداً واحداً وأخذ يعلمهم ما هو نافع لبنيانهم . كما أنه أخبر كلا منهم عما في قلبه فامتلاوا دهشة وقدموا السبح لله الذى اعطى الناس مثل هذه العطايا .

٣٣٥ - كذلك كان يدوام على تناول من الأسرار المقدسة على الرغم من تخشعه منها . فكان يسعى للكمال استعداداً للتناول . ويوبخ من يتجاسر أن يتقدم بغير استعداد . وحين كان يقف أمام الكاهن ليأخذ منه

السر المقدس يتراجع قليلاً إلى الوراء . ولما سئل عن السبب قال بأن ما من أحد يستحق التناول من هذه الأسرار المقدسة إلا من كان جوفه طاهراً نقياً كأحشاء سيدتنا مريم التى استحققت أن تحمل المسيح فى أحشائها .

ولقد كشف الله عن بصيرته ومنحه شفافية روحية فكان يرى مجد الله حالاً داخل الهيكل ونوره ساطعاً فوق رؤوس المتناولين بينما يرى الجسد المقدس يقطر دماً . وكان واقفاً ذات يوم بالقرب من الكاهن الخديم أثناء شعائر العمداء فلما أخرج أهونا الطفل من جرن المعمودية هتف الأنبا رويس قائلاً « أكسينوس » لأنه رأى الشيرويم والسيراقيم قياماً فوق المعمودية .

٣٣٦ - وقد اكتسبت قداسته الكثير من الناس فتجمعوا حوله وتعلموا له البعض منهم . ولكن لما كان متقشفاً عارى الرأس مكشوف الجسد حافى القدمين فإن العامة كثيراً ما تعدت عليه . وحدث أن تهجم عليه بعض الأشرار ورجموه بالحجارة . وكان قد درب نفسه على الصمت التام فلم يلتفت بكلمة أمامهم رغم الآلام التى عاناها من الرجم . ولما تركه هؤلاء الأشرار ملقى تحت كومة من الحجارة جاء تلاميذه ورفعوه وأدخلوه إلى مخزن قريب ليعتنوا به . وفى داخل المخزن بهت التلاميذ إذ رأوا ناراً تشتعل فى ركن منه فطمأنهم القديس قائلاً : « لا تظنوا أنها نار بل أنه نور سيدنا يسوع المسيح الذى تعطف وظهر لى تحقيقاً لكلمة المزمور القائلة إنه « يعينه على سرير وجعه » .

٣٣٧ - ولم يكن ظهور السيد له المجد هذه المرة بالمرة الوحيدة بل أنه تراعى له فى عزلاته المختلفة خمس مرات بمجد لا ينطق به . كما خاطبه ذات مرة فماً لأذن .

ولأنه نال كرامة هذه الاستعلانات الإلهية فإن الكنيسة منحته لقب « Θεοφανισ » ثيوفانيوس أى رأى الاستعلانات الإلهية .

والى جانب هذه الكرامة العظمى كرامة رؤية رب المجد وسماع صوته فإنه كان يرى قديسى الرب أيضاً ويتحدث معهم .

٣٣٨ - كذلك منحه الله موهبة روحية عجيبة - هى المقدرة على الانتقال إلى البلاد البعيدة والعودة منها فى مدة وجيزة كما منحه استشفاف الأسرار المكتونة ودخول الأماكن وأبوابها مغلقة . ومن الحوادث التى تبين قدرته على الانتقال أن جاءت ذات يوم امرأة من أغنياء القبط

تستجد به قائلة : « يا رجل الله ارحمنى . فإن زوجى قد ذهب مع الأمير
منطاش إلى الشام وطال غيابه ولا أدري ما جرى له » . فقال لها بتواضع
عظيم : « من أين لى أن أعرف أخباره وهو فى الشام ؟ » ولكنه وقف
يصلى وسهت روحه ما يقرب من الساعة ثم عاد إلى نفسه وقال لها : « إن
زوجك كان فى شدة عزيمة ولكن الرب نجاه » .

ولما رجع زوجها سالماً سأله عما حدث له . فأجابها : « بينما أنا
عائد ثار على الجنود المنطاشية فى الصحراء إذ وجدونى وحيداً بينهم وأرادوا
الاستيلاء على ما فى عهدتى من مال للأمير . وإذا بشيخ عارى الجسم
حافى القدمين مكشوف الرأس ظهر لى على رأس جماعة هجموا على الجند
وبددوا شملهم ثم رافقونى إلى حدود الأمان . ودخلت أنا الى السلطان
برقوق وسلمته العهدة ورويت له ما حدث . وأراد أن يعرف من هو الشخص
الذى أنقذنى ولكنى لم استطع الاجابة لجهلى به إذ قد غادرنى بنفس
المباغته التى جازى بها فهتفت زوجته بفرح : « إنه القديس الطوباوى
رويس الذى شفى عيني من الرمد قبل سفرك إلى الشام » .

وذهب الرجل وزوجته إلى الأتبا رويس يشكرانه ولما قدما له شيئاً من
المال قال « لماذا تشكرانى ؟ أنا لم أعمل شيئاً » . ثم وجد الحديث إلى
الزوج قائلاً : « أما المال فخذ معك ، وأذهب إلى السلطان برقوق الذى
أعطاك هذه النقود من خزانته . وهو سيعينك فى خدمته مدة ست سنوات »
وامتلأت نفس الرجل دهشة وذهب إلى السلطان فأبلغه بما جرى . وقد
اشتاق السلطان إلى أن يرى رجل الله والتعرف به ^(١) . وقد خدم هذا
الرجل القبطى فى ديوان برقوق ست سنوات كما تنبأ له الأتبا رويس .

كذلك حدث أن ذهب القديس ذات يوم إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة
زويلة فوجد فى ساحتها انساناً غريباً مريضاً طريحاً على الأرض من أهالى
نقادة اسمه وهبة . وكان وهبة هذا شديد الايمان بالشهيدى الأتبا بيشاى
والأتبا بطرس الراقدين بجبل أسيوط . وفى ضعفه واشتداد وطأة المرض
عليه تمنى أن يستطيع الوصول إليهما ويستشفع بهما لينال الشفاء . وبعد
قليل رأى وهبة الأتبا رويس يرقد إلى جانبه ويعانقه ويقول له : « قم يا وهبة
لأحملك وأوصلك فى أسرع وقت ممكن إلى جبل أسيوط » . ورأى وهبة

(١) لم يخبرنا المخطوط أن كان السلطان قد تمكن من رؤيته أم لا

- كما فى رؤيا - القديس رويس ممسكاً به خارجاً إلى خارج الكنيسة وبغته وجد نفسه فى جبل أسىوط أمام مثنى الشهيدى داخل الكنيسة التى باسمهما . فتعجب كل العجب ومجد الله القدوس . وكان وصوله مع الأنبا رويس فى أثناء القداس . فتناول الاثنان من الأسرار المقدسة . ثم أعطاهما انسان قربانة وبعد ذلك أحس وهبة بأن الأنبا رويس قد حمله وعاد به إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وانتبه إلى نفسه فإذا بالقربانة فى يده . وأحس بالصحة والقوة فقام لساعته فرحاً وقص على كل من رآهم ما حدث له .

ولما كانت النفس طامعة فإن وهبة حين أراد أن يرجع إلى بلده ذهب يبحث عن الأنبا رويس لعله يوصله إليه . فلما قابله التفت إليه القديس وقال له : « يا وهبة ألم يكفك أنهم حملوك إلى جبل أسىوط فتأتى اليوم مطالباً بأن يحملوك إلى نقادة أيضاً ؟ » ^(١) فاكتمى وهبة بتقديم الشكر له وعاد إلى مدينته حيث أذاع ما فعله معه رجل الله .

٣٣٩- وحينما استبد الأمير سودون بالأنبا متاوس وشعبه استحضر الأنبا رويس وبدأ يسأله عن حياته وأعماله فلم يجبه بكلمة . فأمر بضربه أربعمئة عصا . فانهال عليه الجند ضرباً وجرحوه وأسالوا دماء . ولكنه ظل صامتاً . واحتدم سودون غيظاً وأمر بتشهيره . فالبسوه زياً مسخاً وأخلدوا يطوفون به الشوارع وهم يستهزئون به ويضربونه ويهصقون عليه ويركلونه ويشدون شعر رأسه ولحيته ورغم هذا كله بقى على صمته . وكان معه واحد من تلاميذه ناله أيضاً التعذيب والهزاء . ولما وجد العتاء أن القديس فى حال الموت رموا به هو وتلميذه فى السجن . ولكن رب المجد ظهر لهما وشفاهما . ومع ذلك فإن التلميذ أخذ يلوم معلمه الذى قال له : « ألم تتأمل المسيح واقفاً أمام بيلاطس فى صمت تام ؟ فكيف تلومنى على سكوتى ؟ » .

وكان فى السجن ثمانون قبطياً انقضت عليهم الشهور العديدة وهم تحت الضيق والعذاب . فلما رأوا القديس طرحوا وجوههم على مواضع جراحاته وطلبوا اليه بدموع أن يصلى من أجل لحجاتهم فرفع عينيه نحو السماء وابتهل سراً . ولم ينته اليوم حتى حضر الأنبا متاوس شخصياً ومعه الأمر بالافراج عنهم .

(١) لعل القديس يشير هنا إلى أن الملائكة هى التى حملت وهبة امعانا منه فى انكار ذاته .

٣٤ - وكما لقبته الكنيسة بكلمة ثيوفانيوس لفرط الرؤى الإلهية التي اختبرها كذلك لقبته بأيوب الجديد لصبره وطول أناته واحتماله .

٣٤١ - أما حين كان الأنبا متاوس نفسه مسجوناً بأمر الأمير يلبغا السالمى ومعه العدد الوفير من أبنائه فإن الأنبا رويس كان حابساً نفسه وقتذاك فى خلوة روحية . فذهب إليه أحد تلاميذ البابا يعاتبه قائلاً : « ماذا تفعل يا رجل الله والأب البطريك مسجون وفى ضيقة ؟ ألا تصلى من أجله ؟ » فلما سمع القديس هذه الكلمات قام لساعته ورفع عينيه نحو السماء ثم قال بصوت غير واضح « ستنا السيدة تخلصه » . ثم وقع على تلميذ البابا سبات فرأى صليبا من نور فى سحب السماء وقد خرجت منه حمامة بيضاء حسنة بسطت جناحيها فوق رأس الأنبا متاوس . وسمع صوت الأنبا رويس يقول : « يامتى ^(١) لا يخف قلبك لأن الحمامة الحسنة التى تحبها قد خرجت اليوم لتخلصك » وعند ذاك انتبه التلميذ من سباته وذهب إلى السجن فأخبر البابا بما رأى وما سمع . وبينما هو يقص الخبر إذ بأمر من خصوم يلبغا قد هجم على السجن وكسر أبوابه وأخرج منه الأنبا متاوس وجميع من معه . ففرحوا وتهللوا إذ أدركوا أن الحمامة الحسنة التى حلت الحديد لمتياس قديماً هى التى أرسلت هذا الأمير فكسر أبواب السجن وأفرج عن البابا ومن معه .

٣٤٢ - ومن طريف معاملة هذا القديس لبعض الناس أن جندياً كان قد اعتاد أن يأخذ معه بعض المال أثناء داوريته ليتصدق به على الفقراء . فمر ذات يوم على الأنبا رويس ولم يكن يعرفه . ولكن لأنه رآه عرياناً قدم له صدقه . فقبلها منه وقال : « أنتظر حتى أتصدق عليك نظير ما تصدقت به على بل وأكثر منه لأن المسكنة أيها الجندى التى من أجل الله أغنى من غنى هذا العالم » . ثم أخذ حفنة من التراب الذى تحته ووضعها فى منديل الجندى . وأبدى الجندى امتعاضة لهذه العطية . ولكن القديس قال له : « لا تنهاون فى هذا المنديل . لأنك بما أنك تصدقت على فهذا الله يعطيك أضعاف صدقتك لأنك بما أحببت الرحمة بالمساكين » .

(١) هنا أيضاً مثل رافع عن التواضع المسيحى والمحبة الصادقة لأن القديس ينادى البابا باسمه مجرداً من كل لقب . وبالطبع وصل نداءه إلى أذن البابا الذى لم يغضب عليه بل حتى لم يشر إلى هذا النداء المجرد بآية إشارة .

ولما وصل هذا الجندى إلى بيته وقص على أهله ما حدث فتحوا
المنديل ليروا ما فيه فإذا به يحمل عملة فضية جديدة فامتلاوا عجباً .
ومذاك قوى إيمان الجندى وازداد رحمة . ثم دفعته رغبته فى المزيد إلى
البحث عن أنبا رويس ثانية . وما أن اقترب منه حتى قال له رجل الله :
« ما أطمعك ! أتظننى فلاحاً عندك فأتيت لتطلب منى الخراج ^(١) اذهب
أعط فلاحيك المساكين كماداتك ولا تطلب منهم خراجاً كما تطلب منى
الآن . لأن من زرع شيئاً حصده . ومن أعطى أعطاه الله أضعافاً » فأطاعه
الجندى وداوم على العطاء والتوزيع .

٣٤٣- ولم تكن عنايته بطالبي معونته قاصرة على الشفاء والإغاثة من
الضيق فقط بل إنها شملت أيضاً اعانة من تمجح الشيطان فى أن يصروعهم
ومن أروع الأمثلة على هذا الحنان فى نجدة الساقطين المثالين التاليين .

كان له تلميذ بناحية منية السبرج اسمه ميخائيل انتابه مرض الصرع
حتى كاد أن يقضى عليه . وحينما اشتدت عليه وطأته استغاث بالأنبا
رويس فعبر عليه تلبية لاستغاثته (التى كانت نفسية فقط) . ولكن
ميخائيل لم يتبينه لشدة مرضه ولأنه كان محاطاً بزمرة من الخلائق سود
الوجوه معهم كلابات من نار يريدون أخذ روحه بها . وكلما طرحوا الكلابات
فى حلقه صرخ مستغيثاً بقديس الله . ثم حانت منه التفاته فرأى معلمه
يطرد أولئك السود من أمامه . ففرح قلبه وهتف : « يا رجل الله رد عنى
هؤلاء وارحمنى منهم » فسأله القديس : « هل تتوب يا ميخائيل ؟ »
أجابه : « يا رجل الله إنى أعلن توبتى إلى الله أمامك » فانتهر القديس
تلك الخلائق وأبعدها عنه فتراجعت فى الحال ، وعادت روح ميخائيل إليه
كما عاد إليه وعيه . وإذا به يرى الأنبا رويس كأنه فى داخل كنيسة فأراد
أن ينحنى ويقبل قدميه . ولكن القديس اختفى عنه . وحين رأت أم ميخائيل
ابنها ينحنى نحو الأرض وهى لا ترى أحداً غيره استفهمت منه عما يفعل
فأخبرها بما حدث فمجدت الله الذى يتعجب فى قديسيه .

٣٤٤ - أما المثل الثانى فيتلخص فى أنه كان هناك شاب قبطى غنى
جميل الوجه اسمه فخر الدولة بن المؤمن . أغواه عدو الخير بالجاء العالمى

(١) أو الضريبة المفروضة على الأرض .

والمناصب العالية إلى أن جعله يجحد إيمانه ويدخل في خدمة السلطان برقوق وكان يقضى أيامه في اللهو والملذات . ثم تزوج من امرأة لعوب . وبعد مدة أحس بأنه مقيد بها ولا يستطيع الأفلات . وفي قلقه واضطرابه ذهب إلى الأنبا رويس واعترف له بكل ما حدث قائلاً : « يا رجل الله ارحمنى لأن عدو الخير صرعتى ولم تعد لى القدرة على الفكاك منه » أجابه القديس : « لا تخف فمتذ الآن لن يصرك لأنى وأيتك تصارعه وتغلبه . لذلك سأعضدك وأصارع معك . ولن أكف عن مصارعتى حتى تهزمه . أما إن طلبك الملك فإنى سأرده عنك » وتقوى قلب الشاب بتلك الكلمات المعزية المعصدة فقرر أن يتوب وأن يترهب أيضاً . فقام لفوره تاركاً كل شئ وراءه وقصد إلى دير الأنبا أنطونى أبى الرهبان حيث أقام مدة طويلة في جهاد روحى عنيف . وكان كلما سأل عنه السلطان وعرف مكانه جعله الرب يسهو وينسى . وسمع الشاب التائب فإزداد جهاداً وامتلاً قلبه ثقة وتمزية . وحينما علم بموت السلطان ذهب إلى القاهرة وقدم الشكر لرجل الله . ثم انتقل إلى العالم الباقي وقد تنقت نفسه من شوائبها وتظهرت روحه .

٣٤٥ - وما يجب ذكره أن صلوات هذا القديس التى اكتسبت العدد العديد من المزمئين قد استعادت أباه إلى الإيمان وجعلت منه شهيداً .

٣٤٦ - ومن المواهب الروحية التى خدم بها الأنبا رويس جيله تنبؤه بحدوث مجاعة وغلاء فاحش . فحث الناس على الاستعداد لمقابلة هذه الضائقة قبل حدوثها كما فعل يوسف بن يعقوب مع فرعون ^(١) . وقد أطاعوه فعلاً واختزنوا ما يستطيعون من القمح والضروريات الحيوية . وكانت هذه خدمة كبيرة وبخاصة للفقراء إذ قد ارتفع ثمن أردب القمح من أربعين درهماً إلى أربعمائه درهماً وحين سأل الناس عن موعد انتهاء هذا الغلاء أجاب : « إنى أطلب من الله أن أموت قبل زواله لأن الشدة التى ستحدث بعده أصعب من شدته » ولقد حقق الله طلبه فنقله إلى فردوسه أثناء الغلاء .

٣٤٧ - ولقد قضى السنين التسع الأخيرة من حياته ملقى على الأرض ، لشدة ضعفه ومرضه . ولكنه عاشها فى رضى وصمت كعادته ،

(١) تك ٤١ : ٣٤ - ٣٦ .

إلا أنه على الرغم من مرضه وشيخوخته أراد بعض القضاء أن يمتحنوه فدخلوا عليه يسألونه عن إيمانه وعندها قام في قوة كأن لا مرض فيه وقال لهم في تأكيد : « ها الصليب مدقوق على راسي » ثم أخذ يرسم نفسه بعلامة الصليب من قمة رأسه إلى قدميه . فأصيب السائلون بقشعريرة هزتهم هزاً عنيفاً وخرجوا لساعتهم .

٣٤٨ - ومع ضعفه ومرضه فقد استمر الناس يذهبون إليه طالبين شفاعته ونصحه . وكل من جاء وجد عنده الفرح من ضيقته والشفاء من مرضه والعزاء لقلبه . وظل يكلمهم بكلمات النعمة ويوجههم نحو الحياة الروحية والتسامي عن الماديات . فوجد فيه الجميع الطبيب الشافي والأب المواسي .

ولما علم بقرب انتقاله من هذا العالم دعا تلاميذه وأوصاهم بالمحبة وباركهم واحداً واحداً . ثم طلب ماء وغسل جسده جزءاً جزءاً راسماً كل أعضائه بعلامة الصليب . وقال لتلاميذه : « ها أني قد غسلت جسدي حتى لا يكشفه أحد بعد انتقالى » .

٣٤٩ - وفي يوم الأحد ٢١ باه سنة ١١٢١ (١٨/١٠/١٤٠٤م) أسلم روحه الطاهرة . ولم يكن أحد إلى جانبه في تلك اللحظة . ولكن قبطياً مؤمناً كان يقطن على مقربة منه قال : « قد رأيت في تلك الساعة امرأة منيرة كالشمس جالسة إلى جانب هذا الأب وقد تسلمت روحه المباركة تحقيقاً لأمنيته » (١) .

٣٥ - ولقد قضى الأنبا رويس الجزء الأكبر من حياته في المنطقة التي تعرف بدير الخندق ولكن اسمها تحول إلى اسمه بعد نياحته ودفن فيها فأصبحت معروفة باسم أرض الأنبا رويس .

ويجدر الوقوف قليلاً للتأمل في تاريخ هذا الدير : فقد كان للقبط أيام أن بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة سنة ٩٦٩ م دير يعرف بدير العظام أو دير العظمة كان يضم أجساد بعض القديسين . وأراد باني القاهرة أن يدخل

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٨٦ - ١٠١ . ويقول في الصفحة الأولى منها إن ناسخ المخطوط المتضمن لسيرة الأنبا رويس وهو مسعود بن حنا ولد ميرهم الخوانكي صراف ناحية كوم اشفين وإن المهتم بها هو القمص برسوم خادم بيعة الشهيد مرقوريوس أبي السيفين بحارة البطرك بمصر القديمة .

هذا الدير ضمن تخطيط المدينة . وأدخله فعلاً وجعل منه المشهد الحسينى . ومقابل هذا أعطى القبط تعويضاً عنه بأن وهبهم الأرض التى صارت تعرف بدير الخندق . وبذلك تكون هذه الأرض ضمن ممتلكات القبط منذ ألف سنة (١) .

وبعد مرور ثلاثة قرون على هذه الهبة كتب أبو المكارم سعد الله بن جرجس مسعود يصف المنطقة فقال بأنها تحتوى على عشرة كنائس أكبرها كنيسة القديس جورجىوس . وظلت هذه الكنائس قرناً أو ما يزيد إلى أن هدمت ضمن ما هدم من الكنائس والأديرة التى تخربت سنة ١٣٤١م . أيام السلطان الناصر قلاوون .

ثم حدث فى أيام المنصور قلاوون أن بنى القبط فى هذا المكان كنيستين : إحداهما باسم الملك المبشر غبريال وثانيتها باسم أبى السيفين التى تغير اسمها إلى اسم الأنبا رويس بعد دفنه فيها . وقد جددت بناءها جمعية نهضة الكنائس برئاسة الأرشيدياكون أيوب فرج فى عهد الأنبا يوساب الثانى البابا الاسكندرى المئة والخامس عشر سنة ١٩٤٩ . أما كنيسة الملك فقد تخربت سنة ١٨٨٨ ثم شيدت بدلاً منها كنيسة باسم السيدة العذراء شرقى كنيسة الأنبا رويس تجددت عمارتها عدة مرات آخرها سنة ١٩٢٢ . ويتوالى الأيام أصبحت الأرض المحيطة بالكنيستين جبانة للقبط الذين يحبون دائماً أن يكونوا على مقربة من قديسيهم وشهداءهم فى الحياة وفى الممات . على أنه لما اتسعت القاهرة وأصبحت أرض الأنبا رويس داخلها وضمن حركتها قررت الحكومة المصرية منع الدفن فيها . ثم صدر الأمر برفع الأجساد المدفونة فيها وتحويلها إلى الجبل الأحمر الذى أعطته الحكومة للقبط لهذا الغرض . وعلى أثر ذلك قام نزاع جديد حول هذه الأرض . كانت الظروف قد تبدلت والقرون توالى ولكن النزاع القديم عاود الظهور - وهذا النزاع يدور حول ملكية الأرض : أهى حقاً ملك للقبط أم أنها ملك للحكومة لأنها كانت مرفقاً عاماً هو مرفق الجبانة ؟ وعندها تقدم حبيب حنين المصرى وكيل المجلس الملى العام نيابة عن البطركية القبطية بذاكرة إلى وزير الصحة فى ١٠/١٢/١٩٣٧ م قال فيها بأنه حدث مائتين وخمسين سنة أن تقدم بعض الناس بالشكوى إلى قاضى القضاة من أن القبط يملكون أرضاً مقدارها فدان . به الدير المعروف بدير الخندق إلى

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٤ ص ٤٣٠ .

جانب مقام الشيخ الدمرداش ، وأنهم تجاوزوا حدود ملكيتهم إلى أن أصبحت عشرة أفدنة . فعين قاضى القضاة لجنة لفحص الشكوى ، وقصد الرجال المستولون إلى الأرض وعابثوها واستفسروا عن حدودها وملكيتها ثم رفعوا تقريرهم إلى قاضى القضاة أثبتوا فيه أن القبط يملكون تسعة أفدنة وستة عشر قيراطاً وعشرة أسهم ، وأن هذه الأرض كلها مملوكة لهم من أيام جوهر الصقلى ، وقد أقر وزير الصحة هذه الأسانيد المقدمة من حبيب حنين المصرى ولكن الوزارة سقطت قبل البت في الموضوع .

وقد عاود حبيب حنين المصرى سعيه سنة ١٩٤٣ بأن وجه مذكرة إلى رئيس مجلس الوزراء . وفى هذه المرة جاء رد الحكومة بالاعتراف بملكية القبط لنصف الأرض ويتأجير النصف الثانى لهم بإيجار اسمى قدره جنيه مصرى في السنة لمدة تسعة وتسعين سنة على أن يبنى القبط عليها مبانيها للخدمة العامة لا للاستثمار - وعند ذاك تركها لهم نهائياً .

ونتيجة لهذه الموافقة أقيم على هذه الأرض مبنى أصبح منذ فبراير سنة ١٩٥٣ معهداً عالياً للدراسات القبطية يضم قاعة كبرى دعيت أولاً باسم القاعة اليوساوية ثم تغير اسمها إلى القاعة المرقسية . وقد استعمل هذا المعهد فى بادئ الأمر مقرأً للكلية الاكليريكية أيضاً . على أن البطريركية شيدت سنة ١٩٦٢ كلية اكليريكية وأقامت إلى جانبها أجنحة للطلبة الداخلية وللمكتبة وغيرها من ملحقات الإكليريكية .

وفى بدء سنة ١٩٦٨ بدأت الكنيسة القبطية تستعد للاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد مارمرقس كاروز ديارنا المصرية الحبيبة . فتقرر إقامة كتندرائية ضخمة على اسم الرسول الشهيد فوق أرض الأنبا رويس تقام تحت مذهبها مقصورة خاصة لوضع رفات مار مرقس الذى قبل بولس السادس بابا رومية بأن يعطيها هدية إلى الأنبا كيرلس السادس الخليفة المرقسى المئة والسادس عشر بعد أن تفرغت عن أرض الوطن ما يقرب من ألف سنة إذ كان التجار البندقيون قد سرقوها فى القرن التاسع^(١) . وفعلاً علت الكتندرائية متسامية نحو السماء وأقيمت فيها الحفلات التذكارية فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨ واليومىء التاليين . ووضعت الرفات الكريمة فى المقصورة المخصصة لها والتي أصبحت مزاراً مقدساً

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ٤٧٤ .

يحب إليه كل من يرغب في بركة « ناظر الإلهيات »^(١) ولضخامة
الكتدرائية المرقسية اقتضى الأمر هدم كنيسة السيدة العذراء الملاصقة
لكنيسة الأنبا رويس . وعلى ذلك لم يعد على هذه البقعة من الكنائس
القديمة غير الكنيسة الصغيرة التي تحمل اسم الرجل الذي عاش فقيراً مدى
حياته والذي كثيراً ما ارتضى أن يغمس لقمته في التراب وهو الأنبا
رويس . وإلى جانب هذه الكنيسة الضئيلة الحجم تقوم الكتدرائية
الضخمة ، وإلى شمالها الكلية الاكليريكية بمختلف مبانيها ، وعلى امتداد
هذه المباني يقوم المعهد العالي للدراسات القبطية . وإنما العجب كله في أن
الأرض بأكملها تعرف باسم الأنبا رويس . وهنا موضع للعجب فعلاً إذ هو
صورة باهرة لتقدير الله واکرامه . فهذه المباني العظمى لها صيت في أنحاء
العالم وبالتالي أصبح اسم الأنبا رويس يرن في مشارق الأرض ومغاربها .
حقاً لقد اختار الله فقراء هذا العالم ليحقر الأغنياء . لقد كان هذا القديس
فقيراً أمياً مضطهداً مهاناً مزدري به وهو على هذه الأرض أخفى اسمه خلف
اسم قعوده لتتأهى تواضعه . والآن يدوى اسمه في كل مكان مع أنه ترك
هذا العالم منذ أكثر من خمسة قرون ونصف . فما أعجب عمل الله وما
أمجده في قديسيه^(٢) .



(١) أحد ألقاب مارمرقس الرسول .

(٢) كتاب « القديس فريج الشهير بالأنبا رويس » أصدرته كنيسته .



الأنبا رويس

يفتح باب الكنيسة لتلميذه سليمان الذى كان ملازماً له فى حياته كما لازمه بعد انتقاله - فإن القديس كان يفتح له باب الكنيسة فى الفجر حين يقرع سليمان بابها مع أن الأنبا رويس كان إذ ذاك قد انتقل إلى الفردوس .

د - تتابع الركب

٣٥١ - المعروفون من شهداء هذه الحقبة . ٣٥٢ - ناسخ بارع .

٣٥١ - وبما أن الاضطهادات لم تهدأ قط خلال هذه الحقبة استشهد العدد الوفير من أبناء الكنيسة وبناتها كما فعل من سبقهم وكما سيفعل من يجرى بعدهم . لأن الكنيسة كانت تجيب دوماً على مقاومتها بتقديم الدليل المادى الملموس على قوة إيمانها : وهذا الدليل هو الاستشهاد . وضريبة الدم التى دفعتها كفلت لها الحياة اثباتاً لقول رب المجد بأنه إن لم تمت حبة الحنطة فلن تأتى بثمر .^(١) على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشهداء ليسوا معروفين إلا لدى الأب الذى يرى فى الخفاء . ولكن التاريخ احتفظ لنا بأسماء البعض منهم منهم بنياناً لنفوسنا وترسيخاً لعقيدتنا .

أما أسماء الشهداء التى وصلتنا عن هذه الحقبة فهى :

١ - ميخائيل أبو مقيطف باكورة الشهداء إذ كان أول من نال اكليل الشهادة .

٢ - بناته الثلاث اللواتى تقدمن إلى جلاديهن وهن يزغردن فى فرح وتهليل كأنهن ذاهبات إلى عرس .

٣ - رزق الله تلميذ ميخائيل .

٤ - إيليا الذى من دير درنكة .

٥ - القس سدراك وفضل الله ورفيتهما المختار داود البنا وهؤلاء الثلاثة نزلوا من جبل القديس الأنبا أنطونى ليكونوا على استعداد لأن ينالوا اكليل الشهادة اقتداءً بأبى الرهبان الذى نزل إلى الاسكندرية فى اضطهاد مكسيميانوس وهو يقول : فلاذهبن إلى حيث نيران العذاب . فإن سمحت النعمة الإلهية باستشهادى تجدننى مستعداً ، وإن لم تسمح بذلك

(١) يو ١٢ : ٢٤ .

أكون على أقل تقدير واقفاً إلى جانب المضطهدين من أبناء القديس
مرقس الانجيلي الشهيد ^(١) .

٦ - الرهبان الثلاثة بركة وجرجس والذين كانوا مترهبين بدير
الأنبا أنطوني أيضاً فنهجوا منهج الثلاثة السابقين وتركوا الدير وذهبوا إلى
حيث يمكنهم أن ينالوا الاستشهاد .

٧ - أرسانيوس الحبشي الذي ذكر اسمه في نسخة أخرى بأنه
أرشيليدس الحبشي وكان مترهباً بجبل قسقام .

٨ - القس قزمان الحراز الذي كان من القلندول .

٩ - القس ابرو الفرج من غرب قمولة .

١٠ - القس روفائيل من البحيرة .

١١ - القس يوحنا من أهالي طوخ .

١٢ - القس هبة الكاتب الذي سفكوا دمه بالاسكندرية .

١٣ - الراهب موسى الذي من الجيوش وبصحبته ستة جنود - وقد
سفكت دماء السبعة في الطريق النازل من اورشليم إلى غزة .

١٤ - البكر الطاهر جديد من أهالي الجيزة - وقد حكموا عليه أن
يتبع جده فأجابهم : « عجلوا بقتلي يا هؤلاء فليس لي أب ولا أم ولا جد
سوى المسيح » .

١٥ - الشابان المجاهدان بمصر نصر الله وأبراسحق .

١٦ - يعقوب ويوحنا من سنباط .

١٧ - بولس من منية بني خصيب .

١٨ - فريج الطناني .

١٩ - يعقوب القس الذي اضطره الأمير يلبغا السالمى إلى أنكار

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ١٠٠ .

المسيح فهرب عند المساء وذهب ساعة أن بدا الصبح وأعلن اعترافه بالمسيح
فقال إكليل الشهادة .

٢٠ - منصور بن بطرس ورفيقه داود الأمنوث اللذين سعى بهما
ابراهيم السرياني وجرهما من بركة شيهيت إلى مصر رغبة منه في أن
يدفعهما إلى جحد الإيمان . ولكنهما صبرا وجاهدا وصرعا الشيطان بأن نالا
إكليل الشهادة . وقد تفذت بهنالكهما إلى قلب ابراهيم فدفعته إلى التوبة
وإلى أن يسير بدوره في طريق الاستشهاد فيكفر عن خطيته بدمه .

٢١ - الشاب المجاهد ماماديوس المدعو ميخائيل - ويتضح من اسمه
ومن مسلكه أنه كان مسلماً ثم آمن بالمسيح ونال صبغة المعمودية . وكلما
عاقبه المحكام ثم سأله عن اسمه أجاب : « أما اسمي الأول الذي أطلقه
على أبواي فهو ماماديوس وأما اسمي الذي أموت عليه وأحيا به فهو
ميخائيل » . وظل ثابتاً لا يعطى غير هذا الجواب إلى أن قطعوا رأسه بحد
السيف .

٢٢ - أبو الفرج البنا الذي كان من نواحي القدس .

٢٣ - غبريال من بلدة هو .

٢٤ - ابراهيم من أهالي شبرا .

٢٥ - يعقوب الذي من المناوات .

٢٦ - جرجس الذي اشتهر « بآمن الراهبة » والذي اقترف الكثير من
الآثام . ولكنه عاد إلى نفسه كالابن الضال وتاب وقدم دمه ثمناً لتوبته
فصار خاتمة لشهداء هذه الحقبة .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن صلوات الأنبا رويس تابعت أباه فأعادته إلى
الإيمان بعد الجحود وجعلت منه شهيداً^(١) .

وإذا ما تأملنا هؤلاء الشهداء عرفنا أن هناك كثيرين غيرهم ممن نالوا
نعمة إكليل الشهادة . لأن كلاً منهم من بلد مختلف مما يدل على أن

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ... ص ٦٢ - ٦٤ .

الاضطهاد عم البلاد كلها من الشمال إلى الجنوب . وبذلك ارتوت أرض النيل من أقصاها إلى أقصاها بهذه الدماء الزكية فازدادت خصباً ورواء .

٣٥٢ - ولقد استلزم تتابع الركب الاستمرار في شتى الميادين : فكما سار الشهداء في طريق سلفاتهم هكذا سار المجاهدون في مختلف الأعمال ، ومن أبرز سبل الجهاد في بلادنا بالذات سبيل الكتابة . ولقد شهد الذين هم من خارج بدقة الكاتب المصرى وجمال خطه ونساخته كما شهدوا بتقدير الكنيسة لهذا العمل الفنى الثقافى ^(١) . والنساخ أيضاً بينهم الجنود المجهولين إذ لا يمكن أن يخلو ميدان كنسى من جنوده المجهولين ! فنحن نقرأ أنه كان بالجبل الشرقى الذى هو برية الأنبا أنطونى مئة ناسخ قضا حياتهم داخل الدير فى النساخة وتزيين ما يكتبون . وكان على كل عشرة منهم أن يختصوا بتنوع معين من الكتب : فمثلاً على عشرة أن يكتبوا كتب البسخة بينما يكتب عشرة آخرون الأبصلموديات وهكذا . وكانوا جميعاً يجيدون اللغة القبطية كما تدل على ذلك كتابتهم لها لأن ما تبقى منها صحيح واضح متقن : فكل صفحة تحتوى على العدد الواحد من السطور ، والسطور متساوية تماماً ، ويأخذ كل حرف حيزاً محدداً من السطر لا يتعداه طولاً ولا عرضاً . ومع هذه الدقة وهذا الاتقان فنحن لا نعرف غير اسم الرئيس لهؤلاء الكتبة المكافحين . فقد عثر الباحثون على صحائف بسخة قديمة بخط المعلم جرجس الناسخ مؤرخة سنة ١١٠١ ش (١٣٨٥ م) جاء بها انها منقولة عن نسخة أقدم منها بكثير كتبها الراهب بطرس الدرنگى الذى نشأ فى درنكة بأسىوط ثم ترهب بدير أبى الرهبان .

ولمجد فيما يتبقى من الكتب المخطوطة أن نساخ القبط كانوا يبدأون أول الكتاب (أو أول الفصل) بما يسمونه « الدكة » وهو رسم يتوسطه صليب تحيط به الزخارف النباتية أو الهندسية ، وأحياناً يستبدلون هذه الدكة بصورة لقديس أو شهيد . أما هوامش الصفحات فكانت عريضة لكن يزخرفوها برموز وأشكال مستقاة من الطبيعة النباتية أو الحيوانية بل

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ٢ الفصل بعنوان « كاتب مبدع » .

أن الحروف كانوا يستعملونها أحياناً اطاراً للزخرفة - فمثلاً يرسمون داخل حرف وجه إنسان ويرسمون حرفاً آخر على شكل نسر .

ولقد قيل عن الراهب بطرس الدرنگى بأنه كان يصنع بنفسه الحبر والألوان التى يحتاج إليها فى عمله ^(١) . فكان ينتج الحبر الأسود والأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والفضى والذهبى ^(٢) .

هذه شهادة التاريخ فى لمحة عن جهود القبط خلال هذه الحقبة . ومع كونها مجرد وريقات متناثرة إلا أن فيها الدليل على صدق عزيمتهم وتفانيهم وثباتهم على العقيدة العظمى التى تسلموها جيلاً عن جيل .



(١) لا يزال النساخون من الرهبان يعملون حبرهم وألوانهم بأنفسهم لتظل ثابتة على مر الأيام .

(٢) مرشد المتحف القبطى وكنائس مصر القديمة والحصن الرومانى لوديغ شنودة ص ٦٦ - ٦٧ .

منحنيات الطريق

الأنبا غبريال الخامس

- ٣٥٢ - انتخاب البابا الاسكندري .
٣٥٦ - تهديد البابا المرقسى بالقتل .
٣٥٤ - خلو الخزانة البابوية .
٣٥٧ - سهر الأنبا غبريال الخامس على شعبه .
٣٥٥ - رسالة بطريرك لانطاكية .

٣٥٣ - طغى الأسى على القلوب عندما أحست بالفراغ الهائل الذى أحدثه انتقال البابا متاوس . إلا أن الاحساس برعايته حتى بعد انتقاله انساب إلى داخل القلوب الحسيرة فملأها عزاء روحياً . وبنعمة هذا العزاء المنبعث من المحبة الدافقة المتسابة من قلب البابا المتنيح اجتمع الأساقفة والأراخنة معاً بعد انقضاء ثلاثة شهور وعشرين يوماً للتشاور معاً فيمن يصلح انتخابه لرعايتهم وفيما هم يتشاورون ذكر بعضهم أن الأنبا متاوس قد تنها بأن خليفته سيكون غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلمونى ^(١) . فكان هذا التذكر حافزاً لهم لأن يستقدموا هذا الراهب من ديريه ليكون باباهم وتمت المراسيم الدينية المقدمة فى سنة ١٤٠٢ م . ش . فى سلطنة فرج بن برقوق وبها أصبح الأنبا غبريال الخامس البابا الاسكندري الثامن والثمانين .

وقد بدأ هذا الراهب حياته العملية كموظف فى الحكومة ^(٢) . ثم ترك الوظيفة لأن حياة الرهبنة استهوتته ولهذا السبب لقبوه بمستوفى الجيزة نسبة إلى عمله الحكومى وهو جمع الضريبة من أهالى تلك المنطقة . إلا أن حياته الرهبانية جعلت إخوته الرهبان يلقبونه بغبريال الأمجد .

٣٥٤ - وبما أن الأنبا غبريال قد وصل إلى الكرامة البابوية بعد أن كان الأمير جمال الدين قد اهتز أموال الكنيسة فقد وجد الخزانة خاوية خالية . وكان خلوها لم يكن كافياً إذ قد زاد عليه أن الأحباش قطعوا عاداتهم

(١) راجع ج ١ من قصة الكنيسة القبطية الفصل المعنون « معترف جري » .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى التمس ص ٦٠٠ .

الستوية فى ارسال المال الذى كانت العادة قد جرت فى ارساله . على أن الأنبا غبريال كان قد عاش أيام رهبنته فى تقشف وزهد تامين وعرف أن يدرب نفسه على القناعة والرضى بما يجده من طعام ومن ملبس فكان هذا التدريب خير سند له أيام بابويته إذ اضطر إلى أن يعيش على عطايا أولاده وتقدماتهم . وحين كان يرغب فى افتقاد شعبه كان ينتقل على قدميه لضيق ذات يده . ومع ذلك لم يمل من افتقاده وصبر على الفقر فى رضى ورضا .

٣٥٥ - وحدث أن جاء إلى مصر فى أيامه كاهن أنطاكي اسمه باسيليوس بهنام مع عدد من أصدقائه ورجوا من البابا الاسكندري أن يرسم باسيليوس بطريركاً على المدينة المحبة للمسيح أنطاكية . ورحب الأنبا غبريال الخامس بهم وسارع إلى عقد مجمع من أساقفته وتشاور معهم فى هذا الموضوع الحيوى . وانتهى المجمع إلى تكليف بعض الآباء لتأدية شعائر الرسامة المقدسة وهم : أنبا ميخائيل أسقف سمند ، أنبا غبريال أسقف أسبوط الشهير بابن كاتب القوصية ، وكان رئيساً لدير الأنبا مكارى الكبير قبل رسامته أسقفاً ، وأنبا كيرلس الأسقف السريانى للقدس المعروف بابن نيشان ، والقس الأسعد أبو الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر القديمة . وفرح الآباء بهذا التكليف وقاموا بصلوات الشعائر الخاصة برسامة الأساقفة فى كنيسة أبى السيفين وبها أصبح باسيليوس بهنام بطريركاً لأنطاكية باسم أغناطيوس بهنام الأول . وخلال هذه الشعائر قرأ القس أرميا جميع أوامير البطريركية ^(١) . وبعد هذه الرسامة الكريمة سافر البطريرك الأنطاكي إلى اورشليم ومنها إلى مقر كرسيه . ومن عجب الله فى قديسه أن البابا الاسكندري العائش على محبة أولاده قد استطاع أن يزود شريكه فى الخدمة الرسولية بكل ما يحتاج إليه فى السفر حتى الدابة التى كان محتاجاً إلى ركوبها وقد قام بتوديعه وفد من الكهنة والأراخنة فرافقوه حتى المطرية .

٣٥٦ - ثم وصلت الأنباء إلى سلطان مصر بأن التجار المسلمين يلاقون

(١) لم يذكر لنا كاتب هذه السيرة شيئاً عن القس أرميا غير هذه الجملة .

الشيء الكثير من سوء المعاملة والتضييق في الحبشة . فلم يحقق في صحة هذه الأنباء ولم يحصها بل استدعى لفره الأنبا غبريال الخامس وهدده بالقتل إن لم يمنع الأحباش من اضطهاد هؤلاء التجار ^(١) . ولقد وعد البابا الاسكندري بالكتابة لملك الحبشة وتوصيته بالكف عن أذاهم . ولقد تداركت مراحم الله هذا البابا الصبور إذ قد قبل السلطان كلامه وتركه وشأنه بمجرد أن وعد بالوساطة .

٣٥٧ - وعلى الرغم من الضيق المادي ومن اضطهاد الحكومة له فإن الأنبا غبريال الخامس ظل ينتقل بين شعبه لمواساته ولتشبيته على الإيمان . كذلك وضع كتاباً في الطقوس الكنسية تذكيراً لأولاده بأهمية هذه الطقوس وبكل ما فيها من روعة . وقد قضى في رئاسة الكهنوت سبع عشرة سنة وثمانية شهور واثنى عشر يوماً تنجح بعدها بسلام ودفن بما يليق به من إكرام في كنيسة السيدة العذراء ببابلون الدرج (في آخر مصر القديمة) ^(٢) .



(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٦٠١ .
(٢) سلسلة تاريخ ... جمعة الشماس كامل صالح نخلة - الحلقة الرابعة ص ٦-٩ .

شهادة الذين هم من خارج

- ٣٥٨ - كاتب د التير المسبوك.....
- ٣٥٩ - رسالة البابا الاسكندري .
- ٣٦٠ - كاتب قبطي للامير برسباي .
- ٣٦١ - غضب الطبيعة .
- ٣٦٢ - زيارة بطريرك انطاكية لمصر .
- ٣٦٣ - تقديس الميرون .
- ٣٦٤ - تضييق جديد .
- ٣٦٥ - مناورات رومانية .
- ٣٦٦ - احكام صارمة .
- ٣٦٧ - خطاب من ملك الحبشة .
- ٣٦٨ - رد فعل حبشى .
- ٣٦٩ - ضرب البابا المرقسى .
- ٣٧٠ - تقاتل عشرين مملوكا .
- ٣٧١ - مراسيم صلاة .
- ٣٧٢ - فيضان شحيح .
- ٣٧٣ - جحود لالال .
- ٣٧٤ - اسقف واع .
- ٣٧٥ - نياحة الاتبا يؤتى الحادى عشر .

٣٥٨ - من العجيب أن الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذى عاش فى القرن العاشر ينسب له تاريخ البطاركة الذين عاشوا فى القرون المتأخرة بل إن آخر جزء من هذا التاريخ المتضمن سير البطاركة حتى أوائل القرن العشرين منسوب له ! والواقع أن الأسقف الأشمونى لا يختلف عمن جاؤا بعده فى الزمن فقط بل إنه يختلف عنهم بصورة قاطعة فى أسلوبه . فهو لم يكتف بسرد سير البطاركة وإنما تكلم بالتفصيل عن الحوادث الكنسية والقومية أيضاً فأعطانا صورة شاملة للعصور التى أرخ لها . أما المؤرخون الذين جاؤوا بعده فإنهم لم يكتفوا بالانضاء عن ذكر الحوادث القومية فقط بل أن هناك عدداً من الباهارات لا نجد لهم تاريخاً غير سطرين أو ثلاثة إذ يكتفى كاتب السيرة أن يخبرنا بأن هذا البابا أو ذاك قد ترهب فى الدير الفلاتى ورسم فى تاريخ كذا وتنتج بعد ذلك بكلام من الزمن . فنجد تاريخهم أشبه بالسجل المجرد الذى لا يشفى غليلاً^(١) . على أن الله الذى لا يدع نفسه بلا شاهد قد ألهم بعض المؤرخين المسلمين بالكتابة

(١) من يدري ؟ ربما كتب هؤلاء المؤرخون بالتفصيل كما فعل الأنبا ساويرس ولكن الهش المتلاحق امتد الى انتاجهم فلتأش كما حدث حين خرب دير الأنبا أنطونى والأنبا بولا .

عن هؤلاء الآباء وعما جرى في أيامهم . فنجد أن الشيخ السخاوي قد سجل في كتابه « التبر المسبوك في ذيل السلوك » أخباراً لها أهمية كبرى لحوادث جرت في بابهية الأتبا يؤنس الحادى عشر . وقد أطلق عليه اسم مؤنس بطريرك اليعاقبة كما أشار إليه في بعض الأحيان باسمه الأول وهو فرج اليعقوبى مضيفاً إليه صفة التمييز الكبرى وهى « النصرانى » .

٣٥٩ - ولقد ظلت السدة الباهوية شاغرة مدة أربعة أشهر وثمانية أيام اجتمع بعدها المجمع المقدس ودعا إليه الأراخنة للتداول معاً . ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الجميع فى هدوء وصفاء إذ قد وقع اختيارهم على القس الأسعد أبى الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) (١) أحد الذين اشتركوا فى الشعائر المقدسة الخاصة برسامة البطريرك الأنطاكى ، ولقد تمت رسامة هذا الكاهن المكرم فى ١١ مايو سنة ١٤٢٠ م ش باسم يؤنس الحادى عشر أيام أن كانت مقاليد الحكم فى يدى الملك الأشرف برسباى .

٣٦٠ - وحينما كان برسباى أميراً كان فى ديوانه كاتب قبطى اسمه تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله توما . فلما تولى السلطنة استمرت ثقته فى كاتبه القبطى فقربه إليه وأخذ يرقيه إلى أن جعله ناظراً للاستقبل السلطانى (٢) .

٣٦١ - إلا أنه من المؤلم - حين كان السلطان مسالماً واثقاً بكاتب قبطى نافذ الكلمة - أن تعصف الطبيعة بالمصريين فى أشكال ثلاثة أصابت بلادنا وقتذاك وهى : زلزال ففيضان ناقص أعقبه هبوط سريع فى مستوى مياه النهر الخالد وغلاء فاحش فى سعر الحاجيات ثم تفشى الوباء الذى كان يحصد المئات من الناس يومياً . وأنه لمن العجب العجائب أن يحدث هذه البلايا الطبيعية فى وقت حقق فيه الملك برسباى الهدوء والعدالة للشعب المصرى

(١) أشتغل هذا الكاهن بالتدريس أولاً فى مدرسة بالمكس - راجع تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٦٠١ .

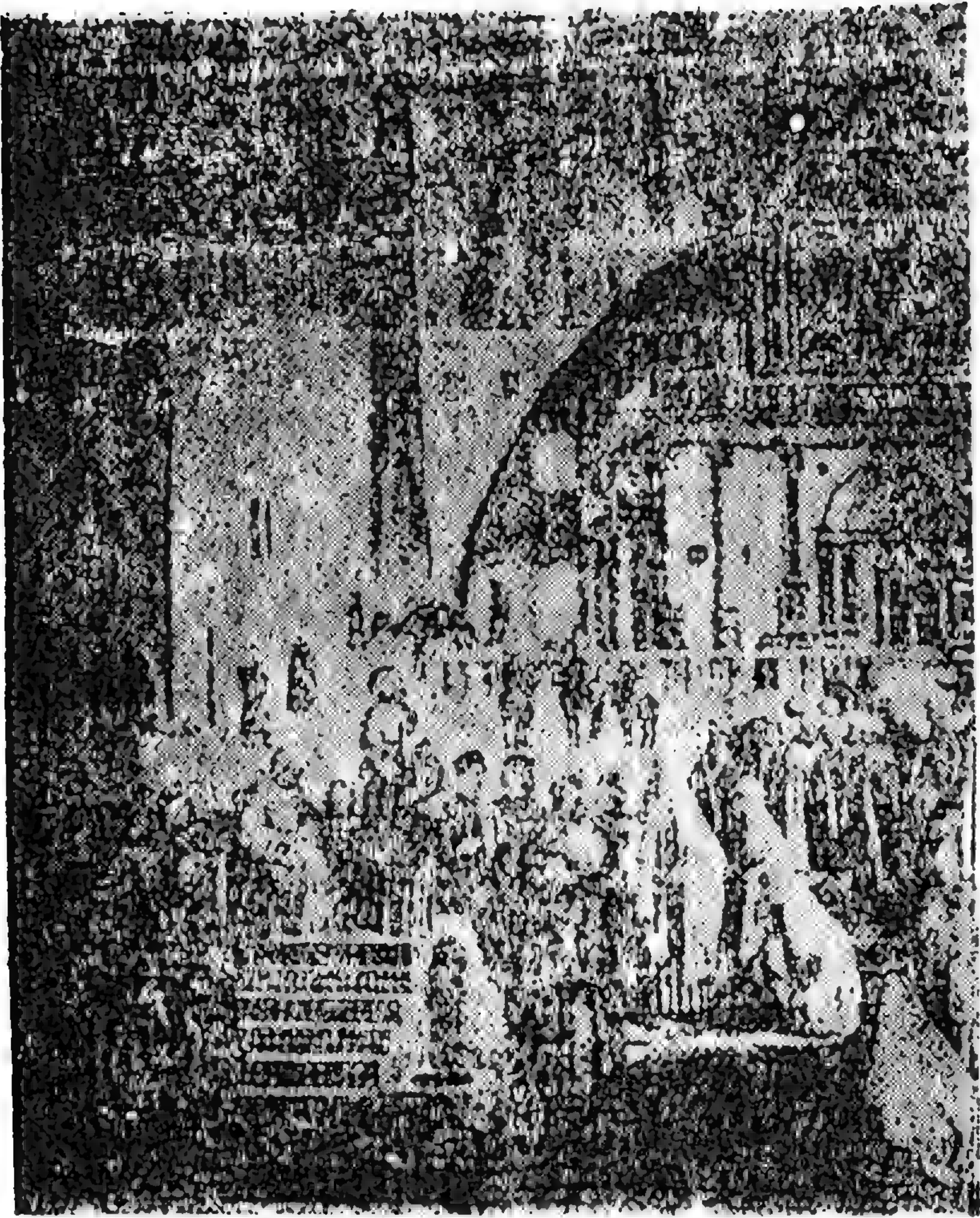
(٢) البيروقراطية القبطية فى عهد المليك (بالانجليزية) لريتشاردز ص ٣ نقلاً عن « المنهل » مخطوط ورقة ٣٦٤ ب .

قاطبة . فكان الضيق من مستلزمات الحياة لهذا الشعب فى تلك الحقبة من تاريخهم . إذ أنه حتى حين حكم ملك عادل قامت الطبيعة بتنفيذ الحياة عليهم ، وكأن البلايا الطبيعية لم تكن كافية إذ قد اختل نظام الأمور عند موت برسباى . فتعاقب بعده أربعة من الممالك على الحكم خلال بابوية الأنبا يونس الحادى عشر . وفى أثناء حكم جقمق الملقب بالملك الظاهر ثار عدد من أصاغر الأمراء بالجيزة وأقاموا لهم سلطاناً ووزراء . ولكن الملك الظاهر لم يلبث أن قمعهم وباعهم خارج مصر . وفى أعقاب هذه الاضرابات جاء الفيضان ناقصاً مرة أخرى ، فقلت الأسعار غلواً فاحشاً استمر ستين متتاليتين ذاق فيها الشعب مذلته الجوع . وضاعف المذل تفضى الطاعون الذى أدى الى الهبوط بتعداد الشعب هبوطاً عنيفاً . إلا أن المراحم الإلهية بدت واضحة فى أن هذا الطاعون المزعج أخذ يتلاشى أثناء الخمسين المقدسة . وهى أيام الفرج التالية لعيد القيامة المجيدة والتى كان القبط إذ ذاك يحيون بعضهم البعض طوالها بتلك الكلمات المليئة بالبهجة وهى : « خريستوس أنستى : أليثوس أنستى » أى « المسيح قد قام ... بالحقيقة قد قام » .

٣٦٢ - ولقد رأى البطريك الأنطاكى مار أغناطيوس التاسع (الذى كانت قد تمت رسامته فى مصر) أن يأتى إلى بلادنا لتهنئة الأنبا يونس الحادى عشر بنفسه وبخاصة لأن هذا البابا الاسكندرى كان ضمن الذى قاموا بالشعائر الدينية للرسامة . ولما وصل البطريك الأنطاكى إلى مصر لاقاه البابا الاسكندرى بالمحبة الأخوية واشترك البطريك فى صلوات القداس الإلهى التى هى أسى صورة للأخوة المسيحية والتى يحس بها المؤمنون احساساً فعلياً بأنهم أعضاء فى جسد الرب المرفوع على المذبح . وفرح الشعب كله لهذه المشاركة الروحية العظمى .

٣٦٣ - ثم قال البطريك الأنطاكى لشريكه فى الخدمة الرسولية بأنه لم يعد لديه ميرون ، بل ولم تعد لديه خميرة للميرون إذ قد نضب ما عندهم من غير أن ينفطنوا إلى ذلك . فاتفق معه البابا المرقسى على الاحتفاء باقامة الشعائر المقدسة الخاصة بالميرون لاعطائه قدر ما يحتاج إليه .

وفى أحد الشعانين قصد البطريك إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) حيث صلياً معاً احتفاء بهذا اليوم المقدس وظلوا فى هذه الكنيسة العريقة



جزء من لوحة « موعظة القديس مرقس في الاسكندرية »

من عمل چنتيلي بليني

وأخيه چيوفاني (سنة ١٥٠٤ م)

المليئة بالذكريات الدالة على العناية الإلهية طوال اسبوع الآلام لتأدية صلوات هذا الأسبوع المجيد . وفى باكر خميس العهد الإلهى قاموا بصلوات الميرون ثم بصلوات اللقان فصلوات قداس ذلك اليوم الذى فيه أعطانا رب المجد عهده بتقديمه جسده ودمه الأقدس طعاماً روحياً لمن يتناول منه وعلامة مرئية على الصلة الحقة التى تربط المؤمنين به وترفعهم إليه . وكان معهم خلال هذا الأسبوع المقدس ماركيرلس مطران أورشليم ، وقد ظل ضيوفنا الكرام فى بلادنا الرحبية مدة شهر ثم غادروها إلى أورشليم . وقد صاحبهم إلى المطرية عدد من كهنة القبط وأراختها بعد أن زود كل من البطريركين أخاه بالبركة الرسولية .

٣٦٤ - وما أن انتهت هذه الزيارة الأخيرة حتى بدأ شئ من التنقيص . فقد قام الشيخ الأمير الأقصرانى - أحد شيوخ المسلمين - بالكشف على الكنائس لمعرفة ما إذا كان قد حدث فيها أى تغيير أو ترميم أو تجديد ونتيجة لهذا الكشف أمر السيد شهاب الدين أحمد النعمانى المصرى باغلاق عدد منها ريثما يتم التحقيق فى أمرها . ومن نعمة الله أن أعيد فتح هذه الكنائس بعد انتهاء التحقيق .

٣٦٥ - وحدث أن قويت شوكة الترك وانتصروا على امبراطور القسطنطينية الذى اضطر إلى ترك هذه العاصمة القديمة نهائياً . ولما انتهى به الأمر إلى الاستقرار فى بلاد اليونان رأى أن يتفاهم مع ملوك الغرب ومع المسئولين عن الكنيسة فى البلاد الغربية . ونتيجة لما جرى من مفاوضات وأحاديث انعقد مجمع فى مدينة بال (بسويسرا) ثم انتقل إلى مدينة فيرارا فمدينة فلورنسا (وكلتيهما فى ايطاليا) مستهدفاً إيجاد الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . إلا أن الكنيسة الشرقية هنا كانت كنيسة القسطنطينية التى هى الكنيسة الوحيدة الموجودة فى أوربا لأن كل الكنائس الشرقية الأخرى أفريقية آسيوية - وهذه المجموعة من الكنائس لا خلقيدونية^(١) خلافاً لكنيسة القسطنطينية ، والذى حدث فى هذا المجمع الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس عشر هو أن قام شئ من

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية ج ٢

التآلف بين الكنيستين الأوربيتين : القسطنطينية ورومية . أما الكنائس « الأفرو - آسيوية » فظلت بعيداً كما كان شأنها منذ مجمع خلقيدون المشنوم . لأن الاختلاف في العقيدة الذي هو أساس التباعد من الأول قد أضيفت إليه مطالب البابا الروماني في مغالاة غريبة عن التقاليد الرسولية (١) .

٣٦٦ - ثم رأى السلطان إذ ذاك أن يعقد مجلساً بحضور قضاة المسلمين الأربعة ومعهم الأنبا يؤنس الحادي عشر ورؤساء المذاهب اليهودية . فاجتمعوا كلهم . وبعد التداول قرر القضاة المسلمون أن يجتمع الكل عند شيخ الاسلام الأكبر فذهبوا إلى بيته . وقد قرر على كل منهم أن يلزم نفسه الزاماً شرعياً أنه لا يجدد في كنيسة ولا في دير ولا في قلابة ولا في صومعة ولا في بيعة مما هو كائن في مملكة السلطان بنفسه ولا بمن يستعين به بناء ولا غيره ولا يرم ما خرب أو تعيب من جدرانها وأخشابها وغير ذلك بالآلات القديمة ولا غيرها . ولا يدفع لمسلم خمرأً يبيع أو غيره ولا يسقيه له . ومتى خالف ذلك أو شيئاً منه كان جزاؤه أن يخرب السلطان جميع تلك الكنيسة أو الدير أو القلاية أو الصومعة أو البيعة التي يفعل فيها ذلك . وأن يفعل فيه ما يقتضيه رأيه ... » (٢) .

٣٦٧ - وحضرت في تلك الفترة بعثة موفدة من ملك الحبشة درع يعقوب وعلى رأسها شخصية من كبار رجال الملك ومعه عبد الرحمن (وهو تاجر معروف) وأحضروا معهم هدايا مؤلفة من سبعين جارية وطشت وأهريق من ذهب وسيف مذهب ومهماز وعدد من الأواني الذهبية . كذلك حملوا خطاباً من الملك الحبشى إلى سلطان مصر . وقد استهل خطابه بالتحيات والمبالغة في عبارات التكريم ثم قال : « ... وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادكم وبلادنا اتباعاً لآثارهم المشكورة . وقصدنا اعلامكم ذلك بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية ج ٢ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٦٠٢ ، سلسلة تاريخ جمعه الشماس

كامل صالح نخلة ص ١٥ - ١٧ .

والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ... وأنهم كانوا قايمين بالعدل خصوصاً
 بإخوتنا النصارى متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين وهن كنائسهم والقتل
 على من كان فيها من الأقسمة والرهابين ... وقد بلغنا الآن أن هذه القواعد
 تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق العدل حائدين وفى طريق الظلم
 خائضين . والآن إذا مات أحد من أخوتنا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة
 كبيرة لأهله وأقاربه . ويؤخذ منهم ما لم تجر به عادة فى أيام الملوك
 السالفين ... ثم بلغنا أيضاً أن ثم من يتعرض إليهم فى كنائسهم فى
 أوقات صلاتهم وفى أيام أعيادهم يقطع مصانعاتهم وأخذ ما لا يستحقون
 أخذه . أنهم فى غاية الضيق من ذلك ... وإخواننا النصارى الذين هم الآن
 تحت عز سلطانكم ومملكتم الشريفة نفر قليل لا يمكن أن يكونوا قدر
 قيراط من المسلمين القاطنين بأقليم واحد من بلادنا ... ولم نزل نحسن إليهم
 فى كل وقت وحين ... سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض لهم ...
 فاسألوا التجار المترددين إلى بلادنا يخبرونكم بذلك بالحق والصدق . ومن
 نقل إليكم غير ذاك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى
 أشد من القتل عند العارفين ... والقصد من عظمة سلطانكم أن تتوصوا
 غاية التوصية بإخوتى النصارى لتصير بيتنا المودة وتفرح فى أيام سلطنتكم
 الرعية بعد السلام الوافى التام على المجلس الشريف السلطانى . وعلى
 محبيه وعلى أمرائه وقضاة الشرع وعلى كل من حوت مملكته العالية ^(١) .

٣٦٨ - إلا أن السلطان وأمراء غضبوا غضبة جامعة لما جاء فى هذا
 الخطاب إذ أحسوا بأن مظالمهم قد شاعت خارج الحدود المصرية . ولكن
 السلطان رغم غضبه أرسل الهدايا النفيسة إلى الملك درع يعقوب ومعها
 خطاب يرفض فيه الرجاء بحسن معاملة القبط زعماً منه أنهم هم الذين
 أذاعوا أخبار ظلمه وأنهم فى الوقت عينه يجددون فى أهنية كنائسهم
 وأديرتهم من غير إذن . فلما وصل رد السلطان استشاط الملك غضباً بدوره
 واحتجز الرسل السلطانية فى بلاده . ثم حارب شهاب الدين بن سعد ملك
 المسلمين فى الحبشة وقتله وحكم على رئيس وفد السلطان أن يركب معه
 وأخذه إلى المكان الملقى فيه الرجل المقتول ليرى بعينه ما حدث .

(١) السخاوى ج ١ ص ٣٩ - ٤٠ شرحه ج ١ ص ٦٧ - ٧١ .

٣٦٩ - ووصلت هذه الأنباء إلى مصر كما وصل خير احتجاز الوفد السلطاني فثارت ثائرة السلطان ولم يجد من يصب عليه ثورته غير البابا نفسه . فأرسل واستدعاه وأصدر الأمر بضربه فضره وضرباً مبرحاً بلا احتشام ، ثم فرض عليه أن يكتب خطاباً إلى الملك الحبشى يعرفه فيه بكل ما أصابه من ضرب وإهانة كما يوضح فيه تهديد السلطان بإبادة القبط انتقاماً لكل ما قد يصيبه من تضيق على مسلمى بلاده . ويطالبه بإعادة الوفد السلطاني إلى مصر بغير تعويق . وحين وصل الخطاب البابوي إلى ملك الحبشة استدعى رئيس الوفد وأغدق عليه العطايا ولكنه ما طله في الاذن بالعودة . ولما طال المطال وامتلات نفوس مندوبى السلطاني سأمًا قال رئيسهم فى صراحة : إن كنت تريد قتلى فأنا على استعداد لذلك . وإلا - فما داعى الماطلة ؟ « وتركه الملك دون جواب ثم أرسل إليه فى اليوم التالى رسولاً يحمل إليه الاذن بالعودة إلى مصر . وقد صاحبه فى سفره مندوب من لدن درع يعقوب فوصلوا القاهرة بعد غياب دام أربع سنوات ^(١)

إلا أن عودة رسل السلطان لم تهدأ من غضبه ضد البابا يؤنس الحادى عشر وشعبه . فعقد مجلساً رأسه شخصياً وحضره القضاة المسلمون الأربعة . ثم استحضر البابا المرقسى فحكم السلطان بضربه وجبسه فى المقشرة وأخذ كل ما لديه من مال . وزاد على ذلك بأن فرض عليه أن لا يكتب ملك الحبشة اطلاقاً ، بل ولا يرسم لهم مطراناً ولا كاهناً إلا بعد استئذانه . فإن خرج على هذا الحكم فى أى يوم تضرب عنقه فوراً . وكتب خمس نسخ بهذه الأحكام احتفظ كل من قضاة الاسلام الأربعة بنسخة والنسخة الخامسة أعطيت للبابا الاسكندرى .

٣٧ - وكان هذه البلايا كلها لم تكن بكافية . فقام عشرون مملوكاً من المفسدين وهاجموا بيوت القبط رغبة منهم فى الاستيلاء على ما لديهم من خمر . ولكن القبط وقفوا فى وجوههم وقتلوهم وتغلبوا عليهم إذ قد سقط ثلاثة من المماليك صرعى ففر الآخرون ^(٢) .

(١) السخاوى ج ١ ص ٧٢ .

(٢) شرحه ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣٧١ - وبعد ذلك أصدر السلطان بعض مراسيم خاصة بغير المسلمين أهمها أنه لا يجوز لطبيب قبطى أو يهودى أن يعالج المسلمين . إلا أن عقلاء المسلمين رفضوا أن يعملوا بهذا المرسوم واستمروا يلجأون للأطباء الذين يثقون فى مهارتهم بغض النظر عن دينهم . كذلك طلب ناظر الجوالى ^(١) أراخنة القبط وأخذ يدقق فى سؤالهم عما إذا كان فى بيوتهم جاريات مسلمات . وضيق عليهم فى السؤال حتى اضطروهم إلى عرض جواربهم عليه ليتأكد من أنه لا توجد مسلمة بينهن .

٣٧٢ - وعاد شعور القلق يسيطر على المصريين جميعاً ولو أن نصيب القبط منه كان مضاعفاً .. ذلك لأن الأنباء تواترت بأن الأحباش يجهزون جيشهم ومراكبهم لغزو الحجاز وأنهم ينوون بعد ذلك قطع مياه النيل عن مصر . وحدث أن الفيضان جاء ناقصاً للغاية فبدأت القلوب تضطرب . وضاق الرزق . واستمر نقصان المياه فأخذت الأسعار ترتفع وشح الخبز . ثم سرى القلق إلى قلب السلطان فأرسل إلى الخليفة يرجو منه الابتهاال إلى الله ليرفع غضبه ويجعل النيل يفيض . كذلك وزع الصدقات والاحسانات الكثيرة . ولكن النيل بدلاً من أن يزيد أخذ يتناقص أكثر فأكثر . وعندها نودى على الشعب بالصلاة فى الصحراء . فخرجت جموعهم تتزاحم : القضاة والعلماء والمشايخ والرجال والنساء والأطفال . وكان الشعور بالضيق شديداً إلى حد أنهم رضوا بخروج القبط معهم للصلاة . واستمر هذا الجمع الحاشد يصلى عدة أيام متتالية إلى أن تعطف الله عليهم واستجاب لدموعهم وابتهاالاتهم . والعجيب أن النيل بدأ يتزايد فى شهر توت - وهو الشهر الذى يبلغ فيه الفيضان منتهاه .

٣٧٣ - ومن المؤلم أن عدداً من كبار القبط جحدوا إيمانهم وأعلنوا إسلامهم إذ قد استهوتهم المناصب واستمالهم حب المال لأنهم جميعاً نالوا الرتب العليا ووصلوا إلى مراكز مرموقة من النفوذ . وعلى الرغم من ذلك فإن جحودهم لم يكن واقياً لهم من غضب السلطان إذا ما ثار : فمثلاً كان هناك رجل اسمه ابن كاتب المناخ ولى الوزارة عدة مرات . وذات مرة حمى

(١) الجوالى كانت ضريبة مفروضة على القبط بالاضافة إلى الضرائب العامة .

غضب السلطان عليه فأمر بمصادرة أمواله وبضربه بالمقارع ضرباً أفضى إلى موته رغم معرفة السلطان بأن هذا الرجل قد خرج على المسيحية ^(١) .

٣٧٤ - ومقابل هذا الجحود برز بعض الآباء الساهرين الذين جاهدوا في سبيل الايمان وتقوية العزائم والصمود في وجه الضيقات . وأبرز هؤلاء الآباء أنبا قرياقص أسقف البهنسا الذي لم يكتف بافتقاد شعبه ووعظه وتوجيهه بل وضع الميامر العديدة في مديح السيدة العذراء وفي قيامة رب المجد وفي لجوء العائلة المقدسة إلى مصر وفي مديح الشهيد بقطر .

٣٧٥ - وبعد كل هذه الضيقات والآلام انتقل الأنبا يونس الحادى عشر إلى فردوس النعيم بعد أن قضى على الكرسي المرقسى أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً . وكان مقره بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وقد دفن في دير الخندق إلى جوار الأنبا متاوس المسكين ^(٢) .



(١) السخاوى ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح خلة (الحلقة الرابعة) ص ١ - ٤١ .

فترة من الهدوء

أ - الأنبا متاوس الصعيدى

٣٧٦ - انتخاب الأنبا متاوس الثانى

٣٧٨ - تقييس الميرون .

٣٧٧ - طلب مطران الحبشة .

٣٧٩ - نياحة البابا المرقسى .

٣٧٦ - مرة أخرى شغرت السدة المرقسية . واستمرت شاغرة هذه المرة أربعة شهور . ثم أجمع الأساقفة والأراخنة باتفاق عجيب على أن الراهب سليمان الصعيدى المتسك بدير العذراء الشهير بالمرق هو الرجل الذى يرغبون فى رعايته إياهم . ونتيجة لهذا الاجماع سافر مندوبوهم إلى الدير المحرق واستحضروه إلى مصر حيث تمت الشعائر المقدسة لرسامته فأصبح الأنبا متاوس - الثانى البابا الاسكندرى التسعين . وتمييزاً له عن الأنبا متاوس المسكين أطلق عليه اسم متاوس الصعيدى ^(١) .

٣٧٧ - ثم وصلت إلى مصر بعثة حبشية لكى تطلب إلى البابا المرقسى أن يرسم للحبشة مطراناً عوضاً عن المطران الذى كان قد تنيح . ومن نعمة الله أن السلطان المنصور فخر الدين عثمان قد أحسن استقبال هذه البعثة واستفسر عن الغرض من حضورها . ثم سهل لأعضائها أسباب الوصول إلى الأنبا متاوس الثانى لعرض مطلبهم عليه . وكان ملك الحبشة إذ ذاك مازال درع يعقوب . ولما علم البابا الاسكندرى بما يطلبون سارع إلى اختيار راهب ممتاز ورسمه باسم الأنبا غبريال .

٣٧٨ - ومع أن رئاسة كهنوت الأنبا متاوس الصعيدى لم تدم غير ثلاثة عشرة سنة إلا أن أربعة من السلاطين توالوا على الحكم خلال تلك المدة .

ولقد وجد أثناء بابهوته أن الكنيسة فى حاجة إلى الميرون لأن ما تبقى منه لم يعد كافياً إلا لأن يكون « خميرة تخمر العجين كله » . فأرسل يدعو الأساقفة ليجتمعوا معه ويؤدوا شعائرها المقدسة . فحضر ستة منهم : خمسة من الصعيد وواحد من الدلتا . وقد أقيمت الصلوات فى كنيسة

(١) شرحه ص ٤٥ .

السيدة العذراء بحارة زويلة . وكان المهتم بهذا العمل المقدس هو صاحب
الذكر الدائم المولى الأجل الأرخن الرئيس المحب للمسيح الأرثوذكس المكرم
الشيخ ولى الدولة ميخائيل المهتم بالبيعة المذكورة والناظر على الشعب
الأرثوذكسى والبيع المقدسة بأورشليم . وقد شاركه بركة هذه الخدمة
الشماسان المكرمان برسوم بن الأشقر والشمس أبو المنصور .

٣٧٩ - ثم تتيح الأتبا متاوس الصعیدی فى هدوء وسكينة ودفن هو
أيضاً بدير الخندق إلى جانب سعيه العظيم ^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... جمعه كامل صالح نخلة . الحلقة الرابعة ص ٤٣ - ٤٦ .

ب - استمرار الهدوء

٣٨١ - سحابة عابرة .

٣٨٠ - انتخاب البابا الاسكندري الحادى

٣٨٢ - فترة سبات .

والتسعين .

٣٨٠ - وكان فى دير الأنبا أنطونى كوكب البرية راهب اسمه غبريال العراوى بالنسبة إلى أنه نشأ فى قرية العرابة المدفونة (أو أبيدوس بالقرب من البلينا) فلما انتقضت خمسة شهور على نياحة الأنبا متاوس الثانى اجتمع الأساقفة مع الأراخنة للتشاور معاً . وانتهت مشاوراتهم إلى اختيار غبريال العراوى . وتمت رسامته من غير امهال فأصبح الأنبا غبريال السادس البابا الاسكندري الحادى والتسعين فى ٩ فبراير سنة ١٤٥٨ م ش . وظلت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المقر البابوى حيث أقام طيلة مدة رياسته التى سادها الهدوء ولم يعكر صفوها أية ضيقات والتى لم تدم غير ثمانى سنوات وعشرة شهور وستة أيام فدفن هو أيضاً إلى جانب سلفائه المباشرين بدير الخندق . وقد احتفل بجنائزه احتفالاً شعبياً فسارت الجماهير خلفه من كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة إلى مقره الأخير وقد ظلت السدة المرقسية شاغرة مدة سنتين وشهر واحد واثنين وعشرين يوماً .

٣٨١ - ثم اجتمع الأساقفة والأراخنة واستقر رأيهم بعد التداول على الراهب ميخائيل السمالوطى الذى لم يذكر المؤرخون فى أى دير ترهب . فأخذوه إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ورسموه البابا الاسكندري الثانى والتسعين باسم ميخائيل الرابع . على أن باباويته لم تدم غير سنة واحدة وثلاثة أيام . فمر كما يمر السحاب العابر . وبعد الصلوات الجنائزية ذات الروعة الخاصة دفن ببابلون الدرج .

٣٨٢ - وطالت الفترة التى خلا فيها الكرسي المرقسى حتى بلغت سنتين وشهرين وثمانية أيام . وكأنما صحا الأساقفة من سباتهم فسارعوا إلى الاجماع وأرسلوا يدعون الأراخنة الذين لبوا الدعوة لساعتهم إذ أفاقوا هم أيضاً من السبات الذى حل عليهم . ومع ذلك فقد طال التشاور وطال معه

البحث . أخيراً اهتدى الجميع إلى اختيار الراهب يوحنا المحرقاوى ليجلس
على الكرسي الرسولى : كرسى مارمرقس البشير ضياء بلادنا المصرية باسم
يونس الثانى عشر على أن باهوتته لم تلم غير ثلاث سنين وأربعة
أشهر^(١) .



(١) شرحه ٤٧ - ٤٨ .

صلة قديمة

- ٣٨٣ - انتخاب يوحنا بن المصرى
٣٨٤ - عطائه وعمله .
٣٨٥ - القبط وقبرص
٣٨٦ - صيد في الماء العكر .
٣٨٧ - تنابذ المماليك .
٣٨٨ - المدن الخمس .
٣٨٩ - نهاية عصر المماليك .
٣٩٠ - فترة بناء .
٣٩١ - تخريب ديرى الأنبا انطونى
والأنبا بولا .
٣٩٢ - الشهيد صليب .
٣٩٣ - لمحة عن عصر المماليك .
٣٩٤ - الكنائس والأديرة التى اندثرت
فى العصر المملوكى .

٣٨٣ - وعاد تتابع الأيام والليالى يحتم اجتماع الاساقفة والأراخنة لكى يتداولوا معاً فى ذلك الموضوع الحيوى الذى يقتضيه النظام الكنسى . وهو موضوع التفكير فيمن يكون الراعى الأول . وكانت قد انقضت خمسة شهور وخمسة أيام على نياحة الأنبا يونس الثانى عشر . فاجتمع المسئولون فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وفى ظل والدة الإله ورحابها أجمعوا على انتخاب الراهب يوحنا ابن المصرى المولود فى مدينة صدفا بمديرية أسيوط . ولم يذكر المؤرخون الدير الذى ترهب فيه . وفقد أقيمت شعائر الرسامة المقدسة فى ١٠ فبراير سنة ١٤٧٥ م ش باسم يونس الثالث عشر البابا الرابع والتسعين فى حكم الملك قايتباى (١) .

٣٨٤ - ولقد شابه هذا البابا الأنبا متاوس فى حبه المتناهى لتوزيع ما عنده على كل من يسأله : فكانت حسناته تشمل الجميع حتى اليهود . وكان يضع كل ما يأتينه من مال تحت الفروة التى يجلس عليها ومتى تقدم إليه سائل مد يده وأعطاه ما يدخل فيها من غير أن ينظر إليه فكان بعمله هذا لا يبقى على مال عنده إطلاقاً .

كذلك كان الأنبا يونس الثالث عشر عالماً بالعلوم الكنسية متضلعا فيها حتى أنه كتب الكثير من المؤلفات فى طقوس الكنيسة وفى تعاليمها ولو أن هذه الكتب لم تطبع (٢) .

(١) له حصن قائم عند مدخل الميناء الشرقية بالاسكندرية - وكانت هى الميناء الوحيدة لذلك الثغر فى أيامه .

(٢) « التواريخ » لابن الراهب ص ٢٤٣ .

٣٨٥ - وكانت هناك علاقة قديمة بين القبط وبين جزيرة قبرص إذ يجب أن لا يغيب عن بالنا أن القديس مرقس كاروينا الحبيب كان قد حمل البشارة إلى تلك الجزيرة مع برنابا قبل أن يجرى إلينا . إلا أن المعلومات الخاصة بالقبط فى الكتب القبرصية ضئيلة رغم أنه قلما يخلو كتاب من ذكرهم . وليست لدينا أية تفاصيل عن الجالية القبطية التى ظلت فى تلك الجزيرة قرونًا طويلة والتى لم يعد لها أثر الآن . ويذكر جاكوبوس دى فيرونا (الايطالى) فيما كتبه عن كنائس فاما جوستا (ميناء قبرص) بأن هناك يعاقبه بينهم . ولما اعتلى الأنبا يونس الثالث عشر السدة المرقسية ألقى خطاباً بابهوياً ضافياً وجهه إلى أساقفته ومن بينهم « أنبا ميخائيل القبرصى المطران على قبرص ثم على رودس » ، وكان هذا المطران مرسوماً بيد البابا الاسكندرى . ومن مخلفات مكتبة دير أبى يحنس مخطوط مذكور فيه بأن الأنبا يونس أهدى إلى الأنبا ابرآم الذى رسمه خلفاً للأنبا ميخائيل كتاب الطب الروحانى .

ثم حدث حين غزا الأتراك جزيرة قبرص بعد ذلك بسنوات أن قتلوا عدداً من الكهنة أحدهم المطران القبطى . ويذكر لنا المؤرخ الايطالى ستيفانودى لوزينيانو بأن نيقوسيا عاصمة قبرص تزينها القصور والكنائس اليونانية ... والقبطية ... ، والقبط يشتركون فى المواكب الكنسية التى كانت تنتظم أيام الأعياد السيديّة وعيد مارمرقس ، وكنيسة القبط تحمل اسم القديس أنطونيوس ... والقبط ليسوا فى نيقوسيا فقط بل أنهم فى الجبال الواقعة فى شمال الجزيرة ولهم دير باسم الأنبا مكارى الكبير ، ويقع هذا الدير بالقرب من قرية بلاتان الخاصة بالأرض وأغلب الظن أن هذا الدير أصبح فى حيازة الأرمن القاطنين فى تلك المنطقة إذ لا يزال اسمه « سورب ماجار » (أو دير مكارى) ... وحينما تم للترك الاستيلاء على الجزيرة قاموا باحصاء عام وذكروا ضمنه أن القبط بين المجموعات المفروض عليها ضرائب (١) .

(١) راجع مقال لهورمستر عن « القبط فى قبرص » (بالانجليزية) نشره فى مجلة الآثار القبطية المجلد السابع سنة ١٩٤١ ص ٩-١٢ .

٣٨٦ - وكانت العلاقة بين مصر والحبشة قد ساءت نتيجة للخصومات التي قامت بين سلاطين مصر وملوك الحبشة . وقد بلغ توتر العلاقة حداً جعل من المتعذر على البابا الاسكندري أن يرسم مطراناً لأولاده الأحباش . وحدث أن وجد الملك داود الثاني نفسه محتاجاً إلى مطران كما وجد أن البرتغاليين يملكون على بلاده في تجارتهم مع الهند . فأشار عليه بعض مستشاريه أن يلجأ إليهم طلباً لمطران يسوس الكنيسة . وعلى الرغم من ادراكه بأن البرتغاليين تابعون للكنيسة الكاثوليكية التي تختلف في عقيدتها عن الكنيسة القبطية إلا أنه انصاع لمشورة رجاله وأرسل إليهم بطلبه . وبالطبع رحبوا هم بهذا الطلب إذ رأوا فيه فرصة للتدخل في شئون الحبشة . وسارع الخبر الروماني إلى رسامة مطران كان طبيباً بالجيش اسمه بواز بارموداز . ولم يكتف بهذه الرسامة بل ضاعف اعتدائه بأن أطلق عليه لقب « بطريك الاسكندرية » ^(١) ومع أن هذا المسلك كان غير لائق كما أنه مخالف لقوانين مجمع نيقية (المجمع المسكوني الأول) إلا أنه لو كان هذا الخضر حقيقياً فلماذا أطلق الخبر الروماني لقب « بطريك الاسكندرية » على صنيعته في حين أنه يزعم بأنه متسلط على البطريرك الاسكندري ؟ فلو أن البابا الاسكندري كان قد خضع له بالفعل لكان قد اعترف بوجوده وبلقبه ولما أطلق لقبه الشرعى على شخص فرضه هو على الحبشة .

٣٨٧ - وفي عهد هذا البابا ذاق المصريون جميعاً شيئاً من السلام لانشغال المماليك بالحروب الخارجية من جهة ومنافساتهم فيما بينهم وبين بعضهم . وقد أدت هذه المنافسات في النهاية إلى تولي قائلوه القوي سلطنة مصر . وكان - بخلاف أقرانه - معتزلاً عادلاً أحسن معاملة رعاياه . وفي أيام حكمه وصل إلى مصر أميران حبشيان موقدين من قبل داود الثاني ملك الحبشة ومعهما هدايا ثمينة . فأحسن السلطان استقبالهما وأكرمهما كل الأكرام . ثم أعربا له عن رغبتهما في زيارة الأراضى المقدسة للتبرك بها فسهل لهما سبيل السفر . كذلك جاء إلى مصر في تلك الفترة زوار من البندقية لا قوا من السلطان كل الأكرام هم أيضاً .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٦٠٦-٦٠٢ . سلسلة ... تاريخ ...
جمعه كامل صالح نخلة الحلقة الرابعة ص ٥٢ .

وفى حكم الغورى عاود المصريون تعييدهم بوفاء النيل تعييداً شعبياً واسعاً فكانوا يخرجون فى السفن والزوارق كما كانوا يفعلون كلما أحسوا بشئ من الحرية . كذلك كانوا يخرجون إلى المتنزهات العامة فى مختلف المناسبات . ومن أهم هذه المتنزه جزيرة الروضة - حيث المقياس - التى كانت إذ ذاك مليئة بالأزهار العطرة والخمائل الظليلة ، وبركة الرطلى التى كانت متصلة بالخليج الكبير والتى أقيمت على جانبيها أماكن المرح والطرب . ومن وسائل الترفيه فى ذلك العصر « خيال الظل » .

كما أن ما تبقى من المنشآت والمرافق عن عصر الغورى يدلنا على أهمية الفنون والصناعات التى ازدهرت إذ ذاك وهى : هندسة البناء وزخرفة المباني وصناعة الترخيم والحزف والهندسة الزراعية وصناعة السفن والأسلحة . ولقد نال طب العيون عناية خاصة فى ذلك الوقت ^(١) .

على أن قانصوه رغم عدالته قد ظل مملوكاً فى تصرفاته - أى أنه اتبع سياسة القدر بمنافسيه - وبكل من تتسم فيهم الرغبة فى النفوذ ... ومع ذلك فلم يفتن تماماً إلى خطر الزحف التركى حين بدأ على ايران لأنه كان هو نفسه خصماً للشاه . فلو أنه نسى خصومته وتحالف مع ايران ضد الترك لتمكن بهذا التحالف من درء خطر الترك الداهم ولكنه ظل قابلاً فى عاصمته ... فانتصر الترك على ايران ثم تحولوا إليه ^(٢) .

٣٨٨ - ولقد ذكر بعض المؤرخين أن المسيحية انتهت تماماً فى الخمس مدن الغربية فى باهوية الأنبا يؤنس السادس (فى عهد صلاح الدين ^(٣)) إلا أن ما تبقى من رسائل الأنبا يؤنس الثالث عشر - وفى طرس بركتته بالذات الصادر منه فى سنة ١٥٠٠ م ش يبين أن هذه المدن كان لها أسقف فى عهده ، ولو أن هذا الأسقف اضطر إلى مغادرتها حين دخل العثمانيون شمال أفريقيا بعد احتلالهم مصر . وكان اسمه الأسقفى قرياقص . فلما ترك ايتارشيتته ورجع إلى مصر استعاد اسمه الرهبانى وهو ساويرس وذهب

(١) الأشرف قانصوه الغورى لمحمود رزق سليم ص ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لايڤ هول ص ٥٣ .

(٣) راجع ف ١٧٥ من هذا الجزء .

إلى دير السيدة العذراء الشهير بالسريان حيث قضى بقية حياته وقد
انشغل في هذه الفترة بوضع الكتب الكنسية التي مازالت موجودة في
مكتبة ذلك الدير^(١)

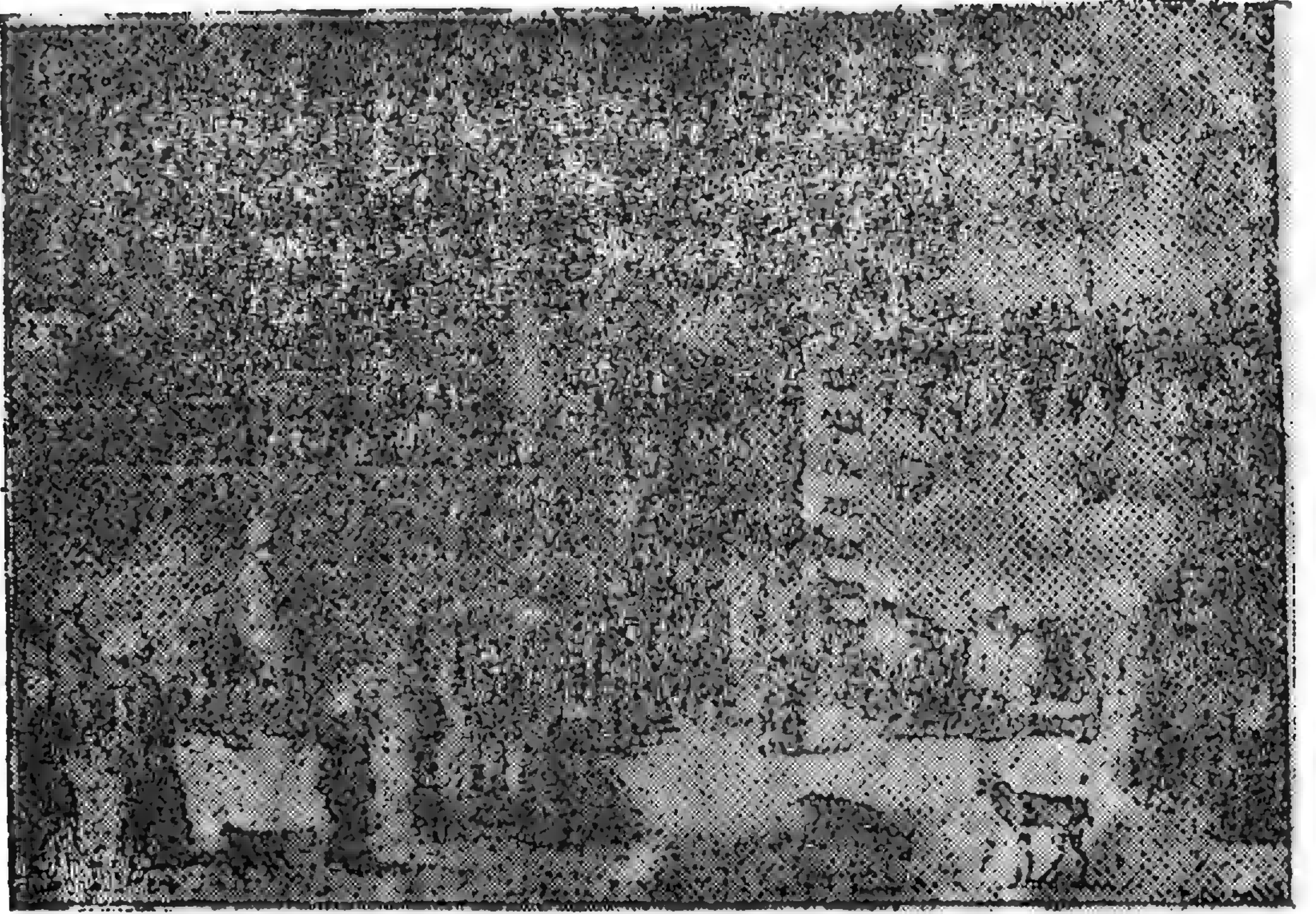
ولقد كانت بهذه المدن عدة ايبارشيات - المعروف منها الآن عشرة هي :

- ١ - أفريقية ، ٢ - برقة ، ٣ - برنيقة ، ٤ - طرابلس الغرب ،
- ٥ - تونس ، ٦ - درنة ، ٧ - قابس ، ٨ - قرينى (قيروان؟)
- ٩ - ليبيا ، ١٠ - مراقبة^(٢) .

٣٨٩ - حدث أن هاجم الترك المصريين فى مرج دابق فواجههم السلطان
قانسوه ولكنه خر صريعاً فى تلك المعركة . ورغم الخطر الداهم من هؤلاء
المغيرين فإن الماليك ظلوا على تنازلهم بل لقد قامت بينهم الدساتس ضد
طومانباى ابن اخى قانسوه وغدروا به بأن انضموا إلى الأتراك . وحين انتصر
السلطان سليم الأول التركى ودخل مصر أمن طومانباى وقربه إليه لشجاعته
ولكن دساتس خصومه وحساده من الماليك جعلتهم يوغرون صدر السلطان
التركى إلى حد أنه أمر بشنقه . وبنهاية طومانباى انتهت دولة الماليك
وحلت محلها الدولة العثمانية ولو أن من بقى من الماليك ظل فترة من
الزمن يناوش الحاكم المفروض على مصر من سلطان تركيا . ومع أن
المصريين جميعاً عاشوا فى خطر وقلق أثناء تقاتل الماليك والترك إلا أنهم
عاشوا فيما بينهم وبين بعضهم فى سلام : المسلمين والقبط معاً .

٣٩٠ - ولقد دامت باهوية الأنبا يونس الثالث عشرأ أربعين سنة جاهد
خلالها الجهاد الحسن : فجدد عمارة الكثير من الكنائس والأديرة إلى جانب
ما وضعه من الكتب الخاصة بتعاليم الكنيسة وطقوسها . ثم تتيح بسلام
وأقيمت الصلوات الجنائزية عليه فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة
حيث دفن أيضاً^(٣) .

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الرابعة لكامل صالح نخلة ص ٥٩ - ٦٠ .
(٢) عن مقال لكامل صالح نخلة خاص بايبارشية المدن الخمس نشره فى مجلة جمعية
التوفيق العدد الصادر فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ص ١٠ .
(٣) سلسلة تاريخ ... ص ٥١ - ٥٥ .



صورة تمثل مقاومة السلطان الغوري لسفراء البندقية وعلى رأسهم
دومينيكو تريفيزانو من عمل أحد مصوري البندقية في بداية القرن
السادس عشر (متحف اللوفر)

ولقد ساند الأتبا ميخائيل الرابع أسقف القيس باباء فى جهوده البناء إذ قد سعى جهده لجعل مكانة الكنيسة فى مستوى عال وخدم شعبه بتفان وإخلاص^(١) .

٣٩١ - وحدث فى تلك الأيام حادث مروع أضاع على الانسانية الشئ الكثير من تراثها الروحى . وهذا الحادث هو أن بعض القبائل العربية المقيمة فى الوجه القبلى قامت بحملة شعواء على ديرى الأتبا أنطونى والأتبا بولا وتمكنوا من اقتحام الديرين فقتلوا كل من فىهما من الرهبان دون توقير لسن ولا لقداسة وقد ظل الديران خربين زهاء ثمانين عاماً . وخلال هذه السنوات عاش المغيرون داخلهما وكانوا إذا ما أرادوا الطهى أو الاستدفاء أوقدوا النار فى المخطوطات التى كانت محفوظة بمكتبتى الديرين . وهكذا أضاعوا الشئ الكثير مما كتبه الآباء ولن يمكن تعويضه ، وقد غطى الدخان المتصاعد من هذه النار جدران الكنيسة وغشى الأيقونات المرسومة عليها . إلا أن العلم الحديث جاء فى هذا القرن وأزال الغشاء الذى أحدثه الدخان فأعاد الأيقونات إلى سابق رونقها - بعكس الكتب التى احترقت وضاعت نهائياً^(٢) .

٣٩٢ - ولما كان حكم المباليك مليئاً بالضيق والاضطهاد فقد زخر بفئتين من القبط : فئة المتمسكين بعقيدتهم الراضين بكل ما يترتب عليه هذا التمسك من تعذيب وتنكيل ، وفئة المجاحدين الذين غرهم مجد العالم أو أزعجهم الاضطهاد . ومع أنه ليس من شك فى أن الشهداء كانوا كثيرين إلا أن الأسماء التى وصلتنا من مجموعاتهم قليلة . وفى هذه الفترة لا نجد غير اسم قديس عرف أن يصمد فى وجه الألام اسم صليب .

ولد هذا القديس فى بلدة هور (بالقرب من ملوى) وكان أبواه خائفى الله فرباه التربية الروحية الحقة وعرفا كيف يجعلان العقيدة تترسخ فى أعماقه فلا يرضى بها بديلاً . ولما بلغ سن الشباب اختاراً له زوجة من

(١) عن مقال للتصمص ميخائيل خاص بإقليم المنيا فى العصر القبطى السنة الرابعة العدد الثانى (فبراير سنة ١٩٦٢) ص ٣٨

(٢) سلسلة تاريخ ص ٦٨

أقاربهما حسب العادة الشائعة . وبالفعل تمت الشعائر الدينية للاكليل . إلا أن صليبا عاش مع زوجته فى تبثل تام يظللها ملاك الرب . وبعد فترة ترك بيته وأخذ يتجول فى البرارى والقفار ويتنقل بين الأديرة ويزور الكنائس مستمتعاً بعشرة النساك والقديسين . فذهب أبواه وراءه وقيدها بالحديد ليرجعا به إلى بيته . وكم كانت دهشتها عظيمة حين رأيا السلاسل تسقط من ذاتها عن يديه ورجليه . فأدركا أن قوة السيد المسيح الحالة فيه هى التى فكّت هذه السلاسل وتركاه يحيا الحياة القدسية التى يريدان وهكذا عاش فى أصوام وصلوات مستمرة وفى تقشف وتعبد بلا انقطاع . وكان دائم الاستشفاع بالسيدة والدة الإله . وكان يطلب إليها أن تهئ له سبيل الاستشهاد . فظهرت له فى حلم ذات ليلة وأعلمته بأن رجاءه قد أجيب وأن رئيس الملائكة ميخائيل سيقوم بحراسته إلى أن ينال اكليل الشهادة . وتضاعفت قواه الروحية بهذا الاستعلان السماوى وظل يتنقل من مكان إلى آخر ولم يقصر تجواله على الصحارى بل امتد منها إلى البلاد الأهلة بالسكان . وخلال تجوله بين الناس كان يعلن إيمانه جهاراً . فغضب عليه حاكم الصعيد واستدعاه وأخذ يستجوبه . فجهر بإيمانه أمامه . وعندها أمر الحاكم بضربه والهزه به فانهاه عليه الجند ضرباً وتعبيراً . ولكنه ظل ثابتاً محتملاً كل شئ فى صبر وصمت . وازداد غضب الحاكم بإزاء سكوته فأمر بتقييده بالسلاسل ورجمه ولكن القيود والرجم لم تصبه بأذى لأن رئيس الملائكة كان يحرسه كما قالت له السيدة العذراء . فرموا به فى السجن . وكان يقضى ليله فى الصلاة فيرى أثناء صلواته السيدة والدة الإله تبدو أمامه فى نور يفوق نور الشمس ويسمعا تقول له فى حنان : اصبر يا صليب لأنك ستنال اكليل الشهادة على اسم ابنى الحبيب . « . وحين سمع المسجونون من صليب عن هذه الرؤيا استولى عليهم الجزع واقترحوا الهرب ولكنه هدأ من روعهم وأبلغهم بأنه لن يصيبهم أى أذى .

ومرت أيام على هذا النمط والقديس صليب صامد . فحكم القاضى بارساله إلى القاهرة مقيداً بالسلاسل تحت حراسة الشرطة . وسمعت أمه وأخواته فركبن المركب التى أركبوه إياها وأخذن يبكين عند رؤيته . ولكن حين عرفن عزمه وأصراره ودعته فى هدوء وسكينة وقلن له : « سلام لك .

ونرجو أن تذكرنا عند المسيح إلهنا . وليكن الرب معك . وليشددك .
ولتشملك معونة السيدة العذراء إلى أن تكمل سعيك » ثم تركته
ورجعن إلى البيت .

وأقلعت المركب ، وكانت الرحلة شاقة لأن الجنود المكلفين بحراسته لم
يكتفوا بتقييده بل استمروا يوسعونه ضرباً وسخرية . على أن أم الرحمة
كانت تشرق عليه كل ليلة وتملاً قلبه عزاء كما كان الملاك ميخائيل ملازماً
له . فلما وصلوا إلى القاهرة أخذ الجنود إلى جماعة من القبط وطالبوهم
بأن يدفعوا له أجرة سفره لأن القديس لم تكن معه أية نقود . ولما عرف
هؤلاء القبط بكل ما جرى له دفعوا الأجرة بسرور ثم قدموا إليه طعاماً
ليأكل ووقفوا يخدمونه ويقدمون له كل ما يمكنهم من خدمته . فامتلات
نفسه راحة وقال لهم : « لقد تعبتم معي وأرحتم نفسي فأسال المسيح ربنا
أن يعوض تعبكم في ملكوته الأبدي كما يقضى لكم حاجاتكم في هذه
الدنيا الفانية » .

وبعد ذلك أخذ قائد حرسه لزيارة شقيقته التي كانت ذات إيمان وطيد
ولكن حنانها غلبها فأخذت تبكي . فودعها القديس في صمت تام دون أن
يتفوه بكلمة . ثم سار به القائد إلى حاكم القاهرة الذي أخذ يسأله عن
إيمانه وعما قال أمام حاكم الصعيد . فامتلاً القديس نعمة واعترف الاعتراف
الحسن معلناً في جساره إيمانه بالمسيح الذي تجسد ليخلص الناس . وفي
صباح اليوم التالي سار به الحاكم إلى السلطان الذي كان جالساً وسط
مجموعة من قواده وجنوده ورجال بلاطه ولكن القديس لم يرهب مجلسهم ولم
يتردد في إعلان إيمانه رغم تهديده بالتعذيب . قال له السلطان : « اصغ
إلى نصحي . اترك دين آباءك وأنا أسامحك » فأجابته : « أنى أومن
بالمسيح ربي وإلهي وأعلن إيماني به جهاراً » فأرسله السلطان إلى قضاة
المسلمين الأربعة ليروا رأيهم فيه فلما سمعوا اعترافه الذي أصر على اعلانه
كما أعلنه أمام الولاة وأمام السلطان نفسه حكموا باعدامه بعد التشهير به
ووكلوا أمر تنفيذ الحكم إلى أمير من المماليك . فأمر هذا الأمير باحضار
جمل . ثم صلبوا القديس على صليب من خشب ورطوه على ظهر الجمل
وأخذوا يطوفون به في شوارع القاهرة وهم ينادون على المارة بذنبه . وكان

صليب خلال هذا كله متهلل الوجه صامتاً هادئاً . بل أن نعمة الله أضاعت على وجهه فانعكس ضوءها العجيب من وجهه على كل من رآه . وملاء هذا النور سلاماً مما جعل القبط الذين رأوه يمتثلون فرحاً وسلاماً هم أيضاً .

ولما وصلوا إلى ساحة الاعدام كان السياف واقفاً يحمل في يده سيفاً مسلولاً ولكن شكله ووقفته لم يحركا للقديس ساكناً فظل على هدوئه . وكان هناك قاض واقفاً على مقربة من السياف فسأله إن كان مستعداً لأن ينجو من الموت بأن ينكر المسيح علانية فأجابه في هدوء على الفور : « لقد عشت نصرانياً وأموت نصرانياً » فأمر القاضي السياف بأن يقتله . فاستل السياف وقطع به رأسه في الساعة السادسة من يوم الاثنين المبارك الموافق الثالث من كيهك سنة ١٢٢٩ ش . فقال اكليل الشهادة الذي اشتهاه . وكان يوم استشهاده في عيد تذكار دخول السيدة العذراء إلى الهيكل بركة صلاته فلتكن معنا . آمين ^(١) .

٣٩٣ - لمحة عن عصر الماليك : إن عصر الماليك سواء منهم البحرية أو البرجية - هو من أعجب الأحداث في تاريخ مصر الملى بالعجب . فقد جمع بين المتناقضات جمعاً غاية في الغرابة . ففيه انهزم الصليبيون إلى غير رجعة . وفيه انهزم المغول تماماً . وامتد سلطان مصر من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلى الحجاز . وخطب الملوك - حتى الأوربيون منهم ودها . وفيه أيضاً رصدت الأوقاف على وجوه البر والاحسان ونالت العلوم والفنون حظاً وافراً من التشجيع ، وشيدت الجوامع الرائعة التي مازال منها يبهز الناظرين « بل لقد كانت هناك مشاتل تباع فيها الأشجار والزهور والرياحين يشتريها الناس داخل أصص فخارية ويزرعونها في خدائهم الخاصة أو على أسطح منازلهم . أما الطنافس (السجاجيد الفاخرة) فكانت تحفاً فنية رائعة : تسحر رؤيتها العيون ويريح ملمسها النفوس بل يشير الفكر والتأمل . ولا تزال هذه الطنافس واضحة في صور الفنانين الأوربيين إذ رسموها فوق الغروش أو منشورة من النوافذ والشرفات أو مبسوطة فوق الموائد والمذابح الكتسية » إلا أنه على الرغم من

(١) سلسلة ... ص ٥٥ - ٥٩ .

هذا الملك المتمد وهذا البذخ الواضح فقد عانى المصريون ألواناً من العسف والجور . فقد تعالى عليهم المماليك واحتقروهم وأذلّوهم وفرضوا عليهم الضرائب الفادحة وملأوا حياتهم قلقاً واضطراباً لكثرة الفتن الداخلية . أما القبط فبالإضافة إلى ما أصاب إخوتهم المسلمين قد وقع عليهم من العذاب ألوان متباينة فلم يكن لشخص منهم حرمة حتى الباباوات لم يكونوا في مأمن من أذاهم . فبطشوا بالأشخاص وخبروا كل ما امتدت إليه أياديهم من كنائس وأديرة ^(١) .

٣٩٤ - ونذكر هنا أهم الأديرة والكنائس التي تهدمت في هذه الحقبة : دير القصير - قال أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي في كتاب الديارات « وهذا الدير في أعلى الجبل على سطح في قلته وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة وفيه رهبان مقيمون به وله بئر منقورة في الحجر . وفي هيكلة صورة مريم عليها السلام في لوح والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارية لها أربع طاقات إلى أربع جهات . وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجباً بالصورة التي فيه ... وإلى جانبه صومعة لا تخلو من جيس يكون فيها ، وهو مطل على الصحراء والبحر ... وهو أحد الديارات المقصودة والمتنزهات المطروقة » ، دير مارحنا - قال الشابشتي - هذا الدير على شاطئ بركة الحبش وهو قريب من النيل وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها المعز . ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور ... ويقرب الدير بئر تصرف بئر ممساتي عليها جميزة كبيرة ، دير . مغارة شلقيل - لطيف معلق على الجبل وتقر في الحجر ولا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له . وإنما جعلت له نقور في الجبل فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده وجعل رجله في تلك النقور وصعد . وبه طاحونة يديرها حمار واحد . ويطل هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وتجاه أم القصور . وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء وهي التي يقال لها شلقيل ... ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى وهو على اسم بومينا ؛ دير بقطر - بحاجر أنبوب من بني مر تحت الجبل ، وهو دير كبير جداً وله عيد يجتمع فيه النصارى شرقاً وغرباً ويحضره الأسقف ،

(١) المخطوط للمقرئ ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

دير أبى هرمينة بحر فاو وبحرية برياً فاو وهو مملوء كتباً وحكماً ... وأبو
هرمينه هذا من قدماء الرهبان المشهورين ، دير السبعة جبال بأخميم
- هذا الدير داخل سبعة أودية وهو دير عال بين جبال شامخة لا تشرق عليه
الشمس إلا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذى هو فى لحفه ...
وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظللها صنفانة ، دير أبى بشادة
الأسقف - بالحاجر وتجاهه فى الغرب منشأة أخميم . وأبو بشادة من علماء
النصارى ، دير نهيا - قال الشاهشتى : « ونهيا بالجيزة وديرها من
أحسن ديارات مصر وأتزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً . عامر
برهبانه وسكانه وله فى أيام فيضان النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به
من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب
النواوير وله خليج يجتمع فيه سائر الطير فهو أيضاً متصيد ممتع ...
وقد خرب هذا الدير ؛ دير ايسوس - وله فى خامس عشرى بشنس عيد
فإذا كانت ليلة هذا العيد سرت فيه بئر تعرف ببئر ايسوس . وقد اجتمع
الناس إلى الساعة السادسة من النهار ثم كشفوا عن البئر فإذا بها قد فاض
ماؤها ثم ينزل فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقر فيه الماء فما
بلغ كانت زيادة النيل فى تلك السنة من الأذرع ؛ دير يحسن القصور -
على رأس الجبل الذى غربى أسيوط على شاطئ النيل وله عدة أعياد ؛
أديرة ادرنكه - اعلم ان ناحية ادرنكه هى من قرى النصارى
الصعيدة . ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى .
ولهم أديرة كثيرة فى خارج البلد من قبلها مع الجبل وقد خرب
أكثرها وأديرة ادرنكه المذكورة قريب بعضها من بعض وبينها مغاير
عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء كما على البرابى
وهى مزخرفة بعدة أصباغ ملونة تشتمل على علوم شتى ... ويقال إنه كان
فى الحاجر ثلثمائة وستون ذيراً وأن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى
أصفون فى ظل البساتين وقد خرب ذلك وباد أهله ؛ دير موشة - خارج
أسيوط من قبلها بنى على اسم توما الرسول الهندى . وهو بين الغيطان
وفى أيام النيل لا يوصل إليه إلا بالركب . والأغلب على نصارى هذه
الأديرة معرفة القبطى الصعيدى . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا
يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة

كنيسة يومينا بالحمراء . ولم تزل هذه الكنيسة إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس ، كنيسة الالزهري - كان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدة كنائس ... أخذ الفعلة في الحفر حول الكنيسة حتى بقيت قائمة في وسط الموضع الذي عينه السلطان ليحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة وكان القصد من ذلك أن تسقط الكنيسة من غير قصد لحرابها . وصارت العامة من غلمان الأمراء العاملين في الحفر وغيرهم في كل وقت يصرخون على الأمراء في طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة (٩ ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ) وقت الصلاة والعمل من الحفر بطل فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال الله أكبر ... وهدموها حتى بقيت كوماً وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان فيها ... وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشاً وجرار خمر . فكان أمراً مهولاً ثم مضوا إلى كنيستين بهجوار السبع سقايات تعرف إحداها بكنيسة البنات كان يسكنها بنات النصارى ... فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات ... وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها ، كنيسة بدير الخندق ... وكانت هذه الخطوب الجلييلة في مدة يسيرة قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة

كنيسة أبسوطير - ومعناها المخلص - بمدينة أخميم وهي كنيسة معظمة عندهم وهي على اسم الشهداء وفيها بئر إذا جعل ماءؤه في القنديل صار أحمر قانياً كأنه الدم ؛ كنيسة بناحية أشنين - وكان بهذه الناحية مئة وستون كنيسة خربت كلها إلا أربع كنائس . وأكثر أهل أشنين نصارى وعليهم الدرك في الحقارة ، وبناحية ريف كنيسة بوقلته الطبيب الراهب صاحب الأحوال العجيبة في مداواة الرمدى من الناس وله عيد يعمل بهذه الكنيسة ، وبناحية بوتييج كنائس كثيرة قد خربت وصار النصارى يصلون في بيت لهم سرّاً ... (٢) .

(١) الخطط للمقريزي ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٢) الخطط للمقريزي ص ٥١٢ . ٥١٧ - ٥١٨ .

أسبوع البسخة ^(١)

إن هذا الأسبوع يوصف بكلمة « أسبوع الآلام » ويبدأ بأحد الشعانين وينتهى بعيد القيامة المجيدة . وهو أقدس أسبوع في السنة اطلاقاً في نظر آباء الكنيسة القبطية . وأول يوم منه هو أحد الشعانين أو أحد السعف ، فيه تذكّر الكنيسة دخول السيد المسيح له المجد إلى اورشليم وخروج الجماهير لاستقباله بأغصان الزيتون وسعف النخل وهم يهتفون : « أوصنا لابن داود ... مبارك الآتى باسم الرب » ^(٢) وبما أن هذه الذكرى - رغم ما فيها من فرح وبهجة - هي المدخل إلى أسبوع البسخة أو أسبوع الآلام فإن التقليد الكنسي الذي تسلمه الآباء جيلاً بعد جيل يقضى بأن تتركز كل صلوات هذا الأسبوع الممتلئ رهبة على آلام الفادي وحده . ولما كان لا بد أن ينتقل بعض الناس خلاله من هذا العالم إلى الدار الباقية رسم الآباء اقامة تجنيز عام عقب الانتهاء من صلوات أحد الشعانين. هذا التجنيز العام يتضمن الصلوات التي تقال على الموتى قبيل دفنهم فيقال وقتذاك استرحاماً على جميع من قد تنتهى أيامهم على هذه الأرض قبل عيد القيامة المجيدة . وتختتم هذه الصلوات بلحن « يا ملك السلام » يقال بالنعمة الحزينة . ثم يعطى الكاهن البركة ويصرف الشعب بسلام .

وتبدأ صلوات البسخة مساء الأحد - أى في ليلة الاثنين ، وتتضمن « خمس ساعات » هي صلوات الساعات الأولى والثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشر . وتتضمن كل ساعة قراءة من النبوات الخاصة بالآلام رب المجد عليها تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً المحيطين بعرش الحمل فأجزاء مختارة من المزامير فالانجيل الخاص بالساعة . أما التسبحة فهي مأخوذة من سفر الرؤيا وكلماتها هي « لك القوة والمجد والعزة والبركة الى

(١) كلمة يونانية معناها الفصح لأن المسيح له المجد هو حمل الله الذى يحمل خطايا العالم وخروف الفصح أو خروف القديّة لدى اليهود كان رمزاً للفداء العجيب الذى حققه المسيح له المجد لجميع الناس على مدى الأجيال بالآلام وصلبه

(٢) يو ١٢ ١٢ ١٩

الأبد آمين يا عمانوئيل إلهنا وملكننا ، لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين ياربنا يسوع المسيح (تضاف إليها كلمة « مخلصنا الصالح » من ليلة الأربعاء)، لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين «^(١) . ولكل ساعة طرح هو عبارة عن تعليقات الآباء على انجيل الساعة^(٢) وبعد الانتهاء من الطروحات يتلو الكاهن الطلبة^(٣) . وتنتهى كل فقرة منها بكلمة « نسألك يارب اسمعنا وارحمنا » فيجيب الشعب « يارب ارحم » والتسبحة والمزمور والانجيل القبطى ومرد الطرح والطلبة - جميعها - تقال بالحنان خاصة بهذا الاسبوع المقدس الذى يفيض بذكرىات محبة الله وحنانه وعطفه على الانسان الذى خلقه .

وصلوات البصخة تقال خارج الهيكل^(٤) أيام الاثنين والثلاثاء

(١) تقال هذه التسبحة قبطياً وعربياً وينشدها نصف الشمامسة أولاً ثم النصف الثانى وتقولها كل مجموعة ست مرات بالتناوب مرة بعد مرة . والترات العشرة الأولى (خمس ثم خمس) تقال بالقبطى والمرة الحادية عشرة تقال بالقبطى ولكن أكثر مد فى المقاطع بينما تقال المرة الثانية عشرة بالعربى .

(٢) كتاب طروحات البسخة المقدسة للقمص فيلوثاوس القارى والمعلم ميخائيل جرجس (القاهرة سنة ١٩١٤) فمثلا فى طرح عشية أحد الشعانين يقرأ الجزء الخاص بدخول السيد المسيح له المجد إلى اورشليم الذى ينتهى بكلمات « قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك بأتيك راكبا على أتان وجحش ابن أتان » وهى هذه الآيات التعليق التالى : « فما لعظم هذه الأعجوبة الجالس على الشاروبهم ركب على جحش ابن أتان كالتيهر . هو جالس على الأرض لم يترك عنه السماوات يجالس فى حضن أبيه حاضر فى اورشليم ... » .

(٣) هناك طلعتان : احدهما للصباح وأخرى للمساء . وكلتاها صورة رائعة لعمق المحبة التى ملأت قلوب الأبياء الذين كتبوها - لأن كلا منهما تشمل صلوات من أجل المخلوقات المختلفة مع الضراعة إلى الله بأن يتراحم عليها ويعينها ويسد احتياجاتها .

(٤) وذلك لأن ذبيحة الخطية كانت تلبح خارج المحلة (أو خارج الهيكل) أنظر عدد ١٩ : ١ - ٥ وقارنه بما قاله پولس فى عبرانيين ١٣ : ١٠ - ١٣ .

والأربعاء صباحاً ومساءً والصباح خمس ساعات^(١) ومثلها للمساء . أما الخميس فاسمه خميس العهد لأن فيه شاء المسيح له المجد أن يعطى تلاميذه ومنهم إلى جميع المؤمنين باسمه عهده الجديد وهو منحه جسده المقدس ودمه الكريم لهم ليأكلوه ويشربوه ويعيشوا به فيرتبطوا بفاديتهم ارتباط الأغصان بالكرمة أو ارتباط الأعضاء بالجسد فتسرى حياته فيهم . وبما أنه له المجد قد غسل أرجل تلاميذه فى ذلك اليوم الحاسم فإن هناك صلوات خاصة بتقدیس الماء تقال بعد الصلوات الصباحية الخمسة وتعرف « بطقس اللقان » ، وعند الانتهاء من شعائر اللقان يغسل الكاهن أرجل الكهنة فالشماسة فالشعب على مثال ما صنعه الرب مع تلاميذه . وبعد الانتهاء من غسل الأرجل يزاح ستار الهيكل لتأدية شعائر قداس خميس العهد^(٢) . وفى هذا القداس لا تقال صلاة الصلح التى هى بداية طقس القداس عادة علامة على أن الصلح الحقيقي لم يتم إلا بصليب المسيح فى يوم الجمعة العظيمة . كما أن القبلة التى تختتم بها صلاة الصلح متنوعة بسبب القبلة الغاشة التى باع بها يهوذا سيده . كذلك لا يقال المجمع ولا الترحيم لأن الكنيسة وهى منشغلة بالتأمل فى موت الرب لا مجال أمامها لتذكّار أحد من الراقدين - وقد سبق لها أن صلت عليهم بعد قداس أحد الشعانين . أما فى أثناء تناول فلا يقال المزمور المئة والخمسون « سبحوا الرب » كما هى العادة بل تقال صلاة الساعة الحادية عشرة . فيسدل ستار الهيكل من جديد ويركز المتناولون انتباههم على السر العجيب المزمعون أن يتناولوه بينما تقال الصلاة للمؤمنين الذين لن يتناولوا من الأسرار المقدسة يومذاك . وتختتم هذه الشعائر العظمى بالطرح ولحن ملك السلام فالبركة .

(١) هذه ساعات الصلوات الهرمية وهى تختلف عن الساعات الزمنية فى أن الفجر يبدأ فى الساعة الأولى فتكون الساعة السادسة هى منتصف النهار (أو الثانية عشر ظهراً تبعاً للتوقيت الزمنى) .

(٢) هذا القداس هو الشعائر الوحيدة التى تقام داخل الهيكل خلال هذا الأسبوع المقدس لأن صلواته خاصة بالذبيحة اللادموية التى تعيد إلى قلوبنا وأرواحنا ذبيحة رب المجد على الصليب حين قدم ذاته طوعاً وبارادته ليفتدينا من عبودية الموت .

وفى المساء - أى فى ليلة الجمعة العظيمة - تقرأ الساعات الخمس كالاعتاد وبعدها يسمع الشعب وصية فاديه كما سجلها له يوحنا الحبيب فى الأصحاحات الرابع عشر إلى آخر السابع عشر وفيها يهب الرب سلامه لتلاميذه ولكل المؤمنين باسمه من بعدهم ، ويصلى من أجل الذين سيؤمنون باسمه على مدى الأجيال : إنها كلمات العزاء والنعمة الروحية التى يستهدف منها رب المجد فيض السكينة على قلوبهم وبعد أن يصغى المؤمنون لهذه الكلمات المعزية تقال الطلبة المسائية يتبعها لحن ملك السلام فالبركة .

ثم يأتى يوم الجمعة ذروة ذلك الأسبوع الرائع - ولذلك تسمى بمختلف الأسماء : فهو يوم الجمعة العظيمة أو الجمعة الكبيرة أو الجمعة الحزينة . ولقدسية هذا اليوم تستمر فيه الصلوات من الصباح الباكر إلى السادسة مساءً أو ما إلى بعدها . وفى هذا اليوم استهدف الآباء تصوير آلام السيد المسيح تصويراً حقيقياً واقعياً . فكل ساعة من ساعات الصلوات تتضمن ما جاء فى أسفار العهد القديم من رموز ونبؤات خاصة بالفداء ثم تحقيق هذه الرموز وهذه النبوءات فيما حدث للمخلص من تشاور عليه فالتبض عليه غدرًا فسوقه من محكمة إلى محكمة فوقوقه تارة أمام رؤساء الكهنة وطوراً أمام الرائي الرومانى ثم أمام الملك اليهودى ، وما ناله من ضرب واهانة وتعذيب إلى أن علقوه على الصليب . وحين سمروه على خشبة اللعنة ورفعوها فوق الجلجثة لم يكن هناك جزء من جسمه من غير جرح يقطر دماء : من رأسه القدسى المكمل بالشوك إلى قدميه الكريمتين المثقوبتين بالمسامير . هذه الآلام المريرة تصورها الصلوات الكنسية ساعة بساعة . وتختتم كل ساعة بالطلبة (الصباحية والمسائية) التى يردد خلالها الشعب « يارب أرحم » ، يتبعها لحن ملك السلام فالبركة .

ويدخل ضمن ذكريات هذا اليوم المقدس اعتراف اللص المصلوب عن يمين القادى الحبيب ولهذا يقال هذا الاعتراف بعد^(١) ميمر الساعة السادسة فيتلو الكاهن (أو رئيس الشمامسة) الفقرة يردد الشعب كله بعدها «أمانة اللص»

(١) ميمر كلمة سرية معناها تذكّار .

بقوله : « اذكرنى يارب إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا قدوس إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا سيد إذا جئت فى ملكوتك » .

وصلوات يوم الجمعة العظيمة تتضمن أيضاً الساعة الثانية عشر . وفى ختام هذه الساعة تقال « يا رب أرحم » أربعاً مئة مرة . وتنبئها للشعب الى أهمية هذا الاستغفار يهيب الشماسة بالشعب قائلين : « أيها الأخوة : لقد رسم الآباء البررة للكنيسة المصرية المقدسة أن تقيم نفسها يوم جمعة الصلوات الكريمة مقام العالم بأسره وتمثل المسكونة وهى تصرخ من أقطارها الأربعة مستمطرة رحمت مخلصها الصالح وخلاقتها العظيم الذى فى مثل هذا اليوم الرهيب سحق بقدرة صليبه أبواب الجحيم ووطئ بسلطان موته شوكة الموت . واذا لم تكن هذه الكنيسة شيئاً آخر سواكم أنتم معاشر المصريين المؤمنين بالرب يسوع كان حقاً عليكم تقديس ذلك المرسوم الأبوى الكريم . فترسموا ما رسم لكم الآباء الأطهار واسترحموا الرب متجهين نحو الشرق « كيريا ليسون » (مئة مرة) ونحو الغرب (مئة مرة) ونحو الشمال (مئة مرة) ونحو الجنوب (مئة مرة) ^(١) . وبعد هذا الاسترحام يدور الشماسة حول المذبح - داخل الهيكل - وهم ينشدون « كيريا ليسون » ثم لحن الدفن . والشماسة فى دورتهم يتقدمون الكاهن المسك بالمبخرة وهو يبخر أمام الصليب وأيقونة المسيح الراقدة فى القبر ^(٢) ويحمل كل منها شماس متجهاً بوجهه نحو الأب الكاهن وموالياً ظهره لآخوته السائرين فى مركب الدفن وهكذا تنتهى صلوات الجمعة العظيمة بإبداع جسد رب المجد فى القبر (تمثل فى أيقونته التى يلفها الكاهن بقطعة من الكتان الأبيض واضعاً الصليب فوقها وحوله الزرود والعطور) .

على أن آباء الكنيسة القبطية رأوا بإرشاد الروح القدس أن يسهروا إلى جانب مخلصهم المدفون فرتبوا صلوات أطلقوا عليها اسم « ليلة

(١) عن كتاب « مختارات من أحد الشعانين للقيامة » لشماسة كنيسة الرسولين بطرس وبولس (البطرسية) صدر فى أبريل سنة ١٩٧١ ص ١٨ .

(٢) الكنيسة المصرية أو القبطية (بالانجليزية) لبورمستر ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . راجع أيضاً الفصل الخاص بأسبوع الآلام من الكتاب عينه ص ٢٧٤ - ٢٠٢ .

أبو غالمسيس ^(١) ، تقال أبتداء من حوالى منتصف ليلة سبت النور وتنتهى حوالى السابعة والنصف من صباح ذلك اليوم الذى وصفوه بالنور ^(٢) . وهذه التسمية مع الصلوات المرتبة توضح لنا مدى تفهم الآباء للكنوت المسيح . فهو - له المجد - قد جاز الآلام والاهانات التى لا يمكن أن يصفها لسان . والآباء أوضحوا لنا عجز الانسان عن التعبير بقولهم إن الشمس حين أخفت نورها فى منتصف النهار إنما اختفت خجلاً إذ لم تستطع أن ترى خالقها فى العار الذى يجوزة . وبعد كل ما ذاق من اهانات وتنكيل استودع روحه يدي أبيه . فمات وحمل جسده المجرح النفر القليل من الاحياء الذين وقفوا إلى جانبه حتى النهاية إلى القبر . وخلال الساعات التالية لدفنه حتى مطلع شمس صباح السبت وضع الآباء صلوات يترغنون بها أثناء سهرهم بجوار قاديهم الحبيب الراقد داخل القبر . وتتضمن هذه الصلوات أربع عشرة تسبحة وردت فى العهدين القديم والجديد ^(٣) تليها تمجيد

(١) هذه الكلمة تحريف لكلمة أبو كالمسيس اليونانية ومعناها الرؤية أو الاستعلان وذلك لأن سفر الزؤيا يقرأ كله فى تلك الليلة وفى أثناءها يقدس زيت المسحة وهو لذلك يوصف « بزيت أبو غالمسيس »

(٢) تقام صلوات فى كنيسة القيامة بالقدس صباح السبت من العاشرة إلى ما يقرب من منتصف النهار يهراق من بعدها نور ينبعث من القبر المقدس الذى رقد فيه قاديها الحبيب . ولهذا النور خاصية عجيبة هى أنه لا يحرق أى شئ خلال النصف ساعة الأولى من ظهوره .

(٣) هذه التسابيح هى: تسبحة تان لموسى النبى الأولى من خروج ١٥ : ١ - ٢١ والثانية تثنية ٣٢ : ١ - ٤٤ ، ٣ - لحنة أم صموئيل : ١ صموئيل ٢ : ١ - ١٠ ، ٤ - حزقيا الملك : أشعيا ٣٨ : ١٠ - ٢٠ ، ٥ - لنسى بن الملك حزقيا : وهذه وردت فى الكتب الكنسية وهى مأخوذة من المزامير ولكن ليس لها نص حرفى فى الكتاب المقدس كباقي التسبحات ، ٦ - ليونان النبى : الأصحاح الثانى ، ٧ - لمحقوق النبى : الأصحاح الثالث ، ثلاث تسبحات لأشعيا النبى الأولى فى أصحاح ٢٥ والثانية ٢٦ : ١ - ٩ والثالثة ٢٦ : ١٠ - ٢٠ ، ١١ - لدانيال النبى الأصحاح الثالث تتبعها تسبحة عزوريا وهو فى أتون النار ، ١٢ - تسبحة السيدة العذراء لوقا ١ : ٤٦ - ٥٥ ، ١٣ - لزكريا والد يوحنا المعمدان - لوقا ١ : ٦٨ - ٨٠ ، ١٤ - لسمعان الشيخ : لوقا ٢ : ٢٩ - ٣٣ .

الملائكة^(١) والصلاة الربية وقانون الايمان . وكذلك تقرأ قصة سوسنة العفيفة وسفر المزامير والرؤيا^(٢) بأكملها . وهذه الصلوات كلها تتحدث بمجد المسيح وملكوته العجيب ويقوته على الاستماع إلى من يستنجدون به . فمثلاً في تسبحة الثلاثة فتية الذين ألقاهم نبوخذ نصر في الأتون الملهب نسمعهم يهتفون : « مبارك أنت يا رب إله أبائنا وفوق المسيح وفوق المتعال إلى الأبد » وهذه الكلمات هي المرد الذي يردده الشعب كله بعد كل فقرة من فقرات هذه التسبحة . وثمة مرد آخر لهذه الليلة العجيبة هو : « ليس عبد بلا خطية ولا سيد بلا مغفرة » . فالصلوات في مجموعها إنما تمجد المسيح، ومعنى هذا أن الآباء سبروا عمق الفداء الذي أكمله رب المجد فقدموا له التسبيح والتمجيد حتى وهو راقد في القبر .

وتنتهى صلوات « أبو غالمسيس » بالقداس الإلهي في الصباح الباكر من يوم السبت . ثم تبدأ صلوات عيد القيامة في الساعة مساءً من ذلك اليوم وتستمر إلى حوالي الواحدة بعد منتصف الليل^(٣) . فبعد قراءة ١ كو ٢٢:١٥ - ٥ . ١ بط ١٥:٣ - ٤:٣ ، أع ٢٢:٢ - ٣٣ ، ينشد الشماس لحن القيامة فتطفأ على أثره جميع أنوار الكنيسة ويسدل ستار الهيكل ويدور الحوار التالي - باللحن - بين شماس واقف خارج الهيكل وآخر داخله :

(١) وردت بأكملها في آخر الفصل .

(٢) توقد سبع شموع أو سبعة قناديل على هيئة صليب وإلى جانبها يقف صليب ثم يقرأ الحاضرون سفر الرؤيا حول اثناء ملء من زيت الزيتون ، فيبدأ الكاهن القراءة ثم يتناوب الحاضرون - كل بدوره - قراءة فصل من هذا السفر العجيب إلى أن ينتهوا منه . وتتخلل القراءة بردات مختلفة - راجع كتاب هورمستر (المذكور أعلاه) . ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) بعد الانتهاء من هذه الصلوات في كنيسة القيامة بالقدس يستريح المؤمنون ما يقرب من الساعة يعودون بعدها إلى الكنيسة لينتظموها في مواكب تدور دورات الانتصار حول القبر المقدس وهم ينشدون ألحان القيامة المجيدة ويستمررون في ترانيمهم وتسابيحهم حتى يسطع أول شعاع للفجر على قبة الكنيسة .

- ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك
المجد .

- من هو ملك المجد ؟

- الرب العزيز الجبار . الرب القوى فى القتال .

ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك
المجد .

- من هو ملك المجد ؟

- رب القوات هذا هو ملك المجد .

وحالما ينتهى الشماس من هذه الكلمات تضاء الأنوار وتحدث ضجة
ويهتف الكل : « خريستوس أنستى » ... « المسيح قد قام » ويتجمع
الشماسة فى موكب ويدورون حول الكنيسة ثلاث مرات وهم ينشدون لحن
القيامة . وينتهى الموكب بالدورة داخل الهيكل حول المذبح ثلاث مرات
أيضاً . وبعد هذا الموكب الرائع وترنم الشماسة بلحن الانتصار تقال خطبة
عيد القيامة ^(١) يليها المجيل القداس مباشرة ، ويعدده الرسالة الباهوية فالعظة
فالقُداس الإلهى .

والربط بين الحياة والموت وبين المخلص المدفون والمخلص المنتصر على
الموت جعل آباء الكنيسة القبطية يترنمون بصلوات التهليل والتسبيح وسط
حلقة القبر . وفى وسط نغمة الحزن ترن نغمة الانتصار ، وخلال ومضة
الفرح والتهليل تبدو نغمة الحزن . فالكنيسة القبطية فيما وضعت من
الصلوات والألحان الخاصة بأسبوع الآلام قد أوضحت خلالها أنها تتبعت
فاديها فى كل خطوة من خطواته نحو تحقيق الفداء : « فهللت قائلة
أوصانا يا ابن داود » يوم أحد الشعانين ، واتشعت بالسواد فى أسبوع
الآلام ، ولكنها رغم الحزن الذى غمرها قد عبرت عن رجائها الثابت
اللامتززع فى ذلك الذى قال : « فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن
ثقوا أنا قد غلبت العالم » .

(١) هذه الخطبة مما كتبه أولاد العسال .

ولا يفوتنا أن نذكر بأن الأحد السابق لأحد الشعانين هو أحد التناصير ، والسبب فى تحديد يوم معين للمعمودية الجماعية هو أن الآباء كانوا يركزون جهودهم على تعليم الموعوظين ^(١) أثناء الصوم الأربعينى المقدس . ولما كان محظوراً على الموعوظين أن يحضروا صلوات القداى الإلهى ، ولما كان المسئولون فى الكنيسة يريدون أن يهيئوا لهؤلاء الموعوظين فرصة الاستمتاع بقداىات ختام الصوم وسبت لعازر وأحد الشعانين وما يليها من الصلوات المقدسة ، فقد كانوا يمتحنونهم قبل أحد التناصير ومن ينجح منهم ينل صبغة المعمودية فى ذلك الأحد لينضم إلى جماعة المؤمنين وتنتعش روحه بالصلوات التى وصفناها .

وما دمنا فى صدد الحديث عن القداى العجيب الذى أكمله رب المجد نعود إلى الإشارة بأن الكنيسة القبطية تؤمن إيماناً وطيداً بأن الخبز والخمر يتحولان بالفعل والواقعية إلى جسد الرب ودمه نتيجة لصلوات القداى الإلهى ^(٢) . وهى - إلى جانب هذا - تؤمن إيماناً نابهاً عن هذه العقيدة بالتحول ، وهذا الايمان هو أن كل مؤمن حينما يتناول يأخذ المسيح بأكمله . ولكى يوضح لنا ذهبى الفم هذه الحقيقة « لو أننا وضعنا أى عدد من الأوعية المملوءة ماء فى الهواء الطلق لانعكست الشمس بأكملها داخل كل وعاء . فإن كانت الشمس - وهى إحدى المخلوقات - تنعكس كاملة فى كل وعاء مهما بلغ عدد الأوعية أفلا يستقر خالق الشمس داخل كل نفس تتناول السر المقدس مهما بلغ عدد المتناولين ؟ ^(٣) ولهذا السبب علمنا الآباء أن لا نسجد بعد تناول لأن الشخص الذى يحمل المسيح فى داخله لا يستطيع السجود من جهة ولا يجوز له السجود من الجهة الأخرى .



(١) هم الذين يتلقنون التعاليم المسيحية تمهيداً لتفطيمهم فى المعمودية .

(٢) قصة الكنيسة القبطية ج ١ الفصل الأخير منه .

(٣) الأسرار السبعة لحبيب جرجس .

تسبيحة الملائكة التى تقال ليلة « ابو غالمسيس »

المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة .
نسبحك . نباركك . نخدمك . نسجد لك . نعترف لك . ننطق بمجداك .
نشكرك لأجل مجداك العظيم .

يارب . يا ملك . يا سماوى . يا لله - يا آب . ضابط الكل -
يارب . يا ابن . يا وحيد الجنس . يا يسوع المسيح والروح القدس .
يا رب . يا الله . يا حمل الله . يا ابن الآب . يا رافع خطايا العالم .
ارحمنا يا حامل خطايا العالم . اقبل تضرعنا . أيها الجالس عن يمين الآب
ارحمنا .

أنت وحدك القدوس . أنت وحدك المتعالى .

الرب يسوع المسيح . والروح القدس فى مجد الله الآب . آمين .
فى كل يوم أباركك . وأصبح اسمك القدوس إلى الأبد وإلى أبد الأبد .
من الليل تدلج روحى إليك يا الله لأن أوامرك هى نور على الأرض .
تلوت فى طرقك لأنك صرت لى معيناً .

فبالغدوات استمع صوتى يا رب . بالغداة أقف أمامك وترانى .

أهلنا يا رب لهذا اليوم وبغير خطية احفظنا .

تباركت أيها الرب إله آبائنا وتزايدت بركة . واسمك القدوس مملوء مجداً
إلى الأبد آمين .

فلتكن يا رب رحمتك علينا كمثلى اتكالتنا عليك . لأن أعين الكل
تترجاك .

لأنك أنت تعطيتهم طعامهم فى حينه .

استمعنا يا الله مخلصنا يا رجاء أقطار الأرض كلها .

وأنت يا رب تحفظنا وتنجيننا وتنقلنا من هذا الجيل وإلى الدهر آمين .
مبارك أنت يا رب علمنى عدلك . مبارك أنت يا سيد فهمنى حقوقك .
مبارك أنت يا رب أنر لى برك . يا رب رحمتك كائنة إلى الأبد . وعن
أعمال يديك لا تغفل يا رب .

يا رب ملجأ كنت لى من جيل إلى جيل .

أنا قلت يا رب ارحمنى وأشف نفسى لأنى قد أخطأت إليك . يا رب قد
لجأت إليك فتنجنى وعلمنى أن أعمل رضاك . لأنك أنت هو إلهى ويتبوع
الحياة عندك . وهنورك يا رب نعاين النور . فلتأت رحمتك على الذين
يعرفونك وعدلك على المستقيمين بقلوبهم .

لك تجب البركة . لك يجب التسبيح . لك يليق المجد . أيها الآب والابن
والروح القدس الكائن من البدء والآن وإلى الدهر الداهرين آمين .

حسن هو الاعتراف بالرب والترتيل لاسمه العالى . لكى أخبر برحمته
فى الصباح وحقه فى كل ليلة .

قدوس الله . قدوس القوى . قدوس الذى لا يموت (ثلاث مرات) .

المجد للآب والابن والروح القدس الآن ودائماً وإلى دهر الداهرين آمين .

أيها الثالوث المقدس ارحمنا . أيها الثالوث كلى القداسة ارحمنا . أيها
الثالوث القدوس ارحمنا .

يا رب ارحمنا (١)

(١) وردت هذه التسبحة مع بقية التسبيحات فى كتاب يتضمن المزامير جاء فى آخره
ما يلى : « نجز طبع هذا الكتاب المقدس فى اليوم السابع عشر من شهر تموز الذى
هو أبيب سنة ألف وسبعمائة أربعة وأربعين للتجسد الإلهى .

وبعد أن استمتعت أرواحنا بالصعود مع الرب على جبل التجلى فرأينا مجده حتى خلال آلامه وأهاناته تنزل عن هذا العلو الشاهق لتواجه مختلف الأمور . ومن بينها ملحوظة هامة هي :

يتساءل الكثيرون عن السبب فى وجود أماكن عليا فى الكنائس (وخاصة القديمة منها) مخصصة للسيدات وعما إذا كان يرجع إلى أن المسيحية فرقت بين الرجال والنساء . واجابة على هذا السؤال نقول بأن السبب ليس فى كون المسيحية قد فرقت بين الجنسين ولكنه يرجع إلى أنه فى العصور الوسطى كان يحدث أحيانا أن يقتحم جنود الوالى الكنيسة فيقتلون من يقتلون ويأسرون من يأسرون . لذلك رأى الآباء حرصاً على السيدات والأطفال أن يخصصوا لهم أماكن عليا متصلة بمنازلهم بممرات داخلية فلا يحتاجون إلى المشى فى الشوارع للوصول إلى الكنيسة أو للعودة منها . وكان هناك ديدبان عند باب الكنيسة لمراقبة الآتين من بعد . فإذا ما رأى الجنود مقبلين أعطى اشارة بذلك فتختفى السيدات والأولاد لساعتهم . وحين يصل الجنود فعلاً لا يجدون أمامهم غير الرجال .

وثمة تقليد ضاعت معالمه الآن هو التناهى فى التواضع ففنانو العصور الماضية وناقلاو الكتب وواضعوها وبناء الكنائس والنساجون - هؤلاء جميعاً وغيرهم كانوا لا يوقعون على منتجاتهم بل يكتفون بجملة جميلة قصيرة هي : « عوض يا رب من له تعب فى ملكوت السماوات » مبرهنين بذلك على اكتفائهم بالتقدير الإلهى .



جدول باباوات الاسكندرية المذكورين في هذا الكتاب

رقم	البطرك	تاريخ التقدمة	مدة الاجامه على الكرسى	سنة	المسوك المعاصرون
٦١	مينا الثانى	٩٤٨	١١	١٧	أبو القاسم الاخشيدي وأبو الحسن على الاخشيدي وكافر أبو المسك وأبو الفوارس والمعز . المعز والعزير . العزير والحاكم بأمر الله . الحاكم بأمر الله والظاهر . الظاهر والمستنصر . المستنصر - في هذا العصر أصبحت القاهرة مقراً للبابا الاسكندري
٦٢	أبرآم الأول	٩٦٨	٦	٣	المستنصر .
٦٣	فيلوثيوس الأول	٩٧١	٧	٢٤	المستنصر والمستعلى .
٦٤	زخارياس الأول	٩٩٦	١١	٢٧	الأمر .
٦٥	شنودة الثانى	١٠٢٤	٧	١٤	الحافظ والظاهر .
٦٦	خريستودولس	١٠٣٩	٨	٢٩	
٦٧	كيرلس الثانى	١٠٧٠	٦	١٤	
٦٨	ميخائيل الرابع	١٠٨٤	٧	٩	
٦٩	مكارى الثانى	١٠٩٤	١	٢٧	
٧٠	غيريال الثانى	١١٢٢	٣	١٤	
٧١	ميخائيل الخامس	١١٣٦	٩	-	

ملحوظة : التقويم المتبع في هذا السجل هو التقويم الشرقى القبطى وينقص ثمانى سنوات عن التقويم الميلادى الغربى

تابع أسماء باباوات الاسكندرية

رقم	البطرك	تاريخ التولية	مدة الاقامة على الكرسي	الملك المعاصرون
٧٢	يوزس الخامس	١١٢٨	١٠	الظاهر والظاهر . المعادل والمعاضد وصلاح الدين .
٧٣	مرقس الثالث	١١٥٧	٦	صلاح الدين والعزیز والمنصور والمعادل .
٧٤	يوزس السادس	١١٨٠	١١	الکامل والمعادل والصالح والمعظم .
٧٥	کیرلس الثالث	١٢٢٦	٩	شجرة الدر وموسى والأشرف والمعتز والمظفر رکن الدين بیبرس .
٧٦	أثناسیوس الثالث	١٢٤٢	١	رکن الدين الظاهر بیبرس .
٧٧	غیريال الثالث	١٢٦١	٢	السعيد ناصر الدين والمعادل وقلاوون والأشرف ومحمد بن قلاوون
٧٨	يوزس السابع	١٢٦٣	—	المعادل والمنصور ومحمد بن قلاوون .
٧٩	ثيودور سیروس الثاني	١٢٨٦	٧	محمد بن قلاوون والمظفر (الجاشنكير بیبرس) ومحمد بن قلاوون
٨٠	يوزس الثامن	١٢٩٢	٢	محمد بن قلاوون .
٨١	يوزس التاسع	١٣١٢	٥	محمد بن قلاوون .
٨٢	بنیامين الثاني	١٣١٩	٨	أبو بکر المنصور وعلاء الدين الأشرف وأحمد الناصر وإسماعيل
٨٣	بطرس الخامس	١٣٣٢	٦	الصالح وشعبان الکامل وابن ناصر المظفر وحسن بن ناصر الناصر .

صالح بن ناصر الصالح وحسن بن ناصر الناصر ومحمد بن المنصور	سنة	شهر	١٣٤٢	مرقس الرابع	٨٤
شعبان بن حسن الأشرف .	١٤	٥	١٣٤٢	مقرس الخامس	٨٥
شعبان بن حسن الأشرف وعلى بن شعبان المنصور .	٦	٢	١٣٥٦	غيريال الرابع	٨٦
علي بن شعبان المنصور وابن شعبان الصالح وبرقوق وفرج ابن برقوق الناصر وعبد العزيز بن برقوق .	٨	٢	١٣٦٢	مناوس الأول الملقب بالمسكين	٨٧
فرج بن برقوق الناصر والمستعين والمزيد والمظفر وتتر سيف الدين الظاهر ونصر الدين الصالح وأبو النصر الأشرف .	١٩	٨	١٤٠١	غيريال الخامس	٨٨
أبو النصر الأشرف ويوسف جمال الدين العزيز وأبو سعيد الظاهر وعثمان فخر الدين المنصور .	٢٤	١١	١٤٢٠	يونس الحادي عشر	٨٩
إينال أبو النصر الأشرف وأحمد بن إينال المزيد وخشقدم سيف الدين الظاهر .	١٣	-	١٤٤٥	مناوس الثاني	٩٠
ابن سعيد الظاهر وأبو سعيد الظاهر وقايتباي أبو النصر الأشرف	٨	١٠	١٤٥٨	غيريال السادس	٩١
قايتباي .	١	-	١٤٦٩	ميخائيل السادس	٩٢
قايتباي .	٢	٤	١٤٧٢	يونس الثاني عشر	٩٣
وطرمانباي المعادل وقانصوره الغوري وطرمان الأشرف .	٤٠	١٠	١٤٧٥	يونس الثالث عشر	٩٤

مراجع الكتاب

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين :

- ١ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته بالانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد هورمستر - المجلد الثانى ج ٢ .
- ٢ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته إلى الانجليزية أنطون خاطر وأوسولد هورمستر المجلد الثالث ج ٢ .
- ٣ - تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف قوة .
- ٤ - تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة .
- ٥ - تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص .
- ٦ - تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل .

كامل صالح نخلة :

- ٧ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الثانية .
- ٨ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الثالثة مطبوعات دير السيدة العذراء (السريان) .
- ٩ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الرابعة .
- ١٠ - تاريخ القدس لعارف باشا العارف .
- ١١ - قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة لديترى رزق .
- ١٢ - تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية لخليل ابراهيم قراقيا .
- ١٣ - كنيسة مصر فى أفريقيا لزاھر رياض .

عبد الرحمن زكى :

- ١٤ - القاهرة : تاريخها وآثارها .
- ١٥ - تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الاسلامى .
- ١٦ - القلعة .
- ١٧ - مصر ورسالتها لحسين مؤنس .

المقريزى :

- ١٨ - الخطط - كان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية المنشأة ببولاق القاهرة المعزية على ذمة ... روفاتيل عبيد . (سنة ١٨٧٠ م) .
- ١٩ - القول الابريزى (طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس) ..
- ٢٠ - مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال سرور .
- ٢١ - نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة .
- ٢٢ - « سفر تامة » لناصر الخوسرور نقله إلى العربية عن الترجمة الفرنسية يحيى الخشاب (القاهرة سنة ١٩٤٥) .
- ٢٣ - أهل الذمة فى الاسلام لحسن حبشى .
- ٢٤ - تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ترجمه عن الانجليزية مصطفى زيادة والباز العرنى .
- ٢٥ - مصر فى عصر الأيوبيين للباز العرنى .
- ٢٦ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاوريم ج ٢ .

عبد العزيز مرزوق :

- ٢٧ - الناصر محمد بن قلاوون .
- ٢٨ - الفن الاسلامى فى العصر الأيوبي .

محمد زكى حسن :

- ٢٩ - الفن الإسلامى فى مصر .
- ٣٠ - كنوز الفاطميين .
- ٣١ - تاريخ مصر الحديث لزبدان .
- ٣٢ - تاريخ مصر الإسلامية : العصران الأيوبي والملوكى لجمال الدين الشيال .
- ٣٣ - قيام دولة الماليك الثانية لحكيم أمين .
- ٣٤ - تاريخ دولة الماليك فى مصر للسير وليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

محمود رزق سليم :

- ٣٥ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى .
- ٣٦ - الأشرف قانصوه الغورى .
- ٣٧ - موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس وأشرف عليه زاهر رياض .
- ٣٨ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط لجوزيف نسيم يوسف .
- ٣٩ - نوابغ الأقباط لتوفيق اسكاروس .
- ٤٠ - المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو .
- ٤١ - الدير المحرق للأنبا غريغوريوس .
- ٤٢ - خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية لشهادة حورى ونقولا حورى .
- ٤٣ - ميامر أنبا پولس البوشى عن الأعياد السيدية نشرها دير السيدة العذراء بالسريان .
- ٤٤ - القس بطرس السندمنتى : التصحيح فى آلام المسيح (القاهرة سنة ١٨٧٢) .
- ٤٥ - كتاب تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قيصر - عنى بمراجعته ووضع حواشيه القمص أرمانىوس حبشى شتا البرماوى البرموسى نشرته جمعية المحبة سنة ١٩٣٩ .
- ٤٦ - كتاب الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى لأبى شاكز بن الراهب أبى الكرم بطرس بن المذهب طبعه القمص جرجس بمطرانية بنى سويف والراهب بدير أبى يحنس كاما فى باهاوية الأنبا كيرلس الخامس .
- ٤٧ - مختصر البيان فى تحقيق الايمان المرسوم بالحوى لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك - القاهرة سنة ١٩٠٦ .
- ٤٨ - ابن كبر لجرجس فيلوثاوس عوض - القاهرة سنة ١٩٣٠ .
- ٤٩ - روضة الفريد وسلوة الوحيد لسمعان بن كليل أبى الفرج - طبع فى القاهرة سنة ١٦٠٢ ش .

٥٠ - أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة فى العصر الفاطمى لسعاد ماهر .

٥١ - تراث الاسلام تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم ج ٢ .

٥٢ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتغرى بردى .

٥٣ - كنيسة أم ولود لراغب عبد النور .

أيريس حبيب المصرى :

٥٤ - قصة الكنيسة القبطية (ج ١) من تأسيسها إلى سنة ٤٣٥ م .

٥٥ - قصة الكنيسة القبطية (ج ٢) من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨ م .

٥٦ - أديرة وادى النطرون (رسالة مارمينا العدد السادس) لمنير شكرى .

٥٧ - صور من تاريخ القبط - مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى - الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٥٨ - القديس متى المسكين للمليكة حبيب يوسف ويوسف حبيب .

٥٩ - القديس فريج الشهير بالأبنا رويس - أصدرته الكنيسة التى تحمل اسمه الملاصقة للكتدرائية المرقسية العظمى التى بدئ بإنشائها سنة ١٩٦٨ .

٦٠ - الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية (مطبوعات وزارة الثقافة) لوليم سليمان .

٦١ - تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم .

٦٢ - نشرة عن كنيسة السيدة العذراء بنحارة زويلة لمترى خريستو .

٦٣ - الكرسي الأورشليمى لكامل صالح نخلة .

٦٤ - مجلة صهيون عدد ٦ (يونيو سنة ١٩٤٩) .

٦٥ - مجلة جمعية التوفيق سنة ١٩٣٨ .

٦٦ - « الشمس ميخائيل بن بدير الدمورى » مقال لكامل صالح نخلة نشره فى مجلة نهضة الكنائس السنة الثالثة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٤٢) .

- ٦٧ - البابا كيرلس الثالث (مطبوعات دير السيدة العذراء الشهير بالسريان) لكامل صالح نخلة .
- ٦٨ - مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة .
- ٦٩ - دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة (ج ١ ، ٢) .
- ٧٠ - سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سميكة ويسى عبد المسيح .

القمص ميصائيل بحر :

- ٧١ - تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير .
- ٧٢ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٣ (مارس سنة ١٩٦٢) .
- ٧٣ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٦٢) .
- ٧٤ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٥ (مايو سنة ١٩٦٢) .
- ٧٥ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٦ ، ٧ (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) .
- ٧٦ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة السادسة عدد ١ (يناير سنة ١٩٦٣) .
- ٧٧ - دار المعارف القبطية لرمزى تادرس (ج ١) .
- ٧٨ - دائرة المعارف العمومية للبستانى - المجلد العاشر .
- ٧٩ - مذكرة بملكية دير السلطان بالقدس للأقباط الأرثوذكس أصدرها الأنبا ياكوبوس مطران الكرسي الأورشليمى فى أغسطس ١٩٥٣ وأيدها الأنبا باسيليوس خليفته بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ .
- ٨٠ - كتاب طروحات البسغة المقدسة للقمص فيلوثاوس المقارى والمعلم ميخائيل جرجس - القاهرة سنة ١٩١٤ .
- ٨١ - مختارات من الشعانين إلى القيامة لهيئة شمامسة كنيسة القديسين بطرس وبولس (البطرسية) - أبريل سنة ١٩٧١ .

- ٨٢ - « عصر الخفاء فى مصر الاسلامية » مقال لمحمد عبد الله عنان
نشره فى مجلة الهلال ديسمبر سنة ١٩٣٦ .
- ٨٣ - « المصريون أول من ابتدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة
الاسكندرية » مقال لرؤوف حبيب نشره فى جريدة وطنى ٢٦/١٠/١٩٦٩ .
- ٨٤ - « عجائب الأتيا برسوم العريان » مقال لمرتا منصور نشرته فى جريدة
وطنى ٢٧/٩/١٩٧٠ .
- ٨٥ - « الأيقونة فن أهدته مصر إلى العالم » مقال لايذاك فانوس نشرته
فى جريدة وطنى ٦/١٢/١٩٧٠ .
- ٨٦ - « دور القاهرة الحضارى » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره فى جريدة
الأهرام ١٩/١/١٩٦٩ .
- ٨٧ - عن كتاب سفر نامة لناصر الخوسرو مقال لحسن الباشا نشره فى
جريدة الأهرام ٢٤/١/١٩٦٩ .
- ٨٨ - « فن صناعة الخزف » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره فى جريدة
الأهرام ١/٢/١٩٦٩ .
- ٨٩ - الكشف عن قصر أخت الحاكم بأمر الله مقال لآمال بكير نشرته فى
جريدة الأهرام ١٨/١/١٩٧٠ .
- ٩٠ - القاهرة فى العصر المملوكى مقال لوليم سليمان نشره فى مجلة
الطلیعة عدد ٢ من السنة الخامسة (فبراير سنة ١٩٦٩) .
- ٩١ - التوقيعات الإلهامية لمحمد مختار باشا .

المخطوطات :

- ٩٢ - تاريخ البطارقة للقمص شنودة الصوامعى البرموسى نقلًا عن النسخة
المخطوطة بدير البرموس .
- ٩٣ - مخطوطة محفوظة بكنيسة القديس جرجس المزاحم ببساط النصارى
للراهب مينا معاصر هذا القديس (وقد نشرت مكتبة كنيسة مار جرجس
باسبورتنج موجزاً عنه مأخوذاً عن هذه المخطوطة) .

بولس بن الرجاء :

- ٩٤ - الواضح .
- ٩٥ - نوادر المفسرين .
- ٩٦ - هتك المحجوب .
- ٩٧ - سيرته الخاصة .
- ٩٨ - لباب الآداب لأسامة منقذ الكنانى .
- ٩٩ - مخطوطة رقم ١٠٦ طقس بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٠ - تزيان العقول لعلم الأصول .
- ١٠١ - التواريخ لابن الراهب .
- ١٠٢ - مخطوطة رقم ٥١ تاريخ بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٣ - مكاتبات كيرلس بن لقلق مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٤ - الكلمات المهمة في مباشرات أهل الذمة للاسناوى .
- ١٠٥ - المذمة فى استعمال أهل الذمة : مخطوطة محفوظة بدار الكتب رقم ١٦٩٣ .
- ١٠٦ - التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى : مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٢٧ .
- السنكسار - الكتاب المقدس (بعهديه القديم والحديث) - ميامر الأتبا بولس البوشى .
- مزامير داود النبى وفى آخره تسبحات سبت النور (أو سبت الفرح) سنة ١٧٤٤ م .
- السيرة العطرة للشهيدة بربارا وكنيستها الأثرية بمصر القديمة المسماة باسمها (القاهرة سنة ١٩٧١) .

– القصائد : العلم والتعليم
الأندلس الجديدة
توت عنخ آمون
لأحمد شوقي أمير الشعراء
« ليالى الصيف فى مصر » لالياس فياض (عن كتاب مختارات
الزهور – القاهرة سنة ١٩١٤) .

107 - A.S. Atteya : History of Eastern Christianity .

O. Burmester :

108 - Canons of Christodolus , 66th Patriarch of
Alexandria Muséon T 45.

109 - Canons of Kyrillos II 67th Patriarch of Alexandria
Muséon T 46.

110- Canons of Gabriel ibn Tureik 70th Patriarch of
Alexandria , Pub. in Orientalia Christana Periodica ,
Roma . 1935.

111- The Sayings of Abba Mikhail Bishop of Damietta
Pub. in Orientalia Christiana Periodica Roma 1936.

112- The Egyptian or Coptic Church-Pub. by Société
d'Archeologie Copte , le Cairo 1967.

113- A.J. Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt -
Vol. I and II .

114- Archimandrite V. Guettée : Histoire de l'Eglise - Paris
et Bruxelles 1866

115- G. Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne - TIV
Dela Conquête Arabe à la Conquête Ottomane , par G.
Wiet .

- 116- S. Lane - Poole : History of Egypt During the Middle Ages , Vth . ed . (London 1936)
- 117- Lossky : The Mystical Theology of the Eastern Church.
- 118- A. Mallon : Une Ecole des Savants Coptes (Beirout 1907).
- 119- Richards : The Coptic Bureaucracy in the Mamluke period .
- 120- Ph. Sherard : The Art of the Icon , Pub. in "Sacrament and Image " pub by the Fellowship of St. Alban and St. Sergius (London 1967).
- 121- Wallis-Budge ;The Ethiopic Synsxarium (translation) Cambridge 1928 . .
- 122 - E. White : The Monasteries of Wadi - Natrun - Vol . II.
- 123- G. Weit : Précis de l'Histoire d'Egypte .
- 124- Père de Hénaut : L'Egypte de Menès à Fouad I (Le Caire 1935) .
- Encyclopaedia Britannica .
 - Encyclopédie des Sciences Religieuses.
 - Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte , Vol. III , IV,V,VII,IX,XIV.
 - The Sunday times, 14/7/63 .



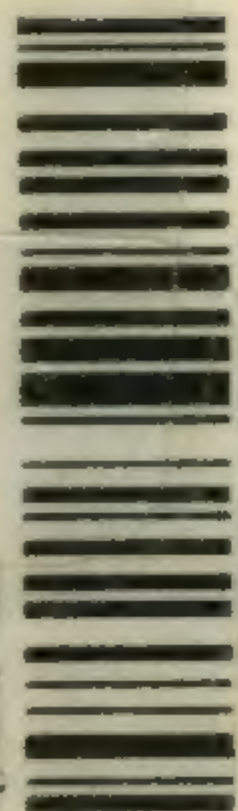
الناشر



للاطلاعات : ص . ب : ١٧ - الأبراهيمية - الاسكندرية



Bibliotheca Alexandrina



0300696

